الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة

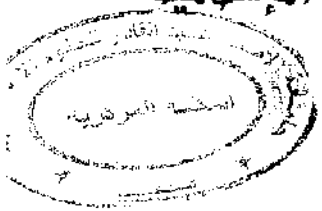

الشيخ أحمد بن يوسف الدفيش

قطب الأئمة

الموسوعي، المصلح، المجدد

بمناسبة تخرج الدفعة الثالثة والعشرين

رجب 1431 - جويلية 2010

معلومات الاتصال بالجامعة :

عنوان الجامعة :

ص.ب 408 حي 20 أوت 1955 – قسنطينة –

الهاتف :

031.92.21.34
031.92.21.99
031.92.26.94
031.92.26.95

العنوان- الإلكتروني : : E-Mail

samaismain@yahoo.fr

موقع الجامعة في شبكة الانترنيت :

www.univ-emir.dz

الدفعة الثالثة والعشرون

الشيخ امحمد بن يوسف الحفيش

قطب الأئمة

الإشراف العلمي والتقني

- أ. د. إسماعيل سامعي
- المهندس بشير فاضلي
- محمد فؤاد سعد الله
- صبرينة علاق
- فضيلة عمراني
- نعيمة رواس

لجنة القراءة والتحكيم

أ.د/ عبد القادر مخوش

أ.د/ سلمان نصر

أ. د/ علاوة عمارة

أ.د / بلقاسم شتوان

د/ مصطفى ونتن

د/ محمد فرقاني

د / أمال لواتي

أ / عزيز حداد

أ.د/ كمال لدرع

أ.د/ مصطفى باجو

أ.د/ محمد بوالروايح

د/ رمضان بخلف

د/ عبد القادر جدي

د / زينب بوصبيعة

أ / رياض بن الشيخ الحسين

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ
مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾

سورة الأحزاب، 23

كلمة السيد مدير الجامعة أ.د عبد الله بوخلخال

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين،

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين وبعد:

فيسعد جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية أن يتميز احتفالها هذه السنة (2010/2009) بتخرج أول دفعة من النظام الجديد (ل.م.د) والدفعة الثالثة والعشرين من النظام القديم، وتتشرف الدفعتان بحمل اسم أحد أقطاب الإسلام عامة والجزائر خاصة والإخوة الإباضيين ألا وهو: الشيخ أمحمد بن يوسف بن عيسى أطفيش الشهير بـ (قطب الأئمة) (1332/1237 هـ الموافق 1914/1821 م).

بالإضافة إلى التسمية نحمّل كل طالب وطالبة كتابا تذكاريا بهذه الشخصية المتميزة، شارك في إعداده نخبة من الأساتذة الباحثين. وهذا التشريف ليس وليد اليوم أو صدفة بل هو سنة حميدة أقرها المجلس العلمي للجامعة منذ سنة 2001 م، بتسمية الدفعات المتخرجة بتواريخ ناصعة ورموز وطنية بارزة ابتداء بـ الشيخ أحمد حماني (2002)، الشيخ الفضيل الورتيلاني (2003)، الرئيس هواري بومدين (2004)، الأستاذ مالك بن نبي (2006)، الأستاذ مولود

قاسم نايت بلقاسم (2007)، الأستاذ يحي بوعزيز (2008)، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي (2009).

وها هي جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية تختار هذه السنة 2010م، أحد أعلام الجزائر الكبار لمكانته العلمية المتميزة في الجزائر وعند إخواننا الإباضية خاصة، وكيف لا وهو المشهور بـ (قطب الأئمة) نظرا لجهوده في إنشاء المدارس والمعاهد العلمية،

وتخريج المئات من التلاميذ والعشرات من الأعلام المتميزين في الجزائر وخارجها وكثير منهم بلغ درجة المشيخة في الجزائر وتونس وليبيا والمدينة المنورة وسلطنة عمان... الخ.

بالإضافة إلى تآليفه الكثيرة في مختلف فروع العلم والمعرفة في المنقول والمعقول: في تفسير القرآن الكريم، وتيسيره، في التجويد، في الحديث، في السيرة النبوية، في التوحيد وعلم الكلام، في الفقه وأصوله، في التاريخ، في النحو واللغة والعروض، في البلاغة، في المنطق، في الطب والفلك، في الشعر، في الخط وفي موضوعات مختلفة؛ في مراسلاته علماء من مختلف مدن الجزائر وخارجها، وفي الأجوبة والردود والفتاوي ...الخ.

وقد شهد له الجميع بالرسوخ في العلم، ولقبوه بـ (قطب الأئمة) لعلمه من جهة وحرصه على وحدة المسلمين، وكان دائم الدعاء

بالنصر للمجاهدين في كل بلاد العالم الإسلامي. وكان يعيش على أمل التخلص من المستعمرين، والمشاركة بما يستطيع لتحقيق هذا الأمل فجعل الجهاد جزءا من رسالته في الحياة إذ يقول:

لَوْلاَ ثَــلاَثٌ هُنَّ : تَعْلِيــمُ جَــاهِـلٍ ... وَخِدْمَةُ رَبِّي وَالجِهَادُ لِذِي الكُفْرِ
لَمَا كُنْتُ أَخْشَى المَوْتَ وَالمَوْتُ لاَزِمٌ .... وَإِلاَّ فَمَا الحَيَاةُ وَالمَـرْءُ فِي قَهْرِ

لهذا وغيره اختار المجلس العلمي للجامعة هذه السنة (الشيخ الهفيش قطب الأئمة) لمكانته المتميزة في عصره، في خدمة أمته، بأعماله وأقواله وعلمه الراسخ ومؤلفاته.

ومهما يكن من أمر فلن نفي في هذا التقديم بمناقب الشيخ، وأترك لمن يريد الاستزادة الرجوع إلى مساهمات الأساتذة الأفاضل من خلال المقالات والبحوث المنشورة في هذا الكتاب التذكاري وفي غيرها مثل (معجم أعلام الإباضية) نشر جمعية التراث – القرارة - غرداية الجزائر(1420هـ/1999م) (المجلد الرابع رقم 864 ص835) من أجل الارتواء بتراث الشيخ الهفيش المتنوع والغني بكل المقاييس

والله ولي التوفيق.

قسنطينة في 20 جوان 2010 م

أ.د. عبدالله بوخلخال

مدير الجامعة

تقديم

أ.د إسماعيل مامعي
نائب مدير الجامعة للتكوين العالي
والتكوين المتواصل والشهادات

لا ريب أن التقليد الذي أرسيت دعائمه منذ أكثر من ثماني سنوات يتعزز هذه السنة 2010 بمناسبة تخرج الدفعة 23 بإصدار جديد يترجم لشخصية علمية من جنوبنا الكبير ومن بني يزقن بغرداية موطن إخواننا الإباضيين منذ سقوط الدولة الرستمية على يد الفاطميين في نهاية القرن 3هـ/9م، وهي أول دولة جزائرية في ظل الإسلام، كما تحمل الدفعة 23 اسمه، إنه امحمد بن يوسف بن عيسى الحفيش الشهير بقطب الأئمة (1237-1332هـ/1821-1914م) الذي تعددت معارفه ومآخذه العلمية كما تعددت جهوده، وتنوع إنتاجه الفكري والعلمي، وشملت تآليفه مختلف فروع المعرفة في المنقول والمعقول كالتفسير والحديث، والنحو واللغة والعروض والطب والفلك، والمراسلات وفي موضوعات مختلفة، والحقيقة أن موسوعيته العلمية بلورت رافدا هاما من تراثنا الإسلامي، وأبرزت جهدا مغاربيا وجزائريا أسهم بنصيب كبير في العطاء الحضاري

العربي الإسلامي، وارتقت هذه الجهود إلى ما فوق المذهبية الضيقة، والتنوعه العقدي الإيديولوجي المتحين

وذلك صار عطاؤه العلمي من بين العطاءات العلمية العالمية، التي تعد مراجع أساسية لكل دارس وباحث في شتى حقول المعرفة، والبحوث المنشورة في هذا الكتاب تعكس جانبا من هذه الجهود المتنوعة، ومع ذلك تبقى في حاجة إلى المزيد من العمل والدراسة والنشر.

وصادف نشر هذا العمل تخرج الدفعة الأولى في النظام الجديد الذي يمتد بعدد ستة تخصصات في أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، وفي الوقت نفسه غلق النظام القديم، وهو أمر يدخل في الديناميكية التربوية التي تعيشها الجامعة في إطار الإصلاح الجامعي الجاري تطبيقه منذ سنوات.

ومنذ أن وافق المجلس العلمي للجامعة على تسمية الدفعة 23 باسم القطب محمد بن يوسف الحفيش بدأنا في توزيع دعوات ونشر ملصقات في معظم المؤسسات الجامعية والثقافية عبر الوطن، وعبر شبكة الأنترنيت.

وقد وصلنا على إثرها أكثر من 30 بحثا ودراسة خضعت جميعها لعملية التحكيم، ونحن إذ ننشر بعضها فإننا نأمل من خلالها الإدلاء ببعض الشيء لهذا العلم من أعلام وطننا العزيز، وأسهمنا ولو

بالشيء اليسير في بلورة معالم هذه الشخصية المتميزة، وشاركنا بالتالي في بعث تراث أمتنا وإحياء أمجادها.

كما نتمنى للمتخرجين هذه السنة في الدفعة 23 في النظامين الكلاسيكي والجديد ل.م.د كل التوفيق في الحياتين العلمية لمن تيسر لهم مواصلة الدراسة، والعملية لمن هم يتوجهون إليها، وندعوهم جميعا إلى أن يكونوا رسل الجامعة وخاصة في السلوك الحسن، والعمل المتقن، وأن يبقوا على اتصال بها.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ التوبة 105

صدق الله العظيم

أ.د / إسماعيل مامعي

نائب مدير الجامعة للتكوين العالي

والتكوين المتواصل والشهادات

كلمة حفيد القطب

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين،

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

إخوة الإيمان وحراس العقيدة من علية القوم وأصحاب المعالي- مؤنثين ومذكرين وعلماء أجلاء معتبرين ومديرين ودكاترة محترمين وطلبة ناجحين- سلام عليم ورحمة الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد، فسعداء نحن في هذا اليوم الأغر وفي هذا البلد الطيب الحبيب وبهذه الجامعة المصونة ومع هذه الوجوه النيرة من الحضور سعادة تبقى راسخة في الذاكرة ومن الذكريات الخالدة لهذا الملتقى الثقافي العالي البهيج الذي نفتتحه بعون من الله ورضوان منه، نصرة للعلم الذي يرفع بيتا لا عماد لها، وتشهيرا لمكانته والاستواء الرفيع عند المولى عزوجل بقوله : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وعن فضله في تقوى القلوب بقوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ومن أصدق من الله قيلا، فطوبى لهذا العلم الذي نعتز به ونفتخر ونسعى للاستزادة منه تعلما وتعليما ونبني به مثل ما كان أوائلنا يبنون ونفعل مثل ما فعلوا لنرتقي به إلى سدة العز والفخار آخذين بعين الاعتبار حسن الشمائل لتكتنفه ومائة الأخلاق أخلاق الرسول التي هي أخلاق القرآن كما قالت أمنا عائشة رضي الله عنها وأرضاها. وإلا لا قدر الله كان مطية الإخفاق.

صرخة من الأعماق إخوة الإيمان من قلب سليم في جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة المصونة وأمام دفعة السنة 2009 / 2010 من كلية نجباء ناجحين أرجو أن تحل في الأعماق للقلوب السليمة لاستنهاض الهمم وإيقاظ المشاعر والتفوق المستمر ومواصلة الانتماء إلى الأفذاذ من المشايخ الصالحين الذين بذكرهم تتنزل الرحمات إسوة بقوله عليه الصلاة والسلام" التمسوا الفال ولو عمدا" لما لهم من فضل يقتدى به دينا ودنيا. وللقطب الإمام الهميش بن يوسف – رحمه الله – الذي انتسبت إليه هذه الدفعة لمما يزيد لمكانة العلم علوا ورفعة لمسيرة عمر كلها جد واجتهاد ابتدأها باستظهار القرآن الكريم في سن التاسعة من عمره، ومدرسا منذ سن الخامسة عشر ومؤلفا منذ سن السادسة عشر فأحصيت تآليفه بمائة وخمسة وثلاثين، فهو جدير بهذه الالتفاتة الطيبة والنظر البعيد والرأي السديد من مدير الجامعة وأساتذتها والمشرفين عليها مما يزيد لصالح الإسلام والمسلمين مكانة ورسوخا وتضامنا واتحادا ضد ما تحاك له من دسائس وتنصب من شراك ولا يفوتني أخي المسلم الكريم ضمن هذه المشاركة المختصرة أن أتوجها بما جادت به القريحة بلغة القافية النابعة من أحاسيس الصادقة للقلوب عنوانها: – بلد المعجزات–

قسنطينة بلد المعجزات ... بفقه الحياة ونيل الأدب

حباك الإله جمالا وعز ... بماضي الأصالة والمرتقب

وزادك ذخرا من الصالحات ... بجامعة للتقى المستحب

أضاءت لنا في السماء نجوما ... يضاهي سناها بريق الذهب

بفوج هموم بسرنا الجسور ... تخطى الصعاب لأعلى الرتب

فلقب قطبا لكي يقتدى ... لما الله قد خصه ووهب

بفقه المقارن شد القلوب ... إلى الإئتلاف ونبذ الشغب

ونشر الوئام بما تصطفيه ... تعاليم ديني بأقوى سبب

وهذا التمامر من الفال عمدا ... وصايا الرسول لما يكتسب

هنيئا لسرقا بما أنجبته ... وتنجبه من دواعي العجب

فبادير نور أضاء السبيل ... لنشر العلوم ومحو الكرب

وأتقن صنعا لما تقتضيه ... تصاريف عصر بما قد وجب

فكم من بلاد مراكز علم ... وفي البعض لهو بها ولعب

فبالعلماء ثقافة شعب ... لتعمر دخيل لصفر وسلب

وشرذمة للعدو استطالت ... بغفلتنا لبلوغ الأرب

من الاغتصاب بما لا يطاق ... وقتل فظيع وسطو ونهب

بعون الإله وبالإتحاد ... لسوف يرد لنا ما اغتصب

ولو بالإله اعتصمنا جميعا ... لما ابتز قدس من أيدي العرب

رجاء حفيد من الله يدعو ... لعز الجزائر خير الطلب

ونصر العروبة عن كل غيب ... دعاء مقيم وأين ذهب

وكل الحضور بقلب محب ... لكل حبيب له من أحب

مع أطيب المنى وفائق الاحترام لحسن الإصغاء وفائق الاهتمام

والحمد لله في كل ختام.

أخوكم حفيد القطب الصفيش

ج محمد ج محمد ج امحمد

كلمة أحد أعلام غرداية الحالية وأعيانها

في الشيخ امحمد بن يوسف الهفيّش "قطب الأيمة"

أ . د . إبراهيم بحاز

قسم التاريخ جامعة منتوري قسنطينة

كم كانت دهشتي كبيرة وتعجبي أكبر، لما سألني عديد الزملاء الأساتذة في الجامعة ، غداة إعلان فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، أثناء زيارته لولاية غرداية ربيع عام 2009م، عن قراره تسمية المركز الجامعي بغرداية باسم: "**جامعة الشيخ اطفيش امحمد بن يوسف القطب**".

سألوني من يكون هذا العالِم ؟ متى كان هذا الرجل؟ هل هو أكبر علما من الشيخ بيوض والشيخ أبي اليقظان؟ لماذا لم نسمع به؟

وطبعا كان ردي وجوابي بعد إظهار التعجب والاستغراب، أن هذا العالِم هو شيخ أبي اليقظان وهو بالنسبة للشيخ بيوض شيخ شيخه أو بعض شيوخه، أي أن أولهما تلميذه وثانيهما تلميذ تلميذه، وكلاهما لا يصل إلى ربع علم الشيخ اطفيش ولا إلى ربع إنتاجه دون أن يكون هذا تقليلا من علم أحدهما وجهاده، لأن الشيخ اطفيش وحيد زمانه وفريد عنصره وعصره، وهو آية من آيات الله في الموسوعية والإحاطة دون أن يكون لمصطلح "آية" ما له عند الشيعة. فالشيخ اطفيش هو هذا الذي قال عنه تلميذه الشيخ إبراهيم أبو اليقظان في كتابه ملحق السير : ([1])

" ...يتصل نسبه بسيدنا عمر بن الخطاب (ض) فهو من بني عدي نسبا.

هو علامة عصره وإمام الإسلام في زمانه ومجتهدي العلماء المتأخرين في وقته...

([1]) أبو اليقظان : ملحق السير، (مخ) ورقات 153-165

ليس في تأليفه كسائر الناس يؤلف كتابا واحدا فكتابا، ولكنه يؤلف خمسة كتب في آن واحد في فنون متعددة وفي ألوان مختلفة كأنه اتخذ هذه الطريقة ترويحا للنفس واستجماما لقواه حتى إذا مل من نوع رجع إلى تحرير آخر فإذا أتم واحدا أتم الجميع وخرج من الجميع على غاية من الدقة والإحاطة والتحقيق العلمي. وقد ألف في سائر الفنون العقلية والنقلية...

كان ... في نهاية الغيرة على الإسلام وعزة الدين، شديد الوطأة على الفساق والعصاة آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم شفوقا على الفقراء والمساكين كريم النفس سخي اليد عطوفا على الملهوف...

يكبر(أي يُعظم) علماء الإسلام خصوصا علماء مصر وعلماء الأندلس ويهتز للأدب الأندلسي ونكتَه ولطائفه ، يفكر تفكيرا إنسانيا في أوسع آفاقه شديد الاهتمام بأحوال العالَم الإسلامي، يصرف أعز أوقاته للابتهال إلى الله والدعاء له بلهفة وبحرارة للإسلام بالعزة والنصرة للمسلمين. يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم ...شغوف بحب محمد وآل محمد...

ويؤكد الشيخ أبو اليقظان دقة أقواله وشهاداته هذه، التي سجلها عن شيخه فيقول: "لستُ ألقي الكلم على عواهنها وإنما ألقيها عن خبرة ودراية ...لأني عاشرته معاشرة طويلة ودقيقة فقد وردْتُ عليه لطلب العلم في شوال عام 1325هـ..." أي السنوات الخمس أو الست الأخيرة من حياة القطب.

فهذه بعض المقتطفات من شاهد على شيخه في أخريات حياته، أما تلميذه الآخر وهو الشيخ إبراهيم حفار وتلميذ بعض تلامذته الشيخ محمد علي دبوز فمما قالاه كل على حدة في كتابه: إن القطب كان يؤلف في الحضر والسفر في وقت الشدة والرخاء حفاظا على وقته ومع ذلك كان لا يفوته حضور الصلوات الخمس في المسجد مع الجماعة ويحث تلاميذه على ذلك، والقطب لم يخرج من بلده مزاب إلا عندما سافر إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج وكان ذلك في مرتين والأخيرة منهما في أوائل القرن العشرين،

وقد زار في طريقه بعض الحواضر العلمية مثل جامع الزيتونة والجامع الأزهر وألقى دروسا في الحرم المدني، ويذكر حفار أن الشيخ محمد عبده المصري عرف قدر القطب فعظمه واحترمه وقد جاء ذلك في بعض مراسلات كانت بينهما ([1])

وفي هذا الأمر، قرأت في كتابه **تيسير التفسير** فقرة يتحدث فيها عن نفسه يقول فيها:" وقد بيّنه العلامة الشيخ محمد عبده للحق ودخل تونس وأشار عليهم أن يسألوا الفقير صاحب هذا التفسير في ما أُشكِل وكذا عالم قبله مصري وسبب ميل علماء مصر إليّ مع تخالف المذهب وتباعد البلاد أنه أُشكلت عليهم مسألة في الربا وأرسلوا إليّ سؤالا في مطاب(أي مزاب) وجادلهم إنكليزي وأرسلوا إلي سؤالا، فأجبت لهم بما استحسنوا، وأيضا اطلعوا على شرح النيل وغيره مما طُبع في مصر من تآليفي"([2])

أما الأستاذ عادل نويهض وهو أول من كتب كتابا في **أعلام الجزائر** بعامة مشكورا، فذكر أن نسب الشيخ اطفيش "ينتهي إلى عمر بن حفص الهنتاتي جد العائلة الحفصية المالكة في تونس، (وهم يعيدون نسبهم إلى عمر بن الخطاب ض)؛ مجتهد من أكابر العلماء بالفقه والأدب واللغة والتفسير ومن رجال النهضة الإصلاحية الحديثة بالجزائر"، ثم يحصي مؤلفاته ذكرا باختصار ...([3])

أما الدكتور عبد الكريم بوالصفصاف ومن معه من مؤلفي معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، فنجدهم خلطوا بينه وبين تلميذه الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش نزيل مصر(توفي في ديسمبر من عام 1965م) كما خلطوا في التعريف بمؤلفاته فالتي للفقه جعلوها للحديث والتي في العقيدة جعلوها للفقه وهكذا وختموا ترجمته بالقول " ...ترك تراثا قيما ...على مختلف المذاهب الإسلامية وكانت فكرته في

([1]) ابراهيم حفار : السلاسل الذهبية في الشمائل الطفيشية، ص10، 46.، دبوز : نهضة الجزائر الحديثة ، 308/1، 352

([2]) اطفيش: تيسير التفسير تح. إبراهيم طلاي، 35/10

([3]) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ص 19-21

لإصلاح سلفية تدعو المسلمين إلى الاقتداء بالسلف الصالح والأخذ بما جاء في التراث الإسلامي في جميع المجالات".([1])

أما نحن في جمعية التراث فكتبنا في معجم أعلام الإباضية ترجمة وافية وأحصينا مؤلفاته مع ذكر مخطوطها من مطبوعها .

---

[1] الصلصاف وآخرون: معجم أعلام الجزائر في القرنين 19 و 20م، 189/1

المجد أنت قطب الأئمة

قطبَ الأئمّة أحيى ذكرُكَ الهممـــا ... وفاخرَت بكمُ أوطانُنا الأممـــا

سموتَ للمجد قطبًا، شامخًا، عَلَمًا ... وللجزائر قد ركّزتُم العلمـــا

عن هُدَى الخيرعبّدتم لنـــا سُبُلاً ... قامت على العلم والأخلاق ملتزما

أحييت دارس علمٍ، بعثت بـــه ... شعبًا، فهبّ إلى عليائه، وسمـــا

❁❁❁

صعّرت خدّك للمستعمرين إبـــاءً ... فانثنوا في صَغَارٍ يُخجِل القزمـــا

رؤيتنا قيم الإسلام ناصعـــــةً ... أنّ التحرّر روح المرء لو علمـــا

بعثت في النشء معنى العزّ في شمم ... لا يرتضي في الدنا دون الذّرى حرَما

وصاغ في الثورة الكبرى ملاحمـــه ... نارًا، تصبّ على المستعمر النقما

ما مات من عاش يبني صرح أمتـــه ... حَيٌّ، وفي الرمس أمسى رسمه رِمَما

ما مات من عاش للإسلام منتصرا ... يحارب الظلم والإفساد والظُّلَمـــا

❁❁❁

العزم أنت مضاءً لا يني أبـــــدا ... والعــزّ أنت سقى أعداءنا حَمما

العلم أنت جهادا قاد ألويـــــة ... قبل السيوف دعا أن تشحذ القلما

الصدق أنت صفاء، كالهلال سنًـــا ... والصدق في المرء مرآةٌ تُري القِيَما

المجد أنت منارًا، حكمةً، وهـــدًى ... لولا جهادك أمسى مجدنا عدمـــا

❁❁❁

أ.د. مصطفى باجو. قسنطينة،

صباح السبت 21 جمادى الثانية 1431هـ 5 جوان 2010م

حياته

التعريف بالشيخ أمحمد بن يوسف اطفيش

د. مصطفى رابتن

جامعة الأمير عبد القادر

مقدمة

عرفت الجزائر على مر تاريخها العريق والطويل الكثير من الأعلام الذين أسهموا في الفكر الإنساني والإسلامي بخاصة، إسهاما خلد ذكرهم، بما تركوه من آثار مكتوبة ومتناقلة عبر الروايات الشفوية، وبما أنجزوا وحققوا من أعمال في سبيل خدمة وطنهم والبشرية، في مجالات عدة، فكانوا أحيانا كثيرة يتجاوزون الحيز المكاني الذي وجدوا فيه، وكذا الحدود الزمنية بما أوتوا من أفكار بقيت صالحة ينتفع بها بعد رحيلهم، فجعلوا الجزائر حاضرة حضورا فعالا في ساحة الفكر والحضارة؛ وقد تعددت وتنوعت ديانات هؤلاء المفكرين بين المسيحية والإسلام، وبين مذاهب الإسلام نفسه، مما أثرى الموروث الثقافي الفكري للجزائر عبر التاريخ.

ومن هؤلاء الأعلام الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش الذي عاش بوادي مزاب جنوب الجزائر، بين القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجريين، (من القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين الملاديين).

عصر الشيخ اطفيش

ولهذه الفترة خصوصية في التاريخ العالمي عموما والإسلامي والجزائري خصوصا؛ إذ كانت فترة حرجة بما عرفته من أحداث جسَّدت صراعا بين العالمين الغربي والإسلامي، وسيطرة أروبية على البلاد الإسلامية.

كانت هذه أهم سمة طبعت الحياة في الوقت الذي وجد فيه الشيخ، إضافة إلى هذا الوضع الداخلي والخاص الذي كان يعيشه وادي ميزاب، وكان متأثرا بالأحداث التي تقع عالميا من حوله، بل كان صورة من الوضع العام، لحقه ما لحق غيره من الأصقاع والبلاد الإسلامية من ضعف في مجالات مختلفة.

فقد كان العالم الإسلامي يعيش السنوات والعقود الأخيرة من عمر الدولة العثمانية، التي بدت غير قادرة على التحكم في الأوضاع، وإن بقيت الأمل الوحيد بالنسبة إلى المسلمين بما كانت تمثله من رمز للحكم الإسلامي، وامتداد للخلافة ولو في شكل صوري باهت، مما أتاح لها مكانة لدى المسلمين وفي قلوب العلماء خاصة.

وفي الجانب الفكري والإجتماعي ظهر بوضوح أن العالم ينقسم إلى طرف آخذ بأسباب التمدن والتطور وطرف غارق في أسباب التخلف حبيس أمجاد ماضية انطوى عليها، ولم يستطع أن يواصل على خطى السابقين، ولا أن يحافظ على المستوى الحضاري الذي بدأه السابقون، فظهرت الشقة بعيدة عميقة بين العالمين.

وفي هذا الوضع ظهر من يفكر في التغيير، وظهرت بعض محاولات الإصلاح، ورفع الاستبداد، وإيقاظ الهمم للتخلص من المستعمر الأجنبي، واتخذت هذه الجهود أشكال حركات وثورات أو نهضات علميَّة وإصلاحية، مهَّدت لجهود أخرى بعدها وأثرت وتأثرت.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وكان وادي ميزاب[1] صورة من العالم الإسلامي العام، وبقدر بعده عن الحواضر العلمية والعالمية بقدر ما كانت المهمة أثقل على أهل العلم وعلى المصلحين فيه، كما كانت النتائج كذلك بطيئة الظهور، والجهود قليلة الجدوى.

ويتميز وادي ميزاب بخصائص كانت وليدة الإرث التاريخي والوضع الجغرافي الذي وجد فيه، وكانت القيادة الدينية هي المشرفة على تنظيم الحياة في إطار نظام العزابة[2]، وهو من أهم الأسباب في تطور الحياة بوادي ميزاب، وتفعيل دور المسجد في المجتمع، وظهر هذا خصوصا مع جهود الشيخ عمي سعيد الجربي[3] الذي جمع حلقات

---

[1] ينظر في وصف المنطقة: مُحَمَّد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1ص158؛ طلاي إبراهيم: ميزاب بلد كفاح دراسة تاريخية واجتماعيّة تلقي الأضواء على نشأة هذا البلد وحياة ساكنيه، طبعة البعث قسنطينة 1970م، ص 13، 19.

[2] نظام العَزّابة: تنظيم اجتماعيٌّ خاصٌّ بالإباضيَّة في المغرب، أساسه المحافظة على المجتمع بعد انتهاء حكم الرستميين سنة 296 هـ. أسّسه أبوعبد الله مُحَمَّد بن بكر بإرشاد من شيخه أبي زكرياء فُصَيل بن أبي مسور، ابتدأ النظام على شكل حلقة تعليميَّة، ثُمَّ تطوَّرت حَتَّى أصبح لها سند اجتماعيٌّ فريدٌ جعلها تقود المجتمع، وتركت أثرا واضحا في نشاط الحركة العِلْمِيَّة الحضاريَّة للمجتمعات الإباضيَّة خاصَّة في ليبيا وجربة ووادي ميزاب. ينظر: الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد، طبقات المشايخ بالمغرب: تحقيق إبراهيم طلاي مطبعة البعث قسنطينة د.ت، ج1 ص3 - 5؛ إبراهيم طلاّي: ميزاب بلد كفاح، ص 38-45؛ فرحات الجعبيري، نظام العَزّابة عند الإباضيَّة الوهبيَّة في جربة، وقد فصَّل المؤلّف الحديث عن الموضوع في هذا الكتاب؛ مجموعة مؤلفين، معجم مصطلحات الإباضية، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، 1429هـ/2008م، ج 2، ص 700 - 703.

3) سعيد بن علي بن يحيى بن يدّر بن سليمان بن عثمان الجربي الخيري، مشهور بـ«عمّي سعيد» (ت: محرّم 898هـ/جانفي 1492م)علّم من قرية أجيم، بجربة، استنجد به أهل وادي ميزاب،

مساجد قرى وادي ميزاب تحت المجلس الذي سمي باسمه "مجلس عمي سعيد"، وبتوالي الأحداث والسنين تكامل هذا النظام ليصبح موجها للحياة في قرى وادي مزاب؛ وشهد فترات قوة وضعف، و بقي محافظا على وجوده رغم الشدائد التي مرت عليه، وأحسن التحكم بالأوضاع، وأثبت صلاحيته وحسن تعامله مع الأحداث[1].

وكانت الفترة الاستعمارية من أهم المراحل التاريخية التي شهدها وادي ميزاب، وتأثّر بما تأثرت به الجزائر عموما من الوجود الاستعماري الذي حاول إحكام سيطرته على وادي ميزاب، فكانت بداية التدخل الاستعماري في وادي ميزاب بمعاهدة سنة 1853م التي نصت على الحماية دون التدخل في شؤون وادي ميزاب، ورأى أهل وادي ميزاب في هذا ردا للخطر الاستعماري بعدما شاهدوه عند مشاركتهم في رد الحملة الفرنسية على العاصمة سنة 1830م[2].

ونقضت فرنسا المعاهدة لما رأت أن الميزابيين لم يلتزموا بأحد بنودها وهو الامتناع عن مساعدة الثوار في أنحاء الجزائر، وفرضت حينئذ سيطرتها الكاملة على وادي ميزاب

ليبعث الحركة العلمية والاقتصادية في عهده، فبادر إلى الإصلاح الاجتماعي والعلمي والديني، وأحيى وادي ميزاب وكوّن نهضة علمية، دينية. وكان من منجزاته تأسيس مجلسه الذي يسمى باسمه إلى الآن، وهو يجمع ممثلي العزابة من كل مدينة من مدن وادي ميزاب ووارجلان؛ وله مؤلفات في الفقه. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ترجمة رقم 402.

1) إبراهيم طلاي: ميزاب بعد كفاح، ص 43.

2) المرجع السابق نفسه، ص 46-47؛ عثمان باشا، داي الجزائر، سيرته وحروبه. نظام الدولة والجيش العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986م، ص 138.

سنة 1882م [1]؛ ورغم هذا استطاع نظام العزابة أن يحتفظ ببعض سلطته في الجانب الاجتماعي وتسيير المجتمع وتنظيمه في سائر حياته عدا ما تعلق مباشرة بالسياسة والحياة العسكرية التي تديرها الإدارة الاستعمارية بمساعديها.

نسب الشيخ اطفيش ونشأته

هو الشيخ محمَّد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمن بن عيسى بن إسماعيل اطفيَّش، كما يعرف بنفسه [2]، وينتسب إلى الحفصيِّين العائلة المالكة بالمغرب (625-983هـ/ 1229-1574م)، ثُمَّ يوصل نسبَه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب ﷺ [3].

---

1) حمُّو عيسى النوري: نبذة من حياة الميزابيِّين الدينية والسياسية والعلمية من سنة 1505م إلى 1962م، دار الكروان باريس 1984م، ج1 ص307؛ محَمَّد ناصر، الشيخ القرادي حياته وآثاره، نشر جمعية النهضة المطبعة العربية غرداية 1990م، ص230.

2) اطفيش، قصيدة المعجزات، مخطوط في مكتبة الاستقامة بني يزقن، (رقم: ف: 11)، ص 30-31؛ الرسالة الشافية، ط2 دم سنة 1326هـ ، ص 122؛ الذهب الخالص، ط 2 مطبعة البعث قسنطينة 1400هـ/ 1980م، انظر مُقَدِّمَة أبي إسحاق للكتاب؛ محَمَّد علي دبُّوز، نهضة الجزائر، المطبعة التعاونية 1385هـ/1965م، ج1 ص290.

3) اطفيش، قصيدة المعجزات مرجع سابق، ص 30، 31؛ تلقين التالي لآيات المتعالي، مخطوط في مكتبة الاستقامة بني يسجن (رقم: جـ 67)، و:23.

وأمُّه السيِّدة مَامَّه سَتِّي بنت الحاج سعيد بن عَدُّون بن يوسف بن قاسم بن عمر بن موسى بن يَدَّرْ من عشيرة آل يَدَّرْ ببني يزقن[1].

ولقب بالقطب بين الإباضية واشتهر به[2] حتّى أصبح لقبا مقصورا عليه بين الإباضية، وهو لقب يدل على كونه قبلة العلم في المذهب الإباضي في عصره، ولا شك أن الذي أهله لهذه المرتبة جملة أعماله وجهوده، وكونه أصبح مرجع الفتوى في وقته، وهو ما تؤيده المراسلات الكثيرة التي تركها مما ورد إليه أو أرسله بنفسه.

أمَّا عن تاريخ مولده فيمكن أن يكون سنة 1238هـ/ 1821م حسبما يذكر عن نفسه في أحد مؤلفاته أن عمره كان نيفا وعشرين سنة 1267هـ[3]، ونستبعد ما ورد من روايات مختلفة فيما بينها تجعله قبل هذا التاريخ بعدما أفصح به عن نفسه.

---

1) اطفيش، تيسير التفسير، ط2 مطبعة البابي الحلبي مصر نشر وزارة التراث القومي والثقافة: عمان من سنة 1982 إلى 1987م، ج204/16؛ إبراهيم حفّار: السلاسل الذهبيَّة في الشمائل الطفيشيَّة، مخطوط مصور في مكتبة الأستاذ الحاج سعيد محمَّد غرداية (126)، ص 15؛ محمَّد علي دبُّوز، نهضةالجزائر، مرجع سابق، 295/1.

بني يزقن: إحدى قرى وادي ميزاب وهي الخامسة نشأت سنة 720هـ/1321م؛ وتسمى آت يزجن عند أهلها، أصلها حي تافلالت ثم انضم إليها أحياء مجاورة؛ انظر: الحاج سعيد يوسف: تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية: المطبعة العربية غرداية 1992م، ص17.

2) محمَّد علي دبُّوز، نهضة الجزائر، مرجع سابق ج1 ص290؛ يحي بوتردين: الشيخ اطفيّش ومذهبه في تفسير القرآن الكريم مقارنة إلى تفسير أهل السنة، رسالة ماجستير في جامعة عين شمس بالقاهرة مرقون 1989/1410، ص 36.

3) ينظر في هذا: اطفيش شرح شرح الاستعارات لعصام الدين: مخطوط في مكتبة القطب (رقم: ا.س:1)، و238، والمذهب الخالص: مُقَدِّمة أبي إسحاق، ص: ب، والكافي في التصريف: تحقيق

وكان ميلاده حسب ما يحدده بنفسه بمدينة غرداية[1]، ويقول عن نفسه إنه ينسجني نسبة إلى بلدة بني يزقن، ويعتبرها بلدته لأن وجود عائلته في بلدة غرداية وميلاده فيها كان عارضا وإقامة عابرة، حيث قضى حياته في بني يزقن و لم يخرج منها إلا للضرورة والحاجة[2].

كانت عائلة الشيخ فيما يبدو متوسطة الحال، بل هي أقرب إلى الفقر حسبما تدل عليه بعض أقواله عندما يتحدث عن ظروف حياته، ولكن كانت عائلة متميزة في مواقفها، فقد كان والده ذا مكانة ورأي، إذ عاش فترة منفيا خارج بلدة بني يزقن بسبب

ودراسة، رسالة ماجستير (مرقون) إنجاز الأستاذة عائشة يطو، بجامعة وهران السانيا، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، سنة 2002/2001م، ص: 13؛ أبو اليقظان إبراهيم، ملحق سير الشَّمَّاخي، مخطوط في مكتبة د. محـــمَّد ناصر، ص 153؛ مَحَمَّد علي دبُّوز: مُحضة الجزائر، ج1 ص290؛ إبراهيم حفَّار: السلاسل الذهبيَّة، ص 6؛ وثيقة: تقرير عن نشاط الشيخ اطفيش؛ من السلطة الفرنسية بغرداية.

1) اطفيش، شرح لامية الأفعال، مطابع سجل العرب، نشر وزارة التراث، عمان،1407 هـــ /1986م، ج4 ص437، الذهب الخالص، مُقَدِّمـــَة أبي إسحاق، ص: ب؛ إبراهيم حفَّار، السلاسل الذهبيَّة، ص 36؛ أبواليقظان، ملحق السير، ص 153؛ مَحَمَّد علي دبُّوز، مُحضة الجزائر، ج1 ص290.

2) اطفيش، شرح القلصادي، (مخ) مكتبة الاستقامة رقم (71)، ص 02، شرح كتاب النيل، ط3، دار الفتح، بيروت ومكتبة الإرشاد جدَّة، 1985م، ج9 ص 352، 553.

خلافه مع وجهاء البلدة والعزابة في قضايا التسيير الاجتماعي، وقضى فترة النفي في بلدة غرداية، وفيها عاش الشيخ اطفيش، سنواته الأربع الأولى من عمره[1].

ولم يحض الشيخ بالعيش طويلا مع أبيه إذ توفي وللشيخ من العمر خمسة أعوام وأصبح يتيما، وعاش في كنف إخوته خاصة الأكبر منهم الحاج إبراهيم، الذي كان معينا لأمه في تنشئة أخيه وتربيته وتعليمه كذلك[2].

وبلغت معاناته من سوء أوضاعه ومكابدته الفقر وسوء الحال أنه لم يكن يجد ما يلبي به إلحاح الطلبة على الحضور إليه والبقاء معه ووجد من ذلك حرجا كبيرا، فلم يكن حاله يسعفه باستقبال كل الطلبة والتكفل بهم، كما عانى من عدم استطاعته استنساخ كتبه[3]؛ ولم يشتغل بغير التدريس إلاّ ما مهمة القضاء فقد تولاها قبل سنة 1853م[4]؛ ثم قضى كل حياته في العلم والتعليم.

وتعرض للنفي من بلدته كما تعرض له أبوه من قبل، وللأسباب ذاتها، مما يوحي بوجود خلاف بينه وبين القائمين على نظام العزابة في كيفية التغيير، وفي هذه المرة سكن

---

1)إبراهيم حفّار،السلاسل الذهبيَّة،ص 36؛ أبواليقظان، ملحق السير، ص 153؛ محمَّد علي دبُّوز، نهضة الجزائر، ج1 ص292.

2) أبو اليقظان، ملحق السير، ص 153؛ محمَّد علي دبُّوز، نهضة الجزائر، ج 1ص 295.

3) اطفيش، التيسير، ج14 ص 286، ج11 ص 383، وكشف الكرب، المطبعة الوطنيـــة، نشر وزارة التراث، عمان 1405هـــ/1985م، ج1 ص11، ومجموع رسائل (مخ)، ص 151؛ إبراهيم حفّار: السلاسل الذهبيَّة، ص41.

4) المرجع السابق، ص 44، أبو اليقظان، ملحق السير، ص 157.

ببلدة بنورة المجاورة، ولم يتوقف رغم ذلك عن نشاطه العلمي[1]، وسجل هذا في قوله: «فقد ألقت إليّ الغربة صداها أن أضع على شرح الاستعارات لعصام الدين شرحا...»[2]، ودامت هذه الغربة سبع سنين.

وعاش بقية حياته في بلدته بني يزقن ولم يكن يغادرها إلا لسفر، إلى مدينة بريان أو القرارة، القريبتين؛ أو وراجلان، إضافة إلى رحلتيه إلى الحجاز.

وافته المنيَّة – رحمه الله- يوم السبت 23 ربيع الثاني سنة 1332هـ الموافق لشهر مارس سنة 1914م، بعد مرض ألمَّ به ثمانية أيَّام[3].

ويرى البعض أن وفاته كانت بتدبير من الاستعمار، فقالوا إنه توفي متأثرا بسم حسب ما يروى عن تلميذه أبي إسحاق، وهذه الرواية وإن كانت محتملة وغير مستبعدة، لكنها احتمال لا يسنده توثيق كاف[4].

---

[1]) إبراهيم حفّار، السلاسل الذهبيَّة، ص 26-27.

[2]) اطفيش شرح شرح الاستعارات، مصدر سابق، و 02.

[3]) إبراهيم حفّار، السلاسل الذهبيَّة، ص07، أبو اليقظان، ملحق السير، ص 196.

[4]) عُمُّو عيسى النوري، نبذة من تاريخ الميزابيِّين، ج1 ص326؛ وَممَّن نفى هذا السبب بعض المشايخ الذين التقينا بهم مثل: الشيخ إبراهيم طلاّي من بني يزقن، والشيخ الحاج مُحَمَّد مطهري –رحمه الله– من مدينة مليكة – غرداية، والنفي أقرب إلى الواقع، والإثبات يحتاج إلى دليل، وناقل قول أبي إسحاق ظن أنه قال ذلك ولم يكن متأكدا.

مصادر تعلمه ومشائخه

الجانب الأهمّ من حياة الشيخ، والواجهة الحقيقيّة لتميّزه واشتهاره هي حياته العلمية وما اكتنفها من نشاط وجهاد واجتهاد، حياة تميزت من حيث مصادر ثقافته، ثم عمله في التدريس، وآثاره التي تركها.

تعدد أسباب نبوغ الشيخ وتنوّعت، رغم الأوضاع العصيبة التي عاشها، فمن هذه الأسباب ما يعود إلى نسبه، ومنها ما كان بالتردّد على بعض المشايخ، ومنها ما كان بجهده الذاتيّ.

توفر له في نسبه جملة من العلماء تأثر بهم، مباشرة بالتعلم أو بالانتساب إليهم، وكانوا له قدوة، فوالده الحاج يوسف بن عيسى كان رجلا اجتماعيّا، مهتمًّا بالإصلاح والتغيير محبا للعلم؛ وقد رُوي للشيخ اطفيش، أن أباه رأى في المنام بأنه سيولد له من يجدد الدين على يده[1]، وكان لهذه الرؤيا أثرها في توجه الشيخ اطفيش إلى العلم، وشوقه إلى تحقيق الرؤيا؛ وكان أخوه العالم الحاج إبراهيم أستاذه في كثير من العلوم في أوّل عهده بالتعلّم.

وفي نسب الشيخ من شخصيات العلم عمّه صالح بن عيسى، الذي قال إنه كان: «رجلا صالحا فقيرا متعفّفا مجوّدا للقرآن حسن الصوت جدًّا رحمه الله»[2].

---

[1] اطفيش، خطبتا العيدين، مخطوط في مكتبة القطب رقم (أ. ز: 03)، ص 12؛ محمّد علي دُبوز: نهضة الجزائر، ج 1 ص293.

[2] اطفيش، التيسير، ج 16 ص 203.

وعمّه عبد الله بن عيسى الذي ارتحل في طلب العلم إلى مصر، وجلب منها المصادر المتعددة[1].

ومن أجداده الشيخ عبد الله بن محمَّد بن عبد العزيز[2].

وجدّه الأعلى محمَّد بن عبد العزيز الذي أسندت إليه رئاسة مجلس العزّابة، وجرى عليه نسب الدين[3].

وكانت أمه من بيت علم، فأخوها ـــ خال الشيخ اطفيش ـــ عمر بن الحاج سعيد، سمّي بـــ«عُمَرْ نَتْمُوسْتِي» (أي: عمر العلم)[4].

وعمّ أمه الشيخ الحاج يوسف بن حمو عالم[5]، من تلاميذ الشيخ أبي زكرياء يحي بن صالح الأفضلي[1]، وله مؤلفات منها: "ترتيب لقط أبي عزيز"، و"شرح بعض ديوان الدعائم"[2].

---

[1])اطفيش، الرسالة الشافية، ص 48؛ محمَّد علي دُبُوز، نهضة الجزائر، ج1 ص292.

[2])عبد الله بن محمَّد بن عبد العزيز من العلماء تعلّم على أبيه وتأثر به في الإصلاح؛ ينظر: محمَّد علي دُبُوز، نهضة الجزائر، ج1 ص 391.

[3]) اطفيش، التيسير، ج16 ص 317؛ محمَّد علي دُبُوز، نهضة الجزائر، ج1ص291.

ونسب الدين: مصطلح عند الإباضيّة يَدُلُّ على سلسلة رجال سند رواية الشرع والعقيدة في كل عصر إلى الرسول ﷺ.

[4]) المرجع نفسه، ج1ص 296.

[5]) يوسف بن حمو بن عدون (و: 1158هـ / 1745م - ت: 1252هـ / 1836م)، من علماء بني يسجن: تولى التدريس والوعظ والإفتاء بمسجد بني يزقن، حضر دروسا في الأزهر، وتولّى رئاسة

وجدُّ أمِّه الشيخ عدون بن يوسف[3] معاصر للشيخ عبد العزيز الثميني[4] مناصر له في نهضته وحركته الإصلاحيَّة[5].

رغم هذا المحيط الذي وصفناه عن نسب الشيخ، فإن الشيوخ الذين أخذ منهم العلم لا يذكرون إلا قليلا من تلاميذ الشيخ عبد العزيز الثميني.

وكانت بداية تعلمه كغيره من الكتاب وفيه حفظ القرآن الكريم وعمره ثماني سنوات[6]، وبهذا أصبح مؤهَّلا لمتابعة الدراسة عند تلاميذ الشيخ عبد

مجلس عزَّابة بني يسجن، ترك مؤلفات في الفقه والتاريخ؛ ينظر: معجم أعلام الإباضية، ترجمة رقم 1056.

[1]) أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي (1126هـ / 1714م - ت: 25 رجب 1202هـ / 1 ماي 1788م) عالم من بني يزقن، تعلم بجربة بتونس، ثم بالأزهر، ودرَّس في وطنه واشتغل بالإصلاح الاجتماعي، وابتدأ نهضة علمية به، وتتلمذ على يده علماء. ينظر: المرجع نفسه، ترجمة رقم 1004.

[2])طفيش، تحفة الحبِّ في أصل الطبِّ، ط2 مطبعة عمان، نشر وزارة التراث، عمان: 1405هـ/1985م، ص 125؛ محمَّد علي دَبُّوز، نهضة الجزائر، ج1 ص296.

[3]) المرجع نفسه، ج1 ص296.

[4])طفيش، تحفة الحبِّ في أصل الطبِّ، ص 125؛ محمَّد علي دَبُّوز، نهضة الجزائر، ج1 ص296.

[5])المصدر والمرجع السابقين نفسيهما.

[6])أبو اليقظان، ملحق السير، ص 155؛ محمَّد علي دَبُّوز، نهضة الجزائر، ج1 ص299.

العزيز الثميني: أمثال الشيخ محمَّد بن عيسى ازبار[1]، والشيخ عمر بن سليمان[2]، والشيخ سعيد بن يوسف ويتن[3]؛ والشيخ الحاج سليمان ابن عيسى[4] وحمو بن كاسي[5]، وعمر بن صالح الذي درس عليه القصاص[6].

---

[1]الشيخ محمَّد عيسى ازبار: (1301هـ / 1883م) عالم من بني يزقن تلميذ الشيخ عبد العزيز الثميني، سافر إلى عمان ومصر ثم رجع مدرسا وواعظا، ترأس حلقة العزّابة ببني يزقن، ثُمَّ حلقات وادي ميزاب، وقد تردَّد الشيخ اطفيش عليه كثيرا، ينظر: معجم أعلام الإباضية، ترجمة رقم 847.

[2]عمر بن سليمان: عالم من القرارة اهتمَّ بالإصلاح، نفي إلى بلدة مليكة ثُمَّ العطف وتولىَّ التدريس فيها توفي سنة 1295هـ، انظر: أبو اليقظان، ملحق السير، ص 107، 108.

[3]سعيد بن يوسف ويتَنْ: تعلَّم على الشيخ الحاج يوسف بن حمُّ، انتقل إلى تونس وجربة متعلِّما ثم رجع إلى بلدته للتدريس والوعظ، عرف بالحكمة في الكلام والجرأة، توفي حوالي: 1296م، انظر: المرجع نفسه، ص 100-101.

[4]الحاج سليمان بن عيسى (عاش بين: 1230- و1265هـ /1814- و1848م): من تلاميذ الشيخ الثميني، تولىَّ رئاسة حلقة العزّابة في بلدته بني يزقن ثم رئاسة حلقات وادي ميزاب، وتولىَّ إمامة الدفاع في ردِّ هجوم على بلدته سنة 1203هـ وفي عهده وعهد الشيخ محمَّد ازبار عرفت بني يزقن حركة علْميـــّة، وابتدأت وفود من الطلبة تقصدها للتعلُّم. ينظر:معجم أعلام الإباضية، ترجمة رقم 460.

[5]حمُّو بن كاسي: من علماء النصف الثاني من القرن الثالث عشر من آل زرقون ببني يزقن، اشتهر بحسن تلاوة القرآن الكريم. انظر: أبو اليقظان، ملحق السير، ص 104؛ 155؛ محمَّد علي دبُّوز؛ نهضة الجزائر، ج1 ص300.

[6]عمر بن صالح: من علماء مدينة غرداية، كان قاضي القضاة بها، معاصرا للشيخ عبد العزيز الثميني. انظر: أبو اليقظان: ملحق السير: 130، 131؛ محمَّد علي دبُّوز، نهضة الجزائر، ج1 ص286.

وأهم من تتلمذ الشيخ اطفيش عليه وظل يذكره باستمرار وكثيرا شقيقه الحاج إبراهيم اطفيّش، وكان من تلاميذ الشيخ عبد العزيز الثميني، ارتحل في طلب العلم إلى المشرق، وأقام في مصر متعلما في الأزهر أربع سنوات، ثم رحل إلى عمان[1]؛ واقتنى أثناء رحلته مصادر متعددة استفاد منها الشيخ اطفيش، وتوفي حوالي سنة 1303هـ/1886م، وقد لازمه الشيخ اطفيّش بعد رجوعه من رحلته العلميّة، فأصبح شيخه ومرشده في الطريق وخلد ذكره في كتبه، وذكر العلوم التي أخذها على يده[2].

وبلغ من نبوغ الشيخ اطفيش وجِدِّه في التعلم أن جلس للتعليم مبكرا، وجلس إليه بعض من علّموه في الصغر ليتعلموا على يديه بعد ذلك[3].

---

[1])المرجع نفسه، ج1 ص 284، 285.

[2])اطفيش، جامع الشمل في أحاديث خاتم الرسلﷺ، تحقيق محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1987م، ج2 ص373؛ ينظر أيضا: اطفيش، شرح الدعائم الموسع ، مخطوط، مكتبة القطب رقم (ا و- 2)، و: 45، شامل الأصل والفرع، ط1 المطبعة السلفية القاهرة 1348هـ ، ج1 ص 177، 178، شرح لامية الأفعال، ج1 ص10، ج4 ص478، تحفة الحب، ص 120، إيضاح الدليل إلى علم الخليل، مخطوط، مكتبة القطب رقم (ا.م:4)، ص 28، المسائل التحقيقية في بيان التحفة الأجرومية، مخطوط، مكتبة القطب: رقم (ا.م: 5)، ص 21، التيسير، ج8 ص155، هميان الزاد إلى دار المعاد، ط2 مطابع سجل العرب نشر وزارة التراث القومي عمان ابتداء من سنة 1980م، ج9ق1 ص 388، ج9 ق2 ص142، شرح شرح الاستعارات (مخ)، ظ: 176؛ وينظر: معجم أعلام الإباضية، ترجمة رقم 57.

[3])اطفيش، مجموع رسائل (مخ) مكتبة القطب رقم (أ.ز:7): فيها رسالة إلى الحاكم العسكري يذكر فيها أسماء من كانوا يتعلّمون في حلقته، ص 74؛ إبراهيم حفار، السلاسل الذهبية، ص 18؛. محمد علي دبُّوز، نهضة الجزائر، ج1 ص299؛ أحمد فرصوص، الشيخ أبو اليقظان كما عرفته، مطابع دار البعث، قسنطينة، د.ت، ص 22.

والذي اشتهر به الشيخ في تعلمه وتكوينه عصاميته ومبادرته إلى الاستزادة من العلم، والاعتماد على النفس بسبب الوضع الذي وجد فيه[1]، وكانت هذه طريقته ومسلك الذي سلكه في التعلم وتمكن من ذلك لما أوتي ذاكرة قويّة في الحفظ والفهم السريع، وطموحه ورغبته في التلقّي والتعلّم.

وعرف عنه البحث الحثيث عن مصادر العلم، والتردد على المكتبات التي عرفت بوادي ميزاب، واغتنام فرصة الرحلة إلى الحجاز لاجتلاب المصادر بواسطة الحجيج، وكانوا واسطة بينه وبين العمانيين وأهل زنجبار في كل موسم ينقلون رسائله إليهم ويحملون إليه كتبهم وكتب غيرهم[2].

ومع هذا فإن الشيخ لم يرتحل في طلب العلم خارج وادي ميزاب، عدا استفادته من رحلتيه الحجازيتين، فكانت أسفار الشيخ اطفيّش قليلة جدًّا، تمثّلت في بعض التنقّلات بين قرى وادي ميزاب ثُمَّ وارجلان[3]، ولم يخرج من هذا المحيط إلاّ مرّتين إلى الحجاز.

---

[1] اطفيش، فتح الباب للطلاب شرح معالم الدين، مخطوط، مكتبة القطب، رقم (أ ز- 03)، ص 40.

[2] اطفيش، شرح القلصادي، مصدر سابق، ص 02، مجموع الرسائل (مخ) مكتبة القطب (أ.ز 6)، ص 151-168، كشف الكرب، ج1 ص07، 11، 45، هميان الزاد، ج3 ص148، السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة، المطابع العالمية عمان 1985م، ص231؛ محمد علي دبُّوز، نهضة الجزائر، ج1 ص303، 304، 305.

[3] وارجلان مدينة بالجنوب الشرقيّ الجزائريّ، وهي عاصمة ولاية ورقلة حاليا، وكانت منذ القديم حاضرة وملتقى طرق القوافل بين الجنوب والشمال، ازدهرت بالعلم وعرفت كثيرا من العلماء أمثال: أبي يعقوب الوارجلاني، وأبي عمّار عبد الكافي.

وقلّة رحلات الشيخ تَدُلُّ على مدى تأثير الأوضاع فيه، كاشتغاله معظم الوقت بالتدريس ومنذ وقت مبكّر من عمره[1]، فألزم نفسه تعليم الناس في عهدٍ هُمْ في أشدِّ الحاجة إليه، مِمّا يمنعه من كثرة الحركة، والتغيُّب عن تلاميذه.

ولكن يبقى السبب الأقوى هو التضييق الاستعماريُّ عليه وتقييد حركاته وأعماله، فأصبح لا ينتقل إلاّ برخصة يتلقّاها من القائد العسكريِّ، وقد اتّخَذَ ذرائع ومبرّرات تُسوِّغ له السفر كلّ مرّة إلى بلدة برّيان[2]، فاشترى بستانا بهذه البلدة جعل تعهُّده سببا للسفر وطلب الرخص، وخصَّص وقتا في الخريف وآخر في الربيع يذهب فيهما كلّ سنة إلى بلدة برّيان وقد يتمكّن أحيانا من الحصول على رخصة أخرى للذهاب إلى مدينة القرارة[3].

ويصف الأستاذ مُحَمَّد علي دبُّوز[4] كيف كان أهل هاتين البلدتين يحتفون بزيارات الشيخ حَتَّى تتحوَّل أيّامها إلى أعياد، يقضي فيها الشيخ وقته بين وعظ وإرشاد وتدريس، وتعهُّد لأحوال الناس والإجابة عن استفتاءاتهم.

---

1) بكير أوعوشت: قطب الأئمة، المطابع العالمية عمان 1985م، 113.

2) برّيان: مدينة تبعد عن غرداية بنحو أربعين كلم شمالا، تأسَّست في بداية القرن الثاني عشر.

3) القرارة: مدينة تبعد عن غرداية بنحو 120 كلم شمال شرق غرداية تأسَّست خلال القرن الحادي عشر الهجري.

4) مُحَمَّد علي دبُّوز: نهضة: 340/1، 341، 350.

وكذلك كانت حاله عندما سافر إلى وارجلان سنة 1912م وقد بقي فيها أسبوعين[1]؛ وأيضا لَمـــــّا نزل جزيرة جربة وهو في طريقه إلى الحجاز سنة 1303هـــ /1886م[2].

أمـــّا أهمُّ رحلات الشيخ اطفيـــّش فهما الرحلتان الحجازيـــّتان، وقد ذكرهما كثيرا في مؤلّفاته، وكانت الأولى منهما في العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجريّ حوالي سنة 1290هـــ، وهي التي تردَّد ذكرها كثيرا في مؤلّفاته، كما ذكر الذين التقى بهم من علماء مَكّة والمدينة[3]؛ وكانت الثانية سنة 1303هـــ/1886م، وسجّل مراحلها ووصفها في قصيدته الحجازيـــّة ورسم طريقها وأهمَّ المدن التي توقّف فيها[4]؛ واجتمع في

---

1)إبراهيم بابزيز: كلمة ألقاها في مهرجان القطب عن رحلة الشيخ اطفيـــّش إلى وارجلان، انظر أعمال المهرجان.

2)ســـالـــم بـــن يـــعـــقـــوب: حـــظُّ جـــربـــة مـــن تعاليم القطب: محاضرة مرقونة، من أعمال مهرجان القطب، ص 03.

3)اطفيش، شرح لامية ابن النظر، (خ) مكتبة القطب (أ-ث:1): 934. - الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ط1، د.م، 1326هـــ: 240.

4)اطفيش، القصيدة الحجازية، (خ) ضمن مجموع قصائد وأجوبة، مكتبة القطب، (أ.ز 7).

بعضها بالإباضيـــة والمزابيـــين[1]، وذكر ما اقتنى أثناءها من الكتب، وكان رجوعه منها مع بداية سنة 1304هـــ[2].

في ظل هذه الظروف وبهذه الطريقة عاش الشيخ حياته العلمية، وكانت رسالته التي رسمها لنفسه في الحياة، وتطلع لأن يحقق أمله في التجديد للدين في عصره[3].

وبهذا العمل الدؤوب في الاشتغال بالعلم أحاط نفسه بجملة من العلاقات بينه وبين أهل عصره من العلماء وأهل السياسة والحكام وخاصة منهم المسلمون والسلطة الاستعمارية الفرنسية[4]، ويشهد لهذه العلاقات هذا التراث الكبير من المراسلات

---

1) اطفيش، حاشية القناطر، (خ) مكتبة القطب، (أ.و: 5): 1/ و: 252، وتفسير ألغاز، ط1، د.م، 1306هـــ: 11، 12. سالم بن يعقوب: حظّ جربة من تعاليم القطب: 03.

2) اطفيش، رسالة إلى الوالي العام الفرنسيّ بالجزائر، مؤرّخة في ربيع الأوّل 1304هـــ بقسنطينة، مخطوطة في أرشيف أكس أون بروفنس فرنسا تحت رقم 22H14.

3) اطفيش، الرد على العقبي، المطبعة المدبرية تونس 1321 هـــ، ص 12، خطبتا العيدين، ص 11، ديوان نظم، ضمن مجموع المطبعة المدبرية تونس 1321هـــ، ص 42.

4) انظر في ذلك مثلا: القصيدة الحجازية، مخطوط، مكتبة القطب رقم (أ.ز: 07)، ص 90، 91، شرح لامية ابن النظر، ج1 ص934، إيضاح المنطق في بلاد المشرق، مخطوط، مكتبة الاستقامة ببني يزقن، رقم (65)، ص1، الذخر الأسنى، ص 240، الرد على العقبي، ص11،10، شرح عقيدة التوحيد، تحقيق مصطفى بن الناصر وبنتن، نشر جمعية التراث، القرارة، غرداية، 1422هـــ/2001م، ص 70، التيسير: ج 10 ص35 - 36، جواب مشايخ مكة، ط2 الجزائر 1301هـــ ، ص11،10، خطبتا العيدين، ص 11، 12، إزهاق الباطل بالعلم الهاطل، طبع قديم 1317م، ص 22 – 24؛ عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون دار حداثة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت دت، ص 14.

والأعمال التي يذكر في ثناياها لقاءه بعالم أو زيارة آخر له، وفي أسباب التأليف التي يشير إليها أحيانا في بعض مؤلفاته[1].

تدريسه وتلاميذه

من أعظم المهام التي انتدب الشيخ نفسه لها مهمة التدريس ونشر العلم، وكانت وسيلة فعالة في يده استغلها واستعملها لمقاومة الأوضاع والتغيير منها[2].

فقد جلس الشيخ للتدريس في الخامسة عشرة من عمره، وجعل داره معهدا[3]، وقد قضى حوالي ثمانين عاما في التعليم حتى آخر عمره، وكان يدرّس مقيما أو مسافرا في الجزائر وخارجها[4].

---

[1]) اطفيش، الرد على العقبي، ص 29 - 34؛ رسائل بين القطب والإدارة الاستعمارية، مخطوط، مكتبة الاستقامة، بني يزقن، (د.ر)، ص 05؛ مجموعة رسائل (مخ)، مكتبة القطب (أ.ز 6)، ص 03، الرد على الانكليزي، المطبعة المديرية تونس 1321هـ ضمن مجموع، ص 05، التيسير، ج13 ص 118؛ شرح شواهد الوضع، مخطوط، مكتبة القطب بني يزقن، (أ.ع: 03)، و: 52؛ أبو اليقظان، ملحق السير، ص 159، 161، عبد الرحمن بكلّي، محاضرة في مهرجان القطب، ص 02؛ محمّد علي دبُّوز، نهضة الجزائر، ج1 ص 329؛ وينظر:

Emil Masqueray: Chronique d'Abou Zakaria, Imprimerie de l'Association ouvrière. Alger P: XXXI ; P.Cuperly: Aperçus sur l'histoire de l'ibadisme au M'zab, 1971م رسالة ميتريز مرقونة قدمت بالسربون سنة :p14 .

[2])محمّد علي دبُّوز، نهضة الجزائر، ج1 ص 302.

[3]) محمّد علي دبُّوز، نهضة الجزائر: ج1 ص 302.

[4]) اطفيّش، شرح شرح الاستعارات، ظ: 72، و: 81، ظ: 155؛ ظ: 185، شرح النيل، ج1 ص 47، الرد على العقبي، ص 10؛ إبراهيم حفار، السلاسل الذهبية، ص 26،27؛ محمّد علي دبُّوز،

ومن ثمرة هذه الجهود تتلمذ عدد كبير صعب حصره على من ترجموا للشيخ كما صعب حصر مؤلفاته[1]، وهو بنفسه لا يذكر لهم عددا، إذ قال بعد أن ذكر بعضا منهم: «وغيرهم لا يحصون لأنّهم يقرأون مدّة ويتحدّد آخرون»[2]؛ وذلك لأنه علّم في مواطن متعددة ولفترة طويلة، وأهم من يُذكر من تلاميذه أولئك الذين تحملوا من المهام ما تحمله شيخهم، وتفانوا في مواصلة رسالته، ومنهم[3]:

- الحاج صالح بن عمر لَعْلِي[4].

نهضة الجزائر، ج1 ص337؛ أعمال مهرجان القطب: فيها وثيقة بإمضاء الشيخ أحمد بن حمزة الرفاعي يروي فيها عن أبيه كيف تمّ قبول تدريس الشيخ اطفيش في المسجد النبوي، وكان هو الواسطة في ذلك.

[1]) P: Cuperly: Aperçus ;p 7.

[2])اطفيّش، مجموع رسائل: مكتبة القطب (أ.ز 7)، ص 74، 75.

[3]) ينظر: محمّد علي دبّوز، نهضة الجزائر، ج1 ص377 – 381؛ محمّد بباعمي: فهارس ملحق السير: بحث مرقون: جزء منه بمكتبة الباحث: فهرس أسماء تلاميذ القطب،

L. David: Les mechaikh du M'zab: p4

[4])الحاج صالح بن عمر بن داود لعلي، (و: الإربعاء 20 رمضان 1287هـ / 1870م – ت: ضحوة السبت 27 ربيع الثاني 1347هـ / 13 أكتوبر 1928م)؛ فقد بصره وهو صغير السنّ تعلم على يد خاله الحاج سعيد بن يوسف ويتّنْ والشيخ امحمد ابن سليمان ابن ادْريسُو؛ ثُمَّ الشيخ اطفيّش، حضر دروسا في الزيتونة والأزهر، فتتح دارا للتدريس؛ ورأس مجلس العزّابة واشتغل بالإصلاح الاجتماعيّ، من مؤلّفاته: "القول الوجيز في تفسير كلام الله العزيز"، و"خلاصة المراقي" منظومة في معرفة مبادئ الإسلام، ورسالة في الصوم والإفطار، وحواش على كتب متعددة؛ ينظر: معجم أعلام الإباضية، ترجمة رقم 506.

- سليمان باشا الباروني [1].

- أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج محمّد بن الحاج إبراهيم بن يوسف اطفيّش [2].

- أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى حمدي [3].

---

[1] سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني (باشا) (و: 1287هـ / 1870م - ت: 23 ربيع الأول 1359هـ / 1940م

من علماء نفوسة (ليبيا)؛ حفظ القرآن الكريم، وانتقل إلى جامع الزيتونة سنة 1305هـ/1887م، ثمّ إلى وادي ميزاب وتتلمذ على الشيخ اطفيّش، وانتقل إلى الأزهر، واهتمّ بالفكر والسياسة كثيرا؛ أنشأ مطبعة الأزهار البارونيّة بمصر وطبع فيها كتابه «الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضيّة»، وديوانه الشعريّ؛ وأصدر جريدة «الأسد الإسلاميّ» فصودرت ، وكان من قادة المقاومة الليبية ضد الاستعمار الإيطاليّ، ينظر: زعيمة الباروني: سليمان الباروني تعريف موجز؛ المرجع السابق، ترجمة رقم 457.

[2] إبراهيم بن الحمد ابن إبراهيم بن يوسف، اطفيّش (أبو إسحاق)(و: 1305هـ / 1886م ت: 20 شعبان 1385 هـ / 26 ديسمبر 1965م نشأ ببني يزقن وتتلمذ على الشيخ اطفيّش، والشيخ عبد القادر المجاويّ؛ ارتحل إلى تونس حوالي سنة 1335هـ/1917م؛ اشتهر بمقاومته السياسية للاستعمار، وانشغاله بأوضاع المسلمين في عصره، نشط ضمن الحركة الوطنية بتونس، وقد نفي إليها ثمّ إلى مصر؛ وواصل نشاطه الفكريّ والسياسيّ، أصدر مجلّة «المنهاج»، قام بأسفار للدعوة في زنجبار سنة؛ دافع عن القضيّة العمانية ضد بريطانيا في الأمم المتحدة، وعمل في دار الكتب المصرية إلى وفاته، وله أعمال كثيرة منها: الدعاية إلى سبيل المؤمنين؛ تاريخ الإباضيّة؛ تأويل المتشابه.....إلخ. بالإضافة إلى جهوده في تحقيق الكتب ونشر التراث الإسلاميّ، وإليه يعود الفضل في طباعة أكثر كتب الشيخ اطفيّش. انظر: المرجع السابق، ترجمة رقم 037.

[3] إبراهيم بن عيسى، حمدي أبو اليقظان(29 صفر 1306 هـ / أوائل نوفمبر 1888م - 26 صفر 1393 هـ / 30 مارس 1973م) من علماء القرارة، نشأ يتيما تعلّم عند الشيخ الحاج عمر بن يحي ثم الشيخ اطفيّش، عمل في التجارة أول عهده، ولم يلبث أن عاد إلى الدراسة ولازم الشيخ

وكان توليه التعليم وسيلة هامة لامتداد فكره وآرائه واستمرار نشاطه وإصلاحه الذي جسده الذين جاؤوا من بعده من تلاميذه.

آثاره العلميَّة

ترك الشيخ آثارا متعددة في مجالات مختلفة من العلم، وكان التأليف عنده موازيا للتعليم، وقد بدأه من سن السادسة عشرة[1]، واشتغل به كثيرا في حله وترحاله[2]، وأنتج الكثير من المؤلفات فكان إنتاجه العلمي غزيرا صعب حصره، واختلفت أقوال المترجمين له في عدد هذه المؤلفات، وقدم البعض أعدادا واكتفى الآخرون بذكر كثرتها[3]؛ والذي أمكن إحصاؤه من مؤلفات الشيخ المتداولة وما

اطفيَّش فيما بقي من عمره ، ارتحل إلى تونس للدراسة؛ ونشط في الحركة السياسيّة بتونس مع الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وكان عضو اللجنة الأدبيّة للحزب الدستوريّ التونسيّ حين تأسيسه، ثمّ عاد إلى الجزائر وشارك في أعمال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، استعمل الصحافة لإظهار معارضته للاستعمار، كان رائدا في الصحافة الجزائريّة؛ أصدر ثماني صحف متتاليّة، أصيب بالشلل النصفيّ. ترك كثيرا من الآثار مطبوعة ومخطوطة، وقد أحصى بنفسه ستة وأربعين (46) عملا، ينظر: أحمد فرصوص: أبو اليقظان كما عرفته؛ معجم أعلام الإباضية، ترجمة رقم 042.

[1])اطفيَّش، قصيدة الغريب، مخطوط، مكتبة القطب رقم (أ.و:9)، ص 01.

[2])اطفيَّش، شرح النيل، ج1ص44؛ إبراهيم حفار:السلاسل الذهبية، ص 46؛ محمَّد علي دَبُّوز، نهضة الجزائر، ج1 ص308، 309.

[3])أبوإسحاق إبراهيم اطفيش، الدعاية إلى سبيل المؤمنين، المطبعة السلفية القاهرة 1342هـ، ص 108؛ ينظر: أبواليقظان، ملحق السير، ص 159؛ اطفيش، الذهب الخالص، مقدمة أبي إسحاق للكتاب، ص: هـ؛ عبد الله كنطابلي، بطاقات تعريف لقطب الأئمة ومؤلفاته (مخ)، عدون جهلان: الفكر السياسي عند الاباضية، ص 111-117؛

ذكره وهو موجود في المكتبات أو ما زال مفقودا هو خمسة وثلاثين ومائة أثر (135)، منها الكتب ومنها الرسائل، من هذا العدد سبعة ومائة كتاب، الموجود منها أربعة وتسعون كتابا[1]، والضائع المفقود ثلاثة عشر كتابا، ويضاف إلى هذا ثمانية وعشرون قصيدة ومنظومة عدا المقطوعات المتناثرة بين ثنايا كتب الشيخ[2]؛ وقد توزعت هذه الآثار على فنون متعددة من العلم، وكان محورها العلم الشرعي وما يخدمه خاصة اللغة وعلومها، والمنطق، والجبر.

وأهم المجالات التي كتب فيها العقيدة وعلم الكلام والفقه.

الإصلاح الاجتماعي عند الشيخ اطفيش

نظرا للوضع العام الذي عاشه الشيخ، وتحمله عبء النهضة بالمجتمع فقد بذل جهودا كبيرة ما تزال آثارها واضحة على المستوى الاجتماعي بوادي ميزاب، وإلى نشاطه يعود الكثير من الفضل في تغيير الأوضاع الاجتماعية، وتعتبر الجهود التي تلت عهده امتدادا لحركة ابتدأها ثم أكملها تلاميذه من بعده ومن سار على دربهم.

J. Schacht: Bibliothéques et Manuscrits Abadites: Revue Africainne, Année: 1956: 375-398; L, David: Les Mechaïkh du M'zab: p 4 ; P. Cuperly: Aperçus: 11.

[1] هذا بإضافة كتاب "الحواشي المحمدية على المقدمة الهاشمية" وهو حاشية على القطر وشرحه، وكنا نعده من الآثار المفقودة حتى وجدناه بمدينة مليكة بوادي ميزاب، ينظر: وينتن، آراء الشيخ اطفيّش العقدية، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، 1417هـ /1996م، ص 494.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص 479 - 479.

وقد بدأ إصلاحه بعد معاينة أوضاع المجتمع وتحليلها والكشف عن أسبابها، وخلص إلى أن السبب الحقيقي والأكبر هو الجهل وتفشيه في أوساط المجتمع، فكان جهاده الأكبر متمثلا في نشر العلم، وتبصير الناس بتردي أحوالهم ومحاولة تغييرها، وهو في هذا على الطريق ذاته التي سلكها المصلحون من علماء الإسلام في عصره.

ويرفع من شأن الاشتغال بإصلاح أوضاع الناس والاهتمام بها إلى درجة جعلها هي أولى الأولويات فقال ناصحا من سأله: «وَمِمَّا سألتما عنه: الاشتغال بأمر المسلمين، اعلما أنّه أولى من الانفراد، لكن مع تحمُّل الأذى ومعالجته، وإذا قوي إخلاصكما سهل عليكما الأذى فتجدان راحة في قلوبكما تصلان معها إلى التعلُّم والتعليم»[1].

ولم يتعامل الشيخ مع كل الأوضاع والقضايا بطريقة واحدة فهو أحيانا يتناول إصلاح بعض الأوضاع وتغييرها مباشرة، ويقضي في ذلك الوقت الكافي، وربما كان هذا في بداية عهده بالإصلاح، وفي قوة شبابه، أو لخطورة هذه القضايا التي يعالجها، أو أيضا يكون قد وقع في ردود أفعال من استفزاز الذين يعارضونه، ويناوؤونه، مثل إرجاع الناس إلى خلق الاستئذان بالسلام، والتحية به[2]؛ وتصحيح أخطاء في تلاوة القرآن الكريم وأحكامه.

وأحيانا يكتفي بالتلميح والإشارة إلى الأخطاء، أو ينتهز فرصة التأليف ليبث فيه نظراته وآراءه في الأوضاع التي يعيشها ويشاهدها، ويبدو أنه كان يفضل هذا ويعتبره خطوة مرحلية وتدريجية في الإصلاح، وذلك عندما يتعلق الأمر بقضايا إما غير ذات خطر

---

[1]) اطفيَّش، كشف الكرب، ج1 ص106.

[2])اطفيَّش، جواب إلى محَمَّد بن عبد الله الخليلي، مخطوط، مكتبة محَمَّد الحاج سعيد، رقم (141)، ظ: 02.

كبير على العقيدة والشرع، وإما لشدة تمكنها من الناس، فكان يرى ضرورة اتباع التدرج والحكمة في تناولها وإصلاحها[1].

و لم يكن هذا الجهد يسيرا على الشيخ إذ اجتمعت على معارضته أطراف متعددة اشتكى منها؛ منها الجهل المنتشر في الناس، وخصومتهم له، وتمكن البدع من نفوسهم، وظنهم به سوءا وتشبثهم بمواقفهم، إضافة إلى يد الاستعمار في الموضوع، شكلت كلها ثقلا وعقبات في سبيل نجاح هذه الجهود[2]، وتتصاعد وتيرة هذه المواجهات والمعارضة لتصل في فترة إلى نفي الشيخ من بلدته وسيلة ردعية ضده، وكذا محاولة قتله[3].

مقاومته الاستعمار

لقد كان للشيخ مع الاستعمار شأن خاص، ومقاومة متعددة الجوانب، إذ تدلنا أعماله وما كتبه عن الاستعمار أو إلى الاستعمار الفرنسي، وما كتبه الاستعمار عنه أنه كان من أشدّ المناوئين له، وهو نموذج من العلماء الذين ابتلوا بالاستعمار وجاهدوا في مقاومته.

وبالفعل فإن المصادر تنبؤنا عن مواقف جليلة للشيخ، يطبعها الشعور بالأسى للوضع الذي آلت إليه البلاد الإسلامية والمسلمون، وللظلم الذي سيموه في سبيل الحصول على الحرية، وعن منهج قويم في العمل على رفع الاستعباد عن المجتمع.

---

[1] يحي بكوش، شرح النيل دائرة معارف إسلاميَّة، المطبعة العربية، غرداية، 1984م، ص 34-35.

[2] اطفيَّش، مجموع قصائد وأجوبة، (مخ) مكتبة القطب، (أ.ز 7)، ص 05، قصائد القطب، (مخ) مكتبة الاستقامة، (ف-1)، ص 32، شرح لامية ابن النضر، ج1 ص 232، كشف الكرب، ج2 ص55.

[3] أبو اليقظان، ملحق السير، ص 170؛ محمَّد على دبُّوز، نهضة الجزائر، ج 1 ص331.

يمكن إدراك هذا والوصول إليه من خلال بحث تصوره للاستعمار وسبب سيطرته على البلاد، وحكم مقاومته، والتخلص منه.

كان يرى الاستعمار حكم من الكفار على المسلمين، ويجب أن يزول ويترك ما استولى عليه[1]، ويرى أن المستعمرين لا يمكن أن يكونوا نصارى حقيقيين، وما ذلك إلا ادعاء منهم، لأن الله تعالى يحدثنا عن النصارى بغير ما يرى الشيخ عن هؤلاء، فهو يحاول تبرءة ساحة النصارى الحقيقيين من فعل المستعمرين، وأنهم لو كانوا مؤمنين بالنصرانية لكانوا على نحو ما قال الله تعالى عنهم، لأنهم أصبحوا في عدائهم للمسلمين كاليهود، فهو يعبر عن حيرة بين الواقع وبين ما جاء في القرآن الكريم، الذي يصف النصارى بأنهم أقرب أهل الكتاب إلى المسلمين، ولا يشكّ في صدق قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة:82]، فلا يمكن اعتبار هؤلاء إلاّ أدعياء على النصرانية لأنهم كما قال: «في عداوة المؤمنين كاليهود»[2]، ولا يعاملون المعاملة المفروضة على المؤمن تجاه أهل الكتاب، وإن هذه الآية لا تعنيهم، وبالتالي يفترض أن يعاملوا معاملة الكفار الأعداء.

ويقوم هذا عند الشيخ خطوة أولى في تصور الموقف، وتأصيل وجوب مقاومة الأعداء، والعمل على مقتضى هذا التشخيص.

ومن هنا يظهر الشعور بوجوب العمل على مقاومة الاستعمار، ويصبح هذا واجبا شرعيا، وضمن رسالة الشيخ في الحياة، ولا يصبح للحياة معنى إلا بقدر ما يحقق من هدف مقاومة الاستعمار، يقول في هذا:

---

[1]) اطفيّش، هميان الزاد، ط2، ج5 ص546.

[1]) المصدر السابق، ج5 ص546.

لَوْلاَ ثَلاَثٌ هُنَّ: تَعْلِيمُ جَاهِـــــــلٍ وخِدْمَةُ رَبِّي وَالجِهَادُ لِذِي الكُفْرِ

لَـــا كُنْتُ أَخْشَى المَوْتَ وَالمَوْتُ لاَزِمٌ وَإِلاَّ فَمَا الحَيَاةُ وَالمَرْءُ فِي قَهْرِ[1].

فعاش على أمل التخلّص من الاستعمار واسترجاع المسلمين لكرامتهم وسيادتهم ومسالف مجدهم[2].

وفي نظره أن في المجتمع المسلم أسبابا جعلته عرضة لأن يستعمر ويستولى على ممتلكاته، ولا يلقي بالتبعة على الغزاة وحدهم، وهو في هذا يشير إلى سنن الله تعالى في الخلق، التي تسري على الجميع، فقد كان المسلمون هم سادة العالم والغالبون، وكانوا أثناء ذلك متبعين لأمر الله، قائمين بالحق، ولما غيَّروا السبيل غير الله أحوالهم، فإذا استعمروا فلأنهم مكنوا للغير بما فعلوا[3]. وهذا تنزيل للقرآن الكريم على الواقع، في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال:46].

ويقدِّم الشيخ أسباب الاستعمار التي تجتمع في مجملها على أن المسلمين انشغلوا بالسفاسف وتركوا الانشغالات الأساسية والمهمة، ومن الانشغال الاهتمام بالتأليف على

---

[1]) اطفيش: قصيدة بدر (مخ)، ضمن مجموع: مكتبة الاستقامة (ف-11)، ص 23.

[2]) اطفيش، هميان الزاد إلى المعاد، ط1، المطبعة السلطانية زنجبار 1305هـ، ج13 ص188، وانظر نهاية تفسير كل سورة تجد الشيخ يختم قوله بالدعاء لنصرة المسلمين وإبعاد المستعمرين؛ وكشف الكرب، ج2 ص207، 322.

[3]) اطفيش، هميان الزاد إلى المعاد، ط1، ج13 ص 202، 203.

حساب العمل الجهادي العسكري[1]، وأضعفوا شوكتهم بالنزاع الداخلي بينهم، واختلافهم فيما بينهم، إضافة إلى استعانتهم بعدوهم على بعضهم البعض، وكانت النتيجة أن سلط الله عليهم عدوهم وعذابه، لأنهم ـــ حسبه ـــ عرفوا الحق ولم ينصروه، وتركوا الواجب عليهم وضيعوه[2].

وهذه قراءة سننية لواقع المسلمين على عصر الشيخ، ولا ينبغي أن تفهم على أنها نوع من اليأس؛ لأننا عندما نجمع هذا مع نظرته إلى الطرف الثاني في الظاهرة الاستعمارية نجد فيها توازنا في نسبة الأسباب إلى كل طرف بحسب مسؤوليته في الموضوع؛ وهذه النظرة هي ذاتها التي تجسدت بعد ذلك لدى المفكر الجزائري مالك بن نبي، في قوله بالقابلية للاستعمار وأن البلاد إذا استعمرت فلأنه كان فيها قابلية للاستعمار مما يدل على توافق النظر السديد بين العالِمَيْن[3].

وبعد بناء هذا التصور ينطلق الشيخ في الجانب العملي والأثر الفعلي لنظرته إلى الموضوع، فأول ذلك أن رأى أن الجهاد واجب لرد الغزاة، ويقدمه على أي عمل آخر

---

[1]) اطفيش: التيسير، 5 ص 339 – 340؛ ينظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية الجزائر 1350هـ، ص124.

[2]) اطفيّش، الهميان، ط 2، ج2 ص158.

[3]) المصدر نفسه، ط1، ج13 ص202، 203؛ ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق 1986م، ص 152-155.

كما نصح قائلا: "هذا الزمان أحوج إلى الورع والسيوف منه إلى الاعتناء بالنظم والتأليف"[1].

وكانت المبادرة الأولى محاولته مقاومة الاستعمار عند حملته على وادي ميزاب، سنة 1882م[2]، فكان يمثّل العقبة الأولى أمام الحملة الاستعماريّة، وقاد حركة مقاومة سرعان مااستطاع الفرنسيّون قمعها، واعتقلوا الشيخ حتّى لا تتّسع رقعة الجهاد كما حدث في الشمال الجزائريّ، وليكون ذلك رادعا لغيره[3]. ولم يكن لديه من العتاد ما يكفي، فلم تكن نتيجة هذه المقاومة شيئا يذكر، وثبت لديه أن المقاومة تحتاج إلى تحضير أكثر، وإلى تجنيد قوى أكبر مما بين يديه.

وكان هذا سببا في تغيير الشيخ لطريقته في المقاومة، من المقاومة المسلحة إلى المقاومة الفكرية، وتحضير من يتولون الثورة على المستعمر، وهي كذلك نتيجة انتهى إليها غيره من العلماء في الجزائر فيما بعد، وخاصة بعد احتفال الفرنسيين بقرن من استعمارهم الجزائر ظانين أنه استتب لهم الأمر واستقر.

---

[1]) اطفيش، تفسير ألغاز، ط1 دم 1306هـ، ص 51، 52، التيسير، 5 ص 339 - 340، ينظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 124.

[2]) وينتن، آراء الشيخ اطفيّش العقدية، ص 17، 18.

[3]) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر، ج1 ص331؛ علي يحي معمر، الإباضية الجزائر، الحلقة الرابعة من الإباضية في موكب التاريخ، الجزء الثاني، صححه الأستاذ أحمد عمر أوبكه، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1986م، ج 473/2، 556.

وكان سلاحه الجديد أكثر أثرا، وإن كان طويل الأمد، وهو التعليم والتأليف، وكانت الواجهة الكبرى التي أنفق فيها الشيخ أكثر جهده، وعبر عن ذلك بقوله: «أكبّ على التأليف إذ لم أجد بِنَا غَازِيًا يوما ولاما به أغزو»[1].

فأصبح بيته معهدا يتخرج منه من يحملون هذه الروح الثورية إلى جانب ما يتعلمون من علوم، وربّى مجتمعا محصّنا ضدّ مكايد الاستعمار المتعدّدة في الفكر والعقائد وسائر مناحي الحياة[2].

وكان لهذا أثره إذ استطاع أن يقاطع الاستعمار، حتى تمكن من انتزاع حقّ تولية القضاة بوادي ميزاب، لمّا أعلن أنّ القضاة الذين تولّيهم الإدارة الاستعماريّة لاتعتبر أحكامهم شرعيّة إلاّ في الضرورة، فأصبح القضاة من تلاميذه الذين تربّوا على يديه[3].

وقد توسع عمل الشيخ ضد الاستعمار وشمل الجزائر وخارجها بما كان له من صلات مع تلاميذه وغيرهم، ممن يقاومون ضد الوجود الاستعماري في البلاد الإسلامية، ورأى أن من واجب المسلمين أن يستردوا ما ضاع من بلادهم منذ سقوط الأندلس، وما بعده[4].

---

[1]) اطفيش، التيسير، 5 ص 339- 340، 6 ص 31 – 32؛ مصطفى وينتن، موقف الشيخ احمد بن يوسف اطفيش من الاستعمار، دورية الحياة، العدد 02، رمضان 1419هـ/جانفي 1999م، ص 19- 28، نشر جمعية التراث، القرارة، غرداية الجزائر، ص19 – 28.

[2]) عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ص 12.

[3]) اطفيش، أرجوزة الأحكام، مخطوط، ضمن مجموع، مكتبة القطب رقم (أ.ز: 7)؛ ص 47؛ عبد الرحمان بكلي، محاضرة في مهرجان القطب، أعمال المهرجان، ص 06.

[4]) اطفيش، شرح كتاب النيل، ج15 ص 302.

وفي مراسلاته يغتنم الفرصة للتحريض والتشجيع على العمل من أجل التحرر، كما قال مذكرا بالموضوع، وبما كان السابقون يتفانون في سبيل الحفاظ على البلاد: "ولكن قصدت الاتصال بكم لعل الله يرحمكم بأن يوقظكم لطرح ما لا يعني ... وللاشتغال بالمحافظة على بر الإسلام خصوصا الحجاز، واسترداد ما أخذ الكفرة من البلاد؛ لمّا طغت كفرة الأندلس وأخذوا من عدوتنا وهران وتلمسان وغيرهما، صرفت أجدادكم العناية لذلك، فردوهما وغيرهما، وأخذوا مراسي عدوتنا إلى طنجة المغرب، وكان سلطان المغرب سلطان مراكش إذ ذاك ذا شوكة تحته طنجة وغيرها"[1].

ومنع من استفتاه من الهجرة هروبا من الاستعمار وسطوته، ورأى أن الهجرة إخلاء للجو للمستعمر وتمكين له في الأرض، وهذا التصرف محرَّم، وأوصى بالإقلال من الملذّات والنزاعات وبالاهتمام بأمر الإسلام[2].

وشارك تلميذه الباروني سليمان باشا لمّا كان يجاهد الإيطاليين بليبيا وجمع له الأموال من الجزائر مساندة ومساعدة للمجاهدين في جهادهم وأيده بالدعاء[3].

وهكذا استمر تلاميذه من بعده، ومنهم خاصة أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، وأبو اليقظان إبراهيم[4]، وكانت جهودهما أثرا من تربيته وتوجيهه.

---

[1] اطفيش، تفسير ألغاز، ص 51.

[2] اطفيش، اهميان، ج7 ق1 ص291، التيسير، ج 9 ص400، تفسير ألغاز، ص 51.

[3] محمد علي دبوز، نهضة الجزائر، ج1 ص332 ؛

P.Cuperly: Aperçus sur l'histoire de l'Ibadisme au M'zab; p 12.

[4] ينظر: آراء الشيخ اطفيّش العقدية، ص 17، 59، 60.

ولما كان الشيخ قد حمل لواء الجهاد ضد الاستعمار فقد لاقى منه ما لقي غيره من المناوئين له، وبقدر معارضته للاستعمار فقد عمل الفرنسيون على تنغيص حياته ومحاولة صدّه، والتقييد من جهوده، وإثارة الفتن الجانبية في طريقه، حتى قال عن بعض هذه الفتن: «أظنّ أنّ الشيطان قد دخل فيها بنفسه»[1].

فقد سجنوه أول مرة لما دخلوا وادي ميزاب تحسبا من مقاومته، وسرعان ما أطلقوا سراحه لمكانته، خوف أن يثير الناس ضدهم، ولكن فرضوا عليه إقامة محدودة لا تتعدى قرى وادي ميزاب، وأحيانا لا تتعدى قريته بني يزقن فلا يخرج إلا برخصة محدودة المسافة والمدة، إلى بريان والقرارة[2].

وكان له مع هذا مراسلات مع الإدارة الاستعمارية أغلبها احتجاج على ممارسات المستعمرين، وتدخلهم في الحياة العامة للمسلمين، وتعسفهم في اتخاذ أحكام تخالف الشرع، من ذلك طلبه فتح طريق الحجّ، وتحريم المكس المفروض على التجار في الأسواق، وتخفيض الغرامة المفروضة على الناس[3].

فقد كان في نظر الاستعمار شيخا من الأهالي، وشخصية دينية وأحد القادة الدينيين، وشديدا في مقاومته للاستعمار، ورأى الاستعمار أن قدراته رغم ضعفها يمكن أن

---

[1]) اطفيش، خطبتا العيدين، ص 45.

[2]) الحاج سعيد يوسف:تاريخ بني مزاب 180؛ ينظر: وينتن، آراء الشيخ اطفيّش العقدية، ص 28.

[3]) اطفيش، الذهب الخالص، مقدمة أبي إسحاق، ص: و؛ د. محمد ناصر: الشيخ الفرادي حياته وآثاره، ص 232؛

P.Cuperly, Aperçus, p12.

تسبب القلاقل باعتباره رئيس المتذمرين الميزابيين، كما ورد في أحد التقارير، واقترح فيه أن يوضع تحت الرقابة المستمرة إن استدعت الضرورة ذلك.

وهو في تقدير هذا التقرير نشط متشدد، وأنه كان يغيب عن بلدته للتجارة، وكذلك للعمل على مقاومة فرنسا، وينشغل كثيرا بالقضايا العسكرية خاصة التي تتعلق بوادي ميزاب، وقد وضع تحت الإقامة الجبرية المستمرة فعلا، وتولت السلطة العسكرية بغرداية الرقابة عليه، وله اتصال بالخارج، ولكن لا يعلم موضوع الاتصالات، وله متابعة للصحف الأجنبية، وبالوطنيين[1].

وفي تقرير من العقيد المكلف بدائرة الجزائر إلى الحاكم العام مؤرخ في 23 مارس 1906 يذكر فيه أن الشيخ اطفيش مسجل في القائمة (ب B) وأن: «هذا الأهلي هو المشتبه به الوحيد التابع إلى إدارة ناحية الجزائر وهو الآن في ناحية الجنوب»[2].

قال عنه لويس دافيد واصفا مقاومته لفرنسا: «لم يترك هذا التصرف الشديد ضد فرنسا إلى آخر أيامه، وحافظ عليه، لم يرد أن يكلف نفسه أبدا عناء استقبال حاكم أو جنرال»[3].

كما وصفه غيره في تعامله مع الفرنسيين، فقال عنه لوسيان بالوريه Lucien Palhories واصفا شهرته في وقته، وأنه حاول بكل ما أمكن أن يتعرف عليه وأن يراه

---

[1]) أرشيف الإدارة الاستعمارية، تقرير عن الشيخ اطفيّش، نسخة منه بمكتبة الباحث.

[2]) المصدر نفسه.

[3]) L . david, Atfyech et son époque, p 13.

ويجلس إليه، ويحكي قصة مثيرة لا ندري مبلغ صدقها، فهو يقدم الشيخ في صورة من التعالي على المسيحيين، وحكى كيف أن مقابلة الشيخ غير متاحة لأي شخص، فيجب على الراغب في رؤيته أن يتقدم بطلب ذلك إلى قائد المدينة الذي يحمل الطلب إلى الشيخ وهو يقرر الاستجابة أو الرفض، وإذا لم يسلك هذه السبيل فسيتعب وربما ذهبت جهوده أدراج الرياح، ويروي عن لوي دافيد كيف استطاع أن يصل بأعجوبة وحيدة إلى بيت الشيخ[1].

ويمكن أن يفهم من هذا علاقة الشيخ اطفيش بالاستعمار، وما كان بينهما من تنافر، جعل الاستعمار يحسب لأعماله الحساب ويحاول أن يكسب جانبه من أي طريق.

ولم يتغير موقف الشيخ، وتبعا لرأيه في الظاهرة الاستعمارية فإنه بقي آملا في تحرير البلاد، وداعيا إلى ذلك مقدما أسباب هذا الخلاص، آمرا بوحدة المسلمين شرطا أساسيا في الموضوع وقال:« قلت إذا لم يتآلف المؤمنون عوقبوا بكلّ ماضاع من أمر الدين والدنيا بعدم الألفة بينهم»[2].

ويفسر القرآن متخذا منه سببا لاستنهاض الهمم، فقال في تفسير آية: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ [الانفال: 60]: «والآن يجب على عامّة الموحّدين، ولاسيّما السلاطين وأتباعهم أن يستعدّوا بالرصاص والبارود والمدافع، ويتعلّموا ذلك تعلّما كلياً محقّقا ويعلّموه الأجناد لعلّهم يزيلون بعض غلبة أهل الشرك، والآية شاملة لهذا بالمعنى والإلحاق والقياس وكأنّها نصّ فيه»[3].

---

[1] L. Palhoriés, Sahara carnet de route Alger- Tamrasset; p 356- 361.

[2] اطفيش، شرح المخمسة (مخ)، مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي بني يزقن (د.ر)، و: 56.

[3] اطفيش، التيسير: ج5 ص 356.

وبقي مهتما بالموضوع إلى آخر أيامه، وكان بين أمل في تحقق الاستقلال وبين يأس من قربه أحيانا أخرى، حتى استبعده وقال لن تستقلّ حتّى ينزل المسيح عليه السلام؛ ما لم يغيّر المسلمون ما بهم ويعزموا على الجهاد[1]؛ ويتفاءل أحيانا ويتنبأ بقرب خروج الاستعمار من الجزائر[2].

وهكذا احتسب كل عمل قام به من أجل استنهاض الهمم، وإسهاما في مقاومة المستعمر وتنشئة الناس وتربيتهم على العمل من أجل تحقيق التحرر منه والاستقلال عنه. وكان الجانب الذي أسهم به الشيخ أكثر وقدم فيه أعمالا جليلة هو مجال التعليم والتأليف، ولم يكن يخفي هذا في كتبه، لأنه رأى من أهم أسباب الاستعمار الجهل الذي أطبق على الأمة وجعلها من وراء الركب، وتبعا لغيرها، ولا مخرج لها من دون الرجوع إلى العلم، والتحرر به. وهذا ما تجسده مؤلفاته وأعماله العلمية.

---

[1]) اطفيش، الهميان، ج9 ق 2 ص300.

[2]) اطفيش، قصيدة بائية، ضمن مجموع قصائد، (مخ)، مكتبة القطب، رقم (أ.ز 7)، ص 07.

قطب الأئمة محمد بن يوسف اطفيش رحمه الله (1821-1914م)

بقلم : لخضر لزرق

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن الكتابة في مواضيع كهذه يستوجب على الواحد منا أن يكون ذا باع يسند، وقوة فكرية شاسعة تعضد، وكلا الأمرين صاحب البحث خلو منهما، والشكوى إلى الله وحده.

لقد تكرمت الجامعة وكالعادة ـــ وكم لها من عوائد حميدة ـــ بأن جعلت الشخصية المختارة لعام 2010 م هي الشيخ : محمد بن يوسف اطفيش ، القطب الأوحـــد ، والنجم الأبرز ، وليتنا نقدره قدره، ونعطيه من البحث حقه.

فكانت هذه الوريقات القليلة في جنب رجل خدم الجزائر، وضحى من أجلها، وقدم للعربية والإسلام الكثير والكثير.

إن الكلام على القطب يطول، وقد جاء البحث لذلك ، غير أني أردت من هذا العرض أمورا:

توحيد الرؤية لدى الباحث وغيره حول الشخصية الجزائرية.

إبراز جهود العلماء حول القضايا الأساسية التي تهم الشعب الواحد.

النظرة الثاقبة من أهل العلم تجاه قضايا وطنهم، ونبذ التشدد والتعنت الفكري.

محاولة إبراز التكاتف الديني بين شرائح المجتمع الواحد، بل والمجتمع الأكبر (الإسلامي).

غير أن الوقت أسهم في نقص غير قليل في مادة هذا البحث ، وندرةُ المراجع والمصادر حول هذه الشخصية أربكتني أيما إرباك حيث صرت أنقل بالواسطة، مع أني تحشمت

السفر للوصول إلى غرداية بحثا عن بعض الكتب التي تخدمني، لكني حصّلت بعضها وبعضا جاءني متأخرا، وحسب المرء جهده، والله يتولى كل مسلم ويحفظ كل مؤمن.

وقد تناولت الموضوع حسب النقاط التالية:

المقدمة.

حياته الشخصية:

- اسمه ونسبه
- مولده.
- أسرته ونشأته.
- شيوخه.
- العمل التربوي والتدريسي.
- الإصلاح الاجتماعي عند الشيخ رحمه الله.
- علاقته بعلماء عصره.
- الشيخ ومقاومته للاستعمار داخل الوطن وخارجه.

آثاره:

- تلاميذ الشيخ وإنتاجه.
- المراسلات في تراثه.
- آثاره العلمية.
- وفاته.

إسهامات الشيخ الفكرية:

- إسهام الشيخ في الفكر العقدي.
- إسهام الشيخ في الفكر السياسي.
- إسهام الشيخ في الإنتاج اللغوي والأدبي.
- إسهام الشيخ في البحث الفقهي.

ـ إسهام الشيخ في التفسير وعلومه.

ـ بعض الدراسات المعاصرة عن الشيخ اطفيش رحمه الله.

الخاتمة.

حياته الشخصية

اسمه ونسبه:

هو احمد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمن بن عيسى بن إسماعيل بن محمد بن عبد العزيز بن بكير الحفصي ، الوهبي[1] ، اطفيش ، أشهر عالم إباضي بالمغرب الإسلامي في العصور الحديثة [2] .

وهو ينتمي إلى أسرة شريفة ترجع بأصولها إلى بني عدي ؛ القبيلة العمرية ، ويقول هو عن نفسه في أرجوزة له :

مع اجتماع في عديّ بعمر وبالنبي في لؤي وزمر [3]

وقال أيضا رحمه الله في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

وناظم الأبيات من بني عدي يتصل اتصال يوم بغـــد[4]

---

[1] نسبة إلى عبد الله بن وهب الراسبي ، الزعيم الأول للخوارج . انظر :التفسير والمفسرون ، للذهبي(236/2).

[2] انظر : معجم أعلام الإباضية من القرن الأول إلى العصر الحديث قسم المغرب الإسلامي ، تـــأليف الأستاذ محمد بن موسى باباعمي و آخرون ، جمعية التراث لجنة البحث العلمي ، دار الغرب الإسلامي /ط/2000 م ، الجزء الثاني ص399 .

[3] انظر : تاريخ الجزائر الثقافي (265/3) .

[4] انظر : قطب الأئمة العلامة محمد بن يوسف اطفيش ، بكير بن ســعيد أعوشـــت ، ط/المطبعـــة العربية،1989م ص(62).

وبعضهم يقول : إنه من عائلة شهيرة بالعلم من بني يسجن ، من عشيرة آل باعمـــر ، وينتهي إلى عمر بن حفص الهنتـــاتي[1] ، من العائلة الحفصيـــة المالكة بتونس بين (625-983هـ / 1229-1574م)[2].

أما والده الشيخ يوسف رحمه الله ، فيعد من الشخصيات البارزة في وادي ميزاب ، وكان ذكيا ، شجاعا ، حاملا لواء الحق[3].

أما أمّه فهي : السيدة مامَّه ستّي بنت الحاج سعيد بن عدُّون بن يوسف بن قاسم بن عمر بن موسى بن يدّر ببني يسجن[4] ، وتعد من الأمهات القليلات اللائي بذلن مجهودات مضنية وحثيثة في سبيل نشر العلم الصحيح ، وتأصيل المعرفة الإسلامية العملية[5].

مولده:

ولد رحمه الله بآت ايزجن (غرداية) عام [1236 هـ - 1821 م][1] ، وبعد أيام عديدة انتقل والده مع عائلته إلى مدينة غرداية ، فسكن بدار بوسعدة في الشارع الكبير حواش .

---

[1] نسبة إلى قبيلة هنتانة أو هنتاتة البربرية ؛ التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص ، ومن أكبر قبائل البربر في المغرب على وجه العموم .

وقيل : إن نسبهم ينتهي إلى عمر بن الخطاب ، وينسب هذا القول لابن خميل ، الذي يعتبر أول كاتب لديوان الدولة الحفصية . انظر : صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي ، علي محمـــد الـــصلابي /ط الأولى ، 1427هـ / دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة ، (662/2) ، التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا ، محمد بن رزق طرهوني /ط الأولى،1426هـ ، دار ابن الجوزي ، (88/1_89).

قلت _ وعلى هذا القول _ : لا فرق في عزو نسب الشيخ إلى الدولة الحفصية أو إلى الجد عمر بـــن الخطاب رضي الله عنه.

[2] انظر : معجم أعلام الإباضية من القرن الأول إلى العصر الحديث قسم المغرب الإسلامي ، تـــأليف الأستاذ محمد بن موسى بابا عمي و آخرون (399/2) .

[3] قطب الأئمة ،ص(63).

[4] انظر : معجم أعلام الإباضية (399/2) .

[5] قطب الأئمة ، ص(63).

وأود أن أشير إلى أن الأستاذ يوسف بن بكير الحاج سعيد في كتابه : تاريخ بني مزاب ص177 : ذكر أن ميلاد الشيخ القطب[2] كان سنة :1821ميلادي ، وهو ما قرره الشيخ بكير بن سعيد أعوشت في كتابه : قطب الأئمة[3] ، بينما نجد الشيخ أبا القاسم سعد الله يقرر خلاف ذلك[4] ، وهـــو أن ميـــلاده كان سنة : 1818م ، والله أعلم .

أسرته ونشأته:

هاجر أحد أجداد اطفيش من الساقية الحمراء واستقر بورجلان (ورقلة) ، ومنها إلى ميزاب في القرن التاسع الهجري .

وجده المعروف (با محمد) هو الذي حل في بني يسقن وترك بها ذرية، واسم هذا الجد الحاج محمد بن عبد العزيز .

أما والده فكان يتاجر بين غرداية ومدن الجزائر الشمالية على عادة أهـــل ميزاب ، و لم تطب له الحياة في بني يسقن ، وقد أدى فريضة الحج ، ثم توفي في بني يسقن ، وترك ابنه محمدا في الرابعة [5] من عمره فتولته أمه[مامه ستي بنت الحاج سعيد بن عدون] [6] وعهدت به إلى مؤدب يعلمه القرآن ؛ فختمه و حفظه و هو ابن ثمان ، ففتح له مجال العلـــم ، وسارع إلى دور العلماء و حِلَق الدروس بالمسجد .

---

[1] انظر: تاريخ بني مزاب، يوسف بن بكير الحاج سعيد، المطبعة العربية/ط الثانية /2006م، ص177 .

[2] لقبه بهذا اللقب الشيخ نور الدين السالمي – مجدد العلم بعمان – ، فاشتهر بهذا بعد ذلك . انظـــر : معجم أعلام الإباضية(399/2).

[3] ص (63).

[4] انظر : تاريخ الجزائر الثقافي (265/3).

[5] وذكر ابن بكير في كتابه تاريخ بني مزاب ص177: أن والده توفي وهو ابن خمس سنين.

[6] انظر كتاب: تاريخ بني مزاب ، يوسف بن بكير، ص177 .

فأخذ عن أخيه الأكبر إبراهيم[1] : علوم الدين ، والعربية ، والمنطق والحساب ، والفلك والتاريخ ، وكانت لمحمد بن يوسف ذاكرة قوية وموهبة عظيمة ، وقد استفاد عندئذ من مكتبة أخيه ، ومكتبة الشيخ الثميني ، ورغم صغر سنه ؛ فقد اعترف له شيوخه بالقدرة على التدريس ولمّا يتجاوز العشرين[2].

وكذا تلقى بعض مبادئ علم المنطق عن الشيخ سعيد بن يوسف وينتن ، وكان يحضر دروس الشيخ بابا بن يونس في مسجد غرداية .

وبعد أخذه لهذه المبادئ ، شمّر عن ساعد الجد و التحصيل ، بعزيمة لا تعرف الملل ، يؤازره ذكاء حاد ، و ذاكرة وقّادة ، و رغبة في العلم لا تعرف الحدود .

نشأ عصاميا ، لم يسافر للدراسة خارج موطنه ، و جعل دأبه الحرص على اقتناء الكتب و استنساخها ، يجتهد في طلبها واشترائها من كل البلدان ، رغم قلة ذات اليـــد ، و صعوبة الاتصال ، فتجمعت لديه مكتبة غنية ، تعتبر فريدة عصرها بالنظر إلى ظروف صاحبها ، وبُعْده عن مراكز العلوم و العمران .

و مما ساعده على التحصيل : اقتناؤه لبعض خزائن العلماء ، منها خزانة الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني ، وقد تزوج امرأة علم أنها تملك مكتبة ثرية ورثتها عن أبيها .

و ما كاد يبلغ السادسة عشرة ، حتى جلس للتدريس و التأليف ، و لما بلغ العشرين أصبح عالم وادي ميزاب ، ثم بلغ درجة الاجتهاد المطلق في كهولته ، كما يذكر ذلك بنفسه في كتابه : " شامل الأصل و الفرع "[3].

---

[1] لما رجع أخوه إبراهيم من رحلة علمية في مصر وعمان ، وجد الشيخ محمد في أخيه المزيـــد مـــن المعارف التي تطمح نفسه إليها فلازمه حتى حصل منه على ما يعادل الآن المرحلة الثانوية .

[2] تاريخ الجزائر الثقافي ، سعد الله (3/265ـــ266).

[3] انظر : معجم أعلام الإباضية (2/399).

نفي إلى آت بونورة ، و مكث بها حوالي عشر سنوات ، ألف فيها كتبا كثيرة ، و تخرج عليه في الفقه بها كثير من الطلبة ، منهم الشيخ الحاج صالح بن الحاج أحمد الداوي ؛ ثم عاد إلى بلدته[1] .

أما حياة الشيخ محمد بن يوسف العامة فتميزت بإقامة أسرته ، وتوليه شؤون العزابة والفتاوى ، والتدخل لدى السلطات الفرنسية للمحافظة على تقاليد البلاد وحرمة الدين ، والمراسلات مع الشخصيات العلمية والسياسية .

تزوج رحمه الله ثلاث نساء ، وقيل إن بعض زواجه منهن كان من أجل المكتبات التي كانت لأهلهن ، وهن : السيدة مريم بنت الحاج محمد زبار ، والسيدة مامه بنت عدون زكرياء التي أخذت عنه كثيرا من العلوم ، وعائشة بنت محمد الصالح .

ترأس العزابة في بني يزقن ، وكان لا يتردد على الأسواق ولا يغشى الأفراح ، وقد بدأ التدريس في المساجد آنذاك[2].

شيوخه:

إن علماء النفس قديما وحديثا ، أصبحوا يهتمون بتحليل عناصر الشخصية، ومكوناتها الأساسية.

وهكذا فإنهم يرجعون الشخصية إلى عوامل داخلية تتمثل أساسا في الوراثة التي يقصد بها نقل الصفات الجسدية والنفسية من السلف إلى الخلف؛ أي من الأجداد والآباء إلى الأبناء. وعلى أية حال ؛ فإن الوراثة قد مثلت دورا حاسما في شخصية الأستاذ الشيخ اطفيش وحياته .

فمن مشايخه الذين غرسوا فيه الإسلام العملي الصحيح ، والفضيلة الأخلاقية ، وحب الاطلاع ، وصقلوا مواهبه الذكية ، ودفعوا بمكامنه الجياشة إلى الأصعب[1] الثلاثة الأول ، وهم :

---

[1] انظر : تاريخ بني مزاب ، ص (178).

[2] انظر: تاريخ الجزائر الثقافي ، سعد الله (266/3).

عمر بن سليمان[2].

والحاج سليمان بن يحيى[3].

وأخوه الشيخ إبراهيم بن يوسف.

ومن شيوخه:

محمد بن عيسى زَبَارْ[4].

العمل التربوي والتدريسي:

فتح داره رحمه الله للتدريس عام[1253 هـ - 1837 م] ، و دخل حلقة العزّابة غاسلا للأموات في زمن الشيخ الحاج سليمان بن عيسى[5].

ومنذ حوالي سنة 1840م تقريبا أخذ الشيخ محمد بن يوسف يدخل الحياة العامة عن طريق التدريس ، وقد ظهر على علماء البلدة ثم على علماء ميزاب ، ثم شاع أمره حتى بلغ أقصى الأقطار الإسلامية ، وقال بعضهم : إنه بلغ رتبة الاجتهاد وصار مرجعا في الفتوى .

وبدأ يؤلف وهو في سن العشرين، واهتم بعلم النحـــو على الخصوص ، فدرس أعمال المؤلفين المعروفين في النحو ، ونظم هو كتاب مغني اللبيب لابن هشام في 5.000 بيت ،

---

[1] انظر : قطب الأئمة ،ص(65).

[2] هو أحد مشايخ أولاد يدّر ببني يزقن ، أخذ العلم عن الشيخ سليمان بن عيسى وغيره ، تولى القضاء ببني يزقن ، توفي سنة :1875م . انظر : تاريخ بني مزاب ، ص (142).

[3] ولد بغرداية عام 1905م ، درس في تونس والجزائر العاصمة ، عرف بحماسه الوطني ، من آثـــاره كتاب الفرقد ؛ وهو مجموعة مقالات اجتماعية وسياسية بالعربية ، توفي ســـنة : 1988م .انظـــر: المصدر السابق ، ص (268).

[4] من شخصيات بني يزقن الفذة ، أخذ العلم في عُمّان مع رفيقه الشيخ محمد بن يحيى باحيُّو ، بعد أن تتلمذ على الشيخ سليمان بن عيسى ، توفي سنة 1887م . انظر : تاريخ بني مزاب ، ص (141_142).

[5] تاريخ بني مزاب ،ص178 .

وهو ما يزال مراهقا ، وكان كثير القراءة والمطالعة ، وهي عادة لم تفارقه مدى الحياة ، وكان يستفيد من ذلك ويؤلف أيضا حتى وهو في حالة السفر[1].

خلف الشيخ الحاج محمد بن يحيى بَاحَيُّو في المشيخة بمسجد بني يزقن يوم : 25 ديسمبر 1878م / 1296 هـ .

أنشأ القطب معهدا للتدريس ببني يسجن ، تخرج فيه علماء و مصلحون ومجاهدون كثيرون هم تواجد في أقطار كثيرة بالمغرب و العالم الإسلامي .

له منهج في التدريس يعتمد على استغلال الوقت ، و التركيز في التلقين ، تستمر دروسه طيلة أيام الأسبوع ، من الضحى إلى الزوال ، إلا يوم الجمعة ، ثم يزيد دروسا في المساء بعد العصر .

و لا يدرّس في الليل إلا الغرباء و النجباء و المتفوقين ؛ لأنه كان يخصص الليل لتأليف و الإجابة عن الرسائل و الاستفتاءات المتهاطلة عليه ؛ و كان غزير المادة ، طويل النفس ، متفانيا في العلم ، يدرس أحيانا أحد عشر درسا مختلفا في اليوم .

كان يستعمل اللسان البربري المحلي كأداة للتدريس عند الاقتضاء ، و لا يحاسب تلاميذه على الغياب أو الإبطاء ، و إذا رأى منهم تعبا روّح عنهم بما يدفعهم إلى النشاط و التركيز ، و يولي عناية خاصة لأسئلة تلاميذه ، فيكتبها و يحقق مسائلها ، و لا يعجز عن الرجوع إلى المصادر و لو أثناء الدرس .

بهذا المنهج في التعليم ، و السعة في العلم ، انهال عليه الطلبة من مختلف الأقطار الإسلامية ، و صدروا عنه ، و كلهم رجال عاملون في مختلف مواقع الحياة ؛ تأليفا ، و تعليما ، و قيادة ، و قضاء ، و إصلاحا[2].

---

[1] تاريخ الجزائر الثقافي ،سعد الله (266/3).

[2] انظر : معجم أعلام الإباضية من القرن الأول إلى العصر الحديث قسم المغرب الإسلامي ، تأليف الأستاذ محمد بن موسى باباعمي و آخرون (399/2) .

وكان رحمه الله له نظام حياة دقيق جدا : يدرس للعامة مع الفجر ويصلي الجماعة ، ثم يذهب للتدريس لتلاميذه ، وكان له أيضا درسان آخران : درس للعامة بين العصرين . وجعل درسا لكبار التلاميذ المواظبين ، وقد خصص وقتا من النهار للإجابة على الأسئلة الواردة إليه ، وقال بعضهم : إن هذه الأجوبة لو جمعت لكانت في مجلدات[1] .

كان رحمه الله ينكر على الناس كثيرا من البدع التي ليست من الدين في شيء ، وقد شدد عليهم في ذلك فهددوه حتى بالقتل واتهموه بالزندقة ، وانتقد الشيخ أساليب التربية القديمة للأولاد .

وبعد غيبة عن بني يزقن دامت سنوات ، رجع إليها وتولى بها العزابة كما سبق ، وقد زاده ذلك شهرة في المنطقة ، وكان لا ينفك أثناء ذلك عن الكتابة والتدريس ، ولكنه ليس ابن بني يزقن وحدها ، ولذلك أحس أن عليه واجبا نحو المدن الأخرى في ميزاب : فأخذ يزورها الواحدة تلو الأخرى : بريان ، القرارة ، الخ... وكان في زياراته يتصل بالعزابة ويلقي الدروس العامة على الرجال والنساء في الوعظ والإرشاد ، وكان له درس خاص بالنساء[2].

الإصلاح الاجتماعي عند الشيخ اطفيش:

لقد ذكرت فيما سبق شيئا من إصلاح الشيخ الاجتماعي؛ كإنكاره المحدثات على الناس، وتشديده في ذلك حتى هددوه بالقتل[3]، وتدخله لدى سلطات الاحتلال للمحافظة على تقاليد البلاد وحرمة الدين[4]، ويمكن أن يقال: إن مجالات الإصلاح تتمحور فيما يلـــي:

_ انتقاد الشيخ أساليب التربية القديمة للأولاد[5] .

---

[1] تاريخ الجزائر الثقافي ، سعد الله (266/3) .

[2] المصدر السابق (267/3) .

[3] انظر : تاريخ الجزائر الثقافي (267/3).

[4] انظر : المصدر السابق (266/3).

[5] انظر : المصدر نفسه (267/3).

ـ مطالبته سنة 1888م الحاكمَ لويس تيرمان بتخفيف الغرامة على أهل ميزاب ، كما طالب بترك إيجارات أملاك الأوقاف في يد مساجد الطائفة.

ـ كان الشيخ من مناصري دعاة إحياء وتجديد اللغة العربية والثورة على الجمود ، وكان يقف بصراحة ضد التأثير الأجنبي في الحياة الإسلامية[1] .

علاقته بعلماء عصره:

استقبل عام 1876 م مَاسْكُوري ، عند مهمته الثقافية في مزاب ، كما استقبل زَايْس : وزاره عام 1877 م وفد من مشايخ زنجبار .

ومن المدن التي زارها غير مدن مزاب : ورقلة[2] وجال خلال آثار سدراته ، وفي طريقه إلى الحج للمرة الثانية عام[1303 هـ / 1886 م] ، زار فيها بوسعادة وتوقف بزاوية الهامل، وألقى بها بعض الدروس بطلب من شيخها محمد بن بلقاسم (أبي القاسم) ، وكذا زار قسنطينة .

يقول الشيخ أبو القاسم سعد الله : " ولعله التقى فيها بالشيخ المجاوي وغيره من علمائها[3]، وعرج على اسطيف والبرج والجلفة وعنابة ، وقصر البخاري ، وكان يلقي دروسا في هذه الأماكن " .

توقف بجامع الزيتونة بتونس[4] وأقام في هذه المدينة أياما في ضيافة أهل ميزاب ، ولعله لقي بها بعض علماء الزيتونة ، وفي الحجاز التقى ببعض العلماء منهم الشيخ الزيني دحلان ، وتعرف على أحوال العالم الإسلامي ، وألقى دروسا في المسجد النبوي ، ولا يعرف أنه

---

[1] انظر : المصدر نفسه (270/3).

[2] زار القطب وارجلان (ورقلة) عام [1320 هـ - 1902م] ، و تلقاه أهلها لمسافة عشرة كيلومترات بأنواع من المركوبات و الطلقات البارودية ، و رافقته ثلة من فضلاء وادي مزاب ، و مكث بها خمسة عشر يوما . انظر: تاريخ بني مزاب ص179 .

[3] تاريخ الجزائر الثقافي (267/3).

[4] انظر: تاريخ بني مزاب ، يوسف بن بكير، ص178

زار مصر أو غيرها من عواصم المشرق غير الحجاز[1] ، وكان ذلك أيام ظهور الحركة الإسلامية الجامعة، وتأثيرات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده[2]، وقد يكون توقف بجبل نفوسة أثناء هذه الرحلة ، حيث زار العائلة البارونية ، وقيل : إنه زار عُمان أثناء هذه الرحلة .

رجع من الحجاز إلى مْزاب في نفس السنة ، وأحسن استقباله بتوصية من الوالي العام لُويسْ تيرْمَانْ ؛ كلُّ من مر بهم في الأراضي الجزائرية .

وعند مروره بالجزائر العاصمة ، طلب من الوالي العام رفع غرامة البزرة عن بني مزاب ، كما طلب أن يبقى التصرف في الأحباس لمساجد الإباضية .

لقد وجّه القطب عريضة احتجاج إلى الوالي العام جُولْ كَامْبُونْ ، يعارض فيها أن يكون بيت المال وارثا مع ذوي الأرحام ، عند انعدام أصحاب الفروض والعصبة ، أمضى العريضة بنو مزاب ، طلبة وعواما وقضاة وقوادا ، خارج القرى تحت الشمس .

وصل يوم 26 مارس 1900م إلى غرداية سليمان الناصر والي در السلام ، عاصمة طانزانيا حاليا ، زائرا إخوانه الإباضية ، في طريقه إلى معرض باريس ، وقد نزل عند القطب وأقام عنده[3].

الشيخ ومقاومته للاستعمار داخل الوطن وخارجه:

يقول الشيخ أبو إسحاق:" ومن أعماله الجليلة استماتته في سبيل الذود عن شرف الوطن عند دخول الحملة الفرنسوية سنة 1299هـ-1882م لا بقوة الحراب، ولكن بقوة الحجة والحق .

---

[1] ذكر صاحب كتاب تاريخ بني ميزاب قولا صدره بصيغة التمريض عن زيارة الشيخ لعُمان بينما ضعفه الشيخ سعد الله ، وقد سبق ذكره. انظر : تاريخ الجزائر الثقافي (267/3)،و تاريخ بني مزاب ص179 .

[2] انظر كتاب: تاريخ الجزائر الثقافي (267/3ـ268).

[3] انظر : تاريخ بني مزاب، ص (179).

ولقد رأيت له عدة احتجاجات إلى رؤساء الحكومة الفرنسوية ضد ما يرتكب من التعسف والحيف مع المسلمين بالقطر الجزائري ، وله حرص شديد على إقامة شعائر الدين والمحافظة على سير السلف الصالح ومقاومة الأميّة"[1].

هو الذي قاد المقاومة ضد الجنرال دُوسُونيسْ عندما اكترى الآباء البيض دارا في بني يزقن ، فأمر بسد بابها إن هم باتوا فيها ، ولما حاول المستعمر هدم الجامع الكبير بالعاصمة كتب القطب رسالة احتجاج إلى الوالي العام يحذره فيها من الاقتراب من بيوت الله .

سجنه النقيب هارْت مَايَرْ في نوفمبر 1882م ، هو وابنه الحاج يوسف ، يوما كاملا في معسكره ، عند وصوله إلى مزاب ، بأمر من الوالي العام ، ليقنع العزابة بعدم جدوى مقاومتهم للإلحاق .

عام 1911م : وفد إليه مبعوثون من إباضية جبل نفوسة ، إثر تقدم القوات الإيطالية في ليبيا ، وعندما احتلت إيطاليا ليبيا عام 1912م ، قام بتحريض المواطنين لجمع الأموال والأسلحة لمساعدة الوطنيين اللّيبيين .

لم يكن يعتبر مزاب كل وطنه ، بل كان مجال اهتمامه هو كل بلاد الإسلام ، وكان دوما يدعو بالنصر للدولة العثمانية ، ويقول لطلبته :" إن الدولة التركية قد قامت بفرض الكفاية للخلافة الإسلامية "[2].

كان يتابع باهتمام كبير أخبار تركيا الدولة العثمانية في البلقان التي كانت في حرب مع الغرب ، وكان رحمه الله ينظر ويتتبع أحوال العالم الإسلامي ؛ وهو يسقط القطعة بعد القطعة في أيدي المستعمرين[3] .

---

[1] انظر: الذهب الخالص ، التقديم . بواسطة تاريخ بني مزاب ، ص188 .

[2] انظر : تاريخ بني مزاب ص 188ـــ 189 .

[3] انظر : المصدر السابق ، ص (189).

تلاميذ الشيخ وإنتاجه:

تخرج على يديه عشرات من التلاميذ ، أصبحوا فيما بعد من أبرز العلماء و أجل الشخصيات ، من مزاب و جربة وجبل نفوسة ، أشهرهم :

من ميزاب:

إبراهيم اطفيش ، أبو إسحاق : نزيل القاهرة العالم المحقق[1] .

إبراهيم بن عيسى الأبريكي[2].

إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان : رائد الصحافة العربية في الجزائر .

ابراهيم بن بانوح مطياز[3].

أحمد بن الحاج ابراهيم حميد أُوحَانهْ .

اعمار بن صالح بن موسى .

بابكر بن الحاج مسعود.

داود بن سعيد بن يوسف.

صالح بن الحاج محمد الداودي.

صالح بن عمر لَعْلي.

صالح بن يحيى بن الحاج سليمان آل الشيخ .

الحاج عمر بن حمو باكلّي .

---

[1] عقد بمدينة الأغواط ملتقى وطني على شرف الشيخ العالم أبي إسحاق. وانظر في ترجمته : تاريخ بني مـزاب ، ص 142 .

[2] هو الشيخ بابا بن عيسى القراري ، من أبرز تلاميذه الشيخ أبو اليقظان ، والشيخ بيّوض ، توفي سنة 1911 م عن عمر يناهز أربعة وخمسين عاما. انظر : تاريخ بني مزاب ص 188ــ 189 .

[3] تولى التدريس في بونورة عام 1924م ، وأنشأ في الجزائر العاصمة مدرسة عصرية قام بإدارتها والتربية والتعليم فيها .توفي سنة 1981م ببني يزقن .

الحاج عمر بن يحيى ويرو المليكي.

الحاج عيسى بن قاسم يوسفي .

محمد بن الحاج الثُّميني .

محمد بن سليمان ابن ادريسو .

الحاج ناصر بن ابراهيم الدَّاغور.

يحيى بن صالح .

يوسف حدبون .

أما من ليبيا : فيذكر المجاهد بالسيف والقلم الداعية : سليمان الباروني النفوسي الذي قدم إلى مزاب أول مرة عام 1895 م ، وبقي ثلاث سنوات يدرس بمعهد القطب ، وقد نزل ضيفا في دار الحاج عيسى بن سليمان ، قائد البلدة آنذاك .

و من تونس : المؤرخ سعيد بن تَغَاريتْ الجربي .

و من المدينة المنورة : أحمد الرفاعي.

المراسلات في تراثه:

كانت للشيخ اطفيش مراسلات مع سلطان زنجبار بَرْغش ، الذي كان يدفع له منحة شهرية ، ويشارك في حركة النهضة بطبع مؤلفات الإباضية ، شرفه حمود سلطان زنجبار بنيشان النجمة الفاخرة ، وتسلمه يوم 15 مارس 1902م بواسطة كومندان ملحقة غردايه .

وممن كاتبه من علماء الإسلام الشيخ محمد عبده ، وكان الشيخ عبد القادر المجـــاوي ؛ إمام النهضة الحديثة في شمال الجزائر صديقا للقطب ، وكان يكاتبه ؛ فأرسل بعض تلاميذه للتعلم عند الشيخ المجاوي تمتينا للروابط بينهما .

وكان الشيخ المولود بن الموهوب عالم قسنطينة وقاضيها صديقا للقطب ، وكان الشيخ المولود يستفتيه فيما يشكل عليه من المسائل الدينية[1] .

ويذكر مترجموه أنه التقى بالشيخ محمد بن بلقاسم ، وكانت له مراسلات مع عبد الله الباروني (والد تلميذه سليمان الباروني) [2] والذي [أي :سليمان هذا] قدم إلى الشيخ سنة 1907م لجمع الأموال ، لتأسيس مطبعة الأزهار البارونية بالقاهرة ، وترويج مجلته الأســـد الإسلامي .

كانت له مراسلات مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، منها مراسلته قبل الإطاحة به في 24 جويلية 1908م في شأن الشيخ سليمان باشا الباروني ، ذلك أنه بعدما أتم دراسته على القطب عزم على الجهاد بسيفه وقلمه ، فرجع من مزاب إلى طرابلس ، فلم يكد يصلها حتى سبقته وشايات إلى الباب العالي بتركيا ، من بعض منافسيـــه المغرضين ، فأصبح رهن التحقيقات في السجون ، اتهم بأنه ضد الدولة العثمانية ، ويعمل لفائدة دولة أجنبية أخرى ، وبفضل تدخل القطـــب قررت محكمـــة الاستئنـــاف براءتـــه[3] .

أهدى إليه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني نيشانا عندما حل لغز الماء [4]، في مسابقة وقعت بين معاصريه من العلماء، فقال رجال الأكاديمية الفرنسية : نحن أحـــق وأولى من تركيا في تكريم الشيخ اطفيّش ، فأعطوا له وسام : لاَبالـــمْ أَكَادميك[1] .

---

[1] انظر كتاب:تاريخ بني مزاب ص179 .

[2] انظر كتاب: تاريخ الجزائر الثقافي (268/3).

[3] تاريخ الجزائر الثقافي ، سعد الله (267/3).

[4] وهو لغز قد حوى كلمات وعبارات مستغلقة تتعلق بالماء ، نزولا وركودا وسببا ، وقد وجـــدت الإمام تقي الدين أبي محمد أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن تميم المقريزي الشافعي رحمه الله قد ألف في شرح هذا اللغز رسالة لطيفة ، عنوانها : كتاب حل لغز الماء ، جاء في مقدمتـــها بعد الحمدلة : " ما قولكم في شيء يطير بلا جناح ، يبيض ويفرخ في البطاح ... " ، وفي آخرها :"

وكانت له مقابلات مع بعض علماء الفرنسيس أمثال : ايميل ما سكـــري MASQUERY الذي طلب منه كتابة تأليف عن تاريخ ميزاب ففعل[2].

زار القطب القرارة مرارا ، أما بريان ؛ فكان ينتقل إليها مرتين في السنة ؛ كل خريف وكل ربيع ، يقضي فيها أسبوعين يلقي الدروس للعامة ، وكان لا يُسمح له بالسفر إليهما إلا برخصة من الحاكم العسكري بغرداية [3].

تلقى سنة 1298هـ ــ 1881م نسخة من بيان الشرع لمحمد بن إبراهيم الكندي العماني (ق 5 هـــ) الذي يحتوي على واحد وسبعين مجلدا ، وأخرى من قاموس الشريعة لجميل بن خميس السعدي الذي يحتوي على اثنين وتسعين مجلدا [4].

آثاره العلمية:

ومن أهم آثار الشيخ اطفيش تآليفه التي أغنى بها المكتبة الإسلامية كمّا و نوعا ، فقد عدها بعضهم، وقال : إنها تبلغ الثلاثمائة مؤلف ، ما بين كتاب و رسالة.

و اتسع له العمر ، ليترك هذا التراث الجليل ، فقد عمّر ستة و تسعين عاما ، و كان حريصا على الكتابة ، لا يتركها في حضر ولا سفر ، وصفه تلميذه أبو اليقظان بأنه " لا

هذا ما دل قايد الاختبار عليه ، وقاد دليل الفكر إليه ، فأملاه الجنان على اللسان ، وخطه البنـــان في بعض النهار الأول من يوم الثلاثاء رابع عشرة خلت من شهر الله المحرم الحرام ، عام ثلاثة وعـــشرين وثمانمائة من غير مراجعة كتاب ..." اهـــ من المخطوط .

[1] و مما ذكروه في هذا الشأن ، وهو تسلم النيشان نيشان الحاكم الفرنسي ، فإنه لما جاء ممثل الحكومة ليوشح صدر الشيخ به ، قدم له طرف ردائه السفلي ليعلقه عليه ، و لما سئل عن ذلك قال : " الإسلام يعلو و لا يعلى عليه. انظر كتاب: معجم أعلام الإباضية(399/2)، تاريخ بني مزاب ص180 .

[2] انظر كتاب: تاريخ الجزائر الثقافي (268/3) .

[3] انظر كتاب: تاريخ بني مزاب ص180 .

[4] انظر: المصدر السابق.

يعرف إلا في تدريس علم ، أو تأليف كتب" ، فألـــف في بني يسجـــن ، و القـــرارة ، و وارجلان ، و بريان ، والحجاز ، و في السفينة قاصدا الحج[1].

يقول الشيخ أبو إسحاق طفيّش في تقديمه للذهب الخالص: " إن استيفاء الكلام على تآليفه وتعدادها لا يفي به مجلد ، فقد سلكنا في تاريخنا له طريقة ذكر الكتاب في حرفه ، مع إيراد خطبته وذكر شيء عنه يتصوره به القارئ ، عسى الله أن يساعدني على إتمامه وإبرازه إلى عالم المطبوعات ، ولا بأس أن نذكر الفنون التي كتب فيها.."[2] .

و شملت تآليفه مختلف فروع المعرفة ، في المنقول و المعقول : الأخلاق ، الأصول ، البلاغة ، التفسير ، التجويد ، التوحيد ، التاريخ ، الحديث ، الجبر ، الحساب ، الرسم ، السير ، الطب ، الصرف ، الفقه ، العروض و القافية ، الفلك ، الفلاحة ، الفرائض ، الفلسفة ، اللغة ، مصطلح الحديث ، المنطق ، النحو ، الوعظ"[3].

وسأحاول في هذه العجالة أن أذكر أهم و أبرز مؤلفاته:

أولا _ التفسير:

هميان الزاد إلى دار المعاد انتهى من تأليفه وعمره خمس وأربعون سنة ، وذلك عام 1283هـــ ،طبع في زنجبار سنة 1305 هـــ ـــ 1888م في أربعة عشر مجلدا .

داعي العمل ليوم الأمل .

تيسير التفسير ، تم طبعه بالجزائر في رجب 1326هـ _ 1908م ، في ستة أجـــزاء ،أعيد طبعه بتحقيق الشيخ إبراهيم طلاي من 1996 إلى 2003 في سبعة عشر جزءا .

ثانيا _ التجويد:

جامع حرف ورش، طبع عام 1325 هـــ _ 1907م .

تلقين التالي لآيات المتعالي: شرح (جامع حرف ورش).

---

[1] انظر: معجم أعلام الإباضية (399/2).

[2] انظر كتاب: تاريخ بني مزاب ص180 .

[3] انظر: المصدر السابق.

ثالثا _ الحديث والسيرة النبوية :

ترتيب ترتيب الجامع الصحيح، طبع بالجزائر عام 1326 هـ _ 1908م .

وفاء الضمانة بأداء الأمانة ، في ثلاثة مجلدات ، طبع الجزء الأول بالمطبعة البارونية بالقاهرة عام 1306هـ _1889م ، والجزء الثاني بمطبعة الأزهار البارونية بالقاهرة عام 1325هـ _ 1907م ، والجزء الثالث عام 1326هـ _1908م.

جامع الشمل في حديث خير الرسل ،طبع بالبارونية عام 1304 هـ _ 1887م .

السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة ، طبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة عام 1344هـ _ 1926م .

الغسول من أسماء الرسول ، طبع سنة 1319هـ _ 1902م.

شرح نونية المديح.

رابعا_ التوحيد وعلم الكلام :

شرح عقيدة التوحيد لأبي حفص عمرو بن جميع ، طبع في الجزائر عام 1326 هـ _ 1908م.

حاشية الموجز لأبي عمار عبد الكافي .

حاشية شرح النونية : النونية لأبي نصر فتح بن نوح وشرحها لعمرو بن رمضان التلالي .

شرح أصول تَبْغُورينْ .

فتح الباب للطلاب بإذن الملك الوهاب، شرح معالم الدين لعبد العزيز الثميني ، توفي ولم يشرح منه إلا يسيرا .

الحجة في بيان المحجة في توحيد بلا تقليد ، طبع عام 1302هـ 1885م .

عدم الرؤية وإدحاض مذهب أهل الفرية .

حاشية القناطر، للشيخ إسماعيل الجيطالي، تقع في جزأين .

رد الشرود إلى الحوض المورود ، طبع عام 1320هـ 1902م .

إزهاق الباطل بالعلم الحاطل ، رد على كتاب حَمَّى الطاهر، طبع عام 1317 هـ ـ 1900م .

الجُنة في وصف الجَنة ، (شرح القصيدة العبيرية في وصف الجنة) ؛ لأبي عبد الله محمد الكندي ، طبع بالقاهرة عام 1321هـ - 1903م .

إزالة الاعتراض عن مُحقّي آل إباض ، طبع عام 1314هـ - 1897م .

الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، طبع عام 1326 هـ - 1908م.

تقريرات على حاشية الديانات ، للسدويكشي وتتمتها للمصعبي .

الرد على الصفرية والأزارقة ، جواب لبعض علماء عُمان ، طبع عام 1314هـ -1897م بمصر .

إن لم تعرف الإباضية يا عقبي ، طبع بتونس عام 1321هـ - 1903م .

قذى العين على أهل الغين :رد على الأنكليزي الطاعن على الدين ، طبع بتونس عام 1321هـ - 1903م.

خامسا _ الفقه و أصوله:

فتح الله :شرح شرح مختصر العدل والإنصاف .(العدل والإنصاف) لأبي يعقوب يوسف الوارجلاني، اختصره ثم شرحه أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي .

شرح الدعائم الموسع : الدعائم ديوان نظم لابن النضر العماني . بدأ شرحه الشيخ الحاج يوسف بن حمّو وأتم القطب شرح الباقي .

شرح الدعائم المختصر، بطلب من بعض النفوسيين، طبع في جزأين عام 1326هـ - 1908م.

الجامع الصغير :جامع (الوضع) و(الحاشية) في ثلاثة أجزاء ، الوضع لأبي زكرياء يحيى بن الخير الجناوني ، والحاشية لأبي عبد الله محمد بن عمر بن أبي ستة، ألفه في منفاه ببونورة بين 1287هـ _ 1289هـ ، طبع بالبارونية بالقاهرة عام 1306هـ _1889م.

شامل الأصل والفرع ، طبع في جزأين بالسنفيـــة في القاهرة عام 1348هـ 1930م .

شرح كتاب النيل وشفاء العليل لعبد العزيز الثميني ، بطلب من الشيخ قاسم الجربي ، صاحب اللؤلؤة وشرحها ، شرحه شرحا مطولا أول مرة ولم يتمه ، ثم شرحه ثانية في عشرة مجلدات ، طبعت أجزاؤه السبعة الأولى بالبارونية سنة 1306هـ _1889م ، وأكمل طبع الثلاثة الباقية الشيخ أبو إسحاق سنة 1343هـ 1925م بالسلفية في القاهرة.

الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص :اختصر فيه قواعد الإسلام للحيطالي وحاشيته لأبي عبد الله محمد بن أبي ستة ، طبع في القاهرة عام 1343هـ _1925م.

حي على الفلاح: شرح باب الصلاة من كتاب الإيضاح لأبي ساكن عامر الشماخي ، يقع في ستة أجزاء .

ترتيب المدونة الكبرى ، لأبي غانم الخراساني ، يقع في جزأين .

حاشية أبي مسألة ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن بكر .

حاشية السؤالات لأبي عمرو عثمان بن خليفة المارغني .

تفقيه الغامر بترتيب لقط موسى بن عامر ، بطلب من الشيخ الحاج سليمان ،عام 1267هـ 1851م ، طبع بالجزائر عام 1319هـ 1901م.

حاشية شرح الرائية في الصلاة : الرائية لأبي نصر فتح بن نوح وشرحها لعمرو بن رمضان التلاتي .

القنوان الدانية في مسألة الديوان العانية ، طبع عام 1314هـ _1897م.

أساس الطاعات والنيات لجميع العبادات ، طبع عام 1314هـ _ 1897م.

تحفة أهل بريان: في الفرائض. ألفه في بريان ،طبع بتونس عام 1344هـ _1926م.

التوأم: في الفرائض، ألفه عام 1272هـ _1856م.طبع بتونس عام 1344هـ_ 1926م.

حكم الدخان والسعوط: رسالة إلى عبد القادر المجاوي المالكي ، طبع عام 1326هـ_ 1908م.

حكم بلى أهل الكتاب وغيرهم من أهل الشرك: جواب لبعض علماء المالكية.طبع عام 1326هـ _ 1908م .

البرهان الجلي في الرد على الجربي علي: في شأن رؤية الجن.طبع عام 1326هـ_1908م.

جواب أهل زوارة، طبع عام 1325هـ_1907م.

ترتيب نوازل نفوسة: مجموعة أجوبة ورسائل بعض أئمة الإباضية.

تقريرات على كتاب المعلقات.

مسائل السِّير: اختصار للمسائل الفقهية من كتاب :سير المشايخ لأبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي .

ترتيب كتاب اللُّقَط لعمرو بن رمضان التلالي.

ترتيب المعلقات.

حاشية على جـــواب ابن خلفان العماني على أسئلة عمر بن يوسف اليزقني .

كشف الكرب.

إباحة معاملة الكارطة بلا ربا ولا فارطة.

حاشية على جواب ابن خلفان لعبادي.

سادسا_ اللغة العربية وعلومها:

قصيدة الغريب: نظم المغني لابن هشام، أرجوزة تحتوي على نحو خمسة آلاف بيت في النحو ، وهو أول تأليف القطب.

معتمد الصواب: شرح شواهد قواعد الإعراب.

حاشية أولى على شرح أبي القاسم الداوي على الأجرومية.

حاشية ثانية على شرح أبي القاسم الداوي على الأجرومية.

تخليص العاني من ربقة جهل المثاني: في البلاغة.

بيان البيان: في علم البيان.

ربيع البديع: في علم البديع.

إيضاح الدليل إلى علم الخليل حاشية على شرح الخزرجية في علم العروض.

الرسم في تعليم الخط ، ألفه في المسجد الحرام ، طبع بالسلفية عام 1349هـ_ 1931م.

مختصر ثاني في علم الخط: شرح لما في جمع الجوامع للسيوطي مما يختص بالخط.

شرح شرح أبي سليمان داود التلالي على الأجرومية.

تسهيل الاجتهاد في تفسير أشعار الاستشهاد: شرح شواهد ثلاثة شروح على الأجرومية، الأول لأبي سليمان داود التلالي، والثاني لأبي القاسم يحيى الداوي ، والثالث للشريف محمد الحسيني .

حاشية على شرح المرادي على الألفية .

المسائل التحقيقية في بيان التحفة الأجرومية.

شرح شرح الاستعارات ، لعصام الدين.

الانشراح في بيان شواهد التلخيص والمفتاح.

الكافي في التصريف.

شرح لامية الأفعال لابن مالك.

شرح شواهد القزويني.

شرح شواهد الوضع لأبي زكرياء يحيى بن الخير الجناوني.

سابعا_ التاريخ :

كشف الغمة: شرح لامية ابن النضر العماني، في جزأين.

الإمكان فيما جاز أن يكون أو كان ، طبع عام 1304هـ_ 1887م.

الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل وادي ميزاب: ألفها بطلب من وزارة التعليم الفرنسية، قدمه مَاسْكُوري عام 1876م. طبعت عام 1299هـ_1882م ، ترجم جزءا منها إلى الفرنسية بْيِرْكُوبِيرْلي عام 1971م .

رسالة موسعة في تاريخ وادي ميزاب، طبعت عام 1351هـ_1932م.

ثامنا _ الفلك والحساب:

مطلع الملك في فن الفلك، أو مسلك الفلك: شرح للرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية، لسبط المارديني.

شرح القلصادي :شرح كشف الأسرار عن علم جروف الغبار، في الحساب.

تاسعا _ المنطق:

إيضاح المنطق في بلاد المشرق.

شرح سلم الأخضري.

شرح رسالة الوضع لعضد الدين الإيجي.

عاشرا _ فنون مختلفة:

تحفة الحب في أصل الطب، طبع بالبارونية عام 1304هـ _1887م.

النحلة في غرس النخلة.

شرح مخمسة أبي نصر في الأخلاق.

خطبتا العيدين.

أجور الشهور على مرور الدهور، طبع بالجزائر عام 1299هـ -1882م.

إطالة الأجور وإزالة الفجور، طبع عام 1314هـ -1897م.

العمارة أو مختصر في عمارة الأرض.

شرح لغز الماء ، طبع بالجزائر عام 1351هـ -1932م.

القصيدة الحجازية في رحلته الثانية.

مجموعة قصائد في المدح والوعظ ، طبع عام 1314هـ - 1897م.

تفسير ألغاز، طبع عام 1306هـ -1889م.

جواب مشايخ مكة ، طبع بالجزائر عام1301هـ .

جواب في المعاملات ، طبع عام 1306هـ - 1889م.

البائية: قصيدة حول أو ضاع عصر القطب.

ترتيب تحفة الأديب وتخصيب القلب الجديب: لعمرو بن رمضان التلالي.

خطبة لأهل نفوسة.

مرشاد المستنكح ومرصاد المستفتح.

حاشية المنصف في نفي تأويل المعرف.

نونية فيها ذكريات عن رحلته إلى الحجاز، مطبوعة.

قصيدة فيها ذكريات عن بلدته ومقارنتها بمصر، مطبوعة[1].

وفاته:

كان رحمه الله يعز عليه أن يهضم حق شعب إسلامي ، ويسلب حريته ، أو يناله أدنى ضيم، كثير الدعاء بالنصر للأمة الإسلامية على من يناوئها ، شديد الرغبة في وجود الجامعة الإسلامية .

يقول الشيخ أبو إسحاق :" كثيرا ما نسمع منه في الدرس قبل وفاته بقليل يقول بتأثير شديد جدا : " كاد ينقلب العالم ويحدث هول عظيم" ، يكرر ذلك ، ويقول : " إنه على الأبواب وكأنه غدا " ، ولم تمض أشهر بعد وفاته حتى اشتعلت الحرب العظمى[2] .

وينقل الشيخ أبو إسحاق أن القطب كان من السبعة المقتولين بالسم في سنة 1914م ، خوفا من قيامهم بما يقلق أمن الدولة الفرنسية أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ إذ وضع له أحد العملاء الفرنسيين سما في حذائه ، وأنه مات بتأثير السم بعد أسبوع ، جعله الله في صفوف الشهداء و الصديقين و أسكنه فسيح رياضه و جنانه .

توفي في 23 ربيع الثاني 1332هـ ـ21 مارس 1914م ببني يزقن عن عمر يناهز ستا وتسعين سنة[3] .

---

[1] انظر في ذكر مؤلفاته: تاريخ بني مزاب ص(181 ـ188)، معجم أعلام الإباضية (399/2)، قطب الأئمة ص(118ـ122)، معجم مشاهير المغاربة ،أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة ، منشورات دحلب، ص(40).

[2] انظر : تاريخ بني ميزاب ، ص (189).

[3] انظر : التفسير والمفسرون (236/2)، تاريخ بني ميزاب ، ص (189).

إسهامات الشيخ الفكرية:

في الفكر العقدي :

وإن شيخا بلغ ما بلغه محمد بن يوسف لا يمكن إلا أن يكون له كثير من التلاميذ والأتباع، ولكنه لم يكن شيخ زاوية ولا من دعاة الولاية والتصوف حتى يكون له طريقة أو محفل أو قبة [1]، ولذلك كان الشيخ ينكر على الناس البدع التي ليست من الدين في شيء ؛ وقد شدد عليهم في ذلك ؛ فهددوه حتى بالقتل واتهموه بالزندقة[2].

وباجملة؛ فقد كان داعية سلفيا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، في وقت ساد فيه الجهل بدعم رسمي من الاحتلال[3].

في الفكر السياسي:

ومما لا ارتياب فيه أن ظهور الشيخ اطفيش صادف الاحتلال الفرنسي الذي امتد أيضا إلى منطقة ميزاب ؛ فكان اتفاق الحماية معها سنة 1853م ثم الاحتلال الكامل لها سنة 1882م ، وقد استمر الشيخ محمد بن يوسف يحتج على انتهاك اتفاق الحماية ويطالب باحترامه أو بالحكم الذاتي .

وفي سنة 1888م طالب الحاكم العام البغيض لويس تيرمان الذي امتد الاحتلال في عهده إلى ميزاب ، طالبه بتخفيف الغرامة على أهل ميزاب ، كما طالب بترك إيجارات أملاك الأوقاف في يد مساجد الإباضيين ، والكل يعرف أن السلطات الفرنسية قد صادرت أملاك الأوقاف في الجزائر كلها ، وحولت مداخيلها إلى مالية الدولة ، ولكن هذه السلطات صمت آذانها عن مطالب الجزائريين بمن فيهم أهل ميزاب ، وفي نفس السنة أرسل الشيخ نسخة من كتاب (النيل) إلى القضاة الفرنسيين الذين أصبحوا يسيطرون على كل جوانب القضاء الإسلامي أيضا ما عدا الأحوال الشخصية التي تركوها للقضاة

---

[1] انظر كتاب: تاريخ الجزائر الثقافي (268/3).

[2] انظر المصدر نفسه (267/3).

[3] انظر المصدر نفسه (268/3).

المسلمين ، وكان هدف الشيخ أن يطبق أولئك القضاة الفرنسيون تعاليم الشريعة بالنسبة للإباضيين [1].

إسهام الشيخ في الإنتاج اللغوي والأدبي:

وكما سبق من عرض لمؤلفات الشيخ القطب النحوية والأدبية ؛ فهو مما لا يدع مجالا للشك في كونه رحمه الله أوتي باعا في التأليف والكتابة .

اهتم القطب بعلم النحو منـــذ صغره؛ لأنه كان يعلم أن هناك علاقة تداخل بين العلوم الشرعية والعلوم الأدبية ؛ فأحسن التلمذ في هذا المجال حين نظم كتاب النحو مغني اللبيب للإمام أبي محمد عبد الله بن هشام الأنصاري المتوفى سنة 721هـ في خمسة آلاف بيت ؛ وهو لم يتجاوز عمره سبع عشرة سنة .

لم يترك لنا القطب ديوانا من الشعر كعادة الشعراء الكبار ، وإنما هي قطوف متنوعة نثرها في مؤلفاته الكثيرة ، حري بالباحثين جنيها وضمها في كتاب واحد .

ومن أمتع ما كتب رحمه الله في هذا المجال مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم، وللإسلام والفضائل الأخلاقية، إضافة إلى نظمه لبعض العلوم الشرعية، في قالب شعري كقراءة ورش عن نافع [2].

يقول بكير بن سعيد: " إن الأدب الذي كتبه القطب سواء كان نثرا أو شعرا يتميز بالطابع الديني الخالص، لاسيما الأخلاق القرآنية والمدائح النبوية التي تمثل الثقافة الإسلامية الأصيلة الأولى، لأن هذا الشعر يستمد أصالته من القرآن الكريم، والسنة الشريفة "[3].

فمن شعره قوله في مدح رسوله الله الأعظم صلى الله عليه وسلم:

لك الحمد ربي قدر ما أنت أهلـــه		ولن أستطيـــــع قدره لا ولا شكرا
وأنت كما أثنيت عنك وكلمـــــا		مضت شكره مني اقتضت شكرة أخرى

[1] انظر : تاريخ الجزائر الثقافي (3/268ـــ 269).

[2] انظر : قطب الأئمة ص(123).بتصرف

[3] انظر: المصدر السابق، ص(124) .

ويا خالق الأفلاك والشمس والقمر		وخالـــــق كل ما ســـواه أقل عثرا
وصل على خير الخلائـــق دائمـــــا		وسلـــم وزد له علـــى فخـــره فخرا

وأما بالنسبة إلى النثر؛ فإن له قدرة كبيرة على ذلك، غير أن الطابع الديني هو الغالب على أسلوبه نظرا إلى الفكرة الدينية عنده.

ومما يميز الملكة النثرية لديه الوضوح ، وخصوبة المعاني ، وقوة الحجة ، والأخذ بزمام الخصم حتى ينقاد لفكرته.

وهناك منحى آخر تتجلى فيه شخصية القطب؛ وهي مساهمته في الأبحاث النحوية، وقد ذكرنا شيئا من ذلك في المؤلفات[1].

في البحث الفقهي:

نلاحظ أن القطب رحمه الله كان ملما بكل العلوم الشرعة والعقلية ؛بل كان مجتهدا فيها ، وليس يبعد عن القائل لو حكم بأن كتاب النيل الذي شرحه القطب برزت فيه اجتهاداته في مسائل الفقه المقارن، إضافة إلى المسائل العقائدية والتاريخية والأخلاقية .

فكتاب شرح النيل وشفاء العليل[2]، عالج فيه مؤلفه جل القضايا الفقهية بنظرة إسلامية خالصة قائمة على القرآن والسنة وآراء المذاهب الإسلامية كلها بدون تعصب[3].

يقول الأستاذ يحيى بكوش :" إن كتاب شرح النيل وشفاء العليل ؛ هو موسوعة فقهية كبرى ، تقف جنبا إلى جنب مع الموسوعات المذهبية التي تقدمته كالمغني لابن قدامه في الفقه الحنبلي، وكالمجموع شرح المذهب في الفقه الشافعي، وكبدائع الصنائع للكاساني في الفقه الحنفي، و كالمحلى لابن حزم الظاهري .

---

[1] انظر : القطب ، ص(126)، بتصرف

[2] كتاب النيل وشفاء العليل، للشيخ عبد العزيز الثميني.

[3] انظر : القطب ، ص(143) وما بعدها. بتصرف

وهو يمثل الذروة التي وصل إليها الفقه الإباضي في عهوده الأخيرة، بما يتضمن من قابلية للاقتباس والتفاعل مع المذاهب الأخرى، و ذلك لسبب بديهي هو وحدة الجميع في الأصول و قواعد الاستنباط .

و الكتاب هو المرجع الذي تتجه إليه أنظار العلماء و الباحثين من جميع البلدان الذين يهمهم أن يطلعوا على وجهة النظر الإباضية "[1].

في التفسير وعلومه[2]

للشيخ رحمه الله في التفسير ثلاثة كتب؛ أهمها والعمدة عند أصحاب الطائفة هو كتاب: هميان الزاد إلى دار المعاد ، غير أنه لا يصور لنا حالة التفسير في العصور الأولى[3]، وذلك لتأخر مؤلفنا كما هو معلوم .

وصاحبنا في تفسيره هذا استمد من كتب من سبقه من المفسرين على اختلاف نحلهم ومشاربهم يرجح أحيانا ما يؤديه إليه اجتهاده .

ومهما يكن من شيء فلا يسعنا إلا أن نقول : إن الرجل ـــ وقد قرأ الكثير من كتب التفسير ـــ تأثر بما جاء فيها ، واستفاد الكثير من معانيها ، مما يدعونا إلى القول بأن تفسيره يمثل التفسير المذهبي للإباضية في أواخر عصورهم فقط ، وبعد أن خرجوا من عزلتهم التي مكثوا فيها مدة طويلة من الزمن[4].

---

[1] نقلا عن كتاب القطب ، ص(148_149).

[2] انظر ما كتبه الدكتور يحي صالح بوتردين(المركز الجامعي بغرداية) في بحث له بعنوان:" اللغة في منهج الشيخ اطفيش التفسيري. قراءة في كتابه تيسير التفسير".

[3] أرجع صاحب كتاب قطب الأئمة سبب ندرة التأليف لدى سلفهم إلى احتراس أولئك النفر من القول بالرأي في كتاب الله تعالى، وإلى عدم وجود سلطة سياسة تقوم على نشر والدفع بعجلة التأليف آنذاك !! . انظر: ص(151_152).

[4] انظر: التفسير والمفسرون ، للذهبي(237/2).

وبالتالي فإن تفسيره يعد من أفضل وأوسع كتب الطائفة ، فهو موسوعة لغوية ، وفقهية ، وتاريخية ، وعقدية ؛ إذ ما قرره من مسائل الاعتقاد ـــ وهو في غالبه موافق للمعتزلة ـــ كلها مرجعه الأساس ، وقواعده المثلى اعتقاد الطائفة ، وانظر على سبيل المثال ما قرره في المسائل التالية:

1ـــ موقفه من المتشابه؛ وهو تأويله كالمعتزلة.

2ـــ رؤية الله تعالى؛ جوازها في الدنيا وحصولها في الآخرة، والشيخ يقول بامتناع الاثنين مقررا مذهب أهل الاعتزال.

3ـــ الشفاعة وثبوتها لأهل التوحيد التائبين ، وأخرج أهل الكبائر تمشيا مع المذهب واعتقاد الطائفة.

4ـــ وأخيرا حقيقة الإيمان واعتماد مذهب المعتزلة في ذلك، وأن الإيمان مكون من ثلاثة أركان: قول واعتقاد وعمل، وترك العمل موجب للفسوق والنفاق[1].

ومما أسهم به الشيخ رحمه الله في هذا الشأن وقوفه على حقيقة تفاسير بعض المتصوفة والإشاريين، فنجده أعطانا قاعدة وحكما واضحا تجاه هؤلاء، يقول رحمه الله ـــ في تفسير قوله تعالى:﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾[2]:"..قيل : ويحتمل الإنفاق من جميع ما رزقهم الله من أنواع الأموال، والعلم ، وقوة البدن،والجاه وفصاحة اللسان..وقيل: المعنى: ومما خصصناهم به من أنوار معرفة الله جل وعلا يفيضون .. وهذا القول والذي قبله أظنهما للصوفية أو لمن يتصوف، وليس تفسير الصوفية عندي مقبولا إذا خالف الظاهر، وكان تكلفا، أو خالف أسلوب العربية، ولا أعذر من يفسر به، ولا أقبل شهادته، وأتقرب إلى الله تعالى ببغضه والبراءة منه، فإنه ولو كان في نفسه حقا، لكن جعله معنى للآية أو

---

[1] انظر: المصدر السابق(2/237ـــ243).

[2] سورة البقرة، الآية: 2.

الحديث خطأ لأنه خروج عن الظاهر وأساليب العرب التي يتخاطبون بها[1] ...إلى آخر ما ذكره رحمه الله.

وقوله هذا وإن كان موفّقا فيه، لكن لا نوافقه على ما هجم به على الصوفية، غفر الله لنا وله ولجميع المسلمين.

يقول الدكتور يحي صالح بوتردين: " وعلى كل حال فالشيخ اطفيّش كغيره من المفسّرين قد تعامل مع نصوص القرآن الكريم بعلم وفقه، مستعملا جميع مصادر التفسير المتعارف عليها بين العلماء، وقد كان موقفه من التأويل دليلا ساطعا، يبيّن لنا كيفية إعماله للعقل، والحدود التي تضبط هذا العقل، فإذا كانت اللغة والبلاغة أو المجاز على وجه التحديد، قد فتحا له مجالا واسعا في تأويل بعض الآيات المشكلة أو الغريب لفظها، فإن العقل هو أيضا وعن طريق مبدأ التنـــزيه المطلق الذي يتمسك به الإباضية في مفهومهم لعقيدة التوحيد، قد فتح له المجال لسبر أغوار المتشابه الغامض، وخاصة منه آيات الصفات الخبرية التي يفيد ظاهرها التشبيه والتجسيم والتحيّز.. وغيرها من المعاني التي لا تتفق ومعنى آية التنـــزيه، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

وفي الأخير يمكن القول إنّ القطب اطفيّش لم يكن بدعا من الأمر في عالم التفسير، وإنّما كان رحمه الله يصيب إصابة العالم العارف، ويخطئ خطأ المجتهد، كما هو الحال بالنسبة لسائر المفسرين؛ وإن غلب عليه المنهج التقليدي العام القائم على تحليل آي القرآن الكريم. باعتماد شتى الأدوات التفسيرية المتعارف عليها، سواء من طريق النقل أم من طريق العقل، وفي طريق العقل وجدنا كيف أنّ اللغة كانت بارزة في تفسيره إلى جانب علوم القرآن الأخرى، مـــمّا يدلّ على حرصه على استيفاء جميع أدوات التفسير من أجل بلوغ الهدف في فهم وتبيين معاني النص القرآني "[3].

---

[1] نقلا عن التفسير والمفسرون(2/243ـــ244).

[2] سورة الشورى ، الآية: 11 .

[3] بحث للدكتور بعنوان:" اللغة في منهج الشيخ اطفيش التفسيري. قراءة في كتابه تيسير التفسير".

وخلاصة القول نقول: إن تفسير القطب رحمه الله يعد من أوسع التفاسير الجامعة بين الرأي والمأثور ، غير أن السمة الغالبة على تفاسيره تتجلى في الطابع اللغوي والشرعي بالمفهوم الشامل[1] كما ذكرت سابقا.

يقول بكير بن سعيد[2]: " ومن هنا نستطيع أن نقول: إن منهج القطب في التفسير كان منهجا سلفيا أصيلا ...".

بعض الدراسات المعاصرة عن الشيخ اطفيش رحمه الله:

لم أحط علما بكل ما كتب عن الشيخ، غير أني سأذكر ما تيسر لي الوقوف عليه في وقتي هذا، وأستغفر الله عن التقصير:

ـ طبعت جمعية التراث رسالتين للماجستير في فكر الشيخ رحمه الله تعالى:

الأولى: للباحث جهلان عدون؛ بعنوان: " الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ اطفيش ".

الثانية: للباحث مصطفى بن الناصر وينتن، بعنوان " آراء الشيخ المحمد بن يوسف اطفيش العقدية "[3].

مجموعة بحوث للدكتور:أحمد جلايلي[4] (أستاذ التعليم العالي بجامعة ورقلة):

الكتب المطبوعة:

آراء لغوية لمحمد بن يوسف اطفيش، الطبعة الأولى، منشورات السهل، الجزائر، 2009.

البحوث المنشورة الدولية:

محمد بن يوسف اطفيش الجزائري من رواد النهضة الحديثة. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، العدد: 04، السنة:2001.

---

[1] نقلا عن كتاب القطب ، ص(162).

[2] انظر: قطب الأئمة ، ص(163).

[3] انظر: معجم أعلام الإباضية(399/2).

[4] انظر : http://www.seraty.info/news.php?action=view

التحليل الدلالي للألفاظ الدينية عند الشيخ اطفيش. مجلة الأثر،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ورقلة، العدد: 01، السنة : 2002.

الدلالة العَقَدِيَّة والفِقْهِيَّة عند محمد بن يوسف اطفيش الجزائري، مجلة الأثر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ورقلة، العدد: 02، السنة : 2002م.

موقف محمد بن يوسف اطفيش من المعرب في القرآن الكريم. مجلة العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، العدد:03- 04، السنة:2004م.

المصطلح النحوي في آثار محمد بن يوسف اطفيش. مجلة الدراسات والبحوث في الآداب. المركز الجامعي الوادي، العدد: 02، السنة: 2005م.

إسهامات الشيخ محمد بن يوسف اطفيش في الدراسات اللغوية. (من ص: 89. إلى ص: 99) مجلة القلم، العدد: 02، السنة: 2005، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران.

إشكالية اللغة عند محمد بن يوسف اطفيش. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، العدد:07، السنة:2005.

الجهود اللغوية عند محمد بن يوسف اطفيش. مجلة الفضاء المغاربي، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في الأدب المغربي العربي، جامعة تلمسان، العدد:03. السنة: 2005.

الخاتمة:

أردت في هذه الورقات أن استجمع شيئا من حياة الشيخ اطفيش الشخصية ، والعلمية ، وإن كنت في قرارة نفسي أعلم علم اليقين أني لن أوفيه حقه ، وأن الوقوف على خبايا هذا العَلَم أمر شاق وصعب، نحتاج فيه إلى كثير جد وحزم ، وبلورة مشروع قائم بذاته يكشف لنا عن مكنونات هذه الشخصية ، ويوقفنا على ساحل بحره، ولي في هذه الكلمة وقفات وتوصيات:

1ـ إن الكتابة في هذا النوع من البحوث يحتاج إلى قضية عزيزة ألا وهي التجرد؛ ونقل الخرف كما هو من غير نقص أو زيادة، ومهما قال العبد إني أردت ذلك؛ فهو متَّهَم من الناس متَّهم لنفسه، غير أن رائدنا رضا الله، فهو حسبنا.

2- على المؤسسات الجزائرية بمختلف تخصصاتها وأقسامها أن تبلور مخابر بحث تتخصص في التعريف بتراث الجزائر وأعلامها، من غير إقصاء لأحد أو تهميش.

3_ لا شك في انفتاحية الشيخ اطفيش على المذاهب الأخرى، وخصوصا المذاهب السنية، وهذا يعطي لقضية التعايش والانفتاح من الجانب الآخر دفعة قوية.

4_ لا بد من معالجة كثير من القضايا الفكرية ذات الجدل الواسع بنفس هادئة متعقلة، بين جانبين عاقلين من الفريقين، وأن لا نخوض غمار مسجالات عقيمة لا تسمن ولا تغني من جوع، وأن يظهر ذلك بين الطبقة المثقفة.

5_ على أولى النهى من الفريقين الأخذ بالحزم عند نقل الفقهيات والعقديات عن المخالف، وأن لا تؤخذ عن العوام ، ومن خلال الترسبات اللاشعورية؛ فهي التي جرّت علينا الوبال، وهذا كلام نقلته بمعناه عن شيخنا التواتي بن التواتي حفظه الله تعالى.

6_ على العقلاء أن يعيدوا قراءة التاريخ شيئا ما، ويعيدوا صياغة الأحداث صياغة معاصرة تليق بزماننا ومكاننا.

أسأل الله تعالى أن يُوجِد لكلامي آذانا صاغية ، وقلوبا واعية .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

1. معجم أعلام الإباضية من القرن الأول إلى العصر الحديث قسم المغرب الإسلامي، تأليف الأستاذ محمد بن موسى باباعمي و آخرون ، جمعية التراث لجنة البحث العلمي ، دار الغرب الإسلامي /ط/2000 م.
2. تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله /ط دار البصائر.
3. قطب الأئمة العلامة محمد بن يوسف اطفيش ، بكير بن سعيد أعوشت ، ط/المطبعة العربية ،1989م.
4. صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي ، علي محمد الصلابي /ط الأولى ، 1427هـ / دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة.
5. التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا ، محمد بن رزق طرهوني /ط الأولى،1426هـ ، دار ابن الجوزي.
6. تاريخ بني مزاب، يوسف بن بكير الحاج سعيد، المطبعة العربية/ط الثانية /2006م.
7. كتاب حل لغز الماء ، للإمام أبي محمد أحمد المقريزي الشافعي/مخطوط.
8. التفسير والمفسرون، أحمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة/ط السابعة/2000م.
9. معجم مشاهير المغاربة، أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، منشورات دحلب.
10. بحث للدكتور يحي صالح بوتردين(المركز الجامعي بغرداية) بعنوان:" اللغة في منهج الشيخ اطفيش التفسيري. قراءة في كتابه تيسير التفسير"

الشيخ امحمد بن يوسف أطفيّش في قلب المعركة

(مواجهة فرنسا الإمبريالية والنهوض بالمجتمع الإسلامي)

حاج امحمد حاج إبراهيم / باحث في التاريخ الوسيط

قسم التاريخ - جامعة قسنطينة - الجزائر

ارتكز جهاد الشيخ أطفيّش طيلة حياته على مبادئ قرآنية ربانية، ما حاد عنها يوما ولا تماطل في تبليغها إلى مجتمعه وعامة المسلمين، خلال حياته المتقدة نشاطا وحماسة يرشد المجتمع ويكافح الآلة الاستعمارية التي امتدت على البلاد الإسلامية طيلة قرون من الزمن، وسبيله في ذلك علمه الغزير وقلمه السيال؛ ولقد عانى أيما معانات لمجابهة هذين العدوين اللذين يكفي أن يغزو أحد منهما مجتمعا إلا فتك به، فما بالك باجتماعهما، وكان الشيخ قد عاصر ذلك فقد تسلح الشيخ بالإيمان والتوكل على الله لبلوغ مرماه؛ ولعل في هذا العرض الذي بينت فيه بعضا من مسيرة الشيخ ــ رحمه الله ــ في هذا الجانب وذلك في ستّ عناصر وهي:

1 ــ الدخول الفرنسي إلى مزاب.

2 ــ الشيخ أطفيّش في صدر المعركة.

3 ــ في مواجهة الحملة التبشيرية.

4 ــ تفاني الشيخ أطفيّش في خدمة الدين والمجتمع.

5 ــ رؤية القطب للأوضاع وتحليلها.

مدخل

مذ دخل الاستعمار الفرنسي أرض الجزائر وهو يسعى إلى محو الهوية المسلمة من المجتمع الجزائري، فراح يهدم المساجد ويمنع الطلبة من الالتحاق بالكتاتيب والمدارس التي كانت أساس تعلم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي واللغة العربية؛ كما مارس الضغوط والقيود على رجال الدين والفقهاء والمدرسين وغيرهم. في حين كان يرسل البعثات العلمية والاستكشافية بمعية الحملات العسكرية إلى الدواخل والجبال بغرض دراسة ومعاينة ثقافة تلك المجتمعات المحافظة، حيث يعتبر المساس بخصائص المجتمع سلاحا آخر لاقتحامها[1].

من بين تلك المناطق التي استهدفها الاستعمار الفرنسي ودوائره منطقة مزاب التي انفردت بتراث وإرث حضاري ذي طابع ومميزات خاصة، كانا حصيلة نشاط إنساني كثيف بتلك الربوع من عهود قديمة؛ كما حافظ طويلا على سلامته من عوادي الزمن؛ فمن عوادي الزمن المتأخرة ظاهرة الاستعمار التي عملت وحرصت على الولوج في أعماق المجتمع لتخريبه وضرب وحدته بإحداث الخصومة بين عناصره وهو ما وقع في كل مناطق الجزائر. فخرج من يتصدى لهذه السياسات الاستعمارية من علماء ومشايخ للقيام بالتوعية والتعبئة للمقاومات الشعبية، رغم أنهم أصبحوا قليلين؛ بفعل الجهل المطبق والسياسة المنتهجة ضدهم. وقد تميز من بين هؤلاء في وادي مزاب شخصية لم تُعرف بعلمها فقط، بل بكونها من الموسوعات، متمثلة في العلامة المحمد بن يوسف أطفيّش "قطب الأئمة" الذي رفض الوجود الاستعماري بالجزائر عموما وبوادي مزاب خصوصا، وبالعالم الإسلامي أجمع؛ كما حذر السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1876م/1908م) من

---

[1] - انظر بحصلة ما قام به مخربوا فرنسا بالجزائر وسياستهم، تقارير **توك فيل** إلى البرلمان الفرنسي. وشارل روبير أجرون، **المسلمون الجزائريون وفرنسا**، جزئين. **تاريخ الجزائر** لوزارة المجاهدين، (قرص مدمج) إصدار 2006.

حبائل النصارى واليهود، فممّا أثر عنه أنه حذّره من خط السكة الحديدية الموصل إلى مكة المكرمة، فكان يرى في ذلك الخط وسيلة لتسهيل وصول الاستعمار إلى الأراضي المقدسة في بلاد الشام والحجاز.

1ـ الدخول الفرنسي في مزاب:

لما أتم الاستعمار الفرنسي إخضاع الشمال وأمنوا على ظهورهم، زحفوا لاحتلال الصحراء ليأمنوا على مكاسبهم الشمالية؛ ولما وصلوا الأغواط، وقفت في وجهه المدينة ووقعت بينهم معركة حامية وقتلوا الآلاف من أهلها وتغلبوا عليها بوحشية وقاموا فيها بفضائع لا تتصور؛ ثم أعدوا العدة في بداية 1853م للزحف على مزاب حيث عزم الماريشال راندون (Randon) على التقدم عليها بعد امتلاك نواحي الأغواط، ووقع المزابيون في حيرة وتوقعوا الانتقام من فرنسا وقد كانوا يقاومونها في الشمال منذ حطوا أرجلهم أول مرة في شاطئ سيدي فرج وعلى أسوار مدينة الجزائر؛ وفي كل مدن الجزائر[1] والتيقّن أن الحرب لم تعد أصعب على فرنسا مما عليه في الشمال حيث الجبال والأحراش وحرب العصابات، فالصحراء جرداء عارية وبالتالي فالمواجهة هي الحرب المباشرة، بما يعني صراع القط مع الأسد؛ فاجتمع زعماء مزاب وأجمعوا رأيهم على عقد معاهدة مع فرنسا، وصرفها بدبلوماسية لأن لا تأتي على مدفها.

لكن في مقابل من رأى بهذا الرأي كان من ينبذ كل صلة تصلهم بالدولة المشركة فرنسا ولو أدّى بهم الأمر إلى محق مزاب من خريطة العالم. وكان من تولى زعامة المعارضة الشيخ أطفيّش، وقد أعلن البراءة ممن يسعى أو يحبذ التعاقد مع فرنسا الدولة المشركة وعدوة الإسلام وكان يصرح ويقول: << أرضى أن نشيع ثمانين جنازة في اليوم في بني

---

[1] – انظر بطولات المقاومة المزابية في العمق الجزائري. عمر عيسى النوري، **دور المزابيين في تاريخ الجزائر**، 4 أجزاء، دار البعث، قسنطينة.

يزحن ولا أرضى بحال أن يطرق سمعي أن فرنسا وضعت حجرا واحدا في (تيضَفْتْ)>> وتيضَفْتْ مكان معروف في المدينة[1]. لكن الأمور سارت وفق ما رآه كبراء مزاب ومقدَّميهم لكبرهم وخبرتهم وكلمتهم المسموعة فعقدوا مع الوالي العام في الجزائر معاهدة بتاريخ 22 أبريل 1853م من بنودها أن لا يحتل الفرنسيون بلادهم وأن لا يتعرضوا لنظمهم الإسلامية، وشئونهم الداخلية[2]. ولما تم الأمر أقدم وجهاء الأمة وأعيانها يعلنون توبتهم لله ويطلبون منه الصفح عن معاكستهم له في هذه القضية، شارحين له الأسباب الوجيهة وراء المعاهدة بعد محاربتهم للاستعمار في الشمال، وما ستستفيد منه مزاب إن دخلت فرنسا بالقوة ما دامت مصرّة على دخول مزاب، وهذا لم يعد عسيرا بعد أن أجهضت كل مقاومات الشمال بكل الطرق المتاحة لها.

وفي 1882م وبفعل التعاون المستمر ودعم المزابيين لمختلف الثورات في الشمال وبقية الجنوب، وكون مزاب مأوى للثوار ومستودعا للأسلحة والذخيرة، قرر بعض القادة في الجيش الفرنسي الدخول العسكري في مزاب على أن يحافظوا على بنود المعاهدة، وأصدر الحاكم العام "تيرمان" منشورا يقضي بتطبيق الحكم العسكري على مزاب كبقية بلاد الصحراء[3].

2ـ الشيخ أطفيَّش في صدر المعركة:

إن الشيخ أطفيَّش رحمه الله يمثل الجبهة الصلبة المعارضة لفرنسا عند وصولها إلى وادي مزاب، وكان يدع إلى الجهاد وعدم التعامل معها مادياً وعسكرياً، وحتى تجارياً،

---

[1] – حمو عيسى النوري، **دور المزابيين في تاريخ الجزائر**، مطبعة البعث، قسنطينة، د.ت، ج1، ص 272.

[2] – محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، المطبعة التعاونية، د.م.ط، 1965. ج1، ص 247.

[3] – حمو عيسى النوري، **مرجع سابق**، ج1، ص 304.

يقول الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أطفيّش الجزائري: <<ومن أعماله الجليلة استماته في سبيل الذود عن شرف الوطن عند دخول الحملة الفرنسية في 1299هـ /1882م، لا بقوة الحراب لكن بقوة الحجة والحق، ولقد رأيت له عدة احتجاجات إلى رؤساء الحكومات الفرانسوية ضد ما يرتكب من العسف والحيف مع المسلمين بالقطر الجزائري>>[1].

وهكذا فإن الجنرال الفرنسي "دولاتور" (De LATOUR) قد سجنه في نوفمبر 1882م عند وصوله إلى وادي مزاب بأمر من الوالي العام الجزائري ليُقنع العزابة بعدم جدوى وفاعلية مقاومتهم لإلحاق مزاب بالاحتلال الفرنسي، ناسين أو متناسين أن القُطب يعتقد جازمًا أن "الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه"، مردِّدًا هذه العبارة الأخيرة في كلّ مرة معتزًّا بالإسلام أيما اعتزاز.

لم يتوقف الشيخ امحمد أطفيّش عن الاحتجاج ضد الاستيلاء وإلحاق مزاب بذلك القرار معتبرا إياه خرقا للاتفاقية في 1853م قد تترتب عليه تعسفات وإجراءات كالتجنيد الإجباري والإدماج التدريجي في النفوذ الاستعماري. وكان كثيرا ما يدعوا إلى الثورة وتحرير الوطن في كل مناسبة سانحة وكثيرا ما كان يتعرض في دروسه للاستعمار وويلاته فيوقف الدرس ويدعو ويبتهل إلى الله العلي الكبير أن ينصر الثوار والمجاهدين في ساحات الشرف في جميع أنحاء الوطن الإسلامي والحاضرون يؤمنون على دعائه.

كانت فرنسا تستدعي الشيخ أطفيّش مرّات كثيرة إلى التحقيق بسبب تجرئه المستمر على السلطات الاستعمارية في بلدته وسائر قرى مزاب، حيث كان حريصا أن تعم النهضة كل البلاد الإسلامية، حتى إنه فُتّش وسُئل مرّات عن وضعه الطابع البريدي

---

[1] – امحمد بن يوسف أطفيّش، **الذهب الخالص**، تقديم إبراهيم أبو إسحاق، ط2، مكتبة الضامري، عُمان، 1998، ص 13.

مقلوبًا إلى الأسفل على ظروف البريد، وكان يوصي تلاميذه أن يفعلوا ذلك[1]؛ وقد يبدُ للبعض بأن هذا السلوك الأخير تصرف ساذج، إلاَّ أنه في حقيقة الأمر ما هو إلا شكل من أشكال الرفض الصريح والمتواصل لكل أشكال تواجد المستعمر. وكان الفرنسيون يضعون على طوابع بريد الجزائر صور أبطالهم وعظمائهم، فيطمس الشيخ أطفيَّش عيني الصورة بالحبر، ذاكرًا قوله تعالى: {صم بكم عمي فهم لا يعقلون}[2]. فلما اشتد غضب الفرنسيين على تصرفات القطب الجريئة قرروا إيقافه عند حده فحاولوا استقدامه إلى فرنسا لمحاكمته لكنهم عدلوا عن ذلك حين قال أحدهم: من العار على فرنسا أن تستدعي رجلا إما أن يُحَاججها فتكون أضحوكة أمام الدول وإما أن تحاججهُ وهو أعزل ليس له إلا علمه فخير لكم أن تتركوا الرجل. فتناسوه[3].

ومما يروى عن القُطب أن لواءًا كبيرًا في الجيش الفرنسي، متغطرس وحاقد على المسلمين، قد زار قائد بني يسجن فأراد الأخير أن يطلعه على القطب أطفيَّش وأخذ معه كرسيا ليجلس عليه هذا الجنرال، لعله بأن لا كرسي في دار القطب فالتدريس كان على الأرض حينها، ولما دخل عليه والشيخ في مكانه لا يقوم له فسلم عليه الجنرال منحنيا مادًّا يده ووضع القائد الكرسي ليجلس عليه الجنرال أمام القطب، المُربِّع أرضا، فنهض القطب إلى دُرُج الارتقاء إلى سطح الدار فجلس على الدّرج الثالث، فأصبح هو من يطل على الآخر، واستغرب الجنرال من فعلته سائلا: لِم قمت من مقامك وجلست عاليا وبعيدا.

---

[1] – عمو عيسى النوري، **مرجع سابق**، ج1، ص 328.

[2] – الآية: (البقرة، 171).

[3] – عدون جهلان: **الفكر السياسي عند الإباضية، من خلال آراء الشيخ اطفيش**، طبع جمعة التراث، القرارة: د.ت. ص: 111.

فأجابه: "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه !!"[1]. وقد زاره وفدٌ فرنسيٌ في الدار التي يدرس فيها وذلك قصد تسليمه وسام الاستحقاق عن حله لُغز الماء[2] الذي حيَّر العلماء، بعد أن أكرمه السلطان العثماني، قالت فرنسا: أطفيَّش هو أحد رعايانا ونحن أولى بإكرامه منهم. وكان ضمن هذا الوفد القائد العسكري العام الفرنسي في الجزائر ومجموعة من الضباط الفرنسيين والقساوسة، وحينما دخلوا عليه الدار وجدوه جالساً يدرّس طلاّبه، ولما وقفوا أمامه قام القُطب واعتلى بعض الدُّرُج، فطلب منه حاكم التراب أن ينزل ليسلمه رئيس الوفد النِّيشان، فأجابه القُطب قائلاً: "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه!!"، وعندما دنا منه أحد الجنود ليعلق له الوسام على صدره أرخى له القطب طرف بُرنُسِه من الأسفل وقال له علّقه هنا[3].

للشيخ أطفيَّش أثر بالغ في قضيّته الأولى، وهي تحرير الجزائر، وهو ما يدل على وطنية صحيحة[4]، كيف لا وقد ربّى جيلا كاملا من المصلحين وأنشأ أول مدرسة إصلاحية بالجزائر. فقد حسب العساكر الفرنسيون في مزاب ألف حساب له وكانوا يرونه ألدّ أعدائهم لأنه منبع النهضة الحديثة التي يمقتونها، وسبب اليقظة التي عمّت مزاب وتسربت إلى الشمال، وهي الخطر الكبير الذي يتهددهم، وكانوا يودون أن يذهب إلى ربه فيستريحون منه إلى الأبد؛ فمكانته في العالم الإسلامي وفي الجزائر تعقل أيديهم عن اعتقاله أو نفيه، فيجب مراقبته وحصر خطره في الصحراء.

---

1 - محمد علي دبوز، **مرجع سابق**، ص: 327.

2 - سنشير إلى القصة لاحقا.

3 - محمد بن يوسف أطفيَّش، **رحلة القطب**، تح: يحي بن بهون، طبع mps، الجزائر، 2007، ص: 38.

4 - عمر رضا كحالة: **معجم المؤلفين**، ج3، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، ص: 786.

3ـ في مواجهة الحملة التبشيرية:

بدأت فرنسا عند توغلها في مزاب في فتح المدارس في غرداية عام 1886م، والعطف عام 1892م وفي بني يزجن في أكتوبر من نفس السنة، وأما في مليكة فحتى 1907م. وكان التعليم إجباريا بفعل المرسوم، فكان الأولياء يشتكون من هذا التصرف و"يهرّبون" أولادهم من مزاب، لكن فرنسا وقفت لهم فسنت لهم قانونا يقضي بأن لا يغادر تلميذ المنطقة إلا برخصة. وضل المزابيون رافضين هذا التعليم معتقدين فيه غزوا فكريا لأبناء المنطقة وسلخ المنطقة تدريجيا من مقوماتها الحضارية[1]؛ لذا نجد أن عدد التلاميذ في مدرسة بني يسجن لا يتجاوز الخمسين. وقد سبق المستطلعون المبشرون تلك المدارس إلى المنطقة فقد دخل الآباء البيض إلى متليلي (45كم عن غرداية) عام 1872م؛ وفي 1884م، أي بعد الإلحاق سنة 1882م، ثم تحولوا إلى غرداية ولم يفتحوا مدرستهم قبل سنة 1903م. ولو كان عملهم مقتصرا على العمل الخيري للناس في محاولة لجلبهم واستمالتهم.

أول خطوة مباشرة بعد أن حط الجنود الفرنسيين أرجلهم في مزاب قاد الشيخ أطفيّش المقاومة ضد الجنرال دِسُونْيُوسْ عندما اكترى الآباء البيض دارًا في بني يزجن، فأمر بسد بابها إن هم باتوا فيها. ولما حاول المستدمر الفرنسي هدم الجامع الكبير بالعاصمة كتب القطب رسالة احتجاج إلى الوالي العام يحذره فيها من الاقتراب من بيوت الله[2]. ولما حاول الشيخ الرّدّ به على شبهات الكفار وضلالاتهم التأليف في هذا المجال، والعمل المهم الذي قام به في هذا الميدان هو كتابه **"ردُّ الشَّرُود إلى الحوض المورد"** حيث يقول في مقدمته: <<فإني رأيت الجهل انتشر وخفت على الضعيف أن يضله مضل فألفت

---

[1] حمو عيسى النوري، **مرجع سابق**، ج1، ص 134.

[2] يوسف بن بكير الحاج سعيد، **تاريخ بني مزاب**، المطبعة العربية، ط2، غرداية، 2006، ص 188.

كتابا مشتملا بإذن الله على حجج رسالته صلى الله عليه وسلم>>. وهي رسالة بديعة في علم الرسالات ومقارنة الأديان حاول أن يجمع فيها القرائن والدلائل على نبوّة الرسول صلى الله عليه وسلم وأنباءه من كتب الأولين، ويتبع الهفوات التي في أسفار أهل الكتاب المقدسة والمحرفة، محاولا بها سد ثغرة يستعملها المبشرون وهي تشكيك الناس في عقيدتهم، وقد جاهدوا ما استطاعوا فقاموا بترجمة الإنجيل إلى اللغة البربرية المتداولة بمزاب[1]، ولكنهم لم يبلغوا في ذلك شيئا، بل ولم تقم بها كنيسة ولم يرفع فيها صليب فوق مبنى، فقد نصّبوا صليبا في بهو مدرسة الآباء البيض التي أقيمت في 1904م، فكانت مكان عبادة وتدريس لهم؛ ولولا فضل الله وقوف اليقظين من المزابيين وفي طليعتهم الشيخ أطفيّش في وجههم لما استطاع أحد عزل المبشرين عن المجتمع المحلي.

كان الشيخ أطفيّش على علم ودراية بكل ما يحصل في العالم الإسلامي آنذاك، فكان يعزّ عليه أن يهضم حق شعب إسلامي وتُسلب حريته أو يناله أدنى ضيم، فكان كثير الدعاء بالنصر للأمة الإسلامية على من يناوئها، شديد الرغبة في وجود الجامعة الإسلامية. وكان يدعو دوما بالنصر للدولة العثمانية ويقول لطلبته:<< إن الدولة التركية قد قامت بفرض الكفاية للخلافة الإسلامية >>. كما كانت له مراسلات مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1876م/1908م)، منها مراسلته له قبل الإطاحة به في 24 جويلية 1908م في شأن الشيخ سليمان باشا الباروني الليبي عندما عاد هذا الأخير من مزاب إلى ليبيا ليحمل راية الجهاد، فبُلّغت في شأنه وشايات إلى الباب العالي فأصبح رهن التحقيقات في السجون بتهمة أنه يعمل لصالح قوى أجنبية ضد الدولة العثمانية، وبفضل تدخل الشيخ أطفيّش قررت محكمة الاستئناف براءته. وفي عام 1911م عندما احتلت

---

[1] – قد وقعت بين يدي نسخة منه واطلعت على الترجمة التي كانت جيدة إلى حد مّا.

إيطاليا ليبيا وفد على القطب أطفيّش بمزاب مبعوثين من إباضية جبل نفوسة قام القطب بتحريض المواطنين لجمع الأموال والأسلحة لمساعدة المواطنين الليبيين[1].

وعندما أهدى إليه السلطان عبد الحميد الثاني نيشانا لما حل لغز الماء، في مسابقة يطلقها السلطان سنويا، وقد أرسل في ذلك بعض علماء الحجاز إلى الشّيخ أن يحله وفي ذلك شرف للإسلام والمسلمين، فحله الشيخ بذكائه فحياه كل العالم الإسلامي، وأسقطت فرنسا اسمه من صاحب الحل وأثبتت اسما مكان اسمه، حقدا وبغضا في شخصه المسلم، وقد علق الشيخ أطفيّش على هذه الحادثة في كتابه **الرسالة الشافية**[2] في الباب الثامن منها حيث يقول الشيخ فيها: <<إذا اجتمع الشح وفساد الدين فهناك غاية الذم، ويدور إن شاء الله على جامعهما عاجل الغم وآجل العذاب والهم، ويقال بالمثال يتضح الحال: جاء لغز عظيم[3] من المشرق عجز عن حله العرب والعجم وأهل المغرب والمشرق، مشركوهم وموحدوهم، حتى وصل يد مؤلف هذا الكتاب امحمد أطفيّش المزابي، فحله بإذن الله عز وجل، قاصدا أن يكون إذا حله حكمه ملوك الإفرنج، وأرغب الناس في حله من الإفرنج الفرنسيين، وأن يكون إذا حكموه أعني جعلوا له حكمه يختار شيئا ما فيثبتونه له. طلب منهم الرفق بأهل التوحيد بأن يسقط خراجهم أو ينقص منه وأن يلزموهم الحكم بالعلم ويهددوهم على الجور وأن لا يفسدوا أنكحتهم وأن يخلُّوا بينهم وبين من أرادوا ضربه على الخمر والفسق، وأن لا يعطلوهم عن الحج، وإن لم يسمحوا بذلك لأهل التوحيد كلهم فليفعلوه للميزابيين. ولم يفعلوا شيئا من ذلك ولا قاربوه، بل لما وجهت شرح اللغز إليهم، قالوا: ربحناه من امحمد أطفيّش ربحا. وقالوا: نترك اسم امحمد أطفيّش

---

[1] – محمد علي دبوز، مرجع سابق، ج1، ص: 353.

[2] – الكتاب محقق ومعد للنشر من طرف الباحث صاحب المقال.

[3] – لغز الماء. قد طبعه وقام بإخراجه السيد ح محمد حفيد القطب أطفيّش. في سنة 1429هـ/ 2008م.

منه ونسبه لأنفسنا. وقد كان أدنى ما يفعله الشّحيحون أن يقولوا بلغنا شرحك كثر الله خيرك؛ وما قالوا وما كتبوا وقد قال شاعر:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال[1]>>.

وقد هاجمهم بانتقاد لاذع؛ فضح فيه مساوئهم ونواياهم التبشيرية، والطرق التي يستعملونها قصد جلب الناس إلى ديانتهم، وذلك باستهداف المحتاجين والجياع برغيف الخبز في يد وصليبهم في اليد الأخرى.

4ـ تفاني الشيخ في خدمة الدين والمجتمع:

يمثل الشيخ أطفيّش صدر شباب النهضة الحديثة بمزاب، ودور الشباب هو الدور الثالث من أدوار النهضة بمزاب التي جعلها المؤرخ محمد علي دبوز[2] خمسة: ففي دور الميلاد، في القرن 12هـ/ 18م، رعاها الشيخ أبو زكرياء يحي بن ح صالح الأفضلي[3]، وفي دور الطفولة قادها وحماها الشيخ عبد العزيز الثميني مع شيخه أبو زكرياء، وفي الدور الثالث صدر الشباب الذي أبره الشيخ أطفيّش، ثم بلغ بالنهضة قمة الشباب والنضج تلاميذ القطب: الشيخ إبراهيم الإبريكي وزعماء البعثات العلمية إلى تونس الشيخ إبراهيم

---

[1] - هي مطلع قصيدة شهيرة لأبي الطيب المتنبي.

[2] - **نهضة الجزائر الحديثة**، ج1، ص 290.

[3] - يحي بن الحاج صالح الأفضلي: (1788/1714م)، الباعث الأول للنهضة الحديثة بمزاب، تعلم بالمشرق ثم عاد إلى وطنه ليتصدر للتعليم وتنشئة الجيل على الهدى والعلم، اهتم بالكتب فكوّن مكتبة من المخطوطات وشروحا على الكتب، جمعية التراث القرارة، **معجم أعلام الإباضية**، طبع الجمعية القرارة، ط1، 1999، ج4 ص660 وما بعدها.

أبو اليقظان[1] والشيخ أبو إسحاق إبراهيم[2] وحاج محمد بن صالح الثميني[3]؛ وبلغ بها تمامها في مرحلتها الخامسة الشيخ إبراهيم بن عمر بيّوض، وأبو اليقظان والشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي الشهير بـــ"البكري"، وغيرهم من المخلصين.

سلك القطب ــرحمه اللهــ نهج الصالحين العاملين في جهاده الإسلامي، ذا قوة اجتماعية ظاهرة، يهتم بالمجتمع ويعمل بكل الوسائل لإصلاحه، فبلغ الغاية القصوى فيه بإصلاح المجتمع وترك فيه الآثار الراسخة. إلا أن الوصول إلى هذا الطريق الإصلاحي ليس بالأمر الهين، حيث الظروف الصعبة المحيطة به ونظراً إلى سعي معارضيه الذين حاربوه وضايقوه في جهاده، فطالما استفزوه في إصلاحه ليلاً ونهاراً، فشعر بأن دائرة السوء تسعى بكل قواها كي تحطمه وتنهي نهضته الإصلاحية في مهدها، كما بين ذلك في رسالة بعثها إلى بعض إخوانه العُمانيين قائلا: (فسلامٌ على الشيخ العالم عبد الله بن حميد[4] والشيخ الفهامة عيسى بن صالح الفارسي من كاتبه أمحمد بن الحاج يوسف، أعذرني يا أخي في

---

1 – إبراهيم أبو اليقظان: (1888م/1973م) من أعلام الجزائر في العصر الحديث، يعتبر شيخ الصحافة الجزائرية المجاهدة، ترأس أول بعثة علمية جزائرية إلى تونس1914 أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين، له ما يقارب 60 مؤلفا، أصدر ثماني جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية بين 1926 و1938م. **نفسه**، ج2 ص52 وما بعدها.

2 – أبو إسحاق إبراهيم أطفيّش الجزائري: (1886م/1965م)، من أعلام الجزائر والعالم الإسلامي، عالم وسياسي ومجاهد، وهو شيخ المحققين، من مؤسسي حزب الدستور التونسي، ومؤسس مجلة "**المنهاج**" بمصر، له تآليف وتحقيقات لكتب عديدة، **نفسه**، ج2 ص44 وما بعدها.

3 – محمد بن صالح الثميني: (1897م/1970م)، أسهم في الحركة العلمية والسياسية منذ لحاقه بتونس، وكان رفيق الشيخ العربي الكباوي في النادي الأدبي، ورفيق الثعالبي في الحزب الدستوري، وأنّه كان مبعوث الحكومة الجزائرية المؤقّتة إلى أمريكا والمغرب، لخدمة القضية الوطنية، **نفسه**، ج3 ص586.

4 – الشيخ السالمي مجدد العلم بعمان، لقبه القطب بنور الدين وهو من لقب القطب بقطب الأئمة؛ صاحب تآليف كثيرة. انظر محمد ناصر ومبارك بن سلطان، **معجم الأعلام الإباضية قسم المشرق**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006، ص 271.

تأخير الجواب بعض التأخر وما ذلك إلا لأهوال عظام من النصارى ومن أهل بلدي..)[1]، وقد تعرض للنفي من بلدته إلى بلدة بنورة ومكث بها حوالي عشر سنوات ألف فيها كتبا كثيرة، وتخرج عليه في الفقه بها كثير من الطلبة، ولما عاد خلف الشيخ الحاج محمد بن عيسى ازبار في مشيخة المسجد وكان ذلك عام: 1878م/ 1296هـ. ولاشكّ أن المجتمعات البشرية لا ولن تخلو من الصراع بين رجال الفضيلة ورجال الرذيلة وبين أهل الحق وأهل الباطل، إلاّ أن عزيمة الصادقين هي من يكون لها الغلبة في النهاية لأن الباطل ساعة والحق إلى قيام الساعة.

فقد خاض الشيخ أطفيّش معركة الكفاح الاجتماعي لعدة سنوات مبيناً المنهج الإسلامي الصحيح، رافضا كل مظاهر الجمود الفكري والتعصب المذهبي، فكان لا يتعصب لمذهب إسلامي أو يحصر فيه أفكاره، فهو كثير الدراسة لكتب المذاهب كلها[2]، داعياً إلى العلم النافع وتطهير النفوس من أدناس الجهل والتخلف، مجابًا في جهاده الاجتماعي مختلف الأعداء حتى من اشترى الاستعمار ضمائرهم من ضعاف النفوس، ممن سخَّرهم هذا الأخير لمجابهة القُطب في جهاده الإصلاحي. أنشأ القُطب منذ عام 1253هـ / 1837م معهدًا للتدريس في بني يسجن هي في الأصل داره.

وكان يعقد آماله على الناشئة والأجيال الصاعدة، وعاتب على أساليب التربية الفاسدة التي تقتل شخصية الأبناء وتخالف الدين فتضر بالأمة أجمع؛ وقد رفض تربية الحرمان والفظاظة والقسوة والتي تؤدي بالابن أن يكون حجرا أصم يدحرج إلى غير إرادته، فيُطبع الجيل بالذّل والرضوخ للظلم، وتُخلق فيه العقد النفسية بالتعبير والسب،

---

[1] – احمد بن يوسف اطفيش، **رحلة القطب**، ص: 38.

[2] – عدون جهلان، **مرجع سابق**، ص 106.

يُوصف بالضعف والبلادة فتُقتل المواهب بداخله وتَضمر، فيكون دليلا خاملا... [1] لقد أدرك القطب هذه الفظائع التي تضر بالطفل والأمة، فدعا الآباء والأمهات إلى الأسلوب الرشيد في التربية، وتهذيب الطفل بالقدوة الحسنة، وامتلاك ودّه باللطف عليه ليستطيع الأبوان تربيته.

ولا أدل على نجاح منهجه في الإرشاد والتربية إلا ذلك الجيل الذهبي من تلاميذه الذين كانوا في طليعة الحركة الإصلاحية في القرن العشرين بالجزائر وخارجها، فمن أبرز العلماء وأجل الشخصيات المجاهدة والداعية، الذين انبثّوا في معظم أقطار المغرب والعالم الإسلامي من مُزاب وجربة ونفوسة وعُمان، نجد هؤلاء وأشهرهم: سليمان باشا الباروني النفوسي الليبي[2]، وسعيد بن تعاريت الجربي[3]، وإبراهيم أبو اليقظان، وأبو إسحاق إبراهيم أطفيّش الجزائري، وصالح بن يحيى بن الحاج سليمان آل الشيخ[4]، وغيرهم كثيرون.

---

[1] – محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر الحديثة**، ص 335.

[2] – سليمان باشا الباروني: من زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة بليبيا، عالم وزعيم مجاهد وأديب، (1870م/1940م)، انظر بتفصيل أكثر: جمعية التراث، **معجم أعلام الإباضية. قسم المغرب**. ج3 ص426 وما بعدها.

[3] – سعيد، ابن تعاريت: من شيوخ جزيرة جربة البارزين، صاحب "**رسالة في تراجم علماء الجزيرة**" و" **المسلك المحمود في معرفة الودود**" (ت: 1289هـ/1872م)، **نفسه**، ج3، ص: 375.

[4] – صالح بن يحي آل الشيخ: (ت: 1948م)، من رجال بني يسجن الثوريين والوطنيين البارزين، العضد الأيمن للشيخ عبد العزيز الثعالبي وأحد مؤسسي الحزب الحر الدستوري التونسي، ممن كان له السبب في نجاح مهمة الحزب خاصة في جمع التبرعات . انظر: **نفسه**، ج3 ص487 وما بعدها.

5ـ رؤية القطب للأوضاع وتحليلها:

كان الشيخ أطفيّش يقول لتلاميذه: << إن فرنسا ستخرج من الجزائر مذمومة مدحورة بعد أن تشيد فيها عمرانا ومدنية وازدهارا فتدعها كالعروس الحسناء في وشيها ليلة زفافها >>[1]. وقد أشار إلى نهاية قضية الجزائر في قصيدته البائية:

إذا تم وَيْ فَرَّ عنها جميع من أتاها من البر الكبير وغابوا

أما "وَيْ" ففي كلامه تعني "نعم" بالفرنسية في الاستفتاء؛ وهذا ما تم حيث حمل حشر المستوطنون وغلاة المستعمرين على سواحل الجزائر ومطاراتها لائذين بالفرار تاركين وراءهم كل نفيس وغال نادبين حظوظهم وهذا من ألطاف الله والمؤمن بنور الله يبصر.

يسترسل الشيخ أطفيّش في كتابه **تيسير التفسير** بعد شرحه للنص القرآني {فتفشلوا وتذهب ريحكم}[2] ناقدا لأوضاع المسلمين في زمانه قائلاً: "والنزاع الآن فشا في أهل التوحيد، فملكهم أهل الشرك؛ ولو رجعوا إلى مذهبنا في الأصول وغضُّوا عن مسائل الخلاف، كأن لم تكن، وكانوا يدًا واحدة لغلَبوا على أهل الشرك. وأهل الشرك الآن مشتغلون بالاحتيال فيما يملكون به غيرهم؛ وأهل التوحيد بعضهم معين لهؤلاء، وبعضهم بطّال معرض، وبعضهم يعبد الله ولا يشتغل بالدعاء عليهم، وبعضهم مكب على التأليف ولا يحسن التأليف، إلا ما كان على طريق الشيخ عبده، والشيخ مصطفى بن

---

[1] ـ حمو عيسى النوري، **دور الميزابيين**، ج1، ص 322.

[2] ـ الآية (الأنفال، 46)؛ قال الله تعالى: {وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا، إن الله مع الصابرين}.

إسماعيل، والشيخ قاسم بن سعيد[1] ولذلك قلتُ أكبّ على التأليف، إذ لم نجد لنا غازيا يوما ولا من يهم يغزو"[2].

وكانت تلك غاياته ــ رحمه الله ــ ومنها إرضاء الله وتعلم العلم وتعليمه وجهاد الكفر؛ وقد تأسف في بعض كتاباته أنه حقق الثانية ويدعوا الله أن يكون قد حقق الأولى ولكنه لم يحقق الثالثة. إذ لم يسمح له الظرف بالجهاد ومحاربة الاستعمار بالسلاح رغم أنه حاربهم بالقلم وبالمواقف الجريئة[3].

أحب الشيخ أطفيّش رحمه الله الشباب حبًا جمًا، وتوسم فيهم الخير وكان يراهم الفروع الخضراء التي تثمر للأمة أحسن الثمار فلا يجد راحته إلا بين تلاميذه، وكان ينزل إلى مستواهم ويباسطهم، ويعتني بشئونهم الخاصة؛ وقد تأثر تلاميذ القطب بشخصيته العظيمة، فكانوا على الدين، والنشاط والإخلاص، وورثوا من أخلاقه الكريمة فنجحوا في العلم والعمل لاختلاط القطب بهم وحبه إياهم واتجاهه إليهم بقلبه فغمرهم بوجدانه وجعلهم يسيرون في الطريق التي أراد والوجهة الحسنة التي اختارها[4].

---

[1] – قاسم بن سعيد الشماخي (ت: 1916) كان من أبرز من أنجبتهم يفرن بجبل نفوسة، في أواخر العهد التركي. نزل بمصر، فصاحب الأديب الصحفيّ: مصطفى بن إسماعيل المصري؛ حيث كان سببًا في اعتناقه المذهب الإباضيّ. وكافح الأتراك الأباطيل والخرافات والبدع، وساندا الإمام محمّد عبده في حركته الفكريـــّة. له عدة مؤلفات منها: "الحكمة في شرح رأس الحكمة" و"القول المتين في الرد على المخالفين" و"سرد الحجة على أهل الفصلة" و"مسائل البراءة وتولية والصحابة". م. أ.ع. إب، **قسم المغرب**، ج3، ص 447.

[2] – القطب المحمد بن يوسف أطفيّش، **تيسير التفسير**، تح إبراهيم طلاي، ج5، ص 339–340.

[3] – محمد موسى بابا عمي، **حدد غايتك**، مكتب الدراسات العلمية، 2005.

[4] – محمد علي دبوز، **مرجع سابق**، ج1: ص 360.

وأملنا أن يكون هذا الشيخ عبرة، {وإنَّ في قصصهم لعبرة}، وكما يقول السّخاوي نقلا عن أبو إسحاق إبراهيم الحموي:<< إنما الفائدة في التاريخ الإسلامي، مع قربه من الصحة، ذكره لعلماء الأمة المحمدية وذكر محاسنهم وعلومهم ومواعظهم وحكمهم وسيرهم التي يستدل العامل بها في أموره، ويتدّبرها ويتفكر فيها، فينتفع بما قالوه وعانوه، وما ينقل عنهم من المحاسن دنيًا وأخرى>> [1]؛ ثم الإقتداءُ فحال المسلمين اليوم ليست بأحسن حال من أمسٍ، فقد ولّى الاستعمار التقليدي وتبدل شكله إلى غزو من دون سلاح، وقهر من دون عنف، وأهلك أكثر مما أهلك الاستعمار القديم؛ وما كانت تآليف القطب أطفيَّش الكثيرة إلا لسد النقص الذي سيلج منه المفسد إلى الأمة فيفرقها؛ فقد اعتنى بالتأليف فبلغ الغاية القصوى فيه، وبالعلم فبثه في كل قطر؛ ففيهما أفنى حياته وبهما بقي النهج والأثر.

المصادر والمراجع

1_احمد بن يوسف أطفيَّش، **الذهب الخالص**، تقديم إبراهيم أبو اسحاق، ط2، مكتبة الضامري، عمان، 1998.

2_احمد بن يوسف أطفيَّش، **الرسالة المختصرة "الرسالة الشافية"**، محقق معد للنشر.

3_احمد بن يوسف أطفيَّش، **تيسير التفسير**، تح ابراهيم طلاي، ج5.

4_احمد بن يوسف أطفيَّش، **رحلة القطب**، تح: يحي بن بهون، الجزائر، 2007.

5_احمد بن يوسف أطفيَّش، **رد الشرود إلى الحوض المورود**، طبعة حجرية، 1299هـ.

---

[1] – محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، تحقيق فرانز روزنتال، مؤسسة الرسالة، ط1، 1986، ص 49.

6_محمد بن يوسف أطفيَّش، **لغز الماء**. طبعه وقام بإخراجه السيد ح محمد حفيد القطب أطفيَّش. في سنة 1429هـ/ 2008م.

7_جمعية التراث، **معجم أعلام الإباضية. قسم المغرب**، القرارة، 1999.

8_الحاج سعيد يوسف بن بكير، **تاريخ بني مزاب**، ط2، المطبعة العربية، غرداية، 2006.

9_حمو عيسى النوري، **دور الميزابيين في تاريخ الجزائر**، 4 أجزاء، دار البعث، قسنطينة.

10_السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**. تحقيق فرانز روزنثال، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1986.

11_شارل روبير أجرون، **المسلمون الجزائريون وفرنسا**، جزئين. طبع وزارة المجاهدين.

12_عدون جهلان: **الفكر السياسي عند الإباضية، من خلال آراء الشيخ أطفيَّش**، طبع جمعة التراث، القرارة، د.ت،

13_عمر رضا كحالة: **معجم المؤلفين**، ج3، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993.

14_محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر الحديثة**، ط1، المكتبة التعاونية، الجزائر، 1965.

15_محمد موسى بابا عمي، **حدد غايتك**، مكتب الدراسات العلمية، الجزائر، 2005.

16_محمد صالح ناصر ومبارك بن سلطان، **معجم الأعلام الإباضية قسم المشرق**. ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006.

17_**تاريخ الجزائر** لوزارة المجاهدين 2006. (قرص مدمج).

دراسات في مؤلفاته

منهج قطب الأئمة الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش في التأليف الأصولي من خلال كتابه: "فتح الله شرح شرح مختصر العدل والإنصاف"

زهير بن مسعود باباواسماعيل

تمهيد:

يعتبر الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش من الأعلام المجدّدين في الفقه الإباضي خلال القرنين الماضيين, شهد له الأقران بغزارة علمه، بما بذله من جهود معتبرة للنهوض بالمجتمع الإسلاميّ، شهد له الأقران بغزارة علمه، كما يعتبر في عهده مرجعا للفتوى والاجتهاد عند الإباضية، حيث تعتبر آراؤه الأصولية واجتهاداته الفقهية عمدة المجتهدين من بعده، ومرجعا للدارسين للفكر الإباضي، وقد ساعده على ذلك كثرة إنتاجه الفكري، حيث غمر المكتبة الإسلامية بنفيس الكتب الفقهية التي حوت اجتهاداته.

أولا: مؤلفات القطب الأصولية

عُرف القطب بتآليفه وإنتاجه الفكري الغزير، حيث أمد المكتبة الإسلامية بما لم يسبقه إليه عالم إباضي منذ عصر التابعين، فبلغت تآليفه ما يزيد عن مائة وخمسة وثلاثين أثر.[1]

ورغم كثرة إنتاجه الفقهي، فقد انحصر إسهامه في أصول الفقه على كتابه الموسوم بفتح الله شرح شرح مختصر العدل والإنصاف، والذي لا يزال مخطوطا؛ بالإضافة إلى كتب أخرى لم تكن خالصة في أصول الفقه، أو أنّها شملت قضايا أصولية خاصة، أو أنّه لم يكمل تأليفها، ومن أهمّ هذه المؤلّفات نذكر ما يأتي:

1. **كتاب شامل الأصل والفرع:** وهو كتاب أصولي فقهي كما يدلّ عليه العنوان، ألّفه على طريقة المتقدّمين، حيث خصّص الأبواب الأولى للكتاب لبيان أصوله التي اعتمد عليها في الوصول إلى الأحكام الفقهية العملية، كما اشتملت هذه المقدّمة على العديد من المسائل الكلامية والآراء العقدية للإباضية.

والكتاب لم يكمل تأليفه حيث توقّف في مسائل الصلاة من باب العبادات، وهو مطبوع في جزأين بتحقيق حفيد أخيه الأكبر أبو إسحاق إبراهيم اطفيش.[2]

وتتجلّى أهمّية الكتاب في كون القطب ألّفه في أخر حياته بعد أن بلغ درجة الاجتهاد المطلق كما صرّح بذلك في الكتاب بقوله: «....وقد كنت أجتهد بالقياس على أصل إمامي، ولا أكاد أصيب إلاّ قولا يوافق ما قلت والحمد لله، ثمّ انتقلت عن هذه الدرجة إلى ما فوقها والحمد لله..» [3] وهذا يدل على أنّ آراؤه الأصولية في كتاب شامل الأصل والفرع هي آخر ما استقرّ عليه اجتهاده الأصولي.

2- **حاشية على كتاب رفع التراخي عن مختصر الشماخي للتلاتي:** حيث اقتصر تأليفه على بعض التعليقات الأصولية واللغوية، وتلميحات لبعض تآليفه الفقهية واللغوية، على هامش نسخة من كتاب رفع التراخي عن مختصر الشماخي، خطّها بيده.

ويرجّح كون الحاشية ممّا ألّفه الشيخ امحمّد اطفيّش في صغر سنّه بدليل الخط الذي لم يبلغ حينئذ درجة الكمال والتحكّم الذي بلغه فيما بعد،[4] وهو ما يرجح كون الحاشية قد ألّفت قبل كتاب فتح الله، أضف إلى ذلك عدم ذكره له في ثنايا الحاشية.

والكتاب لا يزال مخطوطا بمكتبة الاستقامة ببني يزقن في الخزانة الأولى، تحت رقم: 87، ورقمه في الفهرسة: 86. وهو مبتور الأول والآخر.

3- **جواب في عدم جواز الإفتاء بغير علم:** وهو عبارة عن جواب لعلماء عمان بيّن فيه خطورة الإفتاء بغير علم والشروط الواجب اعتبارها في الشخص ليكون مفتيا.

والجواب مخطوط في ورقتين ضمن مجموع به 9 أوراق بمكتبة خزانة دار التعليم تحت رقم: مع/د غ36، ورقمه في الفهرس: 64.

يبقى أن نشير إلى أن مجال أصول الفقه يعدّ من أقل المجالات تأليفا عند القطب، غير أنّنا نجده قد تطرّق إلى العديد من المباحث الأصولية في ثنايا كتبه الفقهية والعقدية مثل: "شرح كتاب النيل وشفاء العليل"، و"جامع الوضع والحاشية"، و"حاشية على السؤالات".

ثانيا: التعريف بكتاب "فتح الله" من خلال عنوانه:

من خلال عنوان كتاب "فتح الله"، نجد بأن عمل القطب كان على ثلاث كتب أصولية وهي:

1- العدل والإنصاف في معرفة أصول الفقه والاختلاف لأبي يعقوب الوارجلاني[5]:

هو أول كتاب إباضي متكامل في أصول الفقه، ألفه صاحبه بعد عودته من الأندلس لملء الفراغ الموجود عند الإباضية في هذا الفن.[6]

وقد اعتنى الكتاب بالقضايا المنطقية والكلامية، وتناول قضايا احتدم فيها الخلاف في عصر المؤلف، كالقياس والاستحسان.[7]

سلك الوارجلاني منهج المتكلمين، كما لم يرتب مسائل الكتاب الترتيب المعهود، وكثيرا ما يورد مسائل كلامية ضمن مباحث أصولية، وهذا يعود إلى النزعة الكلامية التي عرف بها المؤلف.[8]

كان أسلوب الكتاب أدبيا راقيا تفنن فيه المؤلّف بألفاظ قوية، وقد بالغ أحيانا في استعمال ألفاظ غريبة، وتراكيب معقدة،[9] جعلت من كتابه سفرا صعب المنال، وحملت كل من البرادي والشماخي على وضع شرح عليه يهذبه ويبسطه.

فالبرادي[10] في نهاية القرن التاسع الهجري شرح الكتاب في سفر سماه: "البحث الصادق والاستكشاف عن حقائق معاني كتاب العدل والإنصاف"، وهو لا يزال مخطوطا، يقع في جزأين، وهو شرح غير تام. وبعد البرادي جاء الشماخي فأعاد ترتيب كتاب الوارجلاني وتهذيبه ثم اختصاره في كتاب سماه: "مختصر العدل والإنصاف".

2- كتاب مختصر العدل والإنصاف لأبي العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي:[11]

لما رأى الشماخي ضخامة كتاب العدل والإنصاف وعدم تناهي مسائله،[12] ويطلب من بعض إخوانه،[13] حاول اختصاره فأبعد عنه المسائل الكلامية والمنطقية، وجعله

خالصا في أصول الفقه، وأضاف إليه مسائل أصولية من مصنفات أخرى. فكان مختصره في عشرة أبواب مع مقدمة، وخاتمة. وقد ظهر أثر المنهج الكلامي في مختصر الشماخي من ترتيبه للمسائل حيث رتبها ترتيبا منطقيا، إضافة إلى اهتمامه بالتعاريف، وتحديد المصطلحات.[14]

ولقد بالغ الشماخي في اختصار كتاب الوارجلاني، فلم يف الغرض من تأليفه، وقد أحس بذلك الشماخي نفسه فقام بعد ذلك بشرحه، كما قام غيره ممن جاء بعده بالاعتناء به فوضعوا عليه شروحا وحواش ومنظومات، وهي:

"حاشية محمد بن أبي ستة[15] على مختصر الشماخي"

"رفع التراخي في مختصر الشماخي" لعمرو بن رمضان التلاتي:[16]

"حاشية المصعبي[17] على مختصر العدل".

"موارد الألطاف بنظم مختصر العدل والإنصاف": لعامر بن خميس المالكي[18]،

3- شرح مختصر العدل والإنصاف لأبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي:[19]

لما فرغ الشماخي من تأليف مختصر العدل والإنصاف، شعر بأن مختصره جاء مخلا، عجزت عباراته القليلة عن استيعاب معاني أصول الفقه الكثيرة، فوضع شرحا عليه يبين لفظه ومعناه ويتمم فائدته.[20] وقد التزم الشماخي في شرحه بالتقسيم الذي وضعه في مختصره.[21]

وقد حاول الإعراض عن التفصيل في المسائل الكلامية والمنطقية، بالاقتصار فيها على الشرح اللفظي، والعناية بالقضايا الأصولية الواردة في العدل والإنصاف.[22]

وبعده جاء القطب فوضع شرحا موسعا لشرح المختصر سماه "فتح الله".

ثالثا: تاريخ تأليف الكتاب ودواعي تأليفه:

1)- تاريخ تأليف الكتاب:

ليس في ثنايا المخطوط ما يدل على تاريخ الفراغ من تأليف كتاب "فتح الله"، ولا حتى في مؤلفات القطب الأخرى، إلا ما ذكره في إحدى رسائله إلى علماء مكة، جوابا

ثم عين صلاة أهل بلغار، وأصل اللغة، والمؤرخة في: 1296هـ،[23] والتي جاء فيها ذكر كتاب "فتح الله"، مُحيلا إليه، وهذا ما يرجّح كون القطب قد ألف كتابه هذا قبل سنة 1296هـ/1879م.

كما أنه وعند العودة إلى النسخ المخطوطة لكتاب شرح النيل الذي ألّفه بمنفاه لا نجد ذكرا لكتاب فتح الله في المسودّة التي خطّها القطب بيده،[24] وبالمقابل نجد العبارة التي ورد فيها ذكر كتاب فتح الله مثبتة بخطّ يده في حاشية لنسخة أخرى بخط يد غيره.[25] وهذا ما يرجح أن يكون القطب قد ألّف هذا الكتاب بعد شرح النيل؛ وبخاصة إذا علمنا بأن القطب قد وضع على كتاب شرح النيل إضافات عديدة، ولا أدل على ذلك إحالته فيه إلى كتاب شامل الأصل والفرع، الذي ألّفه في آخر حياته.[26]

2)- دواعي تأليفه:

إن الدافع الأول لتأليف القطب لهذا السفر -كغيره من المؤلفات- هو رغبته في تحمل واجب التأليف عن غيره، واعتباره عبادة، ووسيلة لنشر العلم وإصلاح أوضاع المجتمع، إضافة إلى دواعي أخرى يمكن إجمالها فيما يلي:

بسط ما لم يفصله الشماخي، والذي كان كثيرا ما يعبر عنه بعبارات منها: «وله زيادة بسط تركناه للاختصار»[27]، فيتعقبه القطب بقوله: «وقد بسطت لك قبل كلام المصنف ومعه والله أعلم».[28]

تقويم متن شرح الشماخي وإصلاح ما به من خلل، كما رغب في ذلك صاحبه.

مقارنة الآراء والأقوال التي نقلها الشماخي بغيرها، وإضافة بعضها مما لم يتمكن الشماخي من الاطلاع عليه.[29]

استجابة لطلب علماء عمان، الذين بعثوا إليه برسائل، يلتمسون منه فيها أن يؤلف لهم كتابا جامعا في أصول الفقه.[30]

حاجته إلى مرجع في أصول الفقه يدرس به تلاميذه، على غرار الفنون العلمية الأخرى، ولما كان أسلوب كتب المتقدمين راقيا، لا يقدر على الولوج في أغواره إلا المتمرس في ذلك الفن، عمد القطب إلى وضع شرح مبسط على شرح مختصر الشماخي، يليق بتدريس المبتدئين.[31]

رابعا: الصورة النهائية للكتاب:

1)- حجم الكتاب:

إن المتوفر حاليا من كتاب "فتح الله" هو ثلاثة أجزاء، إذ إنه تعرض إلى شرح ستة أبواب من شرح مختصر العدل، وهي: الأول: باب المجمل والمبين، الثاني: باب الأمر والنهي، الثالث: باب الظاهر والمحكم وما يقابلهما، الرابع: باب الخاص والعام، الخامس: باب المنطوق والمفهوم، السادس: باب الخبر. وبقيت أربعة أبواب وهي: باب النسخ، وباب الإجماع، وباب الاجتهاد، وباب القياس. إضافة إلى خاتمة التعارض والترجيح.

وقد ذكر القطب في شرح النيل أن كتاب فتح الله يعدل قدر النيل أربع مرات،[32] وكتاب النيل من تأليف عبد العزيز الثميني يقع في ثلاثة أجزاء، وهو ما يعني أنّ الكتاب بحجم 12 مجلّدا من الحجم المطبوع.

وقد ذكر أبو إسحاق أن الكتاب يقع في ستة أجزاء متوسطة الحجم.[33] وهو ما يعني أن النسخ المتوفرة حاليا تمثل نصف الحجم الكلي للكتاب، والباقي لا يزال مفقودا.

ويبقى السؤال المطروح: هل أتم القطب شرح مختصر العدل، أم أن النسخ المتوفرة لدينا تمثل جملة ما ألفه؟.

إن المعلومات المتوفرة لدينا حاليا تؤكد بأن القطب قد أكمل شرح شرح مختصر العدل، ويدل على ذلك مايلي:

إن القطب قال في "شرح النيل" عند حديثه عن معنى الترخيص: «وبسطت الكلام على ذلك في شرحي على شرح مختصر العدل، وهو قدر النيل أربع مرات أو أكثر، وذلك

من فضل الله الرحمن الرحيم».[34] فهذا تصريح من القطب عن إتمامه لهذا الكتاب، ببيان حجمه.

إن أبا اليقظان[35] في ترجمته لتلميذ القطب سليمان الباروني[36]، ذكر بأنّ عبد الله الباروني[37] كتب تقريظا على كتاب "فتح الله" لما أفرغ القطب من تأليفه.[38]

إن القطب قد أحال في أجزائه الأولى من "فتح الله"، وفي كتب أخرى إلى مباحث تقع في آخر الكتاب، أي في الأبواب المفقودة من الكتاب، وفي ذلك دلالة على أنه قد أتم الكتاب.[39]

2)- سبب ضياع بقية الأجزاء:

ويعود السبب الرئيسي لضياع بقية أجزاء الكتاب إلى أن القطب لم يكن لديه نسّاخ في بلده: يجيدون الكتابة، ويفهمون خطه، وإن وجدوا كانت تكلفة النسخ غالية.[40] لذا فإن القطب كان يرسل نسخته التي خطها بخط يده لمن يطلبها، لنسخها في بلده ثم يرجعها له؛ وغالب هذه النسخ تبقى في تلك الديار، أو تضيع في الطريق.

كما يرجع ضياع أغلب كتبه إلى الإهمال الذي لحق بخزانة القطب بعد وفاته مباشرة. إذ تعرض العديد من مصنفاته إلى السرقة.[41] قبل أن يقوم أحد أحفاد القطب مشكورا بتنظيم، وإعادة لمّ شمل ما أمكن من تلك الكتب.

3)- وصف نسخ الكتاب وأماكن وجودها:

إن المتوفر حاليا ثلاثة أجزاء في ثلاث نسخ، نسختين منها في مكتبة القطب في ثلاث مجلّدات متداخلة، والثالثة بمكتبة عشيرة آل خالد[42]:

1)- النسخة الأولى: توجد في مكتبة القطب ببني يزقن، بغرداية، تحت رقم: أهـ: 1/1، 3. تشتمل هذه النسخة على المجلدين: الأول والثالث، فالمجلد الأول يبدأ من مقدمة الكتاب وينتهي بمبحث المجمل من الباب الأول، والمجلد الثالث يبدأ من باب الخاص والعام: وينتهي إلى آخر باب الخبر.

والنسخة بخط المؤلف، من دون تاريخ نسخ. مقاسها: 31سم × 20.5سم. عدد الأسطر في الصفحة 35 سطرا. ومجموع أوراقها: 378 ورقة. 218 ورقة في المجلد الأول، و160 ورقة في المجلد الثاني. والنسخة مثقلة بالحواشي، بعضها غير مقروء.

2)- النسخة الثانية: توجد بمكتبة القطب. ببني يزقن، تحت رقم: أهـ2/1. وهي تحتوي على المجلد الثاني، والذي يبتدئ من مبحث البيان، وينتهي بشروط مفهوم المخالفة من الباب الخامس.

والناسخ هو يحيى بن سعيد ونتن[43]، مقاسها: 31سم × 20.5سم . عدد الأسطر في الصفحة حوالي 33 سطرا, أما عدد أوراقها فهو 349 ورقة.

والنسخة سليمة، وعليها الكثير من الحواشي التي خطها القطب بيده، مما يدل على أن القطب قد راجعها، إلا أنها كثيرة الأخطاء والتصحيفات

3)- النسخة الثالثة: توجد بمكتبة آل خالد، ببني يزقن، وهي غير مفهرسة في المكتبة لاكتشافها حديثا.وهي تحتوي على المجلد الثاني، والذي يبتدئ من مبحث البيان، وينتهي بشروط مفهوم المخالفة من الباب الخامس.

ليس فيها ذكر للناسخ، مقاسها: 31.5سم × 20.5سم. عدد الأسطر في الصفحة حوالي 33 -40 سطرا. وأما عدد أوراقها فهو 307 ورقة.

وهي نسخة سليمة، ومن أحسن النسخ وأوضحها، وهي قليلة الحواشي.

خامسا: منهج القطب في ترتيب موضوعات الكتاب:

أ)- المصادر التي اعتمد عليها:

إن كتاب "فتح الله" يعد من أهم ما ألف في أصول الفقه المقارن، فقد أثقله القطب بآراء مذهبية، ونصوص لعلماء، نقلها عنهم إما بالواسطة أو بالرجوع مباشرة إلى مظانها في كتبهم. ومن الكتب الأصولية التي استطاع القطب أن يطلع عليها، واعتمد عليها مباشرة في ترتيب مادة كتابه: [44]

المستصفى من علم الأصول لأبي حامد الغزالي.

"كتاب مختصر منتهى السول والأمل" لأبي عمرو عثمان بن عمر المشهور بابن الحاجب.

"كتاب شرح مختصر ابن الحاجب" لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي.

"حاشية سعد الدين مسعود بن عمر التفتزاني على مختصر ابن الحاجب وشرح العضد".

"حاشية السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني على مختصر ابن الحاجب وشرح العضد".

"حاشية سيف الدين أحمد الأبهري على شرح مختصر المنتهى للعضد".

"جمع الجوامع" لعبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي تاج الدين السبكي.

"شرح جلال الدين محمد بن أحمد المحلي على جمع الجوامع".

"الآيات البينات: حاشية على شرح المحلي لجمع الجوامع"، لأحمد بن قاسم العبادي.

"حاشية أبي زيد عبد الرحمان بن جاد الله البناني على شرح المحلي لجمع الجوامع".

"الدرر اللوامع في تحرير شرح جمع الجوامع"، لمحمد المقدسي، المعروف بابن أبي شريف.

"الضياء اللامع في شرح جمع الجوامع"، لأحمد بن عبد الرحمن القيرواني، المعروف بخلولو.

"المحصول" لأبي عبد الله فخر الدين محمد بن عمر الرازي.

"شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول"، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي.

"البحث الصادق والاستكشاف عن حقائق معاني كتاب العدل والإنصاف" للبرادي.

"كتاب الجامع" لابن بركة.

إضافة إلى كتاب "العدل والإنصاف" للوارجلاني، ومختصره وشرح المختصر للشماخي، أصل متن شرحه.

وأما ما يتعلق بفنون العلم الأخرى التي تطرق إليها القطب في كتابه، فمصادره فيها كثيرة منها:

في علم الكلام :كتاب "السؤالات" للسوفي، و "أصول الدين" لتبغورين.

وفي المنطق: كتاب "مرج البحرين" للوارجلاني، وشروحه.

وفي اللغة: كتاب "المفتاح للسكاكي"، و"المطول" للتفتزاني، و"شرح القطر" لابن هشام.

وفي الفقه: "المدونة" لأبي غانم الخراساني، و"الضياء" للعوتبي، و"شرح الدعائم" للبرادي.

كما استمد أغلب مادة كتابه من كتبه التي ألفها، كـ"شرح النيل"، و"حاشيته على الإيضاح"، في الفقه، و"وفاء الضمانة"، و"جامع الشمل" في الحديث، و"شرح شواهد أبي القاسم الداوي"، و"تلخيص العاني من ربقة جهل المثاني" في اللغة، و"شرح عقيدة التوحيد"، في التوحيد، وغيرها.

2)- منهجه في شرحه لمتن الشماخي:

لقد سار القطب في شرحه وفق التقسيم والتبويب العام الذي وضعه الشماخي، فقام بتتبع الأبواب بالشرح والتفصيل في مسائله، وإثرائها بالعديد من المسائل التي لم ينص فيها الشماخي، أو أغفل إيرادها، حتى صارت عبارات متن الشماخي عناوين لمسائل كتاب القطب.

وقد اتبع القطب في تناوله لمتن شرح المختصر المنهج التالي:

عند بداية كل مسألة أو فصل، وبعد قول الشماخي: "قولي..إلخ" يورد عبارة المختصر كاملة، ويشرحها شرحا مختصرا قبل التطرق إلى شرح عبارات متن الشرح.

يورد عبارة متن الشماخي ثم يشرحها شرحا لغويا، مستفيضا في بيان الأوجه اللغوية والبيانية إن وجدت. وإذا كانت الكلمة غريبة أو احتمت أوجها في رسمها، عمد إلى ضبط شكلها، وتوجيهها المعنى الصحيح.[45] كما يقوم بتوجيه عبارة الشماخي إلى المعنى

الذي أراده، ببيان وجه الإعراب الصحيح، والذي يتفق مع مقصوده. وأحيانا يوظّف بعض العبارات المحلية لمزيد بيان وتوضيح.[46]

يضبط أقوال وآراء العلماء الواردة في متن الشرح، ويحقق في نسبتها إلى أصحابها من مظانها، وقد يصحح ما أخطأ الشماخي في نسبته.[47]

يعتني بتخريج الأحاديث الواردة في المتن من كتب التخريج، وذكر روايات الحديث من طرق أخرى، مع بيان درجتها، وأقوال علماء الحديث فيها.

يعتني بإفراد تراجم للأعلام الواردة أسماؤهم في المتن، وكذا التعريف بالقبائل والفرق والمؤلفات الواردة فيه.

يثري المسألة بإضافة تعاريف أو أقوال أو أدلة وحجج، أو غير ذلك مما لم يذكره الشماخي، وقد يعمد إلى نقل نص من كتاب قد أشار الشماخي إلى أن المسألة مبسوطة فيه.[48]

يدرج مسائل فرعية تطرق إليها الأصوليون في مؤلفاتهم، ولم يوردها الشماخي، وذلك في آخر الفصل أو الباب، على شكل فصول، أو تنبيهات، أو فوائد، أو خاتمة، أو استدراك.[49]

يورد مسائل وقضايا تتعلق بالفنون العلمية الأخرى، مستطردا في بيانها وشرحها، وذلك بمجرد العلاقة البسيطة بالمبحث أو المسألة موضوع الشرح، جاعلا من كتابه موسوعة علمية شاملة.

ومن بين هذه المواضيع التي تطرق إليها:

القضايا المنطقية: وهي الغالبة على الجزء الأول من الكتاب، معتمدا في ذلك كله على أقوال الفلاسفة اليونانيين، كأرسطو وأفلاطون، مقارنة بآراء المتكلمين.[50]

القضايا الكلامية: حيث استطرد في المسائل التي أوردها الشماخي بالتحليل والمقارنة والترجيح، كما أدرج فيها مسائل خاض فيها الأصوليون ولم ترد في المتن محاولا من خلال ذلك نصرة مذهبه فيها، وإبراز قوته، بما أمكنه من الأدلة.[51]

القضايا اللغوية: والتي لا تخلو منها مسألة من مسائل الكتاب، خاصة المتعلقة منها بمباحث دلالات الألفاظ، وهي الميزة التي اشتهر بها في أغلب مؤلفاته، لاهتمامه بعلوم اللغة العربية وآدابها، وسعة علمه فيها.[52]

قضايا تتعلق بعلم الأحياء والعلوم الحديثة: كبعض قضايا الطب في عصره، وعلم النبات، والرياضيات، والفيزياء، وغيرها من الفنون العلمية التي ألف فيها.[53]

يحيل القارئ إلى كتبه التي ألّفها في مختلف الفنون كلّما سنحت له الفرصة. مخافة الإطالة في مسائل لها علاقة غير مباشرة بالموضوع، كالمسائل الفقهية والعقدية والمنطقية، وبغية تعريف القارئ بكتبه وتشهيرها.[54]

3) خصائص منهج القطب في كتابه:

أ. مآخذ منهج القطب في كتابه:

كان كتاب "فتح الله" من بواكير تآليف القطب، التي تميزت بالجمع والتدوين، وإكثار المسائل، على حساب المنهجية العلمية، وقد اعترف بذلك بقوله في إحدى رسائله إلى علماء عمان: «وفي عمان شرح لامية ابن مالك وحاشية القطر .... كلهن تآليف حال ابتدائي في التعلم، فيهن إكثار المسائل لا تحقيقها، وأنا حينئذ مبتدئ».[55]

لذا فقد غاب التحقيق العلميُّ في ترتيب أغلب مسائل الكتاب وعباراته، وقد تجلى ذلك فيما يلي:

الإطالة والاستطراد في تحليل المسائل، وإيراد الأدلة ومناقشتها، وقد يفصل في مسائل غير أصولية، تعد من الترف الفكري، ولو لم تكن لها علاقة مباشرة بالموضوع، كما هو شأن العديد من المسائل اللغوية، والكلامية للكتاب.[56]

ولعل غرضه من ذلك أن يكفي طلبته مؤونة البحث، بإيراده لكل شاردة تتعلق بالموضوع، خاصة إذا علمنا أن هذا الكتاب -على غرار معظم تآليفه في غيره من الفنون- كان مرجع طلبته في تدريس أصول الفقه في معهده.[57]

تكرار المسائل، إذ نجده يتطرق إلى مسائل ومواضيع ضمن مباحث لا تشملها، وعلى غير الترتيب المعهود به عند الأصوليين، وعندما يصل إلى حيث يجب ذكرها يتعرض لها ثانية مفصلة، أو يكتفي بإيراد ما ذكره سابقا، ويشير إلى تقدم مباحث المسألة.[58]

إيراد الإسرائيليات، عند تفسيره لبعض الآيات أو كلامه عن أنبياء بني إسرائيل وحياتهم، وأخبار الأمم السابقة. على غرار أول تفاسيره "همیان الزاد".[59]

كثرة النقل، والاقتباس من غيره، مع إغفال نسبة بعض الأقوال إلى أصحابها، إذ كان همه جمع ما حوته الكتب التي توفرت لديه في عصره.

وهذه سمة التأليف الأصولي المتعارف عليها عند علماء عصره، بل وحتى المتقدمين منهم، فتجد منهم من نقل معظم أجزاء كتابه من كتاب بعينه دون تبيين أو إشارة إلى ذلك، ونادرا ما تجد من يلتزم منهم بما يعرف حاليا بالمنهجية العلمية.

التداخل بين الموضوعات، حيث أدرج في كتابه العديد من المواضيع المتعلقة بفنون العلم التي ألف فيها، ولو لم تكن لها علاقة مباشرة بالباب أو المسألة الأصولية، وهذه هي السمة الغالبة على أكثر تآليفه،[60] ويعود ذلك إلى أنه كان يؤلف مجموعة من الكتب في آن واحد،[61] إضافة إلى أنه اتخذ من قلمه أداة للإصلاح، فكان يورد بعض القضايا الاجتماعية التي يرغب في إصلاحها، ولو جانبت الموضوع.[62]

ب. مزايا منهج القطب في كتابه:

إن ما ذكرناه آنفا من مآخذ على منهج مؤلف كتاب "فتح الله"، لا يمكن أن يحجب عنا تلك المزايا التي اتسم بها، واللمسات التي حاول القطب إضافتها في حركة التدوين في أصول الفقه بخاصة عند الإباضية.

ومن بين هذه المزايا التي وجدناها ونحن نتتبع مباحث ومسائل الكتاب نذكر ما يلي:

الحرص على تبسيط المسائل وتحليلها، بتحرير محل النزاع، وعرض أقوال العلماء فيها، مقرونة بأدلتها، وذكر الاعتراضات التي وجهت إليها، والمقارنة بينها، ثم ترجيح الصحيح

منهجا بالدليل ملتزما في ذلك الدقة والوضوح، بعيدا عن الأساليب المعقدة، تيسيرا على القارئ، خاصة طلبته المبتدئين.[63]

رغم النزعة الكلامية لديه، إلا أنه لم يجمد على منهج المتكلمين في عرض المسائل، والمتسم بالتأصيل، وقلة الاهتمام بالتفريع، بل إننا نجده يحرص على إسقاط القواعد الأصولية على المسائل الفقهية، فإنه لا يمر بمسألة أصولية، إلا ويذكر ما ينبني على الخلاف الأصوليين فيها من فروع فقهية، محيلا إلى مظانها في كتبه الفقهية.[64]

يعرض جميع آراء المذاهب دون استثناء، محاولا توجيه أقوالهم، وحملها على أحسن وجوهها، أو التوفيق بينها إن أمكن، موظفا في ذلك عبارات لطيفة ومتسامحة، ليس فيها جرح أو تنقيص بعالم.

له استقلالية في الرأي، فيختار ويرجح الأقوى دليلا، ولو خالف في ذلك آراء علماء مذهبه، فكثيرا ما يناقش الشماخي في تعاريفه وأسلوبه، كما يخالفه في آرائه في بعض المسائل الأصولية والكلامية. وقد يحقق في مسألة بما لم يحقق به من سبقه.[65]

استطاع إدراج النصوص التي ينقلها ضمن مباحثها ومسائلها الواردة فيها، والتنسيق بينها، بحيث لا يشعر القارئ بأنها من نسج غيره، إلا بعد التحقيق والتمحيص، وهذا ما نجده خاصة بين نصوص شرح العضد لمختصر ابن الحاجب، ونصوص حواشيه، وكذلك بين نصوص شرح المحلي لجمع الجوامع، ونصوص حواشيه.

خـــــاتمة:

يعد كتاب فتح الله لقطب الأئمة خاتمة التآليف الإباضية الجامعة في أصول الفقه، باستيعابه لجمل القضايا الأصولية، ودون إهمال للمسائل اللغوية والكلامية ذات الصلة بالموضوع، ومواكبا فيه التطور الذي شهده التأليف الأصولي، وذلك بمنهج خاص اتسم بتبسيط المسائل الأصولية، وبعرض آراء المذاهب والتوفيق بينها، وترجيح الأقوى دليلا ولو

خالف مذهبه، ملتزما في ذلك الدّقة والموضوعية، بعيدا عن الأساليب المعقّدة، وموظّفا عبارات متسامحة.

إلا أن هذا السفر العظيم لا يزال معظمه مخطوطا، مرتعا للأرضة، يترقّب اللحظة التي يخرج فيها، فيرى النور على أيدي الغيورين على التراث الإسلامي.

الهوامش

(1)-وانظر: آراء الشيخ اطفيش العقدية، (دط؛ القرارة-الجزائر: جمعية التراث، 1417هـ-1996م). 480-497.

(2)-أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اطفيش، (1305-1385هـ)، أخذ مبادئ العلم بمسقط رأسه بن يزقن عن القطب، وسافر إلى تونس فأخذ عن الشيخ محمد بن يوسف الحنفي، والشيخ الطاهر بن عاشور، ثم توجه إلى القاهرة، فاستقرّ بها. قام بطبع وتحقيق العديد من مؤلفات القطب. وله مؤلفات خاصة منها: "الدعاية إلى سبيل المؤمنين"، و"موجز تاريخ الإباضية"، ورسالة "الفرق بين الإباضية والخوارج".

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، من ق1هـ إلى 15هـ"قسم المغرب"، (ط1؛ غرداية: جمعية التراث، 1420هـ-1999م).. رقم: 37.

(3)- محمد بن يوسف اطفيش: **شامل الأصل والفرع**، (دط؛ وزارة التراث والثقافة: سلطنة عمان، 1428هـ-2007م) 13/1.

(4)- فهرس مخطوطات مكتبة الاستقامة، الخزانة الأولى، ص39.

(5)-هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن مناد السدراتي الوارجلاني، (500-570هـ)، المتكلم الأصولي الفقيه، سافر إلى بلاد الأندلس، والسودان وبلاد المشرق لطلب العلم، ثم عاد إلى وطنه، عاكفا على الكتابة تأليفا ونسخا. ترك مؤلفات كثيرة منها: "الدليل والبرهان لأهل العقول"، و"مرج البحرين"، وكتاب "العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف".

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، (قسم المغرب)، رقم: 1049.

الكتاب يقع في ثلاثة أجزاء، وتوجد منه نسخ عديدة في المكتبات الإباضية، وطبعته وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان في مجلدين، كما قام الباحث عمرو خليفة النامي بتحقيقه، وهو لا يزال مرقونا، للباحث نسخة منه.

(6)- التواجيني: **تحقيق شرح مختصر العدل**، (رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة بمعهد الشريعة بالجامعة الزيتونية تونس، 1411هـ-1990م). (القسم الدراسي)، 69.

(7)- مصطفى بن صالح باجو: **أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي**، (ط1؛ سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، 1415هـ-1995م)، 154.

(8)- التواجيني: **تحقيق شرح مختصر العدل**، (القسم الدراسي)، 74.

(9)- الوارجلاني: **العدل والإنصاف**، (تح: عمرو خليفة النامي، مرقون؛ نسخة منه لدى الباحث)؛ 349/3.

(10)- هو أبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم اليزدي الدمري، الإباضي، (حي في: 810هـ)، ترك مؤلفات عدة، منها: "البحث الصادق والاستكشاف عن حقائق أسرار معاني كتاب العدل والإنصاف" و"جواب لبعض أهل الخلاف" و "رسالة الحقائق"، و"الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطبقات"، وغيرها.

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، (قسم المغرب)، رقم: 735.

(11)- هو أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد بدر الدين الشماخي، (ت: 928هـ) عالم من بلدة يَفْرَن بجبل نفوسة، ومن أشهر كتبه: "سير المشايخ"، و"شرح عقيدة التوحيد"، و" مختصر العدل والإنصاف وشرحه".

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، (قسم المغرب)، رقم: 80.

وللكتاب نسخ كثيرة مخطوطة في المكتبات الإباضية، كما قامت وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان بطبعه سنة: 1404هـ-1984م.

(12) القطب: **فتح الله**، (مخ): 1/16و.

(13)-أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي: **شرح مختصر العدل والإنصاف**، (مخ، غرداية: مكتبة عمي سعيد: خ ص 61، نسخ: سعيد بن قاسم أبو علي، 1107هـ)، 1ظ.

(14)- باجو: **أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي**، 160.

(15)- هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن أبي ستّة القصبي السدويكشي: (ت:1088هـ)، انتقل إلى مصر واستقرّ بها ثمان وعشرين سنة، متعلّما ثمّ معلّما بالمدرسة الإباضية بالقاهرة، وبجامع الأزهر. له حواش عديدة على أمّهات الكتب الإباضية، بلغ عددها عشرين حاشية، ولذلك اشتهر بالحشّي.

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، (قسم المغرب)، رقم: 841.

(16)- هو أبو حفص عمرو بن رمضان الجربي التلاتي، (ت: 1187هـ)، من أهمّ مؤلفاته: "اللآلئ الميمونية على المنظومة النونية"، و"لخبة المتين من أصول تبعوين"، و"اللآلئ الميمونات في عقود الديانات"، و"عمدة المريد لنكتة التوحيد"، وغيرها.

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، (قسم المغرب)، رقم: 687.

(17)- هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد المصعبي المليكي أصلا، والجربي مولداً ونشأة ووفاة. (ت: 1207هـ)، له حواش وشروح على بعض الكتب الإباضية، كلّها مخطوطة.

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، (قسم المغرب)، رقم: 865.

(18)- هو أبو مالك عامر بن خميس المالكي. (ت: 1346هـ)، من أكبر تلامذة الشيخ نور الدين السالمي، ومرجعا للفتوى والأحكام الشرعية والرأي والسياسة في عصره. من تآليفه: "غاية المراد في الأديان والأحكام"، و"غاية المطلوب في الأثر المنسوب"، وغيرها.

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، (قسم المشرق)، رقم: 739.

(19)- وللكتاب نسخ مخطوطة بمكتبات وادي ميزاب، لدينا نسخة منها مصورة. وقد قام الباحث مهني التواجيني بتحقيقه تحقيقا علميا في رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة بالكلية الزيتونية للشريعة بتونس.

(20)- الشماخي: شرح **مختصر العدل**، (مخ)، 1ظ.

(21)- التواتيين: **تحقيق شرح مختصر العدل**، 161، 168؛ باجو: **أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي**، 161.

(22)- باجو: **أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي**، 162.

(23)- القطب: **كشف الكرب**، (دط؛ سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، 1405هـ-1985م)، 1/253، 31/2.

(24)- القطب: **شرح النيل**، (مخ)، مكتبة القطب، أو:1/1، 4و، 3ظ؛ كما لم نجدها في نسخة أخرى خط يده يصـ قليلة الحواشي، القطب: **شرح النيل**، (مخ)، مكتبة القطب، أو:3/1، 4ط، 5ظ.

(25)- القطب: **شرح النيل** (مخ)، أو:4/1، 12ظ، 15ظ. والظاهر أن هذه النسخة هي التي اعتمدها أبو إسحـ في طبع الكتاب؛ لمطابقتها للنسخة المطبوعة.

(26)- القطب: **شرح كتاب النيل وشفاء العليل**، (ط2؛ جدة: مكتبة الارشاد؛ بيروت: دار الفتح؛ ليبيا: دار التراث العربي، 1393هـ-1973م)، 1/57، 113، 184، 23/2، 80، 161، 406، 659.

(27)- الشماخي: **شرح مختصر العدل**، (مخ)، 3ظ.

(28)- القطب: **فتح الله**، (مخ)، 65/2ظ.

(29)- وما مكن القطب من ذلك امتلاكه لمكتبة أصولية ثرية، احتوت على نفائس الكتب المشهورة في عهده. ينظر: مكتبة القطب: فهرس المخطوطات، الأصول لغيرنا، أص.

(30)- القطب: **مجموع رسائل للقطب**، مكتبة القطب، أز:2/9، 30.

(31)- محمد علي دبوز: **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، (ط1؛ المطبعة التعاونية، 1385هـ-1965م)، 1/373.

(32)- القطب: **شرح النيل**، (مط)، 1/64.

(33)- القطب: **الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص**، (علق عليه: أبو إسحاق اطفيش؛ ط2؛ السيب-سلطنة عمان: مكتبة الضامري، 1419هـ-1998م)، (مقدمة أبي إسحاق)، 11.

(34)- القطب: **شرح النيل**، (مط)، 1/64.

(35)- هو إبراهيم بن عيسى، حمدي أبو اليقظان، (1306-1393هـ)، شيخ الصحافة الجزائرية المجاهدة، كان من أبرز تلامذة القطب؛ توجه نحو جامع الزيتونة بتونس سنة 1330هـ، وهو من الأعضاء الإداريين المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. أصدر عدة جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية، ومن مؤلفاته: "سُلّم الاستقامة"، و"سيدنا باشا الباروني"، و"ديوان أبي اليقظان"، و"ملحق سير الشماخي"، وغيرها.

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، (قسم المغرب)، رقم: 42.

(36)- سيسان بن عبد الله بن يحيى باشا الباروني، (1287-1359هـ)، من زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة بليبيا، أرسله أبوه إلى معهد القطب، عمل على توحيد ليبيا، وصد الاستعمار الإيطالي ضدها، وتقلد مناصب سياسية وقيادية.

له عدة مؤلفات منها: "مختصر تاريخ العائلة الباروبية"، و"الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية".

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، (قسم المغرب)، رقم: 457.

(37)- عبد الله بن يحيى الباروني النفوسي، (1236-1332هـ)، ولد بكباو بجبل نفوسة، ثم انتقل إلى الزيتونة بتونس وأخذ عن علمائها. كما نزل جامع الأزهر، وأخذ عن أقطاب الأزهر آنذاك. له تآليف عدّة، منها: "سلّم العلماء والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين"، و"قصيدة جواب على سؤال الغرياني"، وغيرها.

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، (قسم المغرب)، رقم: 604.

(38)- أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى: **سليمان الباروني باشا في أطوار حياته**: (د.ط: غرداية- الجزائر: المطبعة العربية، 1376هـ-1956م)، 37/1.

(39)- القطب: **فتح الله**، (مخ)، 23/1 و، 2/2ظ؛ **القنوان الدانية في مسألة الديوان العانية**، ط: حجرية، د.ت، 1314هـ: 8.

(40)- القطب: **كشف الكرب**، 7/1، 8، 10.

(41)- مكتبة القطب : **مقتطفات من حياة قطب الأئمة العلامة الشيخ الحاج محمد بن يوسف اطفيش**، (محاضرة ألقيت بمناسبة مهرجان القطب)، مرقونة بمكتبة الحاج سعيد محمد، تحت رقم: 9/9)، 3.

(42)-تجدر الإشارة إلى أنه قد تمّ تحقيق جزء من الكتاب والمتمثل في الباب الخامس من الكتاب: باب المنطوق والمفهوم، من طرف كاتب البحث في مرحلة إعداد رسالة الماجستير بجامعة الجزائر.

(43)- هو يحيى بن سعيد بن يوسف، (حي في:1298هـ)، من علماء بني يسجن، فقيه حافظ للآثار **والسير**، كان حسن التجويد والرسم، وتوجد في بعض مكتبات وادي مزاب، العديد من المخطوطات بخطّ يده.

ينظر ترجمته في: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، (قسم المغرب)، رقم: 999.

(44)- قمنا بحصر هذه القائمة من الكتب التي نقل عنها مباشرة اعتمادا على أنه صرح بالنقل منها مباشرة، إضافة إلى توفر أغلبها في خزانة مكتبته الخاصة التي خلفها، أو لكونها متداولة في غيرها من مكتبات وادي مزاب، مما يسهل عليه الرجوع إليها.

(45)- القطب: **فتح الله**، (مخ) 85/2و، 104و.

(46)- القطب: المصدر نفسه، (مخ) 90/1و.

(47)- القطب: المصدر نفسه، (مخ)، 92/1و.

(48)- القطب: المصدر نفسه، (مخ) ، 35/1و-35ظ.

(49)- القطب: المصدر نفسه، (مخ): 82/2و-83ظ، 98/3ظ-101ظ، 119ظ-120و، 150و.

(50)- فتحدث فيه عن طرق العلم، وعن المقولات العشر، وعن أشكال القضايا المنطقية والضروب التي تؤدي إلى نتائج صحيحة، ينظر القطب: **فتح الله**، (مخ)، 24/1ظ-26ظ، 53و-55و، 60ظ-66و، 72ظ-80ظ.

(51)- القطب: المصدر نفسه، (مخ)، 53/2ظ-62ظ. 72/2و-82و. 33/1و-34ظ. 66/2ظ-67و. (مخ)، 67/2و.

(52)- القطب: **الذهب الخالص**، (مقدمة أبي إسحاق)، 11؛ دبوز: **نهضة الجزائر**، 367.

(53) القطب: **فتح الله**، (مخ)، 8/1ظ-9ظ، 66ظ. 6/1ظ-8ظ، 27و، 39و-44و، 84و، 84ظ، 85ظ.

(54)- ومن الكتب التي أحال إليها: شرح كتاب النيل وشفاء العليل، رد الشرود إلى الحوض المورود، حاشية حي على الفلاح، وفاء الضمانة بأداء الأمانة في فنّ الحديث، تخليص العاني من ربقة جهل المثاني، إزالة الاعتراض عن مخفي آل إباض، جامع الديانات والأحكام...

(55)- القطب: **كشف الكرب**، 12/1.

(56)- من ذلك: المقولات العشر، 24/1ظ-26ظ، مسألة ثبوت البغة بالقياس، 91/1ظ-98ظ، مسألة خطاب المعدوم، 25/2ظ-27و، التحسين والتقبيح العقليين، 53/2ظ-83ظ، عصمة الأنبياء قبل بعثتهم، 92/2ظ-97و، [illegible] الاستفهام، 105/3و-108ظ، مفهوم الكبائر والفرق بينها وبين الصغائر، 138/3ظ-139و.

(57)- دبوز: **نهضة الجزائر**، 373/1.

(58)- القطب: **فتح الله**، (مخ)، 9/2ظ، 127/2ظ، 128/2ظ، 104/3و، 104/3ظ، 160/3و.

(59)-الشعيبي: **منهج الشيخ محمد بن يوسف اطفيش في تفسيره هميان الزاد**، (رسالة مرقونة قدمت استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في كلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية، سنة 1996)، 213-222.

(60)- بوتردين: **الشيخ محمد بن يوسف اطفيش ومذهبه في تفسير القرآن الكريم، بالمقارنة إلى تفسير أهل السنة**، (رسالة مرقونة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآداب بجامعة عين شمس بمصر، 1410هـ-1989م)، 63.

(61)- أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى: **ملحق لسير الشماخي**، مخ، مصور بمكتبة عمي سعيد بغرداية، رقم: خ.ص:06-07، 157/2.

(62)- من ذلك تطرقه إلى مسألة الجهر بآية السجدة، وتحامله على المنكرين لذلك من مجتمعه، في مثال نحوي ساقه عند تعرضه لشرح قول الشماخي: " لأن الجملة التي لها محل تعطف على المفرد من غير تأويل له". ينظر: القطب: **فتح الله**، (مخ)، 16/1ظ.

(63)- وقد يستعمل بعض الأشكال والرسوم لمزيد توضيح وبيان، ينظر: القطب: **فتح الله**، (مخ)، 45/1و-45ظ، 79ظ، 84ظ.

(64)- القطب: المصدر نفسه، (مخ)، 106/2و، 134ظ، 143ظ، 147/3ظ.

(65)- القطب: المصدر نفسه، (مخ)، 23/1و-23ظ، 63/2ظ، 139و، 136/3و، 155و.

الداعية المصلح والعلامة القطب الشيخ امحمد بن يوسف الهفيش وكتابه القيم شامل الأصل والفرع

[1228-1332هـ / 1821-1914م]

الدكتور أحمد عيساوي

أستاذ الدعوة والإعلام والفكر الإسلامي المعاصر

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

جامعة باتنة — الجزائر —

يقول الدكتور عبد العزيز بدوي عن مكانة الإباضية ودور مدرستها في الفقه الإسلامي : ((.. وللمذهب الإباضي أثر كبير في البحث والتدوين في شتى المجالات العلمية ، وما يصادف الحياة من مشكلات يومية ، فدونوا الأحاديث وشرحوها ، واستنبطوا الأحكام وطبقوها، وتعرضوا للعقائد ونزهوها ، ودونت لهم مؤلفات شتى في الحديث والفقه والعقائد والتاريخ والتفسير وغيرها من صنوف العلم وآدابه ، حيث أصبح لهم مكان فسيح في الدراسة للمنهج الذي ساروا عليه ..)) .

ندوة الفقه الإسلامي ، وزارة العدل والأوقاف ، مسقط ، سلطنة عمان ، 1410هـ 1990م ،ص 722

*** الأوضاع الثقافية والعلمية في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي :**

حرف الكثير من باحثي ومؤرخي الاستعمار الفرنسي حقائق التاريخ لاسيما تلك التي لها صلة بمستوى الشعب الجزائري العلمي والثقافي والتربوي والحضاري ، وذلك بهدف إضفاء طابع التحضير والتمدين على حملتهم الاستعمارية الغازية ، ونفي طابع الغزو والتدمير والإبادة .. التي حملتها إلى الجزائر . (1)

ولكن بعض المنصفين منهم يعترفون بأن مستوى التعليم والثقافة كان أعلى من كل توقع ، حتى مما كان عليه قادة وجنود الحملة الفرنسية الغازية ، وفي هذا الصدد

نحب أن نسجل اعتراف أحد نواب البرلمان الفرنسي (أوجين كومبس – EUGENE CAMPS) في خطبته الشهيرة بمجلس الشيوخ الفرنسي ، حيث جاء فيها ما يدل على رقي مستوى الشعب الجزائري الثقافي ، إذ قال : ((.. لقد كان التعليم في الجزائر سنة 1830م أقل تقهقرا مما جعلته السلطة العامة الفرنسية بعد الاحتلال ، لقد كان هناك – في الجزائر – ما يزيد عن ألفي مدرسة ابتدائية وثانوية وعليا ، وكان الأساتذة المتخصصون يعلمون التلاميذ الذين يقبلون بغاية الاجتهاد على دروسهم ، وكانت كذلك الدروس العامة تنتظم للناس في جميع المساجد للكبار وللصغار ، ومن بين تلك المدارس الألفين كان يوجد بالعاصمة وحدها ثمانين مدرسة متنوعة ..)) . (2)

والشهادة التي سقناها لأحد النواب في الفرنسيين هي اعتراف صادق يكشف على مستوى التربية والتعليم والثقافة الذي كانت تتمتع به الجزائر وشعبها قبيل الاحتلال الفرنسي لها ، إذ كانت تسير وفق نظام تعليمي وتربوي وإداري دقيق ومتميز، أرسى دعائمه العلماء والفقهاء الجزائريون الأولون .

ويمثل ذلك النظام التربوي والتعليمي والثقافي .. المستند إلى الأطر المرجعية الإسلامية المقدسة جابهوا كل مشاريع المسخ والتشويه الاستخرابية الفرنسية منذ أن وطأت أقدامهم هذه البلاد ..

إذ تشير معظم الأبحاث والدراسات والمصادر التاريخية العربية وغيرها إلى أن التعليم الذي كان منتشرا في الجزائر قبيل الاحتلال هو التعليم العربي الإسلامي التقليدي الموروث عن علوم وتراث ومعارف العصور الإسلامية الاجتهادية والتقليدية معا ، وتتركز مواضيعه أساسا على دراسة العلوم العربية واللغوية والأدبية والعلوم الدينية ، بالإضافة إلى بعض العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والحساب والفلك والجغرافيا . (3)

وأماكنه ومؤسساته الكتاتيب القرآنية والجوامع والمساجد والزوايا والمدارس ، التي بلغ عددها قبل دخول الاستعمار حوالي ألفي مدرسة ، بالإضافة

إلى اشتهار حواضرها العلمية الثلاث : (تلمسان . بجاية . قسنطينة) بكثرة طلابها وعلمائها ومكتباتها وكتبها . (4)

وقد بسط الأستاذ أبو القاسم سعد الله في موسوعته الشهيرة (5) بإسهاب واقع الجزائر التعليمي والثقافي ، مشيرا إلى عدد المدارس والزوايا والكتاتيب قبيل الاحتلال ، وإلى تنوعها وكثرتها وتأثيرها وتوزعها على كثير من المدن الجزائرية ، منوها باختصاص الحواضر العلمية الثلاث : (تلمسان . بجاية . قسنطينة) بالمدارس العلمية العالية ، التي كان الطلاب يتلقون فيها أشهر علوم زمانهم : العربية والدينية، واضعا في موضع المقارنة مستوى المادة العلمية المدروسة في تلك الحواضر من حيث الكم و الكيف ، مع مثيلاتها من الجامعات الإسلامية الكبرى آنذاك : (الأزهر . الزيتونة . القرويين) ، بالإضافة إلى وجود مدرسة للتعلم في كل قرية أو بلدة أو أي تجمع سكاني صغير ريفي . (6)

هذا في نفس الوقت أن الجزائر قد شهدت نهضة ثقافية وفكرية وعلمية وأدبية تمثلت في كثرة عدد العلماء والقضاة الذين كانوا يعدون بالمئات ، وكذلك الشعراء والكتاب والمعلمين والأطباء وبائعي الأعشاب من الصيادلة ، كما تمثل ذلك أيضا في كثرة عدد المساجد والجوامع والزوايا والكتاتيب ، وفي كثرة عدد المصنفات العلمية ، ولاسيما في الحواضر العلمية الشهيرة التي كانت تعد بالآلاف . (7)

وقد كان التعليم العربي الحر قديما يشمل مراتب أولى تعطى للصغار في الكتاتيب ، ويقبل عليها الناس إقبالا شديدا ، فلا تجد حارة من حارات المدن أو القرى أو مضربا من مضارب الخيام أو أي دشرة إلا وبها (الكتاب والطالب) ، وكان التعليم بها ابتدائيا بسيطا ، يشمل القراءة والكتابة والقرآن الكريم .

وبفضلها كانت الأمية معدومة لدى الفرد والمجتمع الجزائري ، ولم تنتشر فيه إلا بعد الاحتلال ، وذلك بسبب اشتغال كل الجزائريين بتثبيت دعائم أمنهم ومقاومة الغزاة ، مستغلين بذلك الجهاد عن تعليم أبنائهم (8) ، حتى أنه يوم دخول الفرنسيين للجزائر

كانت نسبة من يعرفـــون القراءة والكتابـــة من أبناء الجزائريين حوالي 55% من مجموع السكان في الوقت الذي كانت نسبة الأمية مرتفعة لدى جنود الحملة الفرنسية ، حتى كادت تبلغ الخمسين بالمائة بين الجنود والمعمرين . (9)

وقد كان التعليم في جميع مراحله الابتدائية والمتوسطة والعالية بالمجان ، بل إن الدولة الجزائرية كانت تصرف لطلبته جميع وسائل العيش وسائر متطلبات الحياة الاجتماعية والعلمية ، من نفقة الأوقاف الإسلامية ، التي كان يوجد منها بمدينة الجزائر وحدها قرابة ثمانية آلاف عقار تابع للأوقاف ، تُصرف إيراداتها على طلبة العلم . (10)

وأما التعليم الثانوي فقد كان يتم في المساجد الكبرى التي كانت بجوارها المدارس ، وفي الزوايا المشهورة مثل معهد الهامل ببوســـعادة ، ومعهد ســـيدي اليلولي ببجاية ، يتولاها شـــيوخ مشهود لهم بالعلم والدراية والتقوى ، مجازين من علماء الحواضر الجزائرية الكبرى، أو من غيرها من الحواضر العلمية الإسلامية الشهيرة . (11)

وبالإضافة إلى تولي الأوقاف نفقات الطلبة والأساتذة ، فإن سبل الخيرات كانت تتكفل بنفقات تلك المدارس والزوايا من : صيانة واعتناء وتجهيز وتلبية حاجات ومتطلبات .. (12)

وقد كان بمدينة الجزائر يوم احتلالها حوالي ثمانين مدرســـة وكتابا ، وفي قسنطينة يوم احتلالها سنة 1837م قرابة السبعين مدرسة وكتابا ، وفي تلمسان كان بها قرابة الخمسين مدرسة . (13)

أما التعليم العالي فقد كان في جوامع ومساجد الحواضر العلمية الكبرى (تلمسان . بجاية . قسنطينة) بالإضافة إلى الجزائر التي اضطلع بها علماء مجازين سبق لهم أن تكونوا في إحدى الحواضر العلمية الإسلامية الشهيرة (الأزهر . الزيتونة . القرويين) وأجيزوا منها . (14)

كما كانت مكانة المعلم مرموقة ومهابة في المجتمع فهو المقدم فيه ، وبه تحل مشاكله وتقضى أموره ومنه تؤخذ الفتوى الصحيحة .. ولا يفصل في أمر من أمور المجتمع إلا بحضوره . (15)

وكان الأستاذ يعينه الناظر المتصرف في شؤون الأوقاف ، وذلك بتوصية من أرباب العائلات ، وتخصص له دار مجانيـــة ، مجهزة أحسن تجهيز ، وممولة من أموال وتوابـــع الأوقـــاف ، بالإضافة إلى اشـــتغاله أيضا بأمور المسجد من : أذان وإقامة وإمامة وخطبة وحضوره لســـائر المناسبات ، وفي مقابل ذلك كان يتلقى أجره من أموال الأوقاف ، كما كان أيضا يتلقى من أولياء التلاميذ الذين كانوا يدرسون عنده ما يلي :

1 - منحة مالية بحسب الوضع المالي لكل عائلة ، والتي تصل أحيانا إلى حوالي 14 فرنكا ذهبيا ، ولاسيما بعد حفظ ابنها للقرآن الكريم ولمتون أصول وفروع المالكية والأشعرية .

2 - هدايا بمناسبة الأعياد الدينية المختلفة (العيدين . المولد . عاشوراء ، رأس السنة الهجرية) ، بما يقارب 5 فرنكات ذهبية .

3 - تبرعات في المواسم الفلاحية المختلفة ، وتبرعات بمناسبة ختم أبنائهم حفظ القرآن كله ، أو لأجزاء منه ، وتقدر بحوالي 11 فرنكا ذهبيا .

وبالتالي يصبح مجموع ما يتقاضاه المعلم في السنة من ثلاثين إلى خمسين فرنكا ذهبيا (16) . وهذا المبلغ كبير جدا إذ يكفي لشراء هكتار من الأراضي الخصبة ، وهذا يدل على قدر ومكانة المعلم والعلم وأهله ، كما يدل على مدى احترام وتوقير الجزائريين للعلم وللعلماء .

وبمثل هذا النسق التعليمي والتربوي والثقافي والديني واللغوي الراقي والمتميز شكل الجزائريون ثوابت شخصيتهم الوطنية بالخصوصيات والمميزات العربية الإسلامية التالية :

1 - الدين الإسلامي الحنيف الذي حماهم لما تمسكوا به من كل عوامل الانحراف والمسخ والتشويه ..

2 – اللغة العربية ، التي وحدت فكرهم ومشاعرهم ، وقوت رابطتهم ووحدتهم الوطنية والاجتماعية .

3 – التاريخ العربي الإسلامي الذي شكلهم وصهرهم في بوتقة واحدة روحا وشعورا وتصورا.

4 – الثقافة العربية الإسلامية بخصوصياتها وثوابتها الربانية ومتغيراتها البشرية الأخلاقية ، التي ميزتهم عن غيرهم من الأمم الأخرى .

5 – الوطن الجزائري الذي عاشوا فيه حقبا طويلة وشكلوا فيه مشاعرهم وأحاسيسهم التاريخية . (17)

* سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر :

يشير تقرير الإدارة التعليمية الاستعمارية المؤرخ يوم 1847/02/12م عن وضعية المؤسسات التعليمية في مدينة الجزائر بعد مرور عقدين من استعمارها إلى جملة من الحقائق المؤلمة ، المتمثلة في اختفاء العديد من المساجد ، وتهديم خمس زوايا ، ومصادرة عائدات المساجد والزوايا ورباطات الخير، لتتحول باتجاه آخر يخالف مقاصد ووصايا الواهبين والواقفين لممتلكاتهم .

كما يشير التقرير أيضا إلى سوء وضعية المعلمين ، ذلك أن الأساتذة والمعلمين لم يعودوا يتقنون سوى راتب متواضع ، كما أن دروسهم لم تعد منتظمة ومبرمجة كما كانت عليه قبل الاحتلال ، إلاّ قليلا منها ، بالإضافة إلى تراجع وتدني مستويات التعليم فيها .. (18)

ويضيف التقرير متناولا وضع الزوايا في أوساط سكان بلاد القبائل التي لم يعد لها وجود وتأثير سوى بالاسم فقط ، ذلك أن حملاتنا العسكرية قد شتتت جموع الطلبة ، وزادت في عدد أعدائنا من طلبة العلم ، في حين أن المخطوطات التي كانت تشكل قاعدة للتعليم أتلف وأحرق جانب كبير منها (19) . ويخلص التقرير إلى النتيجة التالية : ((.. والنتيجة أننا لن نستطيع في زمن معين العثور على رجال أكفاء يتولون مناصب الإفتاء

والقضاء ، ويتمكنون من اكتساب النفوذ بعلمهم ، هذا العلم الديني المهم بالنسبة للمسلمين الجزائريين ، الذي هو ضروري لسياستنا في الجزائر ..)) . (20)

هذه اعترافات الفرنسيين أنفسهم عن واقع التربية والتعليم في الجزائر بعد عقدين من الاحتلال ، والتي كان يفترض - حسب ادعاءات رجال الحملة الفرنسية - أن تتحضر وتتمدن وتتقدم ، لا أن يؤول أمرها إلى الصورة البشعة التي قدمها الفرنسيون أنفسهم عنها .

وفي هذا الصدد نسوق شهادة أخرى صادرة عن المؤرخ والباحث الفرنسي (بولارد - POLARD) الذي يصف حالة التربية والتعليم في الجزائر غداة الاحتلال بقوله : ((.. إن وصول الفرنسيين إلى الجزائر أحدث بلبلة عميقة في عالم المفكرين والأدباء ، لقد ترك أغلب العلماء كراسي تدريسهم ، وتفرق التلاميذ في البلاد ، وعوضا عن الدروس العامة التي كانت تؤخذ في الاجتماعات أخذ أولئك يبحثون عن فك معميات العلوم في دروس منعزلة ، وبمدارس من الدرجة الثانية ، أو في الزوايا البعيدة ، بينما وضعت إدارة المساجد في يد طماعين ، يحولون مصارف الأوقاف لجيوبهم ، ومنذ ذلك الوقت أهملت كل المدارس تقريبا ..)) . (21)

فالمدارس والجوامع والمساجد والزوايا والكتاتيب دمر معظمها ، وشرد طلبة العلم منها ، وضيق على العلماء فيها ، ومزقت وأتلفت كتبهم ومصنفاتهم ، وحرموا من نفقات الأوقاف ومعوناتها وجراياتها ، وفقدت الكثير من الدروس نظامها ورتابتها ، وتذبذبت الكثير من الدروس ، وانقطع عنها الكثير طلابها ، وبالتالي تراجع مستوى العلم والتعليم والفتوى على عكس ما كان عليه في الفترة السابقة للاحتلال .

لأن الفرنسيين بقرار الضم والإلحاق الذي استصدروه يوم 1834/07/22م في حق الجزائر وشعبها ، ضموا معه كل شيء بما في ذلك المؤسسات التعليمية والدينية وغيرها ، وألحقوها مباشرة بوزارة الحرب الفرنسية ، وصار يسيرها مفتشان أحدهما للتعليم العام ، وثانيهما للمدارس الابتدائية تحت إشراف الوالي .

وظلت مسائل التعليم من اختصاص وزارة الحربية إلى تاريخ 1848/08/07م باستصدار أول قرار يعيد تنظيمها ، ثم أعقبـــه القرار الثاني الصادر يوم 1848/09/08م عن السلطات التنفيذية (22) ، وليوضع بهذين القرارين حد للنظام السابق ، ولترتبط مصالح التربية والتعليم في الجزائر بوزارة التربية والتعليم الفرنسية ، وتنشيء بعدها أكاديمية الجزائر يتولاها (العميد – الريكتور) الذي يشرف على المصلحة ويتولى أمورها ويحضر اجتماعات مجلس الحكومة ، ويراسل وزير التربية والتعليم مباشرة ، ويشرف على جميع مراحل التعليم ومستوياته باستثناء المدارس الإسلامية التي بقيت تابعة مباشرة لوزارة الحربية الفرنسية . (23)

وباستصدار الإدارة الاستعمارية لقراري سنة 1848م الجائرين تكون إدارة الاحتلال قد أخفت كل مصالح التعليم العربي الإسلامي ومؤسساته الجزائرية بها مباشرة ، استجابة لقرارها الطامع للاستيلاء على جميع الأوقاف الإسلامية في سائر القطر الجزائري الصادر يوم 1830/09/08م (24) ، ثم تبعت هـــذه القرارات الاستعمارية قرارات وقوانين كثيرة تهدف جميعها إلى إحكام السيطرة الاستعمارية على القطاع التربوي والتعليمي والثقافي والديني في الجزائر ، بهدف استكمال احتلالها الفكري واللغوي والثقافي بعد الانتهاء من احتلال ترابها .

ثم جاءت القوانين والمراسيم تترى ، ومنها مرسوم 1850/09/30م القاضي بإنشاء ثلاث مدارس عليا لتعليم العلوم العربيـــة والدينية ، بالإضافة إلى العلوم الفرنسية ؛ وقد سميت تلك المدارس (الفرنكو ميزيلمون – **FRANCO MUSULMAN**) واحدة في مدينة الجزائر ؛ والثانية في مدينة تلمسان ، والثالثة في مدينة قسنطينة . (25)

ثم جاء ليزكيه مرسوم 1883/02/13م، الذي يجعل من التعليم الرسمي في الجزائر تعليما فرنسيا خالصا في : اللغة والمناهج والوسائل والتوجه ، وتضمن المرسوم إنشاء نوعين من المدارس التعليمية إحداهما خاصة بأبناء الأوربيين المستوطنين بامتيازاته وخصوصياته الرفيعة وليكون المستوى التعليمي الأول في الجزائر . (26)

والنوع الثاني التعليم الخاص بأبناء الجزائريين (الأهالي - لانديجان) الذي استبعدت عنه ثقافته ولغته وحضارته العربية الإسلامية ، وجعلته تعليما فرنسيا خالصا في المرتبة الثانية من غير امتيازات وخصوصيات الدرجة الأولى ، مع تعليم اللغة العربية في المرحلة الثانوية والعالية اختياريا ، كما أشار المرسوم إلى تعليم الجزائريين العربية إلى جانب الفرنسية في المرحلة الابتدائية ، غير أنه لم يطبق أبدا بحجة عدم وجود مدرسين لتعليم اللغة العربية . (27)

وهذا التضييق سبب عزلة للثقافة العربية الإسلامية وللغة العربية خاصة ، كما دفع بالجزائريين إلى التمسك بآخر ما تبقى لهم من حصون المناعة والتحصين العربي الإسلامي ، يستمسكون به لنهضتهم القادمة .

* وسائل وآليات السياسة الثقافية الاستعمارية :

ولإنجاح سياستها الثقافية الاستئصالية بهدف مطاردة الوجود الأخير للثقافة العربية الإسلامية في الجزائر عمدت الإدارة الاستعمارية إلى الأساليب والوسائل الاستعمارية التالية :

1 - حصر تعليم الجزائريين في أقل وأضيق الحدود .

2 - التقليل من إنشاء المدارس الخاصة بالجزائريين في مختلف مراحل التعليم .

3 - تحديد عدد التلاميذ الجزائريين في كل مراحل التعليم ، إذ دلت الإحصاءات الرسمية الفرنسية على أن الشعب الجزائري كان يزيد كل عام بمقدار مائة ألف نسمة في حين أن التلاميذ المقبولين للدراسة في المدارس الفرنسية يصل إلى 3600 تلميذ فقط . وهذه نسبة ضئيلة وتافهة جدا إذا ما قيست بعدد المواليد ، ولذلك فقد كانت الأمية منتشرة في الجزائر انتشارا كبيرا ، بحيث تصل إلى نسبة 95 % في صفوف الرجال ، وإلى نسبة 99 % في صفوف النساء . (28)

4 - خفض ميزانية التعليم الخاصة بالجزائريين إلى أقل حد ممكن .

5 - الاهتمام بالتعليم النظري على حساب التعليم المهني والفني التطبيقي .

6 – تشجيع الأوربيين على التعليم بمختلف فروعه ، وجعل الآفاق والمجالات واسعة أمامهم وغلقها أمام الجزائريين .

7 – وضع كل الشروط القاسية أمام الجزائريين في الامتحانات والمسابقات .. وذلك لتثبطهم وعرقلتهم .

8 – فرض مصاريف تعليمية باهظة بعد المرحلة الابتدائية المجانية ، تفـــوق كل إمكانات وطاقات معظم الجزائريين المحدودة والضعيفة . (29)

9 – إصدار القوانين والقرارات التي تقلص من مكانة الثقافة الإسلامية واللغة العربية ، وعلى رأسها قرار 1892/10/18م ، القاضي بوجوب الحصول على رخصة لفتح مدرسة عربية لتدريس اللغة العربية والدين الإسلامي (30) ، الذي تدعم بقانون 1904/12/24م ، الذي يحظر على أي جزائري أن يفتح أو أن يتولى إدارة مدرسة عربية أو كتاب لتعليم القرآن الكريم إلا بترخيص من عامل العمالة الفرنسي في المناطق الشمالية التي تخضع للحكم المدني ، أو في المناطق الجنوبية الصحراوية التي تخضـــع للحكم العسكري المباشر . (31)

والخلاصة التي نصل إليها عن وضع الجزائر التعليمي والثقافي نجملها في العناصر التالية :

1 – عزم الإدارة الاستكبارية الفرنسية على محاربة اللغة العربية لغة الجزائريين الأصلية .

2 – حرص الإدارة الفرنسية على محاربة الإسلام واستئصاله من قلوب الشعب الجزائري .

3 – وحشية الأساليب الاستعمارية الفرنسية في محاربة الشعب الجزائري .

4 – تشويه ومسخ وتغريب وفرنسة الشعب الجزائري عن دينه ولغته وثقافته وقيمه العربية الإسلامية .

5 – كشف حقيقة الاستعمار البشعة والمتناقضة بين عالم المثاليات الذي كان ينادي به في شعارات الثورة الفرنسية (حرية .عدالة . مساواة) ، وبين معاملتها الاستعبادية للشعب الجزائري .

تعززها شهادة الرحالة الألماني (فيلهلم سيمبرا) الذي زار مدينة الجزائر في شهر ديسمبر سنة 1831م ، وكتب عنها في رحلته ، حيث يقول واصفا ما شاهده : ((.. لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة ، غير أني لم أعثر عليه ، في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوربا ، فقلما يصادف المرء هنالك من يستطع القراءة من بين أفراد الشعب ، ومن الإنصاف أن نقول : أن الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة . وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية إلى استخدامهم في الوظائف العمومية ، أما الفرنسيون الذين يتكلمون العربية فلا وجود لهم إلاّ في النادر جدا ..)) . (32)

ولذلك فإن المخطط الاستعماري الفرنسي ركز بالأساس منذ الفترة الأولى للاحتلال على محاربة وإزالة وتقويض كل المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية ، وذلك عبر طرق وآليات ووسائل وأساليب وحشية سنذكرها لاحقا إن شاء الله .

وبعد فتح قسنطينة قام قـــادة الحملة الاستعمارية بتحويل جامعها الكبير إلى كنيسة ، وقد ألقى فيه سكرتير الجنرال (بيجو) خطابا جاء فيها على الخصوص : ((.. إن أيام الإسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح ، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنســـا فلا يمكننا أن نشك – بأي حال من الأحوال – أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين)) . (33)

ولم تحل سنة 1927م حتى بقي في مدينة الجزائر أربعة مساجد جامعة وأربعة مصليات وخمسة أضرحة (34) ، وانتهى أمر الدين الإسلامي وأمر المؤسسات الدينية الإسلامية وأوقافها ورجالها . واستبدل بإسلام خرافي طرقي ، عماده الطرق الصوفية الباطلة ، الممالئة للإدارة الاستعمارية ، والمســـيطرة على ألباب الضعفاء الجزائريين ، المبهورين بزينة وألوان وهيلمان رجال الزوايا وأضرحتهم وقبورهم وخلواتهم وكراماتهم المزعومة ..

وما هو إلاّ قرن من الاحتلال حتى كان عدد الكنائس المسيحية في الجزائر في بداية الأربعينيات حوالي (327) كنيسة للمسيحيين، و (45) معبدا لليهود ، و (166) مسجدا فقط للمسلمين الجزائريين ، الذين كان تعدادهم حوالي ستة ملايين نسمة . (35)

*** أوضاع بلاد ميزاب :**

لا تختلف أوضاع منطقة وادي ميزاب – على عهد الشيخ اطفيش – كثيرا عن أوضاع العالم الإسلامي ، فكانت البيئة الميزابية أنموذجا مصغرا عن البيئة الإسلامية العامة ، لكن لها بعض الخصوصيات لعل أهمها :

1 – منطقة وادي ميزاب تقع جنوب الجزائر العاصمة بنحو [600] ستمائة كيلو متر ، وترتفع عن سطح البحر بـ [53] مترا ، وهي أرض صحراوية تحمل كل خصائص البيئة الصحراوية من الناحية المناخية وغيرها ، تتخللها بعض الوديان إلاّ أنها في الأغلب جافة ، لا تجري إلاّ لبضعة ايام ، وكثيرا ما تتعرض للجفاف فتبقى البيئة جافة قاسية ، لكن لم تمنع الناس الذين استوطنوها من أن يقيموا فيها عمرانا وحضارة تتناقلها الألسنة وشهدت بها الآثار والأعمال . (36)

2 – يخضع المجتمع الميزابي لقيادة جماعية منذ حلول المذهب الإباضي بها في القرن الخامس الهجري ، هذه القيادة المعروفة بحلقة [العزابة] (37) ، أو نظام العزابة الذي أسسه الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي (38) ، وعرف هذا النظام تجسيدا في الواقع ، وتطورا خاصة بوادي ميزاب ، حتى أصبحت أمور الحل والعقد تعود إليه في الوادي ، ومرّ بفترة قوة وضعف تبعا للأوضاع العامة وللأحداث المتعاقبة .

3 – ظل الإباضيون على صلة بكل من حكم وسيطر على المغرب الأوسط ، ففي أيام الحكم العثماني كان لهم أمناء ينوبون عنهم لدى السلطة العثمانية ، فتمكنوا بذلك من البقاء في ميزاب مع توسيع نشاطهم التجاري إلى الشمال ، وبقي الأمر هكذا حتى مجيء الاحتلال الفرنسي ، الذي لم يلبث أن وصل الصحراء ، فكان على الميزابيين أن يتخذوا موقفا إزاءه ، وقد عرفوا التفوق العسكري للمستعمر ، ورأوا ما يتركه من البلاء والأثر

على العمران والعباد ، وذلك بعد مشاركتهم في رد الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830م ، وحملتهم هذه التجربة على أن يبرموا معاهدة حماية السلطة الاستعمارية لما وصلت إلى مدينة الأغواط شمال ميزاب 1853م ، وكان هذا حلا وسطا بين عدم قدرتهم على المقاومة ، وبين أن يتجنبوا ما ينتج عن الاحتلال في شؤونهم الخاصة ، ولم يدم الحال طويلا إذ سرعان ما انقلبت عليهم فرنسا بحجة مساندة أهل ميزاب للثوار والثورات الجزائرية فأصبح وادي ميزاب ملحقا مباشرة بالإدارة العسكرية منذ سنة 1882م ، ولم يعد لنظام العزابة من سلطة إلاّ في قضايا المجتمع ، لما أصبح القضاء بيد الفرنسيين . (39)

4 – لم يخل وادي ميزاب من بعد الاضطرابات من الناحيتين الاجتماعية والفكرية ، وأكله التقليد والتقديس للماضي ، حتى ظل العلماء إلى القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي يعيشون على أنقاض ومخلفات الماضي ، وقد وصف وانتقد الشيخ اطفيش ذلك الجمود ، داعيا أهل ميزاب للنهضة والتقدم ، ومع كل هذا فقد عرف وادي ميزاب ظهور بعض الحركات الإصلاحية كحركة الشيخ أبي زكريا يحي بن صالح (40) ، وحركة الشيخ عبد العزيز الثميني (41) ، ثم حركة الشيخ امحمد اطفيش الإصلاحية التنويرية في الفكر والفقه الإباضي ، المتجدد ، المناسب لطروحات وتطلعات المسلمين في العصر الحديث بما يتناسب وأصالتهم واستفادتهم من فتوحات وتقدم المدنيات الحديثة في عوالم العلم والفكر والصناعة والرقي والتقدم ، الذي هو موضوع دراستنا .

* نسبه ومولده :

هو الشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمن بن عيسى بن إسماعيل اطفيش ، وينتهي نسبه إلى أسرة الحفصيين الذين حكموا تونس سنوات 1229-1574م 625-983هـ . (42)

ولقب بكلمة [اطفيش] ، وهي في لغة ميزاب مكونة من ثلاثة مقاطع ، وتعني : [خذ، تعال ، كل] ، وهي كناية عن الجود والكرم ، وأمه مامه ستي بنت الحاج سعد

بن عدون بن يوسف بن قاسم بن عمر بن موسى بن يدر من عشيرة آل يدر ببني يزقن . (43)

واشتهر الشيخ عند الإباضية بلقب [القطب] حتى أصبح لقبا مقصورا عليه ، وليس لهذا اللقب معنى من معاني رتب الصوفية ، ولكن يدل على مكانة الشيخ العلمية ، وكونه مرجعا عند الإباضية . وقد ولد سنة 1238هـ 1821م ببني يزقن بغرداية ، وله ثلاثة أشقاء اشتغلوا بالتجارة . (44)

* **نشأته ووفاته :**

عاش سنوات طفولته الأولى في غرداية لأن والده كان قد نفي من بني يزقن إلى غرداية بسبب خلافه مع وجهاء البلدة حول قضايا الإصلاح الاجتماعي ، وبعد فترة توفي والده وعاش في رعاية والدته وأشقائه الثلاثة عيشة شظف وفقر ومعاناة ؛ ورغم فقره فقد طلب العلم وأكب عليه ، على الرغم من مساعدة العمانيين له ومدهم إياه بالمساعدات ، وعمل بالتدريس والقضاء ، الذي تركه لأنه صرفه عن طلب العلم . (45)

وقد تعرض لكثير من المحن فقد طرد من بلدته بني يزقن بسبب آرائه الإصلاحية ، وبسبب مناداته بالاجتهاد والخروج عن التقليد والتعصب الأعمى ، فسكن البلدة المجاورة [بنوبرة] ، إلى أن كثر تلاميذه ومريدوه ومحبوه الذين طالبوا بعودته فعاد إلى بني يزقن بعد نفي دام سبع سنين ، ولم يغادرها إلاّ قليلا ، إلى بيت الله الحرام مرتين ، وإلى بعض المناطق المجاورة ، وكانت كلها رحلات علمية ، وقد أرخ لرحلتيه الحجازيتين ، وكانت الأولى في العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجري 1290هـ وهي التي تردد ذكرها كثيرا في مؤلفاته ، كما ذكر العلماء الذين التقى بهم في مكة والمدينة ، وكانت الحجة الثانية سنة 1303هـ 1886م وسجل مراحلها في قصيدته الحجازية ، ورسم طريقها ، وأهم المدن التي توقف بها بدءا من المدن الجزائرية والتونسية إلى أن عاد سنة 1304هـ ، كما ذكر فيها أهم الكتب التي اشتراها ، والكثير من تفاصيل الرحلات الحجازية . (46)

وظل بها يدرس ويعلم إلى أن وافته المنية يوم السبت 23ربيع الثاني 1332هـ مارس 1914م ، بعد مرض ألم به، وقيل توفي بسم وضعه له المستعمر الفرنسي . (47)

*** حياته وتكوينه العلمي :**

اجتمعت جملة من العوامل على تكوين ونبوغ شخصية الشيخ العلمية والدعوية والإصلاحية لعل أهمها :

1 – تأثير العائلة :

كان الشيخ ينتمي من ناحية أمه وأبيه بنسب عريق من الشخصيات العلمية ، حيث كانت الأسرتان عامرتان بالعلماء ، الذين أثروا في شخصيته وتكوينه ، وقد افتخر في العديد من المرات بنعمة الله عليه أنه نشأ في أسرتين عامرتان بالعلماء ، وفتح بصره على مجالس الذكر والعلم ، فضلا عن تلقيه مبادىء العلوم على يد أخيه إبراهيم ، الذي كان يعده معلمه الأول ، والذي درس في جامعة الأزهر بمصر وتعلم الكيمياء وكان مولعا بها ، وجلب معه من مصر وعمان الكثير من الكتب ، وسبق له أن درّس بفاس ثلاث سنوات وتوفي سنة 1310هـ وقد حفظ القرآن الكريم و لم يتجاوز سنه الثامنة بعد. (48)

2 – تلقيه العلم على يد أكابر العلماء :

وقد تلقى العلم على يد خيرة علماء الإباضية في عصره أمثال : الشيخ [محمد بن عيسى ازبار] و الشيخ [عمر بن سليمان] والشيخ [سعيد بن يوسف] والشيخ الحاج [سليمان بن عيسى] ، والشيخ [حمو بن كاسي] ، والشيخ [عمر بن صالح] الذي درس على يديه علم القصاص . فضلا عمن طلب عنهم أثناء رحلاته في الجزائر وتونس وليبيا أو خلال رحلتيه الحجازيتين أمثال الشيخ : [أحمد زيني دحلان] والشيخ [محمد سليمان حسب الله]، والشيخ [محمد حقي بن علي بن إبراهيم] والشيخ [رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي] . (49)

3 – ذكاؤه ونبوغه المفرط :

وقد أظهر الشيخ نبوغا واجتهادا متميزين منذ بداية عهد بالدراسة حينما كان يُقبل على حلقات الدرس إقبالا منقطع النظير ، دعمته عزيمة صادقة ، وقلب جريء ، وذكاء مفرط ، وصبر على تحمل مشاق الطلب لا نظير له بين قرنائه ، مما جعل أساتذته وشيوخه يتوسمون به خيرا ونجاحا وفألا طيبا للعلم والعلماء ، وفتحا مجيدا للفضيلة والخير ، حتى أصبح يتصدر حلق التدريس ، وقد جلس إليه بعض من علموه في الصغر ، وقد أقبل على العلم حتى صار من ألمع العلماء ، ورجا ربه أن يكون من مجددي عصره ، وكان يقول : ((.. قلت قد بلي هذا الدين فاسألوا الله تعالى أن يجعلني له مجددا ولأحواله مسددا ، وهو القائل :

وإني لأرجو أن أكون المجددا * لدينك يارب ويا مظهر الذخر**)) . (50)

*** مكانته :**

تبوأ الشيخ اطفيش مكانة علمية واجتماعية وأدبية ودينية عظيمة في مجتمعه ، ولم يكن الوصول إلى مثل تلك المكانة بالأمر الميسور نظرا لكثر المتطلعين والمعارضين والحاسدين ، ولكنه استطاع أن يصل إلى تلك المرتبة بعلمه وتآليفه الجليلة وعمله الدعوي ، فتدرج في حلقة العزابة كعنصر عادي مكلف بتجهيز الموتى ، ثم أصبح بعد ذلك شيخ حلقة، ثم تولى الفتوى والتدريس والقضاء ، وصار قبلة للوافدين والقاطنين . ولمانته العلمية وشغفه بالتدريس فقد ألقى أثناء وجوده بالمدينة المنورة دروسا بالمسجد النبوي المعمور شرح فيها العقيدة السنوسية . (51)

*** آثاره العلمية :**

أولى الشيخ اطفيش التأليف عناية كبرى ، إذ بدأه وعمره ست عشرة سنة ، وألف في الحل والترحال ، ولذا فقد كثر إنتاجه للأسباب التالية : (52)

1 – الاستجابة لرغبة الناس ، فالكثير من مؤلفاته استجابة لطلبات وأسئلة السائلين فحوالي أربعين رسالة كتبها للسائلين من عمان .

2 – تحمل الشيخ واجب التأليف عن الناس عى مبدإ النفرة الإسلامية حتى يشتغلوا بالعمل ، وكان يشعر بأن التأليف واجب كفائي لا ينبغي أن ينساق الناس جميعهم وراءه ويتركوا العمل الحضاري الذي يصلح دنياهم ، وقد قال عن ذلك : ((.. وإلام يشتغل الناس بالتأليف ويتركون العمل والدرس وقد وجدوا من كفاهم مؤنة التأليف ..)) . (53)

3 – الفراغ العلمي الذي عاشه الشيخ اطفيش ، إذ رأى أن يسده بالتأليف ليمهد السبيل لتلاميذه في اكتساب العلم والمعرفة .

4 – ذكاؤه المفرط وقدرته على الإبداع والابتكار والتصنيف والتوليف والتقعيد والنقد وغيرها من الملكات التي حباه الله بها . ولاسيما في علوم الشريعة .

5 – ملء الفراغ الحاصل في علوم الشريعة ولاسيما مع توالي المستحدثات والمستجدات ، وغياب الكثير من كتب الأقدمين من جهة ، وحاجة العصر وتطلعاته للتجديد والتأليف في الدين . (54)

* **مؤلفاته :**

اختلف الدارسون لتراث الشيخ في عدد المؤلفات التي تركها ، فقد أورد الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش في كتابه القيم [الدعاية إلى سبيل المؤمنين] بأن عدد كتبه قاربت الـــ [300] ثلاثمائة كتاب ، فيما ذهب المستشرق (ل . دافيد) إلى أنها بلغت الـــ [192] كتابا، فيما ذكر المستشرق [كوبرلي] إلى أنها بلغت [103] كتابا ، وهي الموجودة والمطلع عليها الآن ، ومنها ما تعددت أجزاؤه ككتاب [شامل الأصل والفرع] ، وقد أحصينا له أكثر من [135] كتبا عدا المراسلات التي بلغت [107] رسالة وبعض المخطوطات الأسرية الأخرى . (55)

وقد تنوعت مؤلفاته ما بين سائر علوم الدين والعربية من أصول الدين والفقه والتفسير والحديث والمنطق واللغة والأدب والتربية والإرشاد والوعظ والفتاوى والحساب والفلك والطب .. (56)

* أشهر تلامذته :

درس الشيخ قرابة المائة تلميذ نبغ منهم العشرات ، وكان من أشهرهم :

1 – الشيخ الحاج صالح بن عمر لعلي : المولود ببني يزقن سنة 1871م 1287هـ صاحب المؤلفات الشهيرة ، والمتوفي ببني يزقن سنة 1347هـ 1928م والعالم الفقيه المدرس المحقق الذي من مؤلفاته :

1 – القول الوجيز في تفسير كلام الله العزيز .

2 – منظومة خلاصة المراقي في معرفة مبادىء الإسلام .

3 – رسالة في الصوم والإفطار .

4 – حواشي على كتاب [النيل وشفاء العليل] و [الإيضاح] و [قواعد الإسلام] ..

5 – أجوبة وقصائد مختلفة . (57)

2 – سليمان باشا الباروني : المولود بجادو بجبل نفوسة سنة 1291هـ 1873م ، الذي حفظ القرآن الكريم وانتقل إلى جامع الزيتونة سنة 1305هـ 1887م ، ثم إلى وادي ميزاب ليتعلم على يد الشيخ اطفيش ، ثم انتقل إلى الأزهر ، واهتم بقضايا الفكر والأدب والتاريخ والسياسة، أنشأ المطبعة البارونية بمصر وطبع فيها كتابه الشهير [الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية] وديوانه الشعري ، وأصدر جريدة [الأسد الإسلامي] فصودرت لأنها اهتمت بقضية الجامعة الإسلامية في عددها الأول ، قاد المقاومة الليبية ضد الاستعمار الإيطالي ، وتوفي بالهند سنة 1359هـ 1940م . (58)

3 – أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج محمد بن الحاج إبراهيم بن يوسف اطفيش : من أبرز تلاميذ الشيخ ، ولد ببني يزقن سنة 1304هـ 1886م ، درس على يد الشيخ ثم على يد الشيخ [عبد القادر المجاوي ت 1913م 1332هـ] ، ثم ذهب إلى تونس سنة 1335هـ 1917م ، واشتهر بمقاومته للاستعمار وانشغاله بأوضاع المسلمين ، وكان عنصرا نشيطا ضمن الحركة الوطنية التونسية بعد نفيه إلى تونس ، ثم لما ضاق الاستعمار

به نفاه إلى مصر ، فواصل بها نشاطه مصدرا مجلة [المنهاج] ثم سافر إلى زنجبار سنة 1366هـ 1947م ودافع عن القضية العمانية أمام بريطانيا ، ثم عمل في دار الكتب المصرية من سنة 1359هـ 1940م إلى وفاته سنة 1358هـ 1965م ، وهناك نشر وحقق الكثير من كتب الإباضية والمالكية . (59)

4 – أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى حمدي : ولد بالقرارة سنة 1306هـ 1888م ، وبها تعلم في مدرسة الشيخ الحاج عمر بن يحي ، فحفظ القرآن الكريم وسائر متون عصره في اللغة والأدب والدين ، التي أهلته للجلوس إلى حلقة الشيخ اطفيش ، وظل ملازما له حتى هاجر إلى تونس يطلب العلم بجامع الزيتونة والخلدونية ، وفي تونس عمل مع الحركة الوطنية التونسية بقيادة الشيخ [عبد العزيز الثعالبي ت 1363هـ 1944 م] وكان عضوًا في اللجنة الأدبية لحزب الدستور التونسي حين تأسيسه ، ثم عاد إلى الجزائر وانخرط في صفوف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكان من أعضائها البارزين ، وأسس ثمانية صحف ، وكان من كتاب صحف الجمعية وغيرها ، وتوفي سنة 1973م . (60)

*** جهوده في الإصلاح الاجتماعي :**

جاء الشيخ اطفيش بدعوته الإصلاحية إلى منطقة وادي ميزاب بعدما كادت تخبو الدعوات الإصلاحية الأولى التي بدأها مبكرا الشيخ أبو زكريا يحي بن صالح ، والشيخ عبد العزيز الثميني ، وقد بحث في أسباب تخلف البيئة الميزابية وتبين بعد طول المدارسة والتدقيق طغيان الجهل والتعصب والتقليد عن غير علم والتقوقع على الذات ، وعدم الاحتكاك بالآخر ، وعدم الاهتمام بشؤون المسلمين ، ولذا اتجه إلى إصلاح عيوب المجتمع الميزابي ، متبعا منهج السلف الصالح من الأمة الذين ساروا على منهج الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ورسول الله صلى الله عليه وسلم . (61)

وقد استخدم سائر الوسائل المتاحة بين يديه ، ومستعملا كل الأساليب والسنن النبوية في الإصلاح والتغيير التي تعتمد على الرفق والروية والسكينة والتدرج والمرحلية والتأني والود ، ولاسيما رفع الغبن عن المرأة الميزابية التي كانت محكومة بالتقاليد لا

بالشرع ، ومن أجل التغيير تنقل في سائر بلاد ميزاب ، وخصص أوقاتا خاصة بالرجال والنساء .

وقد عمل على تصحيح الاعتقادات البالية ، كالإيمان بالخرافة والشعوذة والأساطير وتقديس القبور والأضرحة والأماكن والركون إلى الكسل وانتظار خوارق العادات ، وذبح الذبائح في المزارات والحج لها ، والاعتقاد الجازم بقوة المردة والجن .. وصحح بدع استحداث بعض ركعات مخصوصة في أيام السنة وانتخاب آيات خاصة من القرآن الكريم تتلى والبناء على القبور .. فصحح كل ذلك وغيره ، وقد لاقى مناهضة شديدة من المسكان والجامدين ولكنه قاوم وبرهن وعمل وأقنع حتى هدى الناس وقادهم إلى رسالة الإسلام الصحيحة ، على الرغم من نفيه من بلدته ، ومحاولة قتله .

وقد تميز بصيره وطول نفسه وصدقه وثباته في دعوته حتى نهض بالمجتمع الميزابي وأخرجه من براثن الجهل والتخلف والبدعة المفسدة للدين . فكان بحق المصلح والمعلم والمربي والمدرس والباعث للنهضة الميزابية الحديثة بحق .

وكان من بين شيوخ معدودين مشهود لهم بمقاومة الاستعمار الفرنسي الذي فرض عليه الإقامة الجبرية إلى حين وفاته ، وكان يرى رأي مالك بن نبي في القابلية للاستعمار ، ويرى أن الأمة الإسلامية ما كان لها أن تستعمر من قبل الأجنبي لولا قابليتها للركوع والخنوع والذل ، ولذا كان من المقاومين ، ومن المشجعين على مقاومة الاستعمار بالتعليم والتربية والتأديب أولا ، ثم بالإعداد المادي والروحي والأدبي ثانيا ، وقد قال في المقاومة :

لولا ثـــلاث هـــن : تعليم جـــاهـــــل * وخدمة ربي والجهاد لذي الكفر**

لما كنت أخشى الموت والموت لازم * وإلاّ فما الحياة والمرء في قهر . (62)**

*** كتابه القيم شامل الأصل والفرع :**

يُعد كتاب الشيخ اطفيش شامل الأصل والفرع من أجل ما ألف ، ولكن للأسف لم يكتب الله له ليتمه حيث وقف فيه عند باب الصلاة ، ولو أتمه لكان كفاية للمسلمين عامة ولأتباع المذهب الإباضي خاصة ، وسنحاول عرض أهم أبوابه وفصوله وموضوعاته.

فقد التزم تحقيقه والتعليق عليه وشرحه وطبعه العلامة أبو إسحاق إبراهيم اطفيش الجزائر ، المعروف باطفيش الصغير (63) ، مثنيا على شيخه جهده ومثابرته وعزمه على خدمة الأمة الإسلامية ، وأنه ألف هذا الكتاب بعد بلوغه درجة الاجتهاد ، فقد :((أودع فيه من تحقيقاته ما يبتهج به الباحث ، ويتطلبه العامل في مرحلة الحياة الدينية ، ويكشف عن مكنون مسائل قد تستعصي عن المحصلين والمستزيدين ، وقد يجد فيه المنتهي ضالته ، ويبلغ منه منيته ، ولقد نوه به مؤلفه في كثير من تآليفه وأحال عليه في كثير من المشكلات، وكان المؤلف رحمه الله نوى أن يجمع فيه فنون الشريعة مع الإطناب فيما يتطلبه المقام وتحقيق الخلاف وبيان الأصل ، ولم يستكمل أبوابه وفصوله، بل احتوى على أكثرها، ولو تم هذا المؤلف لكان في بضعة مجلدات، وفي مقدمة الكتب تدقيقا وتحقيقا))(64)

ثم أثنى على مواهب الشيخ العلمية والمنهجية في فنون التدقيق والتحقيق والشرح والتعليق والترجيح فقال : ((.. وغني عن البيان أن مؤلفات قطب الأئمة شيخنا مع كثرتها – وهو من المجيدين في التأليف المكثرين فيه – غنية بالتحقيقات ذات ثروة عظمة قل أن توجد في سواها ..)) . (65)

وقد نعت في مقدمته طرق تعامل الشيخ مع الأقوال والأدلة والآثار والأخبار ، وقدرته النادرة في تحقيق وتحصيل أرقى وأرجح الأقوال والمذاهب فيها فقال : ((.. والمؤلف قد يسوق مسائل ضعيفة إما ليبين فسادها تصريحا أو تلويحا ، وإما ليبين ما يستأنس به إن كان مما يحتمل ذلك ، كما جزم به نفسه . وقد يسوق بعض مسائل واهية القول ليتميز الصواب من الخطإ وبضدها تتمايز الأشياء ، وقد يترك ذلك إلى الإدراك بمعونة القرائن ..)) . (66)

وجعل عمدته في تأليفه القيم هذا القرآن الكريم وصحيح الإمام الربيع بن حبيب المعتمد أساسا في المذهب الإباضي ، ثم صحيحي البخاري ومسلم ، وغيرها من أمهات المصادر الإسلامية ، رافضا مزاعم الصوفية البدعية والرافضة والباطنية وتأويلاتهم . (67)

*** فصول الكتاب وأبوابه :**

قسم المؤلف مصنفه إلى جزأين ، ضم الجزء الأول أربعة كتب هي :

1 – الكتاب الأول : العلم والإيمان والجائز من الكلام والملائكة والجن والشياطين .

2 – الكتاب الثاني : الولاية والبراءة والتوبة والذنوب .

3 – الكتاب الثالث : في الطهارة ولواحقها .

4 – الكتاب الرابع : الصلاة .

1 – الكتاب الأول : العلم والإيمان والجائز من الكلام والملائكة والجن .. :

وقد بدأ مصنفه القيم هذا بالكتاب الأول عن أصول الدين والاعتقاد ، فاتحا الباب الأول عن العلم والإيمان وعالم الملائكة والجن والشياطين ، منتقلا الحديث عن فضل العلم والعلماء وأصنافهم ومراتب العقل ، وقد ساق الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على مشروعية العلم وطلبه ودرجاته ومراحله مبينا أن : ((.. أجل العلوم هي معرفة الله ، وهي أول الواجبات لا التفكر كما قيل ، وبعدها معرفة الأوامر والنواهي ، ولا يشك أحد أن أصل العلم القرآن ، نعم هو مفجر العلوم ومنبعها ودائرة الشمس ومطلعها وروي " إن فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم " ..)) . (68)

وجاء الباب الثاني والثالث عن العلم وفضله ومكانة أهله مبينا بالأدلة الشرعية وجوبه على المكلفين لكونه من الفروض الواجبة على المسلم بادئ بابه بحديث لرسول الله **صلى الله عليه وسلم** قوله : ((اطلبوا العلم فإن فيه حياة القلوب ومصابيح الأبصار وقوة الأبدان)) ، ثم شرحه وساق الكثير من الأدلة ليبين فضل العلم والعلماء ، معددا أصنافهم فالفقيه كل الفقيه هو الذي لا يُيئسهم برهم ، وهم الصنف الذين إذا فسدوا فسد الناس ، وتكون هفواتهم وزلاتهم خروق تغرق بها السفن . (69)

وانتقل في الباب الرابع إلى تبيان مكانة وقوة العقل الذي هو نور قلب المرء لقوله تعالى [لهم قلوب لا يعقلون بها] ، وهو القلب محل المحبة والكراهية ، والمودة والنفور ، والمحبة والبغض ، والخير والشر ، والتفكير والنظر ، والتوسم والاعتبار ، وقال في فضل ذانيك المذكورين : ((.. أفضل ما يُؤتى المرء عقل يُولد معه ، فإن عدم فأدب يعيش به و إلاّ فإخوان يسترون عورته ، و إلاّ فمال ي تحبب به للناس يسترها ، و إلاّ ففم صامت ؛ و إلاّ فموت جارف ، ومن اجتنب المحرمات وأدى الفرائض فهو العاقل ولو كان في عقله قصر وخفة ، والله أعلم ..)) . (70)

وتناول في الباب الخامس أصول الدين ، مبينا أن أصول الدين هي القرآن والسنة والإجماع والقياس ، ومن أنكر واحدا من الثلاثة الأولى أشرك ، وهن أصل للقياس ، وإنما كان أصلا في الدين بواسطة اعتماده على الثلاثة ، مبينا بعد ذلك درجات الحديث الموافق للقرآن فهو مقبول ، وكذا الحديث المجمع عليه ، ويُرد ما خالفه لأنه مكذوب فيه عنه **صلى الله عليه وسلم** ، مبينا أن بعض الأحاديث بعد صحتها تحتمل التأويل ، مبينا بعد ذلك حكم منكر المعلوم من الدين بالضرورة كمنكر الصلاة مثلا حيث قال :

((.. وجاحد الشيء المجمع عليه المعلوم من الدين حتى أنه كالأمر الضروري مشرك كالصلاة ..)). (71)

ثم ذهب يفصل القول في مصادر التشريع الإسلامي القرآن والسنة والإجماع والقياس، ومكانة المؤمن بها من المنكر والجاحد لها بين مشرك وكافر . (72)

ثم تناول في الباب السادس الفتيا والحجة الفقيه فيها مستدلا على ذلك بالأحاديث والآثار والأخبار مبينا رأيه في مسألة الحجة في الفتيا فقال : ((.. وقال غيري بجواز عمل مجتهد بقول مجتهد آخر سواء كان له فيها قول أم لم يكن إن لم يتبين خطأه ، وقيل إن لم يكن والأكثر على ما قلت ووجه عندي أن عمله بقول غيره فيما لا قول له فيه تقصير ، لأنه يطيق الاجتهاد ، وفيما له فيه قول رجوع عن العلم الذي عنده حق بدون أن يتبين له أنه خطأ إلى ما لم يتبين له أنه حق ، إلاّ إن كان الخلاف في الأحسنية ،

لا في أصل الجواز فيجوز له الأخذ برأي غيره لكنه حينئذ في الحقيقة أخذ بجائز عنده مرجوح ، وإلاّ أضاق الوقت في حقه أو حق سائله فيجوز له أن يعمل أو يفتي بمذهب غيره ..)) . (73)

وقد نبه المستفتي أن يجيز لنفسه التعدي على فتيا غيره بالقياس ولاسيما في مسائل القياس على القياس فقال منبها : ((.. ولا يجوز للمستفتي والآخذ من الكتب أن يقيس مسألة على أخرى ولو تشابهتا ، لأنه لا يأمن الخطأ وهذا إذا لم يصل درجة الاجتهاد في مذهب إمامه ، وقد كنت أجتهد بالقياس على أصل إمامي ولا أكاد أصيب ، إلاّ قولا يوافق ما قلت والحمد لله ثم انتقلت عن هذه الدرجة إلى ما فوقها والحمد لله)) . (74)

خاتما هذا الباب الجليل بالحديث عن الفتيا بالمذهب وبخارجه ، مشددا على وجوب الفتيا بالمذهب إلاّ إذا ثبت الحق في غيره مستدلا بسنة رسول الله **صلى الله عليه وسلم** وفعل أصحابه **رضوان الله عليهم** . مثبتا وجوب التأكيد على الفتيا إذا ثبت الدليل وعدم ترك المستفتي متوهما فيما استفتاه ، حتى ذهب بعض أصحابه بالمنع بختم الفتيا أو الدرس بقوله الله أعلم تركا للشبه والتوهم في قلب السائل . (75)

ثم تناول باب التقليد والاتباع وما يسع وما لا يسع للمفتي والمستفتي ، وما يجب طلبه أو ما يسمح بجهله من الدين ، والأصل طلب المعرفة لئلا يقع في الجهل ، ومن ثم المروق من الدين . (76)

ثم تناول في الباب التاسع الإيمان والإسلام واليقين والكفر والشرك والنفاق ، وبدا الشيخ اطفيش هنا غير متميز عن جمهور الفقهاء والمتكلمين وأصحاب المذاهب في هذه المسائل ، التي لا يكاد يختلف عنها الإباضية عن غيرهم فت : ((.. الإيمان هو التصديق ، وإنما يتم عند أصحابنا وأكثر المخالفين بالنطق . والإسلام الانقياد للأحكام الشرعية امتثالا وازدجارا . هذا حقيقتهما عندي .. ويزداد الإيمان بقوة النظر الاعتباري والفكر والأعمال الصالحة ، وينقص بالغفلة عن ذلك والأعمال المحرمة . والإيمان نفسه علم لا شك ولا ظن ، نعم يزداد بازدياد العلم حتى يرسخ ، فإذا رسخ كان يقينا فدرجة العلم الراسخ أفضل

عند الله من درجة الإيمان كما قال الله تعالى : [يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات] .. فالإيمان يقين واليقين يدعو إلى قصر الأمل ، وقصره يدعو إلى الزهد المورث للحكمة المورثة للنظر في العواقب . وعلامته النظر إلى الله في كل شيء والرجوع إليه في كل أمر والاستعانة به على كل حال .. والكفر ستر لنعمة الله إما بالإشراك ، وإما بعمل سائر الكبائر ، ويترتب على الإشراك عمل الكبائر أيضا .. والشرك جحود الله أو كتاب من كتبه أو نبي من أنبيائه أو صفة من صفاته أو بعض كتاب ، أو الشك في الجنة أو النار .. والنفاق مخالفة الفعل القول أو السر العلانية ، والمنافق عندي من أظهر التوحيد وأخفى الشرك ..)) . (77)

ثم تناول في الباب العاشر حكم الجائز من الكلام والدعاء شارحا قوله تعالى : [ادعوني أستجب لكم] ، وحكم رفع الصوت وخفته في الدعاء ، والتقية في القول والعمل ، وحكم استخدام المجاز في الدعاء ووصف الله تعالى ، ورفع اليدين في الدعاء ، واستخدام بعض الحركات كرفع السبابة في الخطبة ، وتفسير قوله تعالى : [يدعوننا رغبا ورهبا] . منتقلا بعد ذلك إلى حكم تعليم الصبيان شارحا قوله تعالى : [قوا أنفسكم وأهليكم نارا] وواجب المسلمين تعليم أبنائهم الدين والعربية والقرآن والسنة وتاريخ الإسلام . مارا بموضوع القرآن وحروفه وتلاوته وقراءاته السبع والعشر ، متشددا على إجماع الأمة على نزول القرآن وحيا على رسول الله **صلى الله عليه وسلم** وانتقاله إلينا بالتواتر ، ووجوب الإيمان القطعي بما أجمعت عليه الأمة من أن المكتوب والمتعبد بتلاوته ما بين الدفتين هو من عند الله ، ولا يدعي نقصان حرف منه ، ومن ادعى غير ذلك فقد أشرك لإجماع الأمة على خلافه . مبينا المحكم والمتشابه منه وحكم الإيمان بهما ، ومحل الخطاب الإلهي في القرآن الموجه للإنسان ووجوب اتباع مواضع الخطاب القرآني ، خاتما الكتاب الأول بالحديث عن الملائكة والجن والخواطر ووجوب الاعتقاد بعالمي الجن والملائكة . (78)

وقد بدا لي الشيخ اطفيش في كتابه الأول موافقا لأهل السنة والجماعة جملة وتفصيلا ولاسيما فيما له صلة بتعريف الإيمان والمؤمن والإسلام والمسلم والنفاق والمنافق والشرك والمشرك والكفر والكافر ، ولم يعمد إلى رأي إلاّ بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع وما كان عليه السلف الصالح من الأمة .

2 – الكتاب الثاني : الولاية والبراءة والتوبة والذنوب :

ثم انتقل في الكتاب الثاني إلى موضوعات الولاء والبراء والوقوف والذنوب والتوبة وعمل الباطن والأولياء والبعث والزينة والتفث والسواك والأكل والشرب والنوم والأدب والطيب والتحية والعفو والوصل والإذن والسلام وما للرجل مع المرأة وما أبيح لها والنية والمال . (79)

وانطلق يؤسس لركني الولاية والبراءة فقال : ((.. ولاية الجملة وبراءتها فريضتان بالكتاب والسنة والإجماع على كل مكلف عند بلوغه إن قامت عليه الحجة ، وإلاّ فهو موسع له حتى تقوم ، أو يقارف بخلاف مقتضاهما ، ثم إذا قامت ولم يفعل نافق ، وإن أنكر أشرك هذا عندي ، وقال غيري إنه لا توسيع فيهما بجهل وإن لم يأت بهما أول بلوغه أشرك حتى يأتي بهما ..)) . (80)

ولطالما كان الشيخ يعتد برأيه في كافة أبواب الكتاب الأول ، فيختم المسألة بقوله هذا رأيي أما عند غيري فهو كذا ودليله كذا .

وعن ولاية الإنسان أو البراءة منه ذهب إلى اعتماد ظاهره لاستحالة معرفة غير ذلك فقال : ((.. وإذا رأيت من ظاهر الإنسان الموافق الوفاء بالدين توليته وأحسنت به الظن ، وحملت ما تشاهد منه على ما شهدت لأنه محال أو كالمحال أن تطلع على جميع تركات أحد وفعلاته ، وإن لم تعلم حاله وأخبرك متولى أو متولاة ولو أمة ممن يعرف الولاية وكان بالغا أنه متولي أو أهل للولاية أو أخبرك عنه بما لو شاهدته منه لتوليته فتوله ، وكذا إذا اشتهر .. وإذا ثبت موجب الولاية وقامت حجة وجوبها عليك ولم تتول كفرت نفاقا ولو أخرت طرفة عين ، وكذا البراءة إلاّ الشرك فظهوره من أحد هو قيام

الحجة على براءته ووسع بعض جهل أنواع الشرك ما لم يقارف إلاّ قول إلاّ إلهين اثنين ، وهو ضعيف ، وقيل إذا ثبت موجب الولاية انتظرت شهرا أو شهرين حتى تراه حريصا مستقيما ..)) . (81)

ثم راح يفصل القول في مسائل الولاء والولاية والبراء والبراءة والتولي والتبرؤ المعلوم والخفي وما تراه وما خفي عنك من متوليك ، وعدم الإسراع في الحكم والتريث والتمهل حتى يترجح لك اليقين في المسألة مبينا موجبات التوبة إن ثبت إتيان الكبائر الخارمة لركن الولاء ، والموجبة لركن البراء منتقدا ما يذهب إلى فقهاء الشرق مستعملا عبارة " كما يرى المشارقة " في شك ثبوت صغيرة أو كبيرة واستبقاء ولاية المشكوك فيه ما لم يترجح اليقين .

وانتقل لتناول حالات التبرؤ والتولي ، وعكف على مشاهد المنكر والمستنكف على تغييره فقال : ((.. ومن رأى منكرا ولم يغيره وهو قادر تبرأ منه ناظره أو عالمه إلاّ إن شك في عدم قدرته أو في أنه غافل أو أنه لم ير أو في أنه قد نهى قبل ولم يقبل عه أو في أنه لم يرج القبول أو في أنه قد اعتقد أن في ذلك غير منكر أو في أنه علم بقول فيه لم يدر به الرائي والعالم بعدم إنكاره وهذا الاحتمالان إنما هما فيما لم يتفق عليه أنه منكر ، ومن تولى أحدا على قلة علم بالولاية والبراءة ولما خالطه أو سمع بحاله السابق على حين ولايته عرف أنه لا يستحقها أبقاه عليها واستتابه ، فإن لم يتب برىء منه ..)) . (82)

وظل طلية الباب الأول يقلب النظر والوجوه والآراء والأدلة على مسائل الولاء والبراءة حتى استوفاها ، لتخرج لنا فردا ومجتمعا مسلما سليما معافى بريئا من كل أدران الشرك والكفر والنفاق . (83)

وفي الباب الثاني تناول الذنوب والتوبة منها مبينا أنه : ((.. من عمل حسنات وسيئات كتبت وجوزي بأيها أكثر وهو ظاهر الأحاديث ، وقيل إذا عمل حسنة ثم سيئة محت السيئة الحسنة ، واختلف في حسناته حال الإصرار ، قيل تكتب ولو مات مصرا وإنما النظر إلى ما هو أكثر ، وقيل لا تكتب حسناته حال إصراره الذي مات عليه ، وقيل لا

تكتب مطلقا، والمشهور عندنا في المغرب أنه من مات مصرا بطل عمله كله ؛ وإن مات تائبا رد الله له عمله كله ، ولو ما عمل في الإصرار وأثابه مكان كل ذنب حسنة من حيث أنه تاب عنه ؛ وقيل يعوض في مستقبل عمره ، ويضاعف له في عمله حتى يجتمع له مثل ما أحبط من عمله ..)) . (84)

ثم انطلق يتكلم عن الكبائر والتوبة منها ، والكبائر الموجبة للهلاك الدنيوي والأخروي ، وأعذار الخطإ والنسيان وما استكره عليه المكلف ، وموت المسرف والتائب والمصر والعاصي والمقترف للكبائر .. ووقت التوبة وتسويفها ومدتها ، معددا الكبائر وعلى رأسها الجهر بالمعصية وإظهارها لقوله **صلى الله عليه وسلم** : [اشتد غضب الله على من ستر عليه ذنبا فأفشاه] .

وفي معرض تناوله أقذر الذنوب عدّ ظلم المرأة صداقها والأجير أجره من أقذر الذنوب ، وعند تناوله الصغائر عدّ التعري بالخلوة أو في الظلمة ؛ وقيل إلاّ لضرورة الحر ، وأخذ حبة ثمرة أو حطية أو نبات من مال أحد ولبس ثوبه وركوب دابته واستعمال خادمه يسيرا ووطء حرثه وقعود على سريره أو حصيره وكتابة من دواته وبقلمه وقطعة قرطاس له وسقي بدلوه وزجر على دابته وشرب من إنائه .. ثم يبين رأيه قائلا :

((.. والذي عندي أنه يحكم على ذلك بأنه صغير إذا لم يعلم الرضى أو المنع من صاحبه وأنه في نفس الأمر إما حلال لرضى صاحبه وعدم تغير قلبه ، وإما حرام لعدم الرضى لو علم بذلك فكان قصده إلى ذلك وفعله بحيث يعتاد الرضى في مثله مع احتمال عدمه صغيرة ..)) . (85)

ثم ختم الباب بالتوبة من الصغائر والكبائر ووجوبها مبينا أثر التوبة والمبادرة إليها وعدم الاستخفاف بها ، موضحا أثر المسارعة في التوبة . عاكفا القول على الباب الثالث الذي فيه شروح وافية على عمل الباطن من تواضع وخوف وحذر من الخالق سبحانه وتعالى ، ووجوب مراقبة العبد لربه والاستحياء منه وعدم عصيانه لأنه مجلبة للحياء الحقيقي من الله تعالى ، مبينا آثار عمل الباطن لاكتساب رضوان الله تعالى ، وختم بابه

راويا عن : ((.. رسول الله **صلى الله عليه وسلم** قوله : " أقربكم مني غدا أكثركم جوعا وتفكرا " والتفكر نصف العبادة والجوع العبادة ، أي أجرد كأجر العبادة أو العبادة لا تصغو إلاّ به والله أعلم . ويجب إحسان الظن بالله ، قال الله عز وجل : " أنا عند ظن عبدي بي فليظن عبدي بي ما شاء فلا تظنوا إلاّ خيرا " وقيل حسن الظن بالله هو الإحسان المأمور به في نحو : " وأحسنوا إن الله يحب المحسنين " وهو فرض متعبد به ، ويجوز أن يكون معنى : " أنا عند ظن عبدي " إن منزلته عندي على قدر ظنه بي ، فإن ظن أني لا أضيع عمل عامل فعمل راجيا فمنزلته عندي الثواب ، وإن ظن أني أضيع فأيس فمنزلته العقاب عمل أو لم يعمل ، فليختر لنفسه ما شاء من المنزلتين ، وأن يكون المعنى أنا عند قوة رجائه إياي فليظن بي ما شاء مما يرجوه من الغفران فإني أغفر له إذا دعاني ولو بلغت ذنوبه ما بلغت ، وأن يكون المعنى عندي كما ظنني عند احتضاره أو رحمه أو لا أرحمه وأن يكون المعنى أني قادر على كل ما ظن عبدي بي من خير وشر ، ويحتمل أن يكون المعنى إظهار أمارة الرجاء والميل إليه بعض ميل ويدل له أن يحي قال لعيسى **عليهما السلام** : " تلقاني ضاحكا كأنك آمن " وقال له عيسى : " تلقاني باكيا كأنك آيس " فأوحى الله تعالى إليهما : " إن حبكما إلي أحسنكما ظنا بي " . والله أعلم)) . (86)

ثم انتقل إلى باب الأولياء فأثنى على نبينا محمد **صلى الله عليه وسلم** فهو خير خلق الله أجمعين ، ثم ثنى بأبي بكر وعمر ، مدعما مذهبه بالأدلة من السنة النبوية المطهرة ومن إجماع الأمة في القرون الهجرية الثلاثة الأولى ، ولم يتم الحديث عن بقية الخلفاء الراشدين وتوقف عند عثمان وعلي **رضي الله عنهما** ولم يذكرهما بشيء ، متجاهلا لأسباب معروفة ، أو ناسيا وهو ما وجه له ، أو تقية وهو من مترجحات بعض علماء الإباضية تاريخيا ، أو رآه مخرجا مذهبيا جديدا يناسب معطيات العصر الراهن . ثم عطف بالحديث عن أفضل الناس البدريين ثم أهل أحد والخندق ، ثم أهل الحديبية ، ثم من هاجر وأسلم بعد الفتح .. ثم ساق حديث الأبدال والأقطاب والنجباء والأوتاد والنقباء والعرفاء من حديث ضعيف رواه أبو نعيم في الحلية . (87)

ثم تناول في الباب الخامس البعث والنشور والموت والحياة الدنيا والآخرة ، وفي الباب السادس اللباس والزينة والإناء والدهن والطيب والزينة ، وفي الباب السابع تناول التفث والختن والسواك ، وفي الباب الثامن الأكل والشرب والنوم والتمتع والترفيه ، وفي الباب التاسع تناول الأدب ، عادا الأدب هو التشرع بالأمر الشرعي ، والاقتداء بالأدب النبوي مهم جدا لموافقة الدين والاستئناس بالشريعة ، متوسعا في ضرب الأمثلة عن الآداب في الإسلام التي كان يعدها من الدين وتركها من ترك الدين ، وفي الباب العاشر تناول مسائل الطب والتنحية والتداوي وحكمهما وكل ما يتصل بهما ، حاشدا الآيات والأحاديث الدالة عليها . ثم تناول في الباب الحادي عشر مسألة العفو والوصل وواجبات المسلم نحو أخيه المسلم . وفي الباب الثاني عشر آداب الإذن والتحية والسلام وعلاقة المرأة بالرجل . وفي الباب الثالث عشر تناول النية ، مفرعا الأقوال والأدلة حول النية في الأصول والفروع . وختم هذا الكتاب بباب الأموال والحجر على السفهاء والبيوع والديون والإجارة والضمان ... (88)

3 – الكتاب الثالث : في الطهارة ولواحقها :

تناول في الكتاب الثالث أحكام الطهارة والمياه ، ففي الباب الأول تناول بنى الحيوان ، متحدثا عن نجاسة الكفار المادية والمعنوية ، وأنواع المياه وطهارتها ، وفي الباب الثاني تناول نجاسة المائع ، وفي الباب الثالث تناول نجس الغبرة والدخان والنار والريح ، وفي الباب الرابع تناول أدب قضاء الحاجة والاستنجاء بالحجارة ونحوها . وتناول في الباب الخامس التطهير وفي السادس الطهارة من الجنابة ، وفي الباب السابع تناول أحكام الوضوء والمسح على الجبيرة والعصابة ، وفي الباب الثامن تناول أحكام التيمم وأحكام نواقض الوضوء والغسل ، وفي الباب التاسع تناول الحيض والاستحاضة ودم العادة وغير العادة وأحكام النفاس والولادة وما لها صلة بالعبادات ونحوها . وتناول في الباب العاشر أحكام الجنائز من غسل وحنوط وتكفين ونعش وحمل وسير وصلاة ودفن وحكم القبور والنياحة والحزن ومنكر ونكير وزيارة القبور ، مستشهدا بقول رسول الله **صلى الله عليه وسلم** :

[من تكلم في خمسة واضع كلام الدنيا أحبط الله تعالى عمله أربعين سنة : في المسجد ، وعند قراءة القرآن ، وذكر العلماء ، والأذان ، والمقبرة ، إلاّ إن تاب ولو بعد أربعين سنة] . وختم كتابه بالحديث عن منكر ونكير وعذاب القبر . (89)

4 – الكتاب الرابع : الصلاة :

وجاء الكتاب الرابع عن الصلاة وأحكامه وقد ضم عشرين بابا ، تناول في الباب الأول منه أحكام الصلاة وعددها وعلى من فرضت وصلاة الحضر والسفر وسننها ونوافلها وواجباتها وأركانها وما له صلة بالصلاة . وتناول في الباب الثاني أحكام الأذان والإقامة ورباعية الأذان عند الإباضية في الله أكبر . وتناول في الباب الثالث أحكام أوقات الصلاة ومسألة الوقت الاختياري والاضطراري والأوقات التي لا تجوز فيها الصلاة . وتناول في الباب الرابع القبلة وحدودها وكيفيات استقبالها . كما تناول في الباب الخامس موضع الصلاة ومكانه الجامع والمسجد وعموم الأرض . كما تناول في الباب الخامس لباس المصلي للصلاة.

وفي الباب السابع تناول التوجيه والإحرام ورفع اليدين في تكبيرة الإحرام والخلاف المذهبي في المسألة . وفي الباب الثامن تناول القراءة المجزية في الصلاة . وفي الباب التاسع تناول الركوع والرفع منه وحكم رفع اليدين أو عدمهما وكيفية الرفع من الركوع . وتناول في الباب العاشر السجود وما ورد فيه من الأذكار والأدعية . وتناول في الباب الحادي عشر التحيات والتسليم والخلاف المذهبي في عدد التسليمات وحكم التسليم وراء الإمام . كما تناول في الباب الثاني عشر سجود السهو وأسبابه والخلاف فيه . وتناول في الباب الثالث عشر الدعاء خلف الإمام وأثناء الصلاة . وتناول في الباب الرابع عشر القنوت في الصلاة من عدمه . وفي الباب الخامس عشر تناول سجدة التلاوة وعددها والمشهور عند الإباضية . وتناول في الباب السادس عشر أحكام ترك الصلاة وقطعها والخروج منها بسبب وحكم من دخل الصلاة على غير شروطها وجوازها . وتناول في الباب السابع حكم تارك الصلاة وصلاة غير المطمئن وصلاة الماشي والراكب وأهل السفينة وصلاة المريض . وفي

الباب الثامن عشر تناول صلاة المرأة والخنثى المشكل . وتناول في الباب التاسع عشر صلاة الجماعة وحكم إمامة غير البالغ والأعرابي والقاعد والمفضول ، وحكم من نسي صلاة وتذكرها وتعدد الجماعة في مسجد ، وحكم صلاة النساء جماعة وسائر أحكام الصلاة كالإنصات للإمام وتعمد سبق الإمام وتنبيه الإمام وصلاة المسافر خلف المقيم والقصر .

وختم الكتاب الرابع الذي هو خاتمة الكتاب كله بكلمة الناشر الشيخ أبو إسحاق اطفيش الصغير بكلمة تقريظية منه ودعاء واستجلابا للرحمة والرضوان والنفع .(90)

* **خاتمة :**

لقد كان للشيخ اطفيش دور بارز في نهضة البيئة الميزابية ، فكريا واجتماعيا ، نظريا وواقعيا ، وكان من الرجال الذين تركوا بصماتهم بارزة في تاريخ الجزائر عموما ، فهو كما يقول الدكتور محمد ناصر بوحجام في مقدمة كتاب الأستاذ مصطفى ونتن : ((.. أن الشيخ اطفيش له الفضل الكبير في بعث الفكر الإباضي من جديد في مطلع القرن العشرين الميلادي الرابع عشر الهجري ، فجمع آراء من سبقه ، ورتبها وشرحها وحللها ، ومثّل هذه المدرسة خير تمثيل ، وبقي بذلك مرجعا أساسيا فيها ، وقد كتب الشيخ في معظم المسائل المتعلقة بالعقيدة ؛ إذ يلحظ القارىء أو الدارس أن مباحث العقيدة حاضرة في أغلب ما كتب من رسائل وألف من كتب في مختلف العلوم ، فكان يعمد إلى جعل تصحيح العقيدة سبيلا للنهوض ببيئته ومجتمعه ، وكان تأثره بالاستعمار وبالأوضاع المحيطة به دافعا لأن يبحث في مسائل العقيدة لتحقيق التغيير المنشود ، وهو ما جعله يُحقق وصف العقيدة بكونها عملا حقيقيا ، وليست مجرد تصورات وتصديقات غير مؤثرة .)) . (91)

وهو الذي جعل المذهب الإباضي فضاءا أصوليا ودينيا مفتوحا للمذاهب الأخرى للتطلع عليه أو لتأخذ منه ، بمنهجه السليم في الفهم والتحليل والتركيب والعرض ، البعيد عن التعقيدات والطلاسم حتى في أمهات القضايا الغيبية ، وهو ما جعل العقيدة تتحرك في النفوس والحياة ، لا في الكتب والمصنفات فقط .

مسـرد الإحـالات

(1) انظر : أبو القاسم سعد الله ، أبحـاث وآراء في تاريخ الجزائر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1990م ، ج 1 ، ص 13 ... 42 . وأيضا أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1985م .

(2) محمد الصالح الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دون طبعة ، 1984م ، ج 3 ، ص 535 .

(3) انظر : تركي رابح ، ابن باديس الإصلاح التربوي في الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة 1 ، 1969م ، ص 124 ... ومحمد مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر بين القديم والحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1968م ، ج 1 ، ج 2 .

(4) انظر المرجع السابق نفسه ، ص 125 و 126 ، بتصرف .

(5) أبو القاسم سعد الله (دكتور) ، تاريخ الجزائـر الثقافـي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1985م ، ج 1 ، ص 273 ..

(6) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 273 .. 286 ، بتصرف .

(7) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 273 .. 286 .

(8) أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، مطبعة البليدة ، الجزائر ، الطبعة الثانية ، 1963م ، ص 304 .

(9) تركي رابح ، ابن باديس ، ص 126 .

(10) المرجع السابق نفسه ، ص 129 .

(11) المدني ، كتاب الجزائر ، ص 283 .. 304 .

(12) عبد الحميد زوزو ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائـر الحديث 1800م-- 1900م ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1986م ، ص 210 .

(13) تركي رابح ، ابن باديس ، ص 127 . والجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج 3 ، ص 537 و 538 .

(14) انظر : أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر : ص 284 . ولمزيد من الاطلاع حول تاريخ الحواضر العلمية الثلاث : (الأزهر . الزيتونة . القرويين) انظر مثـــــلا المراجع التالية : الطاهر الحداد . التعليم الإســـــلامي وحركـــة الإصـــلاح في جامع الزيتونة ، الشركة التونسية للنشر ، تونس ، دون طبعة ، دون تاريخ ، ص 44 و45 . وأنور الجندي ، الفكـــــر والثقافة المعاصرة في شـــمال أفريقيا ، ص 138 و 139 . ومحمد كامل الفقي ، الأزهـــــر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة ، ص 13 ..

(15) إســـماعيل العربي ، الدراســـات العربية في الجزائـــر في عهد الاحتلال ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1983م ، ص 76 و 77 و 78 .

(16) سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 273 ..

(17) زوزو ، نصوص ووثائق ، ص 210 .

(18) تركي رابح ، التعليم القومي والشخصية الوطنية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1986م ، ص 54.

(19) عبد الحميد زوزو ، نصوص ووثائق ، ص 207 .

(20) المرجع السابق نفسه ، ص 208 .

(21) المرجع السابق نفسه ، ص 208 .

(22) الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج 3 ، ص 535 .

(23) ذكر الأستاذ أحمد توفيق المدني تاريخا مقاربا لهذا التاريخ هو 1848/08/16م في كتابه القيم كتاب الجزائر ، ص 239 .

(24) عبد الحميد زوزو ، نصوص ووثائق ، ص 214 .

(25) أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 247 .

(26) تركي رابح ، التعليم القومي والشخصية الوطنية ، ص 140 ، بتصرف .

(27) المرجع السابق نفسه ، ص 125 ، بتصرف .

(28) المرجع السابق نفسه ، ص 125 ، بتصرف .

(29) تركي رابح ، ابن باديس ، ص 145 ، بتصرف .

(30) تركي رابح ، التعليم القومي ، ص 43 ، بتصرف .

(31) سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، ص 63 ، بتصرف .

(32) تركي رابح ، ابن باديس ، ص 154 ، بتصرف .

(33) أبو العيد دودو ، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1975م ، ص 13 .

(34) الجيلالي ، ج 3 ، ص 513 . والمدني ، كتاب الجزائر ، ص 314 . وكوليت فرانسيس جاكسون ، الجزائر الثائرة ، ترجمة : علوي الشريف وآخرون ، دار الهلال ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1957م ، ص 41 . نقلا عن : تركي رابح ، ابن باديس ، ص 44 و 45 .

(35) تركي رابح ، ابن باديس ، ص 47 ، بتصرف . ولمزيد من الاطلاع على تطور عدد الكنائس المسيحية في الجزائر انظر : عبد الحميد زوزو ، نصوص ووثائق ، ص 233

(36) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش العقدية ، جمعية التراث ، القرارة ، 1417هـ 1996م، ص 18 و 19 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(37) نظام العزابة : تنظيم اجتماعي خاص بالمجتمع الإباضي في المغرب أساسه المحافظة على المجتمع بعد انتهاء حكم الرستميين سنة 296هـ أسسه أبو عبد الله محمد بن بكر بإرشاد من شيخه أبي زكرياء فصيل بن أبي مسور ، ابتدأ النظام على شكل حلقة تعليمية، ثم تطور حتى أصبح له سند اجتماعي قوي جعلها تقود المجتمع ، وتركت أثرا واضحا في نشاط الحركة العلمية الحضارية للمجتمعات الإباضية خاصة في ليبيا وجربة ووادي ميزاب. نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش العقدية ، جمعية

التراث ، القرارة ، 1417هـ 1996م ، ص 20 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(38) أبو عبد الله محمد بن بكر : من علماء القرن الرابع وبداية الخامس الهجري العاشر الميلادي أصله من جبل نفوسة بليبيا، تعلم في جربة وتولى التدريس والدعوة ، وانتقل إلى جبل نفوسة وجربة ووادي ريغ وورجلان ووادي ميزاب ، توفي في بلدة عمر . نقلا عن: مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، جمعية التراث ، القرارة ، 1417هـ 1996م ، ص 20 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(39) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، جمعية التراث ، القرارة ، 1417هـ 1996م، ص 20 و 21 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(40) أبو زكريا يحي بن صالح الأفضلي 1120-1202هـ من أوائل من قام بالنهضة في وادي ميزاب ، ثم انتقل إلى جربة بتونس وبقي فيها متعلما مدة طويلة ، ثم رجع إلى وطنه مدرسا ومصلحا اجتماعيا ، وقد لقي معارضة شديدة ، ولم يترك مؤلفات تذكر ، وتخرج على يديه من حمل أفكاره ونشرها ، توفي ودفن في بني يزقن .

(41) عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد العزيز بن عبد الله التميمي توفي سنة 1130هـ أصله من بني يزقن ، انتقل مع والده إلى ورجلان وبها تعلم وعمل في تجارة أبيه ، ثم تركها ليلتحق بمدرسة أبي زكريا فكان من أبرز تلاميذه ، ترأس مجلس العزابة ثم مجالس وادي ميزاب عامة ، أصبحت كتبه معتمدة المذهب الإباضي وخاصة كتاب # النيل وشفاء العليل # و # معالم الدين # و # التكميل لما أخل به كتاب النيل # .

(42) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 23 و 24 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(43) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 24 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(44) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 18 و 19 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(45) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 25 و 26 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(46) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 28 و 29 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(47) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 25 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(48) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 43 و 44 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(49) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 44 و 45 و 52 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية . ولهؤلاء ترجمة وافيه في المصدر المعتمد ، وفي الأعلام للزركلي .

(50) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 49 و 50 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(51) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 50 و 51 و 55 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(52) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 61 و 62 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(53) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 61 و 62 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(54) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 61 و 62 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(55) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 63 و 64 و 65 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(56) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 64 و 65 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(57) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 58 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(58) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 59 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(59) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 59 و 60 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(60) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 60 و 61 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(61) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 30 .. 41 ، بتصرف . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية .

(62) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص ج و د ، بتصرف .

(63) الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش [1304-1358هـ / 1886-1965م]

ولد الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج محمد اطفيش ببلدة بني يزقن سنة 1886م في حضن عائلة كريمة عريقة في العلم ، فيها عمه العالم قطب الأئمة الشيخ امحمد ابن يوسف اطفيش ، الذي كان له الفضل في تبوئه المكانة العلمية ، وعن عمه كتب فقال: (ولما لقطب الأئمة – مجتهد أوانه شيخنا عمنا محمد بن يوسف اطفيش — من الأيادي علينا ، وعلى يده الكريمة اقتبسنا من نور العلم ، واغترفنا من العرفان ، أهدي كتابي هذا إلى روحه الزكية الخالدة في روضات الجنات قياما ببعض الواجبات ..) .

وقد تعلم في مدارس قريته فحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ الزرواني عمر بن أحمد وعمره لم يتجاوز الحادية عشر ، وعلوم العربية ومبادىء الإسلام على يد الشيخ الحاج إسماعيل بن الحاج إبراهيم زرقون . ثم انصرف بعد المرحلة الابتدائية لمزاولة التجارة بالجزائر العاصمة ، ولكنه لم يأنسها ، وعلم أنه خُلق للعلم والمعرفة فلحق بحلقات الشيخ العلامة عبد القادر المجاوي أبرز علماء الجزائر وقتها الذي كان يُلقب بشيخ الجماعة ، ثم عاد إلى مسقط رأسه يطلب العلم على يد عمه القطب فترة حتى شدا ، وحدثته نفسه بطلب المزيد فشد الرحال إلى جامع الزيتونة المعمور طالبا للعلم .

وفي عام 1917م توجه إلى تونس ، وكانت الزيتونة والصادقية والخلدونية وتونس كلها قبلة للعلم والفكر والأدب والثقافة فنهل من أكابر علمائها وأخذ عن الجمع الغفير منهم من أمثال الشيخ : [محمد النخلي القيرواني ، وعثمان بلخوجة ، ومحمد الطاهر بن عاشور ..] ، وكان شيخه في الفقه يعود إليه في مسائل المقارنة الفقهية بين المذاهب عموما وبين المذهب الإباضي خصوصا ، وأفاد من ذكائه وسعة حافظته ودقة ملاحظاته وعميق فمهمه ومقارناته لذاته وأساتذته ، فضلا عن تحمله مسؤولية مراقبة ومتابعة البعثة الميزابية بتونس رفقة صديقيه عبد العزيز الثميني وإبراهيم أبو اليقظان .

وفي تونس انخرط هو وصديقه أبو اليقظان في الحركة السياسية الوطنية المغاربية ، التي كانت تدعو لوحدة المغرب العربي واستقلاله ، وكتبا سلسلة من المقالات المنشورة في الصحف الجزائرية والتونسية ، ثم طبع الشيخ أبو اليقظان مقالاته تلك في كتاب أصدره بتونس سماه [إرشاد الحائرين] ، وطبع الشيخ أبو إسحاق اطفيش مقالاته تلك في كتاب بمصر في المطبعة السلفية سنة 1923م وسماه [الدعاية إلى سبيل المؤمنين] .

وضمن صفوف حزب الدستور التونسي الحر الذي كان يتزعمه المصلح الأديب الشيخ [عبد العزيز الثعالبي ت 1944م] انخرط الشيخ رفقة إخوانه من الجزائريين ، وكان صلة الوصل بين الشيخ عبد العزيز الثعالبي والأمير خالد سنوات 1917-1923م . ولما قوي نشاطهم نفت الإدارة الاستعمارية الشيخ الثعالبي ورفيقه الشيخ أبا إسحاق

إبراهيم اطفيش إلى مصر ، وهكذا يُنفى من بلده الجزائر إلى تونس ، ومنها إلى مصر . وكان نفيه إلى أرض الكنانة خيرا عليه وعلى أمته ، لأنه في مصر حمل لواء العلم والجهاد ضد الاستعمار ، وفي القاهرة تهيأت له سبل الطلب والاستزادة العلمية والثقافية والسياسية ، فكانت القاهرة بفضائها السياسي والثقافي الرحب خيرا عليه وعلى أمته ، وعمل محققا بدار الكتب المصرية ، ونفض الغبار عن التراث الفقهي والفكري الإسلامي المغاربي ، وفي مصر حقق المصادر التالية :

1 – طبع أجزاء من كتاب [شرح كتاب النيل] . 2 – [الذهب الخالص في الفقه] . 3 – [شرح عقيدة توحيد العزابة في أصول الدين] . 4 – [كتاب الملاحن] لابن دريد . 5 – [شامل الأصل والفرع في الفقه] ، ألفه القطب بعد بلوغه درجة الاجتهاد. 6 – [الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب] ، معتمد الإباضية في الحديث . 7 – [جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام] لعبد الله بن محمد السالمي العماني . 8 – [تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان – تاريخ عمان] . 9 – [تحقيق تفسير الإمام القرطبي المالكي] . وغيرها ، ولاسيما كتاباته في مجلة [المنهاج] للداعية الإسلامي الكبير محب الدين الخطيب سنوات 1925-1930م . التي فضح فيها الاستعمار ، وعرّف المشارقة بالمغرب العربي وأقليمه [تونس ، الجزائر ، المغرب ، شنقيط] .

* **وفاته** : وقد عانى رحمه الله من الكثير من الأمراض ، وقد تقدم لإجراء عملية جراحية فوافاه الأجل إثرها يوم 20/شعبان/1385هـ الموافق 1965/12/13م ، بعد عمر حافل بالجهاد الإسلامي الصادق في سبيل إعلاء كلمة الله ، وصلى عليه في جامع المنطرية الشيخ الفاضل [محمد المدني] عميد كلية أصول الدين بالأزهر ، ثم شيعت جنازته في موكب مهيب حضره العلماء ورجال الفكر ، ووري جثمانه في مقبرة آل الشماخي بالقاهرة كما رغب بذلك وأوصى به.

(64) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، تحقيق وطبع أبو إسحاق إبراهيم اطفيش الجزائري ، دون دار ، دون مدينة ، دون طبعة ، دون تاريخ ، مقدمة الطابع ، ص د .

(65) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، تحقيق وطبع أبو إسحاق إبراهيم اطفيش الجزائري ، ج 1 ، ص هـ .

(66) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ص هـ .

(67) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص هـ ، و .

(68) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 3 .

(69) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 5 و 6 و 7

(70) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 7 و 8 .

(70) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 7 و 8 .

(71) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 8 و 9 .

(72) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 9 و 10

(73) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 12 .

(74) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 13 .

(75) انظر: محمد بن يوسف اطفيش، شامل الأصل والفرع، ج1، ص13 .. 18، بتصرف .

(76) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 18 .. 22

(77) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 23 .. 26

(78) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 27 .. 56

(79) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 56 .

(80) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 56 .

(81) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 57 و 58 .

(82) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 58 و 59

(83) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 58 و 59 و 59 و 60 .. 67

(84) انظر: محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 68 .. 70

(85) انظر: محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 70 .. 74

(86) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 81 .

(87) انظر: محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ج 1 ، ص 82 .. 85

(88) انظر: محمد بن يوسف اطفيش، شامل الأصل والفرع، ج 1 ، ص 85 .. 168

(89) انظر: محمد بن يوسف اطفيش، شامل الأصل والفرع، ج 1 ، ص 169.. 287

(90) انظر : محمد بن يوسف اطفيش ، شامل الأصل والفرع ، ص ج 2 .

(91) نقلا عن : مصطفى وينتن ، آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ص 23 و 24 . وبدوره نقلا عن مصادر ومراجع إباضية ، مقدمة الأستاذ محمد الناصر بوحجام للرسالة .

شرح كتاب النيل وشفاء العليل للإمام الهفيش

- دراسة في المنهج والمحتوى -

أ . د. سعاد سطحي

أستاذ التعليم العالي بجامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية، قسنطينة .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام عل المبعوث رحمة للعالمين، سيد الأولين والآخرين، محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإن شرح كتاب النيل وشفاء العليل من الأسفار العلمية المانعة التي تستحق الدراسة، والعناية من الباحثين لاسيما من المختصين في الفقه الإسلامي، وذلك لما حواه من كنوز علمية دقيقة، ونفائس فقهية عميقة، تسترعي الانتباه، وتشد الباحثين والدارسين إليها، مما جعلنا ندلي بدلائنا لنرتشف من معين رضابه؛ ونقف ممحصين على أعتابه، مبتدئين بنبذة وجيزة عن حياة صاحبه فنقول إنه: قطب الأئمة محمد بن يوسف هو محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح اطفيش، ينتهي نسبه إلى عمر بن حفص الهنتاني جد العائلة الحفصية المالكة في تونس، وهو من قبيلة المصامدة الماجدة في جنوب المغرب الأقصى : مجتهد، من أكابر العلماء بالفقه و الأدب و اللغة و التفسير، و من رجال النهضة الإصلاحية الحديثة بالجزائر.

ولد في بني يسقن سنة 1236 هـ ـ 1820 م ، و بها نشأ و تعلم. سافر إلى الديار المقدسة مرتين و كان يؤلف و هو في السفينة. عكف على التدريس و التصنيف و الوعظ

و الإرشاد إلى أن وافاه الأجل في مسقط رأسه وعمره ستة و تسعون عاما سنة (-1332هـ -1914م). [1]

وإن الشيخ احمد بن يوسف اطفيش من العلماء الذين تركوا وراءهم زخما فكريا كبيرا ، وذلك بتأليفه للعديد من الكتب ، وقال عنه تلميذه أبو اليقظان : " لا يعرف إلا في تدريس علم أو تأليف كتب." [1]

ومما تركه في الفقه كتاب شرح كتاب النيل وشفاء العليل وهو موسوعة فقهية جامعة لآراء المذاهب الإسلامية ، يقارن فيها بين الأقوال بروح متفتحة ، ويرجح ما يراه بالحجة و الدليل ، هذا الكتاب معتمد الإباضية في الفقه ، طبع مرارا ، و بواسطته تعرف العالم الإسلامي على الفقه الإباضي ، واعتمدته لجان موسوعات الفقه الإسلامي في مصر و الكويت .

نظمه الشيخ البطاشي العماني في 124 ألف بيت ، سماه :" سلاسل الذهب في الأصول و الفروع والأدب " ، مطبوع .

كما أن جمعية التراث تجتهد لإعداد الفهارس الشاملة لشرح النيل ، وقد طبعت الجزء الخاص بالفهارس التقنية ، و بقي فهرس المسائل الفقهية. [2]

وهذا الكتاب هو شرح لكتاب النيل وشفاء العليل للعالم العلامة الحبر الفهامة وحيد عصره وفريد زمانه الشيخ عبد العزيز الثميني (1130-1223هـ/1418-1808م)

وهو ضياء الدين عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني, ، ينتهي نسبه إلى عمر بن حفص الهنتاتي جد الأسرة الحفصية التي خلفت الموحدين في الملك. ولد في بني يزقن بوادي ميزاب و نشأ بورجلان.

---

[1]– الزركلي: الأعلام 8/ 32 و رضا كحالة: معجم المؤلفين 12/ 133 ، مجموعة من المؤلفين: معجم أعلام الإباضية 4/835-849.

1 مجموعة من المؤلفين: معجم أعلام الإباضية 4 / 839 .

2 المرجع نفسه 4 / 841 ــ 842 .

أسندت إليه مهمة مشيخة العزابة، من أبرز مؤلفاته كتاب النيل وشفاء العليل , وعقد الجواهر من بحر القناطر, ومختصر حواشي ترتيب مسند الربيع بن حبيب , والتاج على المنهاج , توفي يوم السبت 11 رجب 1223 هـ .[1].

ويعتبر كتاب النيل وشفاء العليل عمدة في الأحكام الفقهية بالمذهب الإباضي (المنتشر في شمال إفريقيا، وسلطنة عمان، وزنجبار، وغيرها من البلاد الإسلامية) ، شأنه في ذلك شأن مختصر خليل بن إسحاق الجندي في مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي، هذا الكتاب الذي كتب الله له القبول في الأوساط العلمية، ندب الله له عالما نحريرا وقطبا من أقطاب الثقافة الإسلامية ألا وهو الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش، الذي دبج يراعه شرحا نفيسا له سماه شرح كتاب النيل وشفاء العليل، فكان بحق شفاء للمصابين بداء النهم العلمي يجدون فيه ضالتهم، ويروون فيه عطشهم المعرفي، إذ يغترفون من كنوز بحاره الممتدة الشطآن، ويرتشفون من زلال معينه العلمي، ويفزعون له في حل معضلاتهم ونوائبهم الفقهية، ولعظيم مكانة هذا الكتاب تنافست دور النشر وتسابقت في الحصول على شرف قصب السبق في نشره وتوزيعه، فكانت الطبعة الأولى بالمطبعة البارونية بالقاهرة، إذ طبعته في عشر مجلدات من القطع الكبير ، وكانت طباعته مجزأة إذ طبعت الأجزاء السبعة الأولى منه متتالية ثم أردفت بالأجزاء الثلاثة المتبقية عام 1343 للهجرة، ثم قامت دار الفتح للطباعة والنشر ببيروت بالاشتراك مع مكتبة الإرشاد بجدة عام 1972 م بطبع الكتاب طبعة ثانية أنيقة ، تليق بمضمونه ومحتواه ، ثم أعادت مكتبة الإرشاد طبعه للمرة الثالثة في سبع عشرة مجلدا ، وكانت طبعة فاخرة ماتعة أنيقة .

---

[1]– عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ص 92-93 و رضا كحالة: معجم المؤلفين 239/5 ، مجموعة من المؤلفين : معجم أعلام الإباضية 532/3 – 536 .

إن شهرة القطب تقوم في المقام الأول على أنه فقيه مجتهد وهذا الاجتهاد قد برز بجلاء في شرحه متن النيل للعلامة عبد العزيز الثميني.

ويعتبر شرح كتاب شرح النيل وشفاء العليل موسوعة فقهية، فالقطب رحمه الله قد عالج فيه كل القضايا الفقهية بنظرة إسلامية تقوم على القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وآراء المذاهب الفقهية .

أما بالنسبة لمنهجه في شرح كتاب النيل فإنه يورد النص الأصلي من الكتاب للثميني ويقوم بالآتي :

1 ــ شرح المصطلحات الفقهية والألفاظ الغامضة:

ــ فعند تعرضه للنجش ، ضبط الكلمة حيث قال : " بفتح النون وإسكان الجيم (النَجْش) " ثم شرحها لغة حيث قال : " تنفير الصيد وإثارته من مكانه ليصاد، وقال ابن قتيبة : النجش الختل والخديعة، ومنه قيل للصياد : ناجش لأنه يختل الصيد ويحتال له." [3]

ــ وفي الكتاب الأول من الطهارات، يعرف الطهارة بقوله:

" صفة حكمية توجب لموصوفها إباحة الصلاة به أو فيه أو له ." [4]

ثم بعد ذلك قام بشرح التعريف حيث قال :

---

[3] - شرح كتاب النيل وشفاء العليل 8 / 183.

[4] **وعرّفها الإمام ابن عرفة (رحمه الله) بقوله:** «صفة حكمية توجب لموصوفها جواز استباحة الصلاة به أو فيه أو له ». الدردير : الشرح الكبير 54/1 - 55, و الآبي : الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني 35 , والحطاب : مواهب الجليل لشرح مختصر خليل 1 / 43 .

فالأولان من الخبث ، والأخيرة من حدث .

ومعنى حكمية أنه يحكم بها ويقدر قيامها بمحلها.

و به : أي بملامسة ، فيشمل الثوب والبدن والماء.

فيه : المكان ، أي مكان الصلاة ، حيث يشترط أن يكون طاهرا .

له : المصلي ، وهذه الطهارة تقابلها النجاسة .[5]

ـــ وفي باب الوضوء قال في تعريفه له :

" بضم الواو أي استعمال الماء لأعضاء مخصوصة، ومصدر وضوءٌ، وأمـــا بفتحهـــا: فاسم الماء الذي استعمل فيه ، وقيل بالعكس، وحكى خليل في المعنيين ، وغيره ضمها كذلك ، وهو شاذ ، ولغة : النظافة والبريق " [6]

2 ـــ قيامه بتدليل المسائل حيث يقوم بذكر الأدلة من الكتاب و السنة النبويـــة الشريفة :

أ ـــ استدلاله بالقرآن الكريم :

ـــ ففي الكلام عن فرائض الوضوء ، وتحديدا في غسل الأيدي قال : " ثم يمناه مـــن أعلى كفها وأعلاه رؤوس الأصابع لمرفقها، وفي ذلك غسل من أسفل للأعلى ، فـــإن

---

[5] – شرح كتاب النيل وشفاء العليل 1 / 73 .

[6] – شرح كتاب النيل وشفاء العليل 1 / 101.

أسفل اليد أطراف الأصابع وما ذلك إلا لقوله تعالى:" إلى المرافق" ، إذ جعل الغاية المرفق ، رفعلم أن البدأ الأصابع ، ولولا هذه الآية لكان البدء من المرفق".[7]

ـ وفي كتاب النكاح خلال كلامه عن المحرمات من النساء حرمة مؤبدة ومؤقتة استشهد بالآيات الواردة في سورة النساء من قوله تعالى [8]

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ﴾ النساء : 23.

﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ النساء : 23.

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ... ﴾ النساء : 22.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ النساء : 23

ـ وفي كلامه عن تحديد الأجل في عقد السلم ، اشترط الشيخ اطفيش رحمه الله أن يكون هذا الأجل بالأشهر القمرية، واستشهد على ذلك بقوله تعالى : " قل هي مواقيت للناس والحج " البقرة 189 . [9]

ب ـ استدلاله بالسنة النبوية الشريفة :

ـ وفي كلامه عن تثليث الوضوء استشهد بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه : " توضأ ثلاثا ثلاثا، وقال هذا وضوئي" [10].

---

7 - شرح كتاب النيل وشفاء العليل 1 / 101.

8 - شرح كتاب النيل وشفاء العليل 6 / 22.

9 - شرح كتاب النيل وشفاء العليل 8 / 660.

وهذا مأخوذ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنه- قال: جاء أعرابي إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يسأله عن الوضوء فأراه ثلاثا ثلاثا وقال: «هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدّى وظلم»[11].

وعن عثمان- رضي الله عنه-: «أن النبي- صلى الله عليه وسلم- توضأ ثلاثا ثلاثا»[12].

3 ــ عدم اقتصاره على ذكر فقه الإباضية فقد بل يذكر آراء بقية العلماء:

فبعد ذكر الشيخ اطفيش رحمه الله لحرمة فعل النجش أردف ذلك بما ذكره كل من الإمامين ابن العربي وابن عبد البر (رحمهما الله) إلى أنّ التحريم يكون في حالة ما إذا كانت الزيادة فوق ثمن المثل، أما إذا وجد شخص بائعا يبيع سلعته بأقل من ثمنها الحقيقي فله أن يقوم بفعل النجش لكي يرفع الغبن عن البائع ويوصل السلعة إلى ثمنها الحقيقي ويعتبر هذا الفعل خيرا يؤجر عليه. [13]

---

[10] - شرح كتاب النيل وشفاء العليل 1 / 109.

[11] ابن ماجه: السنن كتاب الطهارة وسننها باب: ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي 146/1، وأحمد: المسند 375/2.

[12] مسلم: الجامع الصحيح كتاب الطهارة باب: فضل الوضوء والصلاة عقبه 207/1، وابن ماجه: السنن كتاب الطهارة وسننها باب: ما جاء في الوضوء مرة ومرتين وثلاثا 145/1.

[13] - شرح كتاب النيل وشفاء العليل 8 / 185، يراجع ما ذهب إليه الإمامان المالكيان في كتاب فقه المعاملات المالية وأدلته عند المالكية (دراسة مدعّمة بقرارات المجامع الفقهية) للأستاذين الدكتورين سعاد سطحي و نصر سلمان 63.

4 ــ ذكره للخلاف الفقهي :

ففي مسألة المقدار الواجب مسحه من الرأس هل كل الرأس أو بعضه وهل يحد بالربع أو بالثلث أو بضعفه؟ قال : " في المسألة خلاف عند بعضنا وعند غيرنا" [14]

5 ــ ترجيحه ما يراه صحيحا :

فبعد إيراده لما ذهب إليه الإمامان المالكيان ابن العربي وابن عبد البر (رحمهما الله) بأنه إن بلغها الناجش قيمتها ورفع الغبن عن صاحبها فهو مأجور .

رد على ذلك وقال : " قلنا هذا غلط بل يعصي بهذه الزيادة ، إذ ليس من النصيحة إيهام إرادة البيع، وإيقاع المشتري في ضر بل يكفيه أن يقول للبائع : إن قيمة سلعتك أكثر مما أعطاك ، بل الظاهر أن لا يقول له ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم "دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض، فإذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه" .[15]..... " [16]

وهذا ما أيده الإمام ابن حجر (رحمه الله) بقوله : "وفيه نظر إذا لم تتعين النصيحة في أن يوهم أنه يريد الشراء وليس من غرضه بل غرضه أن يزيد على من يريد الشراء أكثر مما يريد أن يشتري به، فللذي يريد النصيحة مندوحة عن ذلك أن يعلم البائع بأن قيمة سلعته أكثر من ذلك ثم هو باختياره بعد ذلك، ويحتمل أن لا يتعين عليه إعلامه بذلك حتى يسأله[17] "

---

[14] - شرح كتاب النيل وشفاء العليل 1 / 119.

[15] النسائي، كتاب البيوع، باب : "بيع الحاضر للبادي"، 293/7.

[16] - شرح كتاب النيل وشفاء العليل 8/ 184.

[17] فتح الباري، 356/4.

وهذا ما ذهب إليه الإمام ابن عبد السلام (رحمه الله) المالكي وقال بأن ذلك يعتبر إتلافا لمال المشتري لا سيما وأنّ الناجش لا يرغب في الشراء.[18]

ـــ وبعد ذكره للخلاف الفقهي في مسألة المقدار الواجب مسحه من الرأس ، يقـــول :" وهذا والأول هما أظهر الأقوال." [19]

ـــ وفي كتاب البيوع ختم كلامه في مسألة بيعتين في بيعة بفائدة أورد فيها بأنـــه لا يحكم الحاكم بالبيع المكروه للثمن أو المثمن أو بصفة في العقد ، فخالف ذلك بقوله : " يجوز له الحكم في كل ما لم يحرم ، والله أعلم." [20]

6 ـــ بيانه لاتفاق العلماء :

ففي مشروعية عقد السلم أورد اتفاق الفقهاء على مشروعيته ، حيـــث يقـــول : " واتفقوا على أن السلم مشروع بخصوصه من سنة النبي صلى الله عليـــه وســـلم [21] فنعلم بأنه داخل في عموم قوله تعالى : " وأحل الله البيع " البقرة 275 ". [22]

---

[18] شرح الزرقاني للموطإ، 2/152-153، والخرشي على مختصر خليل، 5/82-83.

[19] – شرح كتاب النيل وشفاء العليل 1 / 119.

[20] – شرح كتاب النيل وشفاء العليل 8/ 140.

[21] عن ابن عباس ﷺ قال : "قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث، فقال : من أسلف في شيء ففي كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم". البخاري، كتاب السلم، باب : "السلم في كيل معلوم" وباب : "السلم في وزن معلوم" بالفتح،4/429.

[22] – شرح كتاب النيل وشفاء العليل 8 / 632.

7 ــ ذكره لما انفرد به بعض العلماء :

يذكر الشيخ اطفيش في كتابه ما انفرد بعض العلماء ففي حديثه عن مشروعية عقد السلم يذكر مخالفة ابن المسيب لمشروعية عقد السلم حيث يقول : " إلا ما روي عن ابن المسيب من أنه غير مشروع أو غير جائز أصلا." [23]

8 ــ تأدبه مع العلماء :

فبعد ذكره لمخالفة ابن المسيب لجمهور العلماء في مشروعية عقد السلم يردف ذلك بقوله : " فإن صح ذلك عنه، فإنه لم تصله الأحاديث الصحيحة الواردة فيه." [24]

9 ــ استشهاده بالأبيات الشعرية :

ففي كلامه عن نكاح الشغار [25] أورد قول العاصمي :

والبعض للبعض هو الشغار وعقده ليس له قرار [26]

ونكاح الشغار منهي عنه بما أورده ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ نهى عن الشغار، والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوّجه الآخر ابنته ليس بينهما صداق.[27]

---

[23] – شرح كتاب النيل وشفاء العليل 8 /633.

[24] – شرح كتاب النيل وشفاء العليل 8 / 633.

[25] – الشغار لغة مأخوذ من الرفع ، وقد استعمل في النكاح، وذلك لرفع الصداق وخلوّه منه لسان العرب مادة : "شغر" 144/7، الصحاح 700/3. واصطلاحا "هو خلوّ البضع من الصداق" الرصاع : شرح حدود ابن عرفة، 261/1.

[26] – شرح كتاب النيل وشفاء العليل 6 / 322.

[27] البخاري، كتاب النكاح، باب : "الشغار" ــ بالفتح ــ 162/9.

الأبواب الفقهية التي يحتوي عليها شرح كتاب النيل وشفاء العليل

إن شرح كتاب النيل وشفاء العليل يشتمل على مختلف الأبواب الفقهية وهذا ما يتضح لنا بجلاء من خلال ما يأتي :

1. الجزء الأول في الطهارات .
2. الجزء الثاني في الصلاة ووظائفها.
3. الجزء الثالث في الجنائز .
4. الجزء الرابع ف الزكاة .
5. الجزء الخامس في الصوم .
6. الجزء السادس في الحج .
7. الجزء السابع الأيمان والكفارات.
8. الجزء الثامن الذبائح .
9. الجزء التاسع الحقوق.
10. الجزء العاشر في النكاح.
11. الجزء الحادي عشر في البيوع.
12. الجزء الثاني عشر في الإجارات وما معها.
13. الجزء الثالث عشر في الرهن.
14. الجزء الرابع عشر في الشفعة .
15. الجزء الخامس عشر في الهبة .
16. الجزء السادس عشر في الوصايا.
17. الجزء السابع عشر في الأحكام.
18. الجزء الثامن عشر في النفقات.

19. الجزء التاسع عشر في الدماء .

20. الجزء العشرون في الديات.

21. الجزء الحادي والعشرون في الفرائض .

22. الجزء الثاني والعشرون في الأفعال المنجية من المهلكة .

وفي الختام نحسب أننا قد أمطنا اللثام عن هذا الكنز الفقهي الثمين، وأبرزنا ما بذلـــه الشيخ اطفيش في هذا الشرح ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، وآخر دعوانـــا أن الحمد لله رب العالمين .

منهج الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش في بناء الفروع على الأصول

دراسة نظرية وتطبيقية

أ. مصطفى رشوم

العناصر:

ـــ الشيخ اطفيش ومكانته العلمية.

ـــ نظرة في تراث الشيخ اطفيش الفقهي.

ـــ تحديد مفهوم بعض المصطلحات الفقهية والأصولية: الأصول، الفروع، التفريع.

ـــ منهج القطب في تخريج الفروع على الأصول.

ـــ نماذج تطبيقية لبناء الفروع على الأصول عند الشيخ اطفيش.

ـــ خاتمـــة.

ـــ الشيخ اطفيش ومكانته العلمية:

يُعدّ الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش (1332هـ/1914م) من العلماء المجتهـــدين المجددين في المدرسة الفقهية الإباضية في القرن الرابع عشر الهجري، حيث تولى إمامة الفقه الإباضي وعمل على نشره، ويعود إليه الفضل في تعريف غير الإباضية بفقه المذهب مـــن خلال شرحه لكتاب النيل وشفاء العليل لعبد العزيز الثميني ، و تأليف سلسلة من الكتب الفقهية تستجيب لمختلف المستويات العلمية.

و لم يكتف الشيخ اطفيش بصياغة التراث من جديد وإعادة النظر فيه، بل تجـــاوز ذلك إلى المقارنة مع آراء المدارس الفقهية الكبرى، واجتهد في المسائل المـــستحدثة علـــى الأصول التي أقرها المذهب[1].

---

[1] ـــ التيواجني مهني بن عمر: أشعة من الفقه الإسلامي: الفقه والتشريع مدخلا وتاريخا ط:1 ، مطـــابع النهـــضة ، سلطنة عمان، 1417هـ /1996م ، 3/202ـــ 203.

ويمكننا إدراك مكانة الشيخ اطفيش من خلال معرفة تصوره لرسالته في الحياة، وطموحه إلى التغيير فيها، واتصاله بعلماء عصره للتعاون معهم في إيجاد حلول للمشكلات المتجددة، ومقاومة أعداء الإسلام والذود عن حياضه بالكلمة والقلم.[2]

ويشير الشيخ إبراهيم طلاي إلى مكانة القطب العلمية في مقدمة " تيسير التفسير"[3] فيقول:" تمكّن القطب بفضل عصاميته المتمكنة، وعزيمته الصادقة، وإخلاصه الشديد وطموحه الواسع، من الوصول إلى درجة الاجتهاد و لم يتجاوز الستين من عمره، وقد أشار في إحدى تآليفه إلى هذا المعنى فقال:" وقد كنتُ اجتهد بالقياس على أصل إمامي، ولا أكاد أصيب إلا قولا يوافق ما قلت والحمد لله، ثم انتقلت عن هذه الدرجة إلى ما فوقها".[4]

ويشهد له تلميذه الشيخ أبي اليقظان إبراهيم بهذه المرتبة الرفيعة فيقول:" ناقش علماء الحرم وتباحث معهم، فشهدوا له بالتفوق العلمي".[5] وقد عرف أيضا الشيخ محمد عبده المصري قدر القطب فعظّمه واحترمه، جاء ذلك في بعض مراسلات كانت بينهما".[6]

ويصف تلميذه وحفيد أخيه أبو إسحاق اطفيش مكانته العلمية أيضا فيقول:" يرى خدمة الإسلام عموما والمذهب من أكبر الواجبات التي تحملّها، قويّ الإرادة ، حصيف الرأي، تتراءى له بألمعيته عواقب الأمور، وتنكشف له حقيقتها من وراء ستارها الكثيف، وأحيانا كأنها على كثب منه...

---

[2] ــ ينظر ونين مصطفى بن الناصر: آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية ، ط1 ، نشر جمعية التراث ــ القرارة الجزائر، 1996/1417. ص 49 ــ 53.

[3] ــ طلاي إبراهيم محقق كتاب تيسير التفسير، للقطب أطفيش ، المقدمة 1/ر، ش.

[4] ــ اطفيش امحمد بن يوسف: شامل الأصل والفرع ، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، 13/1.

[5] ــ أبو اليقظان إبراهيم: ملحق سير الشماخي: مخطوط ، ص 159.

[6] ــ إبراهيم طلاي : مقدمة تيسير التفسير للقطب: 1/ر ــ ش.

تصدى لنشر العلم والتأليف منذ الصغر، وهو يكرع من حياضه العذبة النميرة، فهو إذ ذاك بين اقتطاف أزهار العلوم والتأليف، وتغذية النفوس بالتدريس، عظيم الاجتهاد لم يفتر في الأوقات التي تهجع فيها النفوس لأخذ الراحة، ولا تشغله الدنيا وزخارفها.

نهضت به همته إلى إعادة ما كان للأمة من الشموخ والمجد والعظمة والازدهار العلمية، ومصادمة ما حلّ بها من الخمول والانحلال، والخلود إلى نقائص الأعمال، و لم يجد وسيلة أكبر من الانصراف الكلي إلى تنقيح العلوم، وتجديد ما اندرس من السيرة الغراء، فانكبّ على التأليف والتدريس بدون انقطاع ولا فتور..."[7]

ـ نظرة في تراث الشيخ اطفيش الفقهي:

يصف أبو إسحاق اطفيش بعض مؤلفات القطب الفقهية فيقول:" إن من طالع له كتاب " شامل الأصل والفرع" الذي ألّفه بعد أن بلغ درجة الاجتهاد أدرك رسوخه في علوم الشريعة أصلا وفرعا، وناهيك بشرحه على " النيل" فإنه من أوفى الكتب الفقهية الإسلامية وأجمعها وأكملها تحريرا ، يقف مُطالعه على المجتهدين المشهورين وأئمة علوم الشريعة منذ عهد الصحابة، ومن أجال فكره في شرحه لـ "شرح مختصر العدل والانصاف"وقف على براعته في علم الأصول، وناهيك بتأليف يبلغ ستة أجزاء متوسطة الحجم في أصول الفقه، ومن وقف على تفسيره (تيسير التفسير) شاهد تبحره في علوم القرآن وغزارة مادته، ومقدرته على إظهار حقائق التفسير، ومن قرأ له (تلخيص العاني من ربقة جهل المثاني) علم ما أوتيه من قوة البيان، والسعة في علوم البلاغة، والغوص إلى حقائق المعاني ، وإبرازها من أصدافها لطالبها..." [8]

وأمام هذه الثروة الفقهية القيمة ورغبة في التعرف على منهج الشيخ في بناء الفروع على الأصول، وتخريج الفروع على الأصول، ومحاولة للكشف عن هذا الأمر، فقد

---

[7] ـ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش: مقدمة تحقيق كتاب الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص للقطب اطفيش، ط 2، نشر مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب سلطنة عمان، 1998/1419. ص 9ـ 17.

[8]) اطفيش إبراهيم أبو إسحاق: مقدمة الذهب الخالص، ص 9 ـ 17.

صادف أن قررت نيابة الجامعة الإسلامية بقسنطينة للتعليم العالي والتكوين المتواصل تخصيص كتاب الدفعة الثالثة والعشرين التي تتخرج في العام الدراسي الجامعي 2010/2009 ورأت أن تحمل لقب الشيخ احمد بن يوسف اطفيش، وحسنا فعلت، وطلبت من الباحثين المتخصصين كتابة بحوث ومقالات عن شخصية القطب العلمية؛ فوجدت ذلك فرصة مناسبة لبحث هذا الموضوع ودراسته من خلال مؤلفات القطب الفقهية، وقد سبق لي أن تعرفت على منهج الشيخ في البحث الفقهي من خلال تعاملي مع تراثه الفقهي في الدراسات السابقة حول المدرسة الفقهية الإباضية، وقد ترددتُ كثيرا قبل العزم على اختيار موضوع فقهي حول الشيخ اطفيش، وبعد استخارة الله اهتديت إلى موضوع هام أحسب أنه لم تسبق دراسته وهو: منهج الشيخ اطفيش في بناء الفروع على الأصول دراسة نظرية وتطبيقية.

وهكذا شرعت في جمع مادته العلمية المتناثرة في مصنفاته الفقهية، ونظرا لكثرتها فقد اقتصرت على بعض مصادره المتمثلة في كتاب" شامل الأصل والفرع"، وكتاب "شرح النيل وشفاء العليل" ، وكتاب " تيسير التفسير " من خلال دراسة آيات الأحكام"، ولا أدعي أنني سأعطي للموضوع حقه، ويكفي أن أقدم مدخلا لدراسة منهج الشيخ في التخريج والتفريع والتأصيل، ولا شك سوف تساهم هذه الدراسة المتواضعة في التعريف بمنهج الشيخ في التخريج والتأصيل والاستنباط وستتبعها دراسات معمقة في هذا المجال.

ـ تحديد مفهوم بعض المصطلحات الفقهية والأصولية:

أولا ـ تعريف الأصول:

1 ـ الأصول في اللغة: جمع أصل، وهو مايبنى عليه غيره، أي: أساس الشيء الذي يبنى عليه غيره، ومعناه أسفل الشيء، ومنه إطلاقه على أساس الحائط، وفي "المصباح المنير" أن أساس الحائط أصله[9].

---

9 ـ الفيومي: المصباح المنير، ط1، دار الحديث القاهرة، 1421هـ 2000م، ص 15ـ 16. ينظر سعدي أبو حبيب: القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، ط 2، دار الفكر دمشق ـ سورية ، 1408هـ/ 19988/، ص 20.

نقل القطب اطفيش في " شرح النيل" بعض معاني الأصل وعقب عليها وناقشها، وأجاب على إعتراضات العلماء فقال:" ورُدَّ التعريف اللغوي بأنه لا يقال الولد يبنى على الوالد. ورُدَّ هذا بأنه يبنى عليه عقلا، كأصل الشجرة وأصل الجدار، والحقيقة فإنها أصل للمجاز.

ويقال: الأصل ما احتاج إليه غيره، ويردُّه : أنّ الشجرة محتاجة إلى الثمرة من حيث كمالها، مع أن الثمرة ليست أصلا للشجرة.

ويجاب: بأن اعتبار الكمال وعدمه غير مُراعَى، فلا نقول: الثمرة أصل للشجرة، بل الشجرة أصل للثمرة، لأنها لا تكون بلا شجرة، واعتبار الكمال أمر متلاعب متعاكس، وليس من اللغة.

ـ ويقال: أصل الشيء ما منه شيء، ويردّه: أنّ الواحد من العشرة وليست العشرة من الواحد. ويجاب بأنها منه إذ تركبت بآحاد."[10]

2 ـ الأصل في الاصطلاح:

عرفه القطب اطفيش بأنه الراجح، والمستصحب، والظاهر، والدليل، والقاعدة ، والتعبد، والغالب، والمخرج ؛ كقولي الفَرَضيّ: أصل المسألة من كذا.[11]

قال نور الدين السالمي: "وقد نقل التعريف اللغوي إلى الأدلة التي تبنى عليها الأحكام كما يقال: أن الأصل في كذا قوله، أو قوله صلى الله عليه وسلم، ويطلق الأصل أيضا على أصل القياس، كما تقول: أصل وفرع، وعلى مذهب العالم في القواعد فإنهم يقولون: إن فلانا بنى على أصل في مسألة كذا، أي: على مذهبه فيها، وعلى ما يكون أصلا من الأصول، كالصلاة والزكاة، فإنه يسمّى أصلا في الاصطلاح، وكل هذه المعاني مشبهة بالمعنى اللغوي."[12]

---

[10]) اطفيش محمد: شرح كتاب النيل وشفاء العليل، ط 2 ، نشر مكتبة الإرشاد جدة ـ السعودية، 46/1985.1/1405.

[11]) اطفيش: المصدر نفسه.

[12]) السالمي: شرح طلعة الشمس، 21/1.

ثانيا ــ تعريف الفروع:

1 ــ الفروع في اللغة: جمع فرْع وهو من كل شيء أعلاه، وهو ما يتفرع من أصله، وتفرعت المسائل: تشعبت من الأصل وخرجت،[13]

2 ــ وفي الاصطلاح: عرفه القطب اطفيش بأنه:" ما بُنِيَ على غيره من حيث أنه بُنِيَ على غيره، فخرجت أدلة الفقه من حيث يبنى عليها الفقه إذ هي بذلك الاعتبار أصول لا فروع، بخلافها من حيث تبنى هي على علم التوحيد، وكذلك يعتبر قيد الحيثية في الأصل، فيقال: الأصل ما بُنِيَ عليه غيره من حيث أنه بني على غيره، ليخرج علم أصول الفقه من حيث أنه بُنِيَ على علم أصل الدين، فهو فرع بهذا الاعتبار لا أصل، والفرع عكس الأصل في جميع أقواله، ويتبادر أنّ مراده هنا الدليل، وهو الكتاب والسنة والإجماع..."[14]

ويعرّف القطب الفرع الأصولي فيقول:" هو ما لم يعلم حكمه، وهو المقيس على الأصل الذي علم حكمه من الكتاب أو السنة أو الإجماع."[15]

ثالثا: التفريع بمعنى التخريج:

1ــ التفريع لغة: مصدر للفعل " فرّع الرباعي ت بتشديد حرف الراء ــ على وزن " فعّل " ، تقول: فرّع يفرّع تفريعا، وهو مشتق من الفعل الثلاثي " فرع" ، ويأتي هذا الفعل بمعان ، منها : الفرع من كل شيء أعلاه، وهو ما تفرع من أصله ، والجمع فروع: تقول : فرعْتُ من هذا الأصل مسائل فتفرعت، أي: استخرجتُ فخرجتْ،[16] وهو خلاف الأصل؛ لأن الفرع اسم لشيء يبنى على غيره،[17] ويقال استفرع وفرّع من هذا

---

[13]) سعدي أبو جيب: القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، ص 283.

[14]) اطفيش: شرح النيل ،46/1.

[15]) اطفيش: شامل الأصل والفرع، 11/1.

[16]) الفيومي: المصباح المنير، مادة" فرع" ص 279.

[17]) الجرجاني : علي بن محمد بن علي : التعريفات ، ص 189.

الأصل مسائل ، أي استخرجها وجعلها فروعه، فتفرعت،[18] وتفرعت المسائل تشعبت من الأصل وخرجت."[19]

2 ــ تعريف التفريع اصطلاحا:

عرّفه الجرجاني فقال هو:" جعل شيء عُقَيْب شيء لاحتياج اللاحق إلى السابق."[20] وذلك أنّ من معاني الفرع أنه: ما يبنى على غيره ، والأحكام الفرعية إنما تبنى على أصولها، فهي تستند إليها لاحتياجها إليها، ومن المعلوم أن الأصول سابقة في الوجود على الفروع فهي لاحقة بها.

وعرفه الدهلوي فقال:" التفريع : أن ترد مسألة لا نجدها بعينها في أصول مذهبنا، فإن وجدنا نظيرها اخترنا حكمها منه، أو وجدنا عموما أدرجناها فيه واستدللنا بملازمة الأمور المصرحة أو منافاتها، أو فهمنا بالإيماء والاقتضاء والفحوى."[21]

هذا ويطلق التفريع عند الأصوليين ويراد به: أن يتمكن المُخرّج أن يخرّج بالدليل حكما يصير كالمنصوص على نصوص إمامه، أي: أن يجري على نصوص إمامه أحكاما تصير كالمنصوصة."[22]

ويشير القطب إلى هذا المعنى فيقول:" وقيل في مسألة لها أصل وصفة وأتت شبيهة لها فيها إلها مثلها، والأحوط لمن يخرج أقوالا من كلام إمامه أن يصرح بأنها تخريج لا نصٌّ لبعض العلماء."[23]

ولا يقتصر التفريع أو التخريج على نصوص الإمام فقط، بل يكون على أصول وقواعد المذهب أيضا، فقد ورد في الموسوعة الفقهية أن:" التخريج نوع من الاستنباط

---

[18]) الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، مادة " فرع "، 6/3.

[19]) سعدي أبو جيب: القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، مادة " فرع" ص 683.

[20]) الجرجاني: التعريفات، ص 79.

[21]) الدهلوي : المسوّى شرح الموطأ، 51/1.

[22]) السوسي محمد بن حسين اشدّة: حاشية السوسي على قرة العين اشرح ورقات إمام الحرمين الجويني، ص 157.

[23]) اطفيش: شامل الأصل والفرع، 13/1ــ 14.

ومعناه: استخراج الحكم بالتفريع على نص الإمام في صورة مشابهة، أو على أصول إمام المذهب، كالقواعد الكلية التي يأخذ بها، أو الشرع أو العقل من غير أن يكون الحكم منصوص عليه من الإمام.[24]

ويسمى استخراج الأحكام من القواعد تفريعا، وإلى هذا المعنى ذهب الجرجاني فقد عرّف القاعدة اصطلاحا بأنها: " قضية كلية من اشتمالها بالقوة على أحكام جزئيات موضوعها، وتسمى فروعا، واستخراجها منها تفريعا، كقولنا :كل إجماع حق."[25] ويؤكد علي بن حسين هذا المفهوم فيقول:" التخريج في اصطلاح العلماء: تعرُّف أحكام جزئيات موضوع القاعدة من القاعدة المشتملة على تلك الأحكام بالقوة القريبة من الفعل بإبرازها من القوة إلى الفعل."[26] ومثّل لذلك فقال:" وذلك بأن تجعل القاعدة نحو: الأمر للوجوب حقيقة كبرى، قياس من الشكل الأول لصغرى سهلة الحصول، لأن محمولها موضوع الكبرى ، وهو الجزئي الذي قصد تعرّف حكمه، فيقال: (أقيموا الصلاة) لوجوب حقيقة، ثم قال:" ويقال للإبراز المذكور: تفريع."[27]

ـ منهج القطب اطفيش في بناء الفروع على الأصول:

يعتمد منهج الشيخ اطفيش الفقهي على جملة من الاعتبارات والموازين فهو حين يؤلف أو يجيب عن أسئلة السائلين يربط الفروع بالأصول والقواعد، والفقه بالأدلة، ويرفض إيراد الأقوال والآراء خالية من الدليل، فهو يرى أن قوة الرأي الفقهي إنما تحدده قوة الدليل الذي قام عليه، وكان يؤمن أن أقوال الآخرين وآراؤهم ـ على تقديره وإجلاله لهم ـ لا تتعدى أن تكون دعاوى تعوزها البينات إن لم تقترن بالأدلة .

---

[24]) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: الموسوعة الفقهية، طبع دولة الكويت 111/4.

[25]) الجرجاني : حاشية الجرجاني على شرح العضد لمختصر ابن الحاجب، 19/1.

[26] ابن حسين: لهذيب الفروق ، 131/2.

[27]) ابن حسين: المصدر نفسه.

ويقوم اجتهاده في التخريج والفقهي وبناء الفروع على الأصول على مصادر التشريع المعروفة وهي القرآن والسنة والإجماع والقياس، والاستدلال بالمصالح المرسلة والاستصحاب والعرف والاستحسان وسد الذرائع، وشرع من قبلنا وقول الصحابي، كما يعتمد على القواعد الأصولية والقواعد الفقهية وآثار فقهاء الإباضية.

جاء في " شامل الأصل والفرع" ما يشير إلى اعتماد القطب على الأصول الاجتهادية المتفق عليها ما نصه:" هي القرآن والسنة والإجماع والقياس، ومن أنكر واحدا من الثلاثة الأولى أشرك، وهنّ أصل للقياس، وإنما كان أصلا في الدين بواسطة اعتماده على الثلاثة..."[28]

ويقوم منهجه الفقهي أساسا على تحليل النصوص الشرعية، وتوظيف اللغة العربية في فهمها، وإرساء اجتهاداته على أصول واضحة، ويهتم ببيان أسباب اختلاف الفقهاء، والجمع بين القول الفقهي ودليله الشرعي؛ من قرآن أو سنة أو إجماع أو قياس، أو غيرها من أصول التشريع المعتمدة مرتبة حسب قوتها في الدلالة والاحتجاج.[29]

ولا يقتصر القطب في اجتهاده على أقوال المدرسة الإباضية — التي ينتمي إليها — بل إنه يحفل كثيرا بالمقارنات بين أقوال الفقهاء والموازنة بينها داخل المذهب، وبين آراء المذهب وبقية المدارس الفقهية الأخرى؛ وكان يفعل ذلك بحس علمي ونقد نزيه، ملتزما بآداب الجدال ، واحترام الرأي الآخر، ولم يكن ليغفل في أحيان كثيرة نسبة القوال إلى أصحابها، وإن لم يكن ذلك قاعدة عامة، فقد كان يكتفي في بعض الأحيان بنسبة القول إلى المجهول: قيل، قال بعضهم، قال آخرون.[30]

لم ينهج القطب في بناء الفرع على الأصول منهجا واحدا متشابها عند بدايته لطرح مسائله الفقهية، غير أن غالب ما جرى عليه هو استهلال المسألة بقوله: اختلف

---

[28]) اطفيش: شامل الأصل والفرع، 9/1.

[29]) ينظر شامل الأصل والفرع في معظم مسائله مثل 143/1ـ145.

[30]) ينظر اطفيش: شرح النيل في معظم أجزائه.

أصحابنا أو اتفق أصحابنا، وقد يصدر المسألة بآية قرآنية أو حديث نبوي، أو تعريف لمصطلح فقهي، ثم يقوم بعد ذلك باستخلاص أهم ما ينطوي تحت كل واحد منهما من أحكام فقهية، كما يصدر المسألة في أحيان أخرى بحكم فقهي يُتبعه بما يدل عليه.

هذا وقد سلك القطب عند عرضه للفروع الفقهية في مصنفاته الفقهية وبالأخص موسوعته الفقهية " شرح النيل " وكتابه " شامل الأصل والفرع" مسلك المقارنة في كثير من المواضع بين آراء فقهاء المذهب الإباضي، وفقهاء المذاهب الفقهية الأخرى، إذ يورد عادة رأي الإباضية في المسألة أو خلافهم فيها عند وجود الخلاف فيما بينهم، ثم يذكر عقب ذلك ما يحفظه من آراء الفقهاء الآخرين في تلك المسألة، ويتبع ذلك بذكر أدلة كل رأي مع بيان وجه الدلالة من كل دليل، ثم يعمد إلى النظر في الأقوال التي أوردها في المسألة، ويختار منها ما يراه راجحا أو أقرب إلى الصواب باستخدام عبارات مثل:" هذا ما يظهر لي في تحقيق المقام"، أو " على ما يظهر لي" ، أو " والذي عندي" ، ومثال ذلك قوله في باب النية:" وما مرّ من مقارنة النية للفعل هو الصحيح."[31] وهكذا.

ويحاول بعد عرض أقوال الفقهاء والمسألة مع أدلتهم نصرة ما ارتضاه، واختاره بالدليل الصحيح عنده نقليا كان أو عقليا، كما في قوله في باب الغسل من الجنابة: " وحجتي في ذلك أنه دخل النوم بلا جنابة فهو على عدمها استصحابا للأصل حتى يقوم الدليل."[32]

وكثيرا ما يُتبع ذلك بتضعيف أدلة المخالف مستخدما في ذلك طرق الترجيح المعروفة ووجوه الاعتراضات: كبيان عدم صحة دليل الخصم بتضعيف نقله إذا كان خبر آحاد، أو إظهار فساده بقادح يقدح فيه، كمعارضة لنص مثلا إن كان دليلا ناتجا عن اجتهاد بقياس ونحوه، وإذا صح عنده نقل دليل المخالف، فإنه يحاول تفنيد استدلال

---

[31]) اطفيش: الشامل، 157/1.

[32] المصدر نفسه: 203/1.

المخالف بذلك الدليل بإبراز نسخه بدليله هو أو تخصيصه، أو كون دليل المخالف غير دالٍّ على مراده ومدّعاه في المسألة.

وكثيرا ما يحاول القطب أثناء مناقشته للأدلة أن يبين مخالفة بعض الفقهاء فيما ذهبوا إليه لما أصّلوه من قواعد وفروع فقهية، ومثاله قوله :" وقيل في حديث :" إنما الماء من الماء " كان أول الإسلام ثم نسخ، وقد اختلف الصحابة والجمهور على أنه لم يثبت، أو ثبت أو ثبت ونسخ، أو مختص بالمنام، ثم انعقد الإجماع في الصدر الأول على أنه يجب عليهما الغسل بغيوب الحشفة، ولو لم يكن إنزال، وهو إجماع لا يجوز خرقه."[33]

ومن منهج الشيخ اطفيش الفقهي أيضا أنه يورد المسألة مُجْملة ثم يقلّبها من جميع وجوهها، فيفصّلها ويبينها، ويخرّج مسائلها الفرعية عليها حتى يستوعب أكثرها وأهمها مع البحث لها عن الاحتمالات والافتراضات، مُوردا أصلها وما جاء في شأنها من أقوال المجتهدين المختلفة غير منسوبة إلى أصحابها في بعض الأحيان، فكان يكتفي بعبارات " قال قوم " ؛ " قال آخرون " " وقيل" وقد يكتفي برأيه في المسألة، فلا يذكر الخلاف الوارد فيها دون أن يغفل إيراد أدلة تلك الاجتهادات والأقوال النقلية والعقلية في أكثر الأحيان، وإن كان في بعض الحالات يهمل ذلك ويكتفي بإيراد القول خاليا من الدليل، وقد يقتصر على ذكر المختار من الأقوال مما يراه أحوط، وقد يتدخل أحيانا فيتخذ لنفسه موقفا من بعض تلك الأقوال، أو يتبنى رأيا ظهر له أنه الصواب ولو خالف قواعد المذهب.

ويحاول القطب في أغلب كتاباته أن يلتزم بالقول المتفق عليه في مذهبه ويقيم عليه الدليل، ويرد المسائل إلى أصولها، أو يبني الفروع على أصول وقواعد المذهب، ويناقش المخالفين له ملتزما بأدب الجدل الرصين، بعيدا عن الانغلاق والتعصب المقيت، وكان واسع الاطلاع على كتب المذهب وغيره من المذاهب الأخرى، خاصة مصادر المالكية، ينقل منها ما صحّ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ينقل أقوال أصحابها في مسائل الاجتهاد.

---

[33]) اطفيش: الشامل، 203/1ـــ 204.

وهناك سمة أخرى حسنة تميز بها القطب في منهجه الفقهي تبرز من خلال عرضه للفروع الفقهية، وهي حرصه على ألا يكون عرضه أجوفا جافا منصبّا على الانتصار للرأي، وعلى الدفع والاعتراض على المخالف، وبيان ما تستوجبه كل مسألة فقهية من الأحكام فحسب، بل كثيرا ما يضمّن عرضه للفروع ما يصبغه بصبغة من الشفافية والرقة، بتقديم نصيحة للقارئ أو المستفتي، فنجده ينصح من ابتلي بالوسواس ويرشده إلى طريقة التخلص منه فيقول له :" فاثبت على دينك، وتوكل على الله، ولا تُمكّن الشيطان من دينك، وخذ باليقين، واستصحب الأصل، فإن عارضك في أنك تصدّقت بمالك أو بعته، أو نظرت محرمتك بعمد، أو قلت لزوجتك ما تُطلّق به، أو نحو ذلك، فلا تدع حلالك بشكّ، فمن حلف بطلاقها وشك في الحنث ولم يدر ما قال وما حلف عليه، لم تحرم."[34]

ومما ريب فيه أن الشيخ اطفيش قد استقى هذه السمة الحميدة، وهذه الخصلة المتميزة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإنّ بين ثنايا الكتاب والسنة من الارشاد والترغيب والترهيب من الكثرة المتكاثرة مما لا يحتاج معها إلى التمثيل ونصب الشواهد.[35]

ـ نماذج تطبيقية من بناء الفروع على الأصول عند الشيخ اطفيش:

لو تتبعنا مصنفات الشيخ اطفيش الفقهية المختلة لألفينا فيها أمثلة تطبيقية كثيرة تجسد منهجه في بناء الفروع على الأصول، وسوف نختار نماذج منها في قضايا متنوعة من أبواب الفقه، ونشير فيها إلى الفروع التي بناها على الأصول، ونبين كيف ربط القطب بينها وبين القواعد والأصول، وذلك فيما يلي:

---

[34]) اطفيش: المصدر نفسه، 160/1.

[35]) ينظر أمثلة من ذلك في كتابه شرح النيل، و" فتح الله" في أصول الفقه، وهو عبارة عن شرح شرح العدل والانصاف في أصول الخلاف للوارجلاني وما يزال مخطوطا.

1ــ وجوب طاعة أوامر الله:

قال تعالى: ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ [البقرة: 34.]

قال القطب في بيان وجه الدلالة من الآية: " والآية دليل على الأمر للوجوب، إذ قطع عذره بمخالفة قوله (اسجدوا) دون أن يقول أوجبتُ عليكم أو نحو ذلك، وأمرَ اللهُ رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر وقت قوله لآدم: (اسكن) إلخ. إذ قال: ﴿وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة... ﴾ [البقرة: 36.]

وقد ربط القطب مدلول الآية السابقة التي تأمر الملائكة وإبليس بالسجود لآدم بالآية اللاحقة التي تأمر آدم وزوجه بالإقامة في الجنة، فاستجاب كل من الملائكة وآدم لأمر الله، ورفض الشيطان أمر الله، لأن طاعة الله واجبة بناء على القاعدة الأصولية أن الأمر يفيد الوجوب ما لم تصرفه قرينة، فكما وجب على الملائكة وآدم وزوجه طاعة أوامر الله ونواهيه، فكذلك يجب على الجن وعلى رأسهم إبليس الاستجابة لأوامر الله، وقد بنى القطب هذا الفرع على ذلك الأصل، فتصبح جميع أوامر الله كالسجود والصلاة والصيام وطاعة المرأة زوجها وغيرها تفيد الوجوب، وهذا ما أفادته عبارة القطب: " لم يقل: اُسكنَا، لأنه المقصود بالذات، وهي تبعٌ له في جميع الأحكام والأمور، والأمر هما أمر وجوب كما هو الظاهر، وكما هو الأصل لا أمر إباحة."[36]

2 ــ النية أساس قبول الأعمال والجزاء:

ربط الشارع الحكيم العبادات بالنيات والمقاصد، وجعلها أساسا لقبولها أو رفضها، وما يترتب عليها من الجزاء، كالثواب والعقاب، ومستندهم في ذلك الحديث المشهور:" إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ مانوى"[37] وقد صاغ الفقهاء من هذا الحديث قاعدة فقهية كبيرة وهي:" الأمور بمقاصدها" وطبقوها على جل أبواب الفقه من عبادات

---

[36]) اطفيش:المصدر نفسه.

37.) أخرجه البخاري ومسلم والربيع بن حبيب في مسنده باب النية.

ومعاملات وأحوال شخصية وجنايات وغيرها، وقد ظهر أثر هذه القاعدة في فقه الشيخ اطفيش، وخرّج عليها فروعا كثيرة، نذكر منها ما يتعلق بالطهارة.

يقول القطب في سياق بيان وجه الاستلال بالحديث:" وعنه صلى الله عليه وسلم:« إنما الأعمال بالنيات... » ، وبيانه: أن العمل إما متعبد به كالوضوء، فلا يثبت إلا بالنية، ونية كل شيء بحسبه، فنية الوضوء رفع الحدث، فإن لم ينوِ كان غير متوضئ، وإن نوى ولم ينوِ التقرب فلا أجر له على وضوءه ، وصحّ، وزعم أبو حنيفة أنّ الوضوء يتحصل بلا نية رفع الحدث، وإن الماء مطهر بطبعه، فلعله يرى أن الوضوء علته التنظيف، وزعم الأوزاعي أن التيمم يتحصل بلا نية رفعه، وأما ظاهر العلة كغسل النجاسة فيتحصل بلا نية، وأما الثواب عليه فلا يتحصل إلا بنية التقرب بأداء الفرض الذي هو إزالة النجس مثلا، وكذا التقرب بالنفل، كإزالته لنفل."[38]

• ويلاحظ من عبارة القطب أنه يرى وجوب النية في أداء الطهارات، كالوضوء لرفع الحدث والغُسل لرفع الحدث الأكبر، وكذا التيمم، ولا تجب في إزالة النجاسات؛ لأنها ظاهرة ، أما حصول الثواب فلا يتحقق إلا بالنية، واعترض على أبي حنيفة والأوزاعي اللذين لا يوجبان النية في الوضوء والتيمم كالنجاسات.

ويرى القطب أنّ النية عبادة محضة لا جُزء منها، وأنها شرط لصحة الأعمال وتحصيل الثواب، فيقول: " والذي عندي أن النية عبادة لا جُزءَ عبادة ، وأنها شرط في صحة العمل أو تحصيل الثواب."[39]

ويضيف في بيان مدلول الحديث مُنبِّهًا إلى أهمية النية في العبادات، وهي للتمييز بين العبادات والعادات، وبين مراتب الأعمال، فيقول:" والمراد بالأعمال: عمل الجوارح واللسان وحركة النفس، ولا يدخل فيها العمل الذي هو النية؛ لئلا يلزم التسلسل أو الدور، وكذا ما لا يكون عادة ، ولا يلتبس بغير العبادة، كالإيمان بالله، والمعرفة والخوف

---

38) اطفيش : شامل الأصل والفرع، 151/1.

39) اطفيش : المصدر نفسه ، 151/1 ــ 152.

والرجاء؛ لئلا يلزم التناقض، فالنية قصد المنوي، ولا يقصد إلا ما يعرف، فيلزم أن يكون الإنسان عارف غير عارف به في حالة واحدة، وأما الذِّكْر والقراءة بالقلب والتفكر فلا ثواب عليها إلا بالنية، ولا تجب في التروكات إلا لنيل الأجر، كترك الزنا لا ذنب على تاركه بلا نية، ولا ثواب على تركه إلا بنية."[40]

ويشير إلى أنّ الأعمال المباحة يثاب عليها بالنية، كما أن بعض التصرفات لا يكفي فيها النية، فلا بد فيها من التلفظ بها حتى يترتب عليها الأحكام، يقول في هذا الصدد: " وألْ في الأعمال للعهد، أي: أعمال العبادة، أو للاستغراق لما علمتَ أنّ النية قد تكون لتحصيل الثواب على العمل، ولو كان العمل يتحصل بدونها وهو عمل ما ظهرت علته، وعمل الجوارح؛ فمن قضى دَين غريمه برئ ولو لم ينوِ ، ولا ثواب له إلا إن نوى أنه يقضيه؛ لأن الله أوجب قضاءه عليّ ، أم لئلا يسخط عليّ أو نحو ذلك.

ـــ ومن نوى أن يأكل لِيَقْوَى على العبادة، فله الثواب، وكذا سائر المباح ، كمن نوى أن يجامع لئلا يزني أو ليلد مسلما، أو نحو ذلك.

وبعد أن عرض القطب هذه الصور خلص إلى القول:" وإنما تؤثر النية في غيرها، ولا يكفي عما هو من وظيفة اللسان أو الجوارح، فمن نوى الطلاق أو العتق أو النذر لم يلزمه إلا إن تلفّظ على الصحيح؛ لأنهن من وظائف اللسان وشرعا ، هذا قول الأكثر.[41]

وأكد القطب مرارا بأنه لا ثواب على العمل إذا افتقر إلى النية، ويجب أن تكون مصاحبة له حتى يفوز بالثواب كاملا على حدّ قوله:" وإذا تمّ العمل بلا نية فلا ثواب له، وإذا نوى في أثنائه فله ثواب ما بقي، وصحّ ما مضى بلا ثواب إن كان مما يصح بلا نية، وقيل إذا كان في أثنائه ونوى عادت نيته على ما مضى وما أتى، ورخص بعض أن يتداركها مادام الشيء حاضرا إن كان مما يحضر كالصدقة، ورخص بعض مادام باقيا ولو غاب، وما مرّ من مقارنة النية للعمل هو الصحيح، وأجاز بعضهم تقديمها قبل القيام إليه،

40) اطفيش: المصدر نفسه 152/1.
41) المصدر نفسه.

لكن إن حدث له ذكرٌ ذلك عند القيام إليه أو الدخول فيه فليجددها، ورخص بعض أن ينوي أنّ كل ما عملتُه في يومي فهو لله، وبعض أن ينوي من أوّل المحرم للعام كله، وبعض أن ينوي من حين كان لأيام حياته كلها..."[42]

3 ــ جواز الانتفاع بالأشياء المباحة قبل ورود دليل التحريم:

أباح القطب الانتفاع بكل ماخلق الله من ثمار ومعادن ومواد مختلفة ولو كانت سامة اعتمادا على عموم النص القرآني، وعلى القاعدة الفقهية" هل الأصل في الأشياء الإباحة أو الحظر؟".

أ ــ أما استدلاله من القرآن الكريم على جواز الانتفاع بها قول الله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [البقرة الآية 29]

وجه الاستدلال بالآية: قال القطب:" ﴿هو الذي خلق لكم﴾ أي: لأجلكم، أو ملّك لكم (ما في الأرض جميعا) حتى العقارب والحيات والسباع، فإنكم تنتفعون بها اعتبارا أو انزجارا على عقاب الله، كما تنتفعون بالثمار والمعادن والماء والحيوان، وما في السّم نفع لقتل المؤذيات..."[43]

ويحدد القطب حدود الانتفاع بالأشياء المباحة ويبيّن أن الشارع الحكيم منع الانتفاع بالأشياء الضارة كالميتة من الحيوان؛ لأنه ورد فيها نص صريح بالتحريم فيقول:" ولا ينتفع بسمّ الميتة، ولا يباع ولا يشترى، بل بسمّ غيرها وسمّ المعدن، أو أراد بالأرض ما في جهة السفل، فيشمل الأرض نفسها وما فيها."

ب ــ أما استدلاله على إباحة الانتفاع بالأشياء بالقاعدة الفقهية " هل الأصل في الأشياء الإباحة أم الحظر؟" فقد أشار إلها في قوله:" استدل المعتزلة والفخر بالآية على أن الأشياء قبل ورود الشرع على الحلّ إن كانت نافعة، وعليه كثير من الشافعية والحنفية، ولا تحتمل الآية أن اللام للضرر مثل﴿وإن أسأتم فلها﴾ [الإسراء الآية: 7] ولا دليل

---

[42]) اطفيش: الشامل، 152/1.

[43]) اطفيش" تيسير التفسير، 56/1.

على أن المراد بالآية الإباحة على شرط نزول الوحي بها، وقيل: إنها قبل الشرع على الحظر، وقيل بالوقف، والأول أولى."[++]

ويفهم من عبارة القطب أنه اختار القول بإباحة الأشياء قبل ورود الشرع خلافا لمن يقول بتحريمها حتى يرد الدليل بالإباحة، وأشار إلى أن هذه القاعدة محل خلاف بين العلماء. هل الأصل في الأشياء الإباحة أم الحظر؟ والراجح هو الإباحة والله أعلم.

4 ــ وفي تحديد أعيان النجاسات وما في حكمها:

اتفق الفقهاء في تحديد الأعيان النجسة المنصوص عليها في القرآن والسنة والإجماع، ولكن اختلفوا في بعض الأشياء النجسة التي لم ينص عليها، هل تلحق بالنجاسات المحرمة أم تبقى على أصلها من الإباحة والطهارة؟

تعرض القطب اطفيش إلى هذه المسألة وبين أصولها وفروعها، وألحق بها فروعا بناء على تلك الأصول والقواعد، فقال في هذا الشأن:" ثبت تنجيس البول والغائط من الآدمي منصوصا عليه في الأحاديث، والبول من غيرها من عموم الأحاديث، وعموم كونهما من الخبائث كما في القرآن الكريم، فدخل تنجيس الأبوال كلها من ذلك العموم، أو بالقياس على بول الآدمي، وإنما اختلف في بول ما يؤكل لحمه لورود حديث في أمر أعراب مخصوصين بشرب أبوال الإبل، فقيل بطهارتها وطهارة بول ما يؤكل قياسا عليها، وقيل بنجاستها، وإنما أمرهم بذلك ترخيصا لهم فقط في شربها، وفي التداوي بشربها، والرخصة لا تتعدى مكانها، وقال شاذ من أصحابنا بطهارتها، وقالت طائفة منهم أيضا بطهارة بول الطير المأكولة، وقاسوا روث ذي مخلب وذي ناب على روث الآدمي ، وكذا روث ما ألحق بهما لاستقذار أو لشبه بهما، وثبت بالقرآن والسنة نجاسة الدم المسفوح والميتة، فدخل في ذلك دم قمل الآدمي وغيره، وميتة القمل، وثبت نجس القيء من كونه من الخبائث، ومن الحديث نصا في قيء الآدمي وعموما في غيره، فنجّس قيء الحيوان كله، وبقي البلل مما حرم أكله، فقيل طاهر لحياته، وقيل نجس؛ لأن لحمه نجس، وقال صاحب

[++] اطفيش : تيسير التفسير، 70/1

هذا القول على ما يظهر لي أنّ الإنسان ولو كان لا يحل لحمه، لكن بالله طاهر تكريما من الله تعالى وتسهيلا لمعاملته؛ لأن مَبنَى المعاش عليه بالتصرف بالبناء والحرث والكسب وغير ذلك؛ ولأنه يكلف بالطهارة، فكيف يجعل الله بالله نجسا وهو مكلف بها هذا ما ظهر لي في تحقيق المقام."[45]

ويضيف القطب بيانا لتخريج الفروع على الأصول فيقول:" وإنما خرج عن ذلك ما خرج ترخيصا، مثل: الهر والكلب المعلّم، وقيل هو كغيره من الكلاب، وما عدا ما ذكر طاهر مما لم يذكر تحريمه ولا تحليله، في القرآن والسنة والإجماع، وذلك ضابط كلي. وإنما ذكرت لك أفرادا من المسائل قبله ليستأنس بها."[46]

5 ــ في الشك وكيفية التخلص منه:

الشك من العوارض التي تعتري الإنسان في حياته، وبالأخص في أدائه للعبادات: كالطهارة والصلاة، ولكن قد يلازمه ويستولي عليه فيصبح شكا مرضيا يجب التخلص منه وعلاجه حتى لا يكون سببا في ترك العبادة أو تعسر القيام بها دون حرج ومشقة وقد نبه الفقهاء إلى هذه المسألة ووضعوا للشاك قاعدة فقهية يبني عليها أقوالة وأفعاله فإذا عرض عليه الشك أثناء قيامه بالعبادة أو بعدها فما عليه إلا أن يطرح الشك ويبني على اليقين، وقد صاغوا لذلك قاعدة فقهية عامة وهي:" اليقين لا يزول بالشك" واعتماد دليل استصحاب الأصل، وقد أعمل القطب هذه القاعدة وبنى عليها فروعه، وخرّج عليها مسائل كثيرة ظهر أثرها في فروعه الفقهية، نذكر منها مايلي:

جاء في الشامل مانصه:" من شك في حرمة ما عنده من مال أو زوجة فلا يلتفت إلى الوسواس، إذا عرف من نفسه أنه لا يقدم على شبهة أو حرام، واتباع الوسواس عبادة للشيطان، والوسواس يضيق عليه فيما أبيح له، ويكدر عليه الصافي، ويبغض إليه طاعة الله تعالى لما يلقى فيها من المشاق بمدافعة الوساويس، وإعادتها أو قضائها بعد أدائها. فلا يكاد

---

[45]) اطفيش: الشامل، 176/1.
[46]) المصدر نفسه، 176/1 -177.

يتطوع بنفل، ولا يكاد يؤدي فرضا إلا وقد شك، فيصيبه المَلَل ويضعف رجاؤه في الحسير ورجاؤه لقبول عمله، فيضعف نور قلبه، وربما ضجر فينصرف من فرض على خلل في وهمه عامدا، فيعصي أو يهلك بهذه النية مع أنه لا خلل، ويشغله عن عبادة الله عزوجل."[47]

فقد بيّنَ الشيخ اطفيش خطورة الوسواس وآثاره السلبية إذا تمكّن من صاحبه ضيّع عليه عبادته وأثّر على علاقته بربه.

وقد ضرب لذلك أمثلة وحاول علاجها بناء على تلك القاعدة المتقدمة، واستصحاب الأصل فقال:" إذا أخذ مالا حلالا أو شرع في مباح، أو فعل فرضا وترك ذلك لوسوسة، فتركُه للمال والمباح تضييع ، وللفرض إبطال للعمل، وكذا النفل، بل إن كان الترك على جهة التحريم فهو ضلال؛ لأنه تحريم فيما لا يعلم حقيقة حرمته، وإن كان قد دخل ذلك المال أو التزوج بباطل، أو عرَض له فيهما باطل ونسيه، فله العذر إن دان بالتوبة والخلاص من كل لازم لله أو العباد، وهكذا الحج والصوم والزكاة والكفارة وغير ذلك كالصداق، وذلك في أهل الوساويس متأكد وفي غيرهم سائغ، وقد أضل كثيرا من المتورعين في حلالهم حتى حرّمه عليهم، وأضل أهل الحرام حتى أحله لهم..."[48]

ومن الصور التي ذكرها القطب أنّ :" مَن تناول مالاً أو أفسد فيه عالمًا أنه لفلان، ثم شك لعله لغير فلان، أو تصرّف في مال أحد، وأراد التخلص، وقال له ثقة ليس هو أو بعضه له، فليخلّص كما علم ويدع الشك والثقة الواحدة، إلا إن أراد الاحتياط فليؤد أيضا إلى مَن نسبه الثقة إليه أو شك هو..."[49]

ـــ ومن الفروع التي بناها القطب على قاعدة استصحاب الأصل عند الشك: إذا عرضه الشك في موجبات الجنابة فيرى القطب أنه لا يغتسل حتى يتيقن منها، يقول في هذا المعنى:" وأما قول بعضهم : إنه لا يلزم المُجامعين إلا إن أنزلا، فإن أنزل لزمه، وإن أنزلت

---

[47]) اطفيش : شامل الأصل والفرع، 159/1 - 160.
[48]) اطفيش: المصدر نفسه، 160/1.
[49]) المصدر نفسه.

لزمها. فهو قول متروك لا يعمل به، ولو قال صلى الله عليه وسلم :« إنما الماء من الماء » لأنه قاله في شأن من رأى أنه جامع في المنام، فلا يلزمه الغُسل بالماء إلا إن خرج منه الماء المعهود الموجب للغسل، وهو المني، فحينئذ يلزمه ذكرا أو أنثى، وإن لم ينزل شيئا أو وجد مَذيًا أو وَدِيًا فلا غسل عليه، وإن رأى ذلك فوجد بللا لا يدري ماهو فلا غسل يلزمه إلا إن شاء احتاط، ولاسيما إن كان فيه رائحة المني، فإن الاحتياط اقوى، وكذا لا يلزم إن رأى بللاً حين استيقظ و لم يرَ جماعا، وحُجّتي في ذلك: أنه دخل النوم بلا جنابة فهو على عدمها، استصحابا للأصل حتى يقوم الدليل إلا إن احتاط، وقد علمتَ أن الاحتياط أقوى إذا وجد رائحته، وإن قلتَ: فهلا استصحبتَ الأصل فيمن نام مضطجعا بالوضوء، قلتُ ذلك انتقض وضوءه لحديث:« إنما الوضوء على من نام مضطجعا. »[50]

ويرشد القطب صاحب الوسواس إلى كيفية التخلص منه لإصلاح حاله فيقول:" فاثبت على دينك وتوكل على الله، ولا تمكّن الشيطان من دينك، وخذ باليقين، واستصحب الأصل، فإن عارضك في أنك تصدقت بمالك أو بعته، أو نظرت محرمتك بعمد. أو قلت لزوجك ما تُطلق به أو نحو ذلك، فلا تدع حلالك بشك، فمن حلف طلاقها وشك في الحنث و لم يدر ماقال وما حلف عليه لم تحرم."[51]

والحاصل مما تقدم يتبين أنّ القطب التزم العمل بالقاعدة الفقهية : " اليقين لا يزول بالشك" ولو لم يصرح بها بهذه الصيغة، فقد أعملها في فروع كثيرة كالشك في الطهارة و الملكية والطلاق و الحنث باليمين وغيرها، وهو بذلك يؤكد لنا أنه لا يبني الفروع إلا على الأصول والقواعد، ويرد على كل من خرج عن هذا المنهج ولو كان من أصحاب مذهبه.

6ـ في رخص الصوم:

اتفق الفقهاء على وجوب الصوم على البالغ العاقل الصحيح المقيم، و لا يجب على المريض والمسافر، واختلفوا متى يرخص للمريض والمسافر بالفطر، فذهب القطب إلى

---

[50] اطفيش: شامل الأصل والفرع، 203/1.
[51] اطفيش: المصدر نفسه، 160/1.

أن الرخصة تمنح للمريض إذا وجد مشقة وتعسّر عليه الصوم، واشترط عليه أن ينوي الإفطار في الليل، أما المسافر فيكفي أن يجاوز مسافة القصر، ويبيّت نية الإفطار بالليل، ويكون سفره لغير معصية خلافا لجمهور الإباضية. ولا يشترط في السفر المشقة لأن الحكم تعلق بوصف السفر لا بالمشقة.

يقول القطب في بيان مدلول الآية:﴿ فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ [البقرة الآية 184.] " فمن كان منكم" معشر البالغين العقلاء الداخل عليهم رمضان، " مريضا" مرضا يشُق معه الصوم بعض مشقة، أو يضره أو يتأخر معه برؤه أو يزيد به المرض، وذلك بالتجربة أو بإخبار الطبيب المسلم الحاذق، لقوله تعالى: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة الآية: 185] .

فإذا كان الصوم يعسر مع مرض حلّ الإفطار، كما قيل عن ابن سيرين أنه لوجع إصبعه، ولا كما قال الشافعي: لا يفطر حتى يجهده الجَهد الذي لا يحتمل، وروي عن مالك أنه يفطّر الرمد الشديد أو الصداع المضر، وليس به مرض يضجعه إن شاء.

واحتج من أباح الإفطار بالمرض ولو لم يعسر و لم تكن فيه مشقة بإطلاق الآية، وهو رواية عن الشافعي، وهو قول ابن سيرين والحسن البصري، وبأن السفر قد يخلو عن مشقة وحلّ الإفطار فيه ولو بلا مشقة، لأنه سبب لها، ويجاب بأن الرخصة لم تتعلق بنفس المرض، لتنوعه إلى ما يزاد بالصوم وإلى ما يخف به، وما يخف به لا يكون مرخصا البتة، فجعل ما يزاد به مرخصا بخلاف السفر لأنه لا يعرى عن المشقة فجعل نفس السفر عذرا."[52]

ويحدد القطب شروط إباحة الفطر للمسافر فيقول: ﴿ أو على سفر﴾ ثابتا أو راكبا على سفر، ولو قصيرا بعد مجاوزة الفرسخين مما استوطنه، ولو لم يجاوز الحوزة على التحقيق، إن جاوزهما ليلا فبيّت الإفطار من الليل، أو جاوزهما نهارا، فإذا جاء الليل بيّت الإفطار؛ أو صام يوما في السفر، فإذا جاء الليل بيت الإفطار ؛ وإن أفطر نهارا قبل المجاوزة

---

[52]) اطفيش: التيسير، 386/1.

أو بعدها نهارا، أو بلا تبييت فلا كفارة عليه لشبهة السفر، ولشبهة أقوال العلماء فيه، حتى أن منهم من أجاز أن يفطر من بيته.

وأما المريض فيبيت الإفطار من الليل، إن أفطر بلا تبييت لشبهة المرض فلا كفارة عليه، وإن اشتد المرض بحيث لا يطيق الصوم وخاف على نفسه أو عُضوِه، أفطر بقدر ما يصل به الليل ، وقيل: أو بما شاء، فيبيّت نية الإفطار في الليل المستقبل، وزعم بعض قومنا أنه يفطر المريض بلا تبييت إفطار بخلاف المسافر، لقوله تعالى:" أو على سفر" وليس بشيء لقوله تعالى :﴿ ولا تبطلوا أعمالكم﴾ [سورة محمد: 23] ، فليتمّ المريض يومه إن قدر على إتمامه كالمسافر، والمسافر مُتمكّن على السفر في أثناء اليوم، كما تمكن عليه وقت طلوع الفجر.

وإن كان السفر لمعصية لم يجز له الإفطار على الصحيح، وعليه الأكثر، ويجب الإفطار إن كان الصوم يضر المريض والمسافر، وإلا ولا مشقة، فالصوم أفضل عند بعض، والإفطار أفضل عند بعض ، وأوجبه الإمامية وأخطأوا."[53]

مجمل القول:

ولا ريب أن القطب قد فرّع رُخَص الفطر في رمضان للمريض والمسافر انطلاقا من الأصل القرآني والقواعد الفقهية، فرُخصُ المرض والسفر من أسباب التخفيف والتيسير، عملا بالقاعدة المشهورة " المشقة تجلب التيسير" ، ويُمنع رخصة الفطر عن المسافر العاصي عملا بالقاعدة الفقهية:" الرخص لا تناط بالمعاصي " ، وقد خالف القطب في هذا الفرع جمهور الإباضية الذين لم يعملوا بمقتضى هذه القاعدة، بل أطلقوا السفر و لم يقيدوه بسفر الطاعة، فكان حكمهم بناء على الظاهر، أما القطب فقد كان حكمه بالنظر إلى النوايا والمقاصد.

---

[53]) اطفيش: التيسير 1/386 ــ 387.

7 ــ لا وصية لوارث:

اختلف الفقهاء في مدلول قوله تعالى : ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين﴾ [البقرة : الآية 180] هل تجوز الوصية للوارث أو لا؟ فذهب القطب إلى عدم جوازها ، وذهب غيره إلى جوازه إذا حُجب الوارث من الميراث.

قال القطب في بيان مدلول الآية:" ﴿ الوصية للوالدين والأقربين ﴾، كالإخوة والأخوات والأعمام، والأجداد والجدات والأخوال، ثم نُسخ بآية الإرث، وحديث :« لا وصية لوارث» إلا أن يشاء الورثة.

قال في حجة الوداع إذ خطب فيها:« إن الله تعالى قد أعطى كلّ ذي حق حقه فلا وصية لوارث »[54]، وروي أنه خطب على راحلته وقال: « إن الله تعالى قد قسم لكل إنسان نصيبه من الميراث فلا وصية تجوز لوارث وصية »[55] [56]

وبعد أن ردّ القطب هذا الفرع إلى أصله من السنة عقب على من يرى جواز الوصية لوارث بموافقة الورثة فقال:" ولا عبرة بإجازة الورثة إذا كان ما أوصى به لوارث لا يرجع إليهم إن ردود ، كالوصية لوارث بالكفارة أو بشاة الأعضاء أو نحو ذلك، وإن كان فيه عمل كالحج والقراءة في موضع فقد يجوز، ومن وقف مع الحديث عموما منعه. وإن أُوصى الوارث بحق عليه له جاز إجماعا مع انتفاء الرّيبة، مثل: أن يوصي بأُرش ضربة ضربه إياها، أو بمال له أكله منه بلا رضى، وخرج من الكل على أنه متواتر، وإلا فالناسخ آيات الإرث والحديث مبين للنسخ بمن.

---

[54]) رواه ابن ماجة في الوصايا (6)، باب لا وصية لوارث ، رقم 2713 و 2714، من حديث أنس وكذا أبي أمامة. ــ ورواه ابن البيهقي في الوصايا(1) ، باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين الوارثين ، رقم 12541، من حديث أنس.

[55]) رواه ابن ماجه في الوصايا (6)، باب لا وصية لوارث، رقم 2712، من حيث عمرو بن خارجة. ــ ورواه أحمد في مسنده ، 314/6، رقم 18108و 18109، من حديث ابن خارجة كذلك.

[56]) انظر: تيسير التفسير: 377/1

وبقيت الوصية للأقارب الذين لا يرثون من جهة الأب ومن جهة الأم على ترتيب... قيل: المراد بالأقارب ما يشمل المشركين تأليفا للناس، ورعاية لحق القرابة في أول الإسلام، ولما كثر الإسلام شرع الإرث ونسخ الوصية للوارث. وثبت أنّ الكافر لا يرث الموحد ، أو هذه الآية هي الميراث بحسب ما يريد الموصي، ثم نسخ ردّ التفصيل إليه بالتفصيل في آيات الإرث."[57]

مما تقدم تتضح ملامح مسلك القطب في بناء الفروع على الأصول، فقد أثبت أن الوالدين والأقربين من جهة الأب والأم لا يرثون الموصي رغم تصريح النص القرآني بشولها في حقهم؛ لأن نصوص السنة نسخت هذا الحكم، واقتصرت الوصية على حقوقهم إن لزمته في ماله، كالديون و الجنايات.

8- في عضل الولي للمرأة في الزواج:

لا يجوز للولي أن يمنع وليته من الزواج بالكفء، فإن فعل ذلك فقد عضلها، ويجب على الولي أن يزوّجها به وإلا وَكّلت من يقوم مقامه، أو ترفع أمرها للحاكم أو من يقوم مقامه من جماعة المسلمين فيجبره على تزويجها، أو تُزوّج بغير رضاه لرفع الضرر عنها؛ لأن العضل ظلم وضرر، "والضرر يزال"، وذهب بعض فقهاء الإباضية إلى جواز جبره بالحبس، وصححه القطب، وقيل بالضرب تأديبا له، وكذلك إن اشترط عليها أن يأخذ جزءا من صداقها، أو تُسلّم له مبلغا من المالْ حتى يزوجها، فهذا ضرر لا يقره الشارع. ولذلك يجب إزالته: لقوله تعالى: ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾[سورة النساء الآية19.] وقوله عزوجل ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾[سورة البقرة:232].

تعرض القطب أطفيش إلى هذه المسألة وفصل فيها القول وأجلاه، ومما جاء عنه في شرح النيل:" ويجبر الولي على تزويجها إن امتنع منه بلا عذر، وهو ظلم لها وكبيرة فرضها عليه، أو تجعله في حلّ، ويجبر بلا ضرب إن لم يجد كفؤها ووجد غيره، وخاف عليها

---

[57] أطفيش: المصدر نفسه، 378/1.

الزنا. وإن امتنع وكّلت حينئذ مَن يزوجها، أو زوجها الحاكم أو الإمام أو الجماعة (فقيل): يجبر على الحبس، وهو الصحيح، وقيل يضرب بلا عدد محدود حتى يزوجها من كفئها إن حضر الكفؤ، وقيل: يضرب تأديبا، ويزوجها الإمام أو نحوه، أو الجماعة، أو يوكّلون لها أو توكّل هي، أو يزوجها وليّ دون الولي الممتنع، كشقيق الأب، فيزوجها أبويّ زوّجه الأوْلى، الإشارة إلى ضعف قول الضرب، لأنه لا تفوتُ نفس بعدم التزويج بخلاف نفقة الولي..."[58]

ونقل القطب عن أصحاب " الديوان " أنه لا يجوز للولي أن يمنع المرأة من الزواج من الكفء بسبب الطمع في مالها، فكما لا يجوز مضارتها في نفسها كذلك لا يجوز مضارتها في مالها، وفي ذلك يقول:" قال في "الديوان": ينظر المسلمين في منعه، فإن أراد به المال ومضرتها فلا يتركوه إلى ذلك، وليُخوّفوه بالله تعالى، لقوله تعالى:﴿ ولا تعضلوهن ﴾. وإن اعتل بعلّة نظروا، فإن وجدوا لها وجها رجعوا إلى المرأة وأمروها بطاعة وليها: لأنه الناظر لها، وإن أراد إضرارها أمرها أن تولّي أمرها غيره، وإن طلبت إليه واحدا فردّه ثم آخر فردّه أو أكثر، فهل يكون ذلك تعطيلا أم لا؟ قولان، وإنما ينظر إلى إضرارها، إذ لا حدّ لذلك؛ لأنه ربما ردّ واحدا أو أكثر وله وجه، وربما ردّ واحدا وهو فيه أضر..."[59]

وقد أشار القطب إلى مسألة هامة كانت سببا في بوار كثير من الفتيات في عصرنا، وهي أن تكون الفتاة عاملة أو موظفة لها راتبا شهريا تنفق به على أسرتها، فيعتمد عليها وليها في النفقة، ولّما يتقدم لها من يتزوجها يمتنع الولي، فإذا أصرت البنت الموظفة على الزواج طلب منها وليها مبلغا ماليا تعجز عن تسديده، أو يرهن لها أملاكها، فإذا تزوجت قضت مدة طويلة في تسديد دينها حتى تفك رهنها، وهذا من الإضرار الذي لا يقره شرع ولا عرف، وربما تسبب في خلافات زوجية انتهت بالفراق.

---

58) أطفيش،شرح كتاب النيل، 112/6.

59) أطفيش، المرجع نفسه:114/6.

يقول القطب أطفيش في هذا الشأن:" وحرُم على الولي أخذ مال من وليته على تزويجها بلا طيب نفسها، إن امتنع منه إلا بالمال؛ لأن تزويجه إياها فرض، ولا يحل له أخذ مال على فرض، وحَلّ لها أن تعطي، قال الله تعالى:﴿ وأنكحوا الأيامى ﴾[سورة النور الآية 32] تأمر الأولياء بالإنكاح، و الأمر للوجوب، أيْ إن أرَدْنَ، وقال تعالى:﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن... ﴾[البقرة الآية: 232] أي يتخذن أزواجا، فنهاهم أن يمسكوهن، والنهي للتحريم إلا بقرينة، فلا يجوز له أن يفعل المنع ويتوصل به إلى الأجرة، إلا إن كان يسافر إلى العقد فله الأجرة".[60]

خلاصة القول:

فالشارع الحكيم أعطى الحق للولي أن يزوّج وليته وأوجب على الأبناء إن كانوا قادرين أن ينفقوا على والديهم إن كانا فقيرين، وفي الوقت نفسه منع الولي من عضل وليته عن الزواج لأجل المال، لأن ذلك تعسف في استعمال الحق، وضرر للمرأة يجب إزالته، ولذلك سمح لها الشارع أن توَكل من يقوم مقام وليّها ليعقد عليها ولوكان وليّا أبعد منه، بشرط أن يكون من العصبة، فإن تعذر ذلك ينوبه الحاكم أو جماعة المسلمين حتى لا يكون تعطيل طريق الزواج بتعنت الولي سببا في انحرافها ووقوعها في الزنا.

ويظهر من خلال النصوص المتقدمة أن القطب بنَى هذه الفروع على أصول وقواعد عامة، كالنص القرآني و آثار فقهاء الإباضية كأصحاب ديوان الأشياخ ، ومن القواعد الكلية التي تدعو إلى التخفيف عند المشقة وهي :" المشقة تجلب التيسير" وقواعد رفع الضرر وهي :" لاضرر ولا ضرار" والضرر يزال".

خاتمة

بعد هذه الجولة العلمية التي قادتنا إلى تراث الشيخ المحمد بن يوسف اطفيش الفقهي، وتعرفنا من خلالها على ملامح من شخصيته ومكانته العلمية، و أثناء تتبعنا لاجتهاداته الفقهية اكتشفنا منهجه في بناء الفروع على الأصول، وكان يعتمد أساسا على

60) أطفيش، المرجع نفسه، 113/6.

مصادر التشريع المعروفة، وهي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، والاستصحاب والمصالح المرسلة، والعرف وسد الذرائع وغيرها، ويستند كذلك على القواعد الأصولية والفقهية التي يخرّج عليها الفروع الفقهية، ولم يكن يلتزم دائما قواعد المدرسة الإباضية في تخريجه للفروع، فقد يخرُج عنها أحيانا إذا وجد دليل المخالف أقوى وأصح، كما يراعي في اجتهاداته مقاصد الشريعة العامة، ولم نستطع أن نمثّل لجميع الأصول والقواعد التي يعتمد عليها في اجتهاداته، وقد اخترنا بعضها ومثّلنا لها بنماذج تطبيقية من مختلف الأبواب الفقهية، ولا ندعي أننا استوفينا حقه من الدراسة، وحسبنا أننا قدمنا للقارئ الكريم مدخلا لدراسة منهج الشيخ في بناء الفروع على الأصول، ولاشك سوف يتبع هذا المدخل بدراسة علمية عميقة ومتخصصة، تصلح لأن تكون مشروعا للماجستير أو الدكتوراه، وما ذلك على الله بعزيز، والله من وراء القصد.

عرض وتحليل لكتاب "جامع الشمل في أحاديث خاتم الرسل"

للعلامة أحمد الهفيش

الدكتورة : سعاد بيطاط

أستاذة الحديث / قسم الكتاب والسنة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة .

الحمد لله وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له الملك القدوس السلام .

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله خصه بجوامع الكلم وأنزل عليه القرآن . فهو أكرم الأنبياء وخاتم الرسل وسيد الخلق أجمعين ؛ صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه .

أما بعد : فإن أشرف العلوم بعد القرآن الكريم ، وأحقها بالبحث والتحقيق ، علم السنة النبوية التي هي موضحة للقرآن ومبيّنة له وهادية إليه . وهذه لَمحاتٌ يسيرةٌ في شكل بطاقة فنية ؛ الغرض منها التعريف بأحد كنوز كتب الحديث النبوي الشريف للاستفادة بما تميز به من خصائص ومزايا .

* العنوان : جامع الشمل في أحاديث خاتم الرسل .

* المؤلف : العلامة محمد بن يوسف أطفيش (ت 1914م) .

* تحقيق وتخريج أحاديثه : عبد الرحمان عميره .

* الناشر : دار الجيل ، بيروت ، لبنان .

* سنة النشر : 1408 هـ / 1988 م .

* عدد الأجزاء : 2 .

* رقم الطبعة : 1 .

وقبل أن نتناول الكتاب بالعرض والتحليل نقدم صورة عن حياة صاحب الكتاب .

1 التعريف بالمؤلف:

" أطفيش (1236 – 1332هـ = 1820 - 1914 م) محمد بن يوسف بن عيسى الحفصي الجزائري، [نسبة إلى عمر بن حفص الهنتاني ، جد العائلة الحفصية المالكة في تونس] .

علامة بالتفسير والفقه والأدب، إباضي المذهب، مجتهد، كان له أثر بارز في قضية بلاده السياسية يدل على وطنية صحيحة" .

ولد وعاش ومات في بلدة يسجن . أخذ العلم عن أخيه الأكبر إبراهيم .ثم اعتمد على نفسه في طلب العلوم ، فأقبل على الكتب ينهل من بطونها المعرفة .

فتح داره للتدريس عام 1837 م . ونفي إلى آت بونور ، فمكث بها حوالي عشر سنوات ، ثم عاد إلى بلدته.

ألف العديد من الكتب تزيد عن ثلاثمائة مؤلف في شتى العلوم : التفسير و التجويد ، الحديث و مصطلحه و السيرة ، الفقه و أصوله ، التوحيد و علم الكلام و الفلسفة: الوعظ و الأخلاق ، اللغة العربية و علومها ، التاريخ ، الفلك و الحساب ، الطب ، الفلاحة ، الفرائض وغيرها ...

تخرج على يديه الكثير من التلاميذ ، أصبح البعض منهم من أبرز العلماء و أجل الشخصيات ، مثل إبراهيم أبو اليقظان ، و صالح بن الحاج محمد الداودي وغيرهما ....

زيد ما يزيد من سبعين سنة في العطاء تدريسا وتأليفا توفي الشيخ متأثرا بالسم الذي وضعه له أحد العملاء الفرنسيين . جعله الله مع الشهداء و الصديقين .

2 التعريف بالكتاب :

يجمع هذا كتاب الأحاديث النبوية الشريفة مبوبة حسب الموضوعات ، افتتحه بكتاب الإيمان وختمه بكتاب الإرث ، عدد أحاديثه 1306 حديثا مخرجا إياها من كتب الحديث المعتمدة والمشهورة. كالصحيحين ، والموطأ، والمستدرك، والسنن الأربعة، ومعاجم الطبراني، وغيرها ....

وهذا فهرس تفصيلي يبين عناوين الكتب و عدد الأحاديث مع ذكر الجزء والصفحة .

أ. فهرسة تفصيلية للكتاب :

عنوان الكتاب	عدد الأحاديث	الجزء والصفحة
1 الإيمان والإسلام	1- 48 ح = 48	1 / 1 ..
2 النبي ﷺ وما يتصل به والأنبياء	49 - 233 ح = 184	1 / 14 .. .
3 الملائكة والجن	234 – 295 ح = 61	1 / 54 ...
4 الأسماء	296 – 356 ح = 60	1 / 67 ...
5 القرآن الكريم	357 – 532 ح = 175	1 / 78 ...

6 الكتابة	533 – 547 ح = 14	1 / 110 ...
7 الحب	548 – 603 ح- 55	1 / 114 ...
8 السلام والاستئذان	604 – 645 ح = 41	1 / 125 ...
9 الدعاء	646 – 718 ح = 72	1 / 135 ...
10 العلم	719 – 805 ح = 86	1 / 151 ...
11 العمل والذكر	806 – 873 ح = 67	1 / 165 ...
12 الرؤيا	874 – 897 ح = 23	1 / 181 ...
13 الصدق والكذب	898 – 921 ح = 23	1 / 186 ...
14 الأدب	922 – 982 ح = 60	1 / 191 ...
15 الطعام والشراب	983 – 1077 ح = 94	1 / 204 ...

16 الطب والتحفظ	1078 – 1172 ح = 94	1 / 223 ...
17 التنظف و التطيب	1173 – 1249 ح = 76	1 / 242 ...
18 السواك	1250 – 1269 ح = 19	1 / 258 ...
19 الخلق و التخلق	1270 – 1325 ح = 55	1 / 263 ...
20 اللباس	1326 – 1386ح = 60	1 / 274 ...
21 البركة	1387 – 1409ح= 22	1 / 287 ...
22 النعمة و الشكر	1410 – 1430 ح= 20	1 / 292 ...
23 المال و الكسب	1431 – 1524 ح= 93	1 / 296 ...
24 الدنيا	1525 – 1544 ح= 19	1 / 315 ...
25 نفع عيال الله	1545 – 1635 ح= 90	1 / 320 ...

26 القرابة	1636 – 1658 ح= 22	1 / 340 ...
27 الجار	1659 – 1671 ح= 12	1 / 346 ...
28 الضعفاء	1672 – 1723 ح= 51	1 / 349 ...
29 الأخوة و الصحبة	1724 – 1772 ح = 48	1 / 360 ...
30 ما يتخذ من الحيوان	1773 – 1798 ح = 25	1 / 370 ...
31 ما جاء في اللهو واللعب	1799 – 1808 ح = 9	1 / 375 ...
32 الطيرة و الفأل	1809 -1816 ح = 7	1 / 378 ...
33 ما جاء في الحمام والعورة	1817 – 1830 ح = 13	1 / 380 ...
34 ما جاء في الفتنة	1 – 32 ح = 31	2 / 3 ...
35 ما جاء في المسكرات	33 – 55 ح = 22	2 / 11 ...
36 ما جاء في الكبائر	56 – 97 ح = 41	2 / 16 ...

37 الأمر و النهي	98 – 114 ح = 16	2 / 25 ...
38 التوبة	115 – 145 ح = 30	2 / 29 ...
39 العفو و التوقير	146 – 166 ح = 20	2 / 36 ...
40 ما جاء في المصائب والصبر	167 – 206 ح = 39	2 / 40 ...
41 ما جاء في الحمى والطاعون	207 – 220 ح = 13	2 / 49 ...
42 القدر	221 – 236 ح = 15	2 / 53 ...
43 ما جاء في العين	237 – 245 ح = 8	2 / 56 ...
44 ما جاء في الموت والخسف والمسخ والنوم والقبر	246 – 327 ح = 81	2 / 58 ...
45 العيادة والتعزية والنواح	328 – 346 ح = 18	2 / 76 ...
46 أشراط الساعة	347 – 405 ح = 58	2 / 80 ...

47 البعث والسؤال	406 – 417 ح = 11	2 / 95 ...
48 الجنة والنار وأهلهما	418 – 496 ح = 78	2 / 99 ...
49 الميرات والأزمنة والأمكنة	497 – 529 ح = 32	2 / 118 ...
50 الولاية والجماعة	530 – 584 ح = 54	2 / 125 ...
51 القتل والقتال والحد	585 – 663 ح = 78	2 / 138 ...
52 القصاص و الأرش و الدية	664 – 685 ح = 21	2 / 158 ...
53 الأحكام	686 – 731 ح = 45	2 / 163 ...
54 المسجد والمجالس والبناء	732 – 781 ح = 49	2 / 173 ...
55 التطهر	782 – 815 ح = 33	2 / 185 ...
56 الأذان والإقامة	816 – 835 ح = 19	2 / 194 ...

والإمامة		
57 الصلاة	836 – 942 ح = 106	2 / 200 ...
58 صلاة الجنازة	943 – 961 ح = 18	2 / 226 ...
59 الخشوع و التواضع	962 – 977 ح = 15	2 / 231 ...
60 الصلاة على النبي ﷺ	978 – 987 ح = 9	2 / 235 ...
61 الزكاة	988 – 1020 ح = 32	2 / 237 ...
62 الصوم	1021 – 1086 ح = 65	2 / 247 ...
63 الحج	1087 – 1142 ح = 55	2 / 263 ...
64 الذبائح	1143 – 1160 ح = 17	2 / 274 ...
65 النكاح	1161 – 1248 ح = 87	2 / 278 ...
66 المعاملة بالمال	1249 – 1283 ح =	2 / 297 ...

	34	
67 الوصية	1284 – 1294 ح = 10	2 / 305 ...
68 الإرث	1295 – 1306ح = 11	2 /309 – 311 .
المصطلح: المرسل..الصحيح...المعلق...المختلف.		2 / 312 – 458 .

2. ملاحظات ونتائج:

1/ يلاحظ كثرة الكتب وقد بلغ عددها 68 كتابا، وتنوع موضوعاتها من عقيدة، وأحكام ، وحدود، وآداب، وفتن،...كما هو معهود في كتب الحديث الجامعة لكل موضوعات الدين؛ كجامع البخاري. ولعله السبب في تسمية الكتاب بالجامع-أراد به الشيخ- هذا المعنى الاصطلاحي عند المحدثين .

ويحتمل إرادة المعنى اللغوي تقول "جَمَعْتُ الشيء إذا جئت به من ههنا وههنا"[2] فكأن الشيخ أنتقى الأحاديث من مصادرها المختلفة من ههنا وههنا .

أو بمعنى "أَمرٌ جامعٌ يَجمع الناسَ"[3] ، فالغاية المرجوة من الكتاب جمع شمل المسلمين الجزائريين ؛ "الشَّمْلُ الاجتماع يقال جَمعَ اللهُ شَمْلَهم أي ما تَشَتَّتَ من أمرهم"[4] .

ومما يميز الكتاب وجود مواضيع جديدة لا نراها في المصادر القديمة مثل كتاب الحب ؛

وكتاب الضعفاء ، وهي تدل على فقه الشيخ وفطنته بواقع الحياة التي يعيشها الناس في زمنه وحاجتهم لمثل هذه المواضيع .

2/ ويلاحظ في ترتيبه للموضوعات مخالفة المعهود عند المتقدمين؛ كالموطأ والصحيحين والسنن فقد أخر العبادات (الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج) والعادة عندهم أن تتقدم .

ويمكن تصنيف عناوين الكتب وكيفية ترتيبها في مجموعة عناصر لعله يسهل علينا فهم وجهة نظر الشيخ في هذا النسق ؛

* مسائل العقيدة : 1 الإيمان والإسلام ، 2 النبي ﷺ والأنبياء ، 3 الملائكة والجن .

* الجانب الروحي والعقلي في الإنسان : 4 الأسماء ، 5 القرآن.....، 14 الأدب .

* الجانب المادي في الإنسان : 15 الطعام والشراب.....، 22 النعمة و الشكر .

* المال والرزق : 23 المال و الكسب ، 24 الدنيا ، 25 نفع عيال الله .

* الروابط الاجتماعية : 26 القرابة ، 27 الجار ، 28 الضعفاء ، 29 الأخوة و الصحبة .

* علاقة المسلم بمحيطه : 30 ما يتخذ من الحيوان .....، 32 الطيرة والفأل .

* الكبائر والمحرمات : 33 ما جاء في الحمام والعورة.....، 36 ما جاء في الكبائر .

* اتباع الأوامر والنواهي : 37 الأمر و النهي ، 38 التوبة ، 39 العفو و التوقير .

* مصيبة المرض، الموت : 40 ما جاء في المصائب والصبر....، 45 العيادة والتعزية والنواح .

* أمور الآخرة وبدأ الخلق : 46 أشراط الساعة.....، 49 النيرات والأزمنة والأمكنة .

* الأحكام الولاية والقضاء : 50 الولاية والجماعة....، 53 الأحكام .

* العبادات : 54 المسجد والمجالس والبناء.....، 63 الحج .

* معاملات : 64 الذبائح.....، 68 الإرث .

يظهر أن العلامة ذكر الإيمان أولا لتحقيق مقصد العبودية من خلق آدم . و ثانيا تعامل المسلم مع غيره من الناس، ومع المال، ومع البيئة؛ لتحقيق مقصد التعمير في الأرض . فالذمة لا تبرأ إلا بأداء حقوق الغير. وبعدها في مرتبة ثالثة إقامة الشعائر و ما يخص علاقة العبد بربه ، ورابطة النكاح وما يتبعها.

3/ وعدة الأحاديث في الكتاب الواحد يتراوح بين أصغر عدد وهو سبعة (7) أحاديث [32 الطيرة والفأل] ، وأكبر عدد وهو مئة وأربعة وثمانون (184) حديثا [2 النبي ﷺ وما يتصل به والأنبياء] .

وأظن كثرة أو قلة العدد يتعلق بأهمية موضوع الكتاب مثال كتاب الوصية جاء فيه عشرة أحاديث ، بينما في الحج خمسة وخمسون حديثا .

4/ و ذيل العلامة آخر الكتاب بقسم خاص بالمصطلح ذكر فيه بإيجاز أنواع الحديث من صحيح ومتواتر وضعيف وآحاد وغيرها من المصطلحات ، وقد يستعرض أقوال العلماء عند الاختلاف في تعريف مصطلح وبعد بيانها قد يعلق لإبراز الراجح والصائب منها مثاله ما جاء في الحديث المرسل .

5/ ورغم كون الشيخ إباضيا فإنه لا يظهر ذلك في كتابه بقسميه ؛ الأول الخاص بأقوال وأفعال النبي ﷺ . والقسم الثاني الخاص بالمصطلح وتعليقه أحيانا على الآراء لمن سبقه من العلماء .

وأخيرا قد جاء الكتاب فيه كثرة وتنوع في مواضيع الكتب والتقاء للأحاديث المناسبة،

دلت على تبحر المصنف وسعة اطلاعه وفطنته في الاختصار مع الإفادة . فكأني بالشيخ أشبه بالنحلة التي طافت على أزهى الأزهار فاستقت منها أطيب الرحيق فأنتجت عسلا صافـ؛ قدمه بين يدي طالب العلم ليتناوله هنيئا مريئا.

[1] – الأعلام للزركلي ، 7 / 156 – 157 .

[2] – لسان العرب ، 8 / 53 .

[3] – نفسه .

[4] – نفسه ، 11 / 364 .

قضايا الإصلاح والتجديد

ثم تتلمذ اطفيش وتلقى تعليمه على يد ثلة من مشايخ عصره أبرزهم شقيقه الحاج إبراهيم الذي كان له الفضل الكبير في بناء شخصيته العلمية والأخلاقية,وقد أشاد بفضله عليه كثيرا,وخلد ذكره في قصيدة خصها بمدحه[2]

ولقد كانت هاته المرحلة بالنسبة إليه مرحلة تأسيس وبناء لفكره الأخلاقي,ثم اعتنى بتكوين ذاته,وتنمية عقله وتغذيته بالعلوم والمعارف لينتقل بعدها إلى مرحلة العطاء,فيسهم بكل ما أوتي في إصلاح النفوس وتهذيب الطباع,وتوجيه الإنسان المؤمن توجيها أخلاقيا سليما,لاسيما وقد سادت في عصره أنماط سلوكية فاسدة عند العامة والخاصة,وتفننت فيه مساعي المستعمرين الرامية إلى طمس الشخصية الجزائرية المسلمة وقيمها الفاضلة.

ومفاد القول: إن نشأة اطفيش الأولى في بيئة متمسكة بدينها,ومعاناته من آلام اليتم وشظف العيش,وتلمذته على أهل العلم و العرفان, وحضوره في عصر تدهورت فيه القيم, يسيطر فيه الجهل,ويحكم فيه مستعمر صليبي حاقد,كانت هي العوامل الرئيسة التي دفعت اطفيش إلى الوجهة الروحية والأخلاقية والاهتمام بها,ويتجلى ذلك في المجالات الآتية:

أ- نشاطه التربويّ والتعليميّ:

ركز الشيخ اطفيش على التربية والتعليم,وإعداد الناشئة قصد إقامة مجتمع صالح تسوده الفضائل,وتحكمه القيم،فقد اتخذ التدريس رسالته في الحياة وقضى حوالي ثمانين عاما معلما.

وإذا كان الإنسان قابلا للتأثر والتأثير في مختلف مراحل عمره,فإن التوجيه له لازم في كل الأطوار ونافع له وبالأخص لحديثي السن ليتعودوا على محبة الفضائل,ويسهل عليهم تجنب الرذائل , وأهمية التربية نابعة من أن الفضائل مكتسبة, تتحقق بالعلم والعمل,فإن العلم هو المبدأ والعمل هو التمام, والمبادئ الأخلاقية تنبني على المعرفة.يقول اطفيش: " لا ينفع علم أو عمل بلا آخر, ولا يصح عمل بلا علم"[3]

ولقد كان جل المتخرجين من معهد الشيخ قدوات صالحة في الالتزام الأخلاقي, والوفاء الديني, وانعمل العلمي الرصين أمثال: أبواليقظان إبراهيم (1888م ـ

1973م)،وأبو إسحاق إبراهيم اطفيش (1886م ـ 1965م)، و سليمان باشا الباروني الليبي (1887م ـ 1940م)،و الحاج صالح بن عمر لعلي (1871م ـ1928م) وغيرهم كثير[4]...

فقد وفق الشيخ اطفيش أيما توفيق في تربية مريديه على القيم والمبادئ السامية وتزويدهم بالعلم النافع فكانوا مرجعيات ذات مصداقية في مجتمعاتهم.

ب- **إصلاحه الدعويّ والاجتماعيّ:**

لم ينعزل اطفيش عن واقعه الاجتماعي،ويشتغل بتآليفه وبحوثه النظرية بل كان مخالطا للناس، حاضرا في عصره، موجها لمن حوله سواء في المسجد،أوفي حلقات التدريس، أوفي السفر والحضر،وقد تعامل مع طبقات المجتمع المختلفة من طلبة العلم والعلماء والحكام والعامة،كما أنه لم يهمل العنصر النسوي في دعوته فقد خصص لهن أوقاتا لإرشادهن والإجابة عن أسئلتهن[5].

ويرى اطفيش أن مخالطة الناس والصبر على أذاهم أولى من الانعزال، يقول مجيبا لمن سأله عن الاشتغال بقضايا الناس: " ومما سألتما عنه الاشتغال بأمر المسلمين، اعلما أنه أولى من الانفراد لكن مع تحمل الأذى ومعالجته،وإذا قوي عليكما الإخلاص سَهُلَ عليكما الأذى فتجدان راحة في قلوبكما تصلان معها إلى التعلم والتعليم." [6]

وقد ارتكزت دعوته على إصلاح المعتقدات الفاسدة والأخلاق المتردية،والتقاليد البالية: كالشعوذة، وتقديس بعض الأماكن والأموات،وانتشار روح التواكل،والبطالة،والفُرقة والاختلاف،والذلة والخنوع في وجه الاستعمار وأعداء الدين،وغيرها من العادات المستحكمة،كعادة ترك السلام، وانتقاده الشديد لأسلوب التربية السائد في عصره الذي يعتمد على القسوة والفظاظة والحرمان،ويقتل في الأبناء شخصيتهم ومواهبهم.[7]

وقد احتمل الشيخ في سبيل نشر دعوته الأخلاقية والإصلاحية الأذى الكبير،فلم يسلم من ألسنة الحاسدين،وأقاويل المستهزئين،والكيد له،ونفيه من بلده،ومحاولة الفتك به.لكنه بقي

رغم أنف الأعادي كالطود الأشم جريئا صامدا, ومحتسبا صابرا إلى أن مكّنه الله تعالى من نشر دعوته,ودحر مناوئيه.

ج ـ مؤلفاته وكتاباته المتنوعة:.

لا تخلو كتابات اطفيش المتنوعة من إشارات مفصلة أو مقتضبة إلى علم الأخلاق والقيم, فقد اهتم بهذا العلم وهو يكتب سواء في مجال العقيدة أو الفقه أو التفسير أو الأدب, وفي تآليفه الذاتية,وفي شروحه وتلخيصاته ومراسلاته. وتتمثل أهم أعماله فيما يأتي:

- شرح كتاب النيل وشفاء العليل حيث خصص الكتاب الثاني والعشرين منه في الأفعال المنجية من المهلكة (ج16 وج17 ومجموع صفحاتهما 1590) وقد شرح بإسهاب وتحليل مقامات الأخلاق, وبين موقعها من علوم الشريعة, وآثارها في سعادة الفرد أو شقاوته.
- الذهب الخالص المنوه بالعلم الخالص وقد خصص الركن السابع منه لعلم الأخلاق والآداب والحقوق,ويبرز الشيخ أبو إسحاق أهمية الكتاب قائلا:" هو من أهم الكتب الفقه الإسلامي الشامل لمستنبطات المجتهدين المشهورين الجامع لأصول الدين وفروعه جمعا غير ممل ولا مخل,ولقسم من علم الأخلاق والاجتماع المفتقر إليهما في الأوساط الإسلامية أشد افتقار في هذا العصر الذي ضربت فيه المدنية الخادعة الأوربية بقسط أوفر حتى هرعت إليها نفوس الضعفاء وما أكثرهم,وذرفت لهول تأثيرها قلوب المخلصين وقليلٌ ما هُم." [8]
- الحاشية على كتاب القناطر للجيطالي ,وكتاب القناطر "كتاب قيّم في مقاصد التشريع وفلسفة الأخلاق يقع في ثلاثة مجلدات ضخمة (مجموع صفحاتها 1557 صفحة) قسمه الجيطالي إلى سبع عشرة قنطرة,إذ شبّه الفرائض بالقناطر التي يمكن للسالك عليها العبور للوصول إلى السعادة الأبدية"[9] وقد وضع الشيخ اطفيش عليه حاشية قيمة,ولا يزال الكتاب مخطوطا بمكتبة القطب ببني يزقن رقم:(أ.و:5).

- الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: كتاب قيم في التربية الإيمانية والروحية يقع في (273 صفحة) يرى الشيخ أن معرفة أسماء الله الحسنى دافع إلى تربية النفس وحملها على التخلق بما توحي به هذه الأسماء من معاني جليلة، وقد بين أن قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة))[10] لا ينحصر الإحصاء في العد والذكر المجرد الآلي فحسب، بل يتعدى ذلك إلى التخلق بمعانيها في السلوك[11].
- تفسيره للقرآن الكريم: حيث نجد فيه إشارات مهمة إلى المباحث الأخلاقية سواء في تيسير التفسير أو في هميان الزاد إلى دار المعاد.
- منظومات شعرية في المواعظ والحكم الأخلاقية، وأدب السلوك. ومنها قصيدة بائية تقع في 117 بيتا يقول في بعض أبياتها:

بُنَيّ تجافَ عن فراشك واقتن ... وسامر علوم الدين تفتح لك البابا
... ولا ترج جودا من بخيل فليس في ... لظى من مُنى وليس في الرجس ما طابا
... أرى في قيام الليل فوزا وفي الغنى ... عن الناس عزا فاتخذ منهما دأبا
وكن مولعا بالسيف تخضبه الدما ... ولا تولعن بالسيف يُخضب إذهابا
ومن حُسن إسلام الفتى تركه اللغا ... وترك الهوى في كل حال وإسهابا
ودُر حيث دار الحق واجتنب الهوى ... بوقت الرضى أو أُغضبت إغضابا[12]

2) ـ البحث الأخلاقي

إن فلسفة الأخلاق في الإسلام نابعة من الدين وكفيلة بالخير المطلق وصالحة للناس جميعا، وهي تتسم بالثبات والاستقرار، خلافا للأخلاق الوضعية الخاضعة لأهواء الأفراد والمستخلصة من فلسفات الحكام ومصالحهم يطبعها التقلب والاضطراب والتعدد والتبديل في العصر الواحد بله سائر العصور.

لم يبحث الشيخ اطفيش في قواعد جديدة لفلسفة الأخلاق لأن الدين قد حدد نظريته الأخلاقية المتكاملة، وإنما اجتهد في بيان الأفعال المنجية من المهلكة، فشرح القيم والفضائل

التي يجمل بالنفس التحلي بها,وحذّر من الرذائل التي ينبغي التخلي عنها, وتوقيها. ثم دعا المكلفين إلى تطبيق الأخلاق الإسلامية التي لا يأتيها الباطل,ولا تشوبها ميول الأشخاص.

أ) ـ في الفضائل:

نعرض جملة من الفضائل ونبين مفهومها الأخلاقي عند الشيخ اطفيش فيما يأتي:

- **فضيلة اليقين**

عرف اطفيش اليقين بأنه العلم الذي لا يشوبه شك بأن الأمور كلها من الله تعالى[13], ويتفاوت الناس في الدرجات قدر تفاضلهم في اليقين,فالزيادة في اليقين تفيد مطلق الفضل,كما أن العاقل لا يشك في أن عين اليقين أقوى من علم اليقين،وأن حق اليقين أقوى من عين اليقين,ودليله قوله تعالى:﴿ أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ [البقرة: 260] فأثبت لنفسه حقيقة الإيمان ويقينَه,وطلب زيادة الطمأنينة برؤية العيان فلا منافاة فيه لما قاله على خلاف لمن وَهِمَ فيه.

وقد تعرض إلى اختلاف المتكلمين والصوفية في مصطلح اليقين,فأما المتكلمون والنظار فيعنون به عدم الشك,وأما المتصوفة فيعنون بها استيلاء الشيء المصدق به على القلب, وغلبته عليه حتى يصير هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتحريض والمنع.

بيد أن اطفيش يرى أن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين بالمعنيين جميعا,وهو نفي الشك,ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها,وهو المتصرف فيها[14].فبناء على المعنى الأول يوصف اليقين بالقلة والكثرة من جهة متعلقاته,ومتعلقات اليقين هي ما جاء به الأنبياء,وفي مقدمتها التوحيد.كما يوصف بالقوة والضعف حسب المعنى الثاني وذلك في الغلبة والاستيلاء على القلب.

ويسوق نماذج لمتعلقات اليقين وثمراته مثل:

ـ الثقة بضمان الله الرزق في قوله تعالى:﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾[هود:6] فإن صحت ثقته لم يشتد خوفه ولا حرصه وشرهه وتأسفه,وأثمرت هذه الثقة جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة.

_ اليقين بالثواب والعقاب وهو أن يغلب على قلب المرء قولُه تعالى:﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[الزلزلة:7_8] فإن صح ذلك منه حرص على الطاعات قليلها وكثيرها,وتجنب المعاصي قليلها وكثيرها كما يتجنب السم قليله وكثيره.

_ اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك في كل حال سرك وظاهرك،فإن صح ذلك منك تأدبت في خلوتك وفي قلبك كالمشاهد لملك عظيم أكثر مما تأدبت به في مشهد الناس وفي ظاهرك,وورثت الحياء والخضوع والانكسار والخوف،فهذه أخلاق تورث أنواعا من الطاعات رفيعة.

فاليقين في كل باب من هذه الأبواب كالشجرة,والأخلاق كالأغصان،والأعمال الصادرة من الأخلاق كالثمار والأنوار[15].

- **فضيلة الإخلاص والنية والإرادة**

الإخلاص تطهير الفعل من أمر مُدنس أو مفسد.والأمر المدنس كالصغائر.والمفسد كالكبائر وإظهار العمل رئاء أو المن والأذى.قال الله تعالى:﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[البينة:5] وقال تعالى:﴿ألا لله الدين الخالص﴾[الزمر:3] وقد أورد الشيخ اطفيش تعاريف كثيرة للعلماء والمتصوفة للإخلاص,منها[16] :

قول الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات

وقول المحاسبي: الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب

وقول أبي عثمان: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.

كما تحدث الشيخ عن النية وهي القصد,أي عزم القلب المقترن بالفعل,يقول:" واعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات تتوارد على معنى واحد وهو حالةٌ, وصفةٌ للقلب يكتنفها أمران علم وعمل,العلم يتقدمه لأنه أصله وشرطه,والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه, لأن كل حركة أو سكون اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور:علم,وإرادة,وقدرة,لأنه لا يريد الإنسان مالا يعلمه،ولا يعمل ما لم يرد فلابد من إرادة "[17]

وبين معنى الإرادة بأنها " انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض إمـا في الحـال أو في المآل،فقد خلق الإنسان بحيث يوافقـه بعـض الأمـور،ويلائم غرضـه،ويخالفه بعـض الأمور،فاحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه،ودفع الضار المنافي لنفسه"[18]

وقد وضع جملة من الضوابط تتعلق بالنية،وهي[19]:

ـ الابتدار إلى استحضار النية،لأن صحة الأعمال واعتبارها بالنيات لقـول الرسـول صلى الله عليه وسلم:" إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى" [20]

ـ لا تنقلب المعصية طاعة بالنية،بخلاف المباح فينقلب معصية بالنية،وينقلب طاعة بها.

ـ تكثير النيات للعمل الواحد،فبقدر تكاثر النيات يتضاعف الأجر،ولقد ورد في الخبر أن كل نية حسنة،وكل حسنة بعشر أمثالها, ويدعو المكلف أن لا يكتفي في الطاعة الواحـدة بالنية الواحدة,بل عليه أن يعدد نياته في التقرب حتى تشمل خيرات كثيرة تعود بالتزكية على عمله.

- **فضيلة الشكر**

عرفه الشيخ اطفيش أنه فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعما سواء كـان باللسـان أو بالجنان أو بالأركان,ومتعلقه لا يكون إلا النعمة.وهو واجب بالسمع والشرع والعقل.

ويرى أن الشكر ينتظم في علم وحال وعمل,فالعلم الأصلُ يورث الحال،والحالُ يـورث العمل,فالعلم معرفة النعمة من المنعم،والحال الفرح الحاصل بالإنعام،والعمل القيام بمقصود المنعم,ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح واللسان,ولابد أن يعرف أن النعم كلها مـن الله والأواسط مسخرون من جهة.

ويؤكد الشيخ أنه على المؤمن استعمال نعم الله عليه وعدم تعطيلها فكل ما خلق الله تعالى في الدنيا إنما خلقه ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى،فمن استعمل ما أنعم عليه من جوارحه وماله وعقله في معصية فقد كفر نعمَـه تعـالى،ومن أهملـها و لم يستعملها فقد كفر نعمه أيضا إذ عطلها عما خلقت له[21].

وبتوظيف هذا المفهوم الأخلاقي للشكر يسعد الفرد ويقوى المجتمع المسلم ويحقق الاستخلاف المنشود.

- **فضيلة الصبر**

هو حبس الإنسان نفسه على فعل الطاعة وعلى ترك المعصية أو حبسها عن الجزع.ويجب الصبر على عمل الفرائض,واجتناب العصيان,وعند نزول البلاء[22].

والصبر هي خاصية إنسانية, وضرورة له,فهو محتاج إليه في كل حال،فالإنسان مخلوق للصبر دون البهائم والملائكة.لأن البهائم سلطت عليها الشهوات،وأما الملائكة فقد جردوا للشوق من القرب ولا شهوة تصرفهم عن ذلك.

ويقرر الشيخ اطفيش أن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر المرء عليه,فهو جماع كثير من الفضائل،أو هو نصف الإيمان،فالصبر عن شهوة البطن والفرج يسمى عفة،وعن احتمال المكروه يسمى صبرا فقط،وضده الجزع،وفي احتمال الغنى يسمى ضبط النفس وضده البطر,وفي الحرب يسمى شجاعة وضده الجبن,وفي كظم الغيظ والغضب يسمى حلما وضده السفه,وفي نائبة مضجرة يسمى سعة الصدر وضده الضجر والتبرم وضيق الصدر,وفي إخفاء كلام يسمى كتمان السر،وعن فضول العيش يسمى زهدا وضده الحرص,وعلى قدر يسير من الحظوظ يسمى قناعة وضده الشره.

وقد استدل الشيخ بآيات كريمة وأحاديث شريفة في فضل الصبر وثمراته وثواب الصابرين كقوله تعالى: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[الزمر:10] وقوله تعالى ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين﴾[الأنفال:46].

أما عن حكم الصبر :فالصبر عن إتيان الواجبات وترك المحظورات فرض,وعن المكروهات مندوب،والصبر على العبادة غير الواجبة مندوب, والصبر عن المباح للتوصل بتركه إلى عبادة أو ليقهر نفسه بتركه مندوب.

ويمكن تحصيل الصبر بإضعاف باعث الشهوة بقطع مادتها من حيث الإكثار والتنويع,وتقوية باعث الدين بالتصدي إلى مغالبة باعث الهوى,والمجاهدة والتفكر[23].

- **في توقي الرذائل :**

عالج الشيخ اطفيش في بحوثه الأخلاقية جملة من الرذائل مبينا أسبابها وعلاماتها وأضرارها,ونورد بعضا منها فيما يأتي:

- **رذيلة الكبر**

ابتدأ حديثه عن الكبر موضحا أن الكبرياء صفة واجبة في حق الله تعالى لقوله عز وجل:﴿العزيز الجبار المتكبر﴾ [الحشر:23] وقوله ﴿وله الكبرياء في السموات والارض﴾[الجاثية:37] فالعظمة لله وحده لاستحقاقه لنعوت الجلال وتقدسه عن النقائص والآفات,والكبر في الخَلْق مذموم وحرام وباطل غير صدق لأن الخَلْق محلٌ النقص,فمن تكبر تكلّف أن يتصف بغير صفته,ومن عرف علوّه سبحانه وتعالى وكبرياءه لازم طريق التواضع وسلك سبيل التذلل[24].

وقد عرف الكبر بأنه "تسفيه الحق وغمط الخلق "[25],ويقرر أنه خصلة مهلكة تقدح في أصل الدين والاعتقاد بخلاف سائر الكبائر التي تقدح في العمل, فإذا قويت في النفس واستحكمت لم تُتدارك, لقوله تعالى:﴿إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾[البقرة:34]

وأقل أضرار الكبر على صاحبه أربع عواقب وخيمة:

الأولى: حرمان الحق وعمى القلب عن معرفة آيات الله وفهم أحكامه لقوله تعالى:﴿ سأصرف عن آياتنا الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ﴾ [الأعراف: 146]

الثانية: مقت الله وبغضه,لقوله تعالى: ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ [النحل:23]

الثالثة: الخزي،فالمتكبر لا يموت حتى يرى الهوان من أرذل أهله وخدمه.

الرابعة: النار في الآخرة لقوله تعالى في الحديث القدسي:" الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار"[26]

وأما عن أسباب الكبر فسبعة هي:

1. العلم وهو أعظمها لعلو قدره, فيعالج بمعرفة أن فضل العلم إنما هو بالعمل به,ومن العمل به ترك الكبر, وبمعرفة أن الكبر مشاركة لله تعالى,وأن فضل العلم إنما هو لتوحيد الله عن الشركة وخشيته تعالى.

2. الورع والعبادة,ويعالج بمعرفة أنه خارج عنهما إذا تكبر,ومعرفة أن الكبر حرام.

3. الحسب والنسب,فيعالج بمعرفة أن التعزز بهما تعزز بكمال الغير

4. الجمال,وأكثر ما يجر به النساء ويعالج بمعرفة أن ذلك نظر للظاهر وغفلة عن الباطن

5. القوة والغلظة,أو كلتاهما,فيعالج بمعرفته أن تلك صفات سبقته إليه البهائم,وأنها تزول بحمى ساعة أو يوم ولا سلطان له في حفظها.

6. المال

7 البنون والأقارب والغلمان والجواري والتلاميذ وسائر الأتباع والقرب من السلطان ويعالج بمعرفة أن ذلك خارج عن ذاته شاركته فيه اليهود والنصارى والمجوس,وأنه سريع زوال ذلك عنه وانقلابه.

وأما عن علامات الكبر فقد ذكر الشيخ اطفيش أنها تظهر في سلوك الرجل وصفاته وحركاته:كمحبة قيام الناس له أو بين يديه تعظيما له بلا وجدان كراهة من نفسه,وفي مشيته وتبختره وفي جلوسه, وفي عدم قبوله الحق عند النصح والمناظرة [27].

- **رذيلة الكسل والعجز والتواني:**

حدد الشيخ معنى الكسل بأنه هو التنائي عن الشيء والفتور فيه,قال تعالى: ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم وكسالى ﴾

[النساء:142] أي متثاقلون كأنهم أكرهوا عليها.وأما معنى العجز فهو الضعف عن الشيء ,ولو حزم لقوي عليه,والعجز عجزان: التقصير في طلب الأمر وقد أمكن, والجد فيه وقد فات.والعجز في هذا الباب ليس هو العجز عن الشيء بحيث يسقط التكليف عنه بل معناه قريب من الكسل كما سبق,وضده الحزم [28].

وبين الشيخ أن العجز والكسل في أمور الدنيا وإتيان النوافل قد يؤديان إلى العجز والكسل في أمر الدين والفرض،ولا يحسن وصف المتولي بهما.ويكونان من القلب كأن يفعل شيئا ولا رغبة لقلبه فيه,ويكونان من الجوارح كأن لا تنشط جوارحه لحرّ أو برد أو غيرهما وقد رغب فيه قلبه,ويكونان منهما معا بأن لا يرغب قلبه،ولا تنشط جوارحه[29].

وأما التواني فهو الكسل, وتضييع الحزم, وعدم القيام على مصالح النفس, وترك التسبب, والاحتراف,والإحالة على المقادير,وترك العمل.

وقد حذّر الشيخ من هذه الرذائل الثلاث التي قد تؤدي إلى العصيان إذا تعلّق الأمر بتضييع الفرائض الدينية والدنيوية.إنها صفات مشؤومة وآفات عظيمة قد تعوّذ منها الرسول صلى الله عليه وسلم في دعائه.

ج) ـ في الحقوق والواجبات:

إذا كان الحق هو ما لك,والواجب هو ما عليك فإننا نجد الشيخ قد يضع كلمة واجب موضع كلمة حق,وفي مواضع أخرى نجده يوظف كلمة أدب.

اهتم الشيخ في كتاباته بالأخلاق الاجتماعية التي ينبغي أن تسود في المجتمع المسلم,وفصل القول في الحقوق والواجبات والآداب,كحقوق الوالدين,وحقوق الأزواج,وحقوق الأولاد,وحقوق الخدم والجيران,وحقوق الضيف,وابن السبيل،وحقوق الأصحاب، وحقوق اليتامى والمساكين,وحقوق الأقارب وحقوق المسلم للمسلم وواجباته,وحقوق المساجد,وحقوق مجالس العلم والذكر, وحقوق الأزمنة والأمكنة, وحقوق الحيوان.ووجوب الإحسان إلى كافة الخلق,وحذر من وعيد الظلم والاعتداء والإيذاء بشتى أنواعه.كما تطرق إلى أهم الآداب في الأكل والشراب واللباس والضيافة والسفر...[30]

وفي ذكره لهذه الحقوق والواجبات والأدبيات تفاصيل دقيقة وفوائد جليلة وهو في كلّ ذلك كثير الحذر شديد الحيطة,يوضح المعاني وقد يكررها أحيانا حتى ترسخ في القارئ والمتلقي.

4)_ أسماء الله الحسنى مصدرا للتخلق:

اتخذ الشيخ اطفيش من أسماء الله الحسنى منبعا يستقي منه القيم وأصول السلوك, ومنهلا من مناهل التخلق،ثم اندفع يُحَدّث بها طلبته ومريديه, ويحثّهم على السير في هداياتها, يقول: " والله عز وجل يحب الاتصاف بصفاته وذلك بحسب الإمكان,وبأفعاله كذلك فالله عالم يبغض الجاهل,وجواد كريم نافع يبغض البخيل،وقادر يبغض مَنْ ترك نفسه للعجز والكسل,وأنت خبيرٌ بأنه لا يتصف أحدٌ بصفته تعالى وأفعاله,وإسناد البركة للاسم بمعانيها السابقة مجاز,والمتصف بها حقيقة واجب الوجود"[31]

وقد خصص كتابه الجليل الموسوم بـ" الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" لهذا الغرض يقول في مقدمته:" أما بعد فهذا كتاب وضعته في أسماء الله الحسنى ومعانيها ليشتغل به الطلبة عملا ودعاء لأن يمنح الله المسلمين الغلبة,ويجعل كلمة الذين كفروا السفلى, ويظهر في هذا العصر مضمون قوله: وكلمة الله هي العليا "[32]

وبين أن الأسماء الحسنى هي الألفاظ الحسنى لذاتها ولمعانيها وبركاتها وثواب ذاكرها,وأنها لا تنحصر في التسعة والتسعين اسما,لأن العدد لا يفيد الحصر مستدلا بآثار عديدة تدل على ذلك.

وقد شرع الشيخ اطفيش في شرح هذه الأسماء وبيان معانيها ثم استنتاج ما يلزم المكلف من سلوك عملي يستخلصه من ذلك الاسم,وفوائد الذكر به وبركاته المرجوة.ونعرض بعض النماذج فيما يأتي:

- **الرحمن الرحيم:** الرحمن بنعم الدنيا والآخرة والرحيم بنعم الآخرة,ويقال الرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى,وتؤخذ الزيادة تارة باعتبار الكمية وأخرى باعتبار الكيفية فعلى الأول قيل يا رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر,ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن,وعلى الثاني قيل يا رحمن الدنيا والآخرة,ورحيم الآخرة لأن النعم الأخروية كلها عظام,ونعم الدنيا جليلة وحقيرة.

الأثر العملي: لزم على المكلف أن يتصف بما يناسب صفة الله فيكون راحم القلب لا قاسيه.ومن شأنه أن يرحم خلق الله إذا مرضوا, أو جاعوا, أو أصيبوا بمصيبة, ويسعى بإزالة الضر[33].

- **القدوس**: التقديس التطهير,والأرض المقدسة المطهرة عن الشرك,ومعناه في حقه يرجع إلى استحالة النقائص في وصفه,وتنزيهه.

الأثر العملي: فالواجب أن يطهر الإنسان نفسه عن الشهوات, وماله عن الحرام والشبهات, ووقته عن دنس المخالفات, وقلبه عن كدورات الغفلات, وسره عن ملاحظة الخلق, والالتفات عن الحق,وأن يتنزه المكلف عما يشين دينه أو دنياه[34].

- **السلام**: معناه السالم عن الفناء والآفات والحاجات وصفات الخلق والنقص

الأثر العملي :ولابد أن يتصف المكلف بالسلامة من الظلم وقلبه من اعتقاد السوء في التوحيد والخلق لقول الرسول صلى الله عليه وسلم:" المسلم من سلم الناس من لسانه ويده"[35].وأن ينزه نفسه عن كل لهو, ولسانه عن كل لغو, وقلبه عن كل مغايرة, ويأتي ربه بقلب سليم,ويتأكد عليه إفشاء السلام ودفع المضار على الناس[36].

- **الحسيب**: معناه الكافي من قولك أعطاني حتى أحسبني,أي حملني على أني قلت حسبي,من فعيل بمعنى مفعل كأليم بمعنى مؤلم,أو معناه المحاسب لعباده, كالجليس بمعنى المجالس, وقيل الحسيب هو الذي يعد عليك أنفاسك,ويصرف عنك بفضله بأسك,وقيل معناه الشريف بمعنى أنه مختص بشرف الألوهية وكل كمال,والتفسير الأول أولى.

الأثر العملي: على المكلف أن يسعى في كفاية حاجات المحتاجين, وسد خلّتهم,ويحاسب نفسه بالمعرفة والطاعة,وأن يتقي الله حق تقاته[37].

بهذا المنهج التحليلي والتربوي تعامل الشيخ اطفيش مع أسماء الله الحسنى وصفاته,وقد كان موفقا إلى حد كبير في ربط سلوك الإنسان بخالقه جل علاه,وإعطاء العقيدة أبعادها العملية والاجتماعية مؤكدا أنها السبب الرئيس في تحصين سلوك الإنسان وتحقيق سعادته.

5) _ علاقة الشيخ اطفيش بالصوفية وموقفه من التصوف:

في كتابات الشيخ نلمس أنفاس التصوف,ونلتقي بأعلامه الكبار كالجنيد (ت298 هـ) الذي هو رئيس الصوفية وسيد علماء الآخرة في نظرهم, وأبو عبد الله المحاسبي (ت 243هـ) الذي سُمي بهذا اللقب لكثرة محاسبته لنفسه وهو شيخ الجنيد, وأبي حامد الغزالي(ت 505 هـ),وغيرهم,ويوظف مقالاتهم, ويستعمل لغتهم, ومصطلحاتهم, ويورد تعاريفهم لدعم أحكامه الأخلاقية,حتى ليخال للقارئ من أول وهلة أنه هو أحد أتباعهم.بيد أن الحقيقة غير ذلك,فبعد قراءة متفحصة لأهم آثاره نصادف نصا يصرح فيه الشيخ اطفيش عن موقفه من الصوفية والتصوف بلغة واضحة,يقول فيه:" ولا بدّ من علم الظاهر وإلّا زلّ أهلُ الباطن,ومن علمه [أي علم الباطن]وإلّا زلّ أهلُ الظاهر,وقد كنتُ ممارساً لعلم التصوف,ولا يخفى عليّ مقاصدُهم والحمد لله تعالى,وأُجيب عما أشكل, وكَرِهْتُه لأنه يُوهم تفسير القرآن بما هو خطأ,وكذا تفسير الحديث,والحقّ علم الظاهر مع مراعاة العمل...ومع ذلك أذكر أقوالا لأهل التصوف في تفسير الأسماء الحسنى إيناسا للطلبة ولنفسي,وفي ذلك وجهان: الأول _ قصدهم ما في نفس الأمر عمدا و لم يقصد نفس التفسير.

والثاني _ دعوى أن المراد بها في حق الله تعالى هو ما يذكرونه وأنه المراد, لا معانيها الظاهرة في اللغة المؤولة بما يناسب, وهذا لا يحسن إذ لا يعرفه أهل اللغة العربية, والله تعالى أنزل القرآن بها,ولا يرضى بما يخالفها.

ومن علم التصوف الجائز تدرَّعُوا إلى علمه المشوب ثم إلى الكفر,...وزعموا أن من أجهد نفسه في العبادة مغبون,ومن تمسّك بالشريعة محجوب,وأن هناك باطنا يخالف الظاهر إذا عرفه كَمُلَ وانحلّ عنه التكليف, ويسمونه مرشدا,صدقوا ولكن مرشد إلى النار." (38)

من خلال هذا النص تنكشف لنا رؤية الشيخ اطفيش إلى علم التصوف,وتمييزه الدقيق بين الجائز منه والمحظور,وتمسكه بالالتزام بالشريعة الإسلامية في عِلْمَيها الظاهر والباطن,فلا انفكاك لأحد منهما عن الآخر,ثم دعوته إلى تفسير نصوص القرآن والسنة وفق قواعد

اللغة العربية الفصحى لأنها الوعاء المبين لمعانيها من دون إيغال في التأويل,وخروج عن مقاصد الوحي.

6) _ علاقة علم الأخلاق بالعقيدة والفقه

إن التداخل الحاصل بين العلوم والمعارف وتشابك علاقاتها وتفاعلها في الممارسة التراثية ميزة أساسية تدل على التوجه التكاملي في التراث الإسلامي[39].وقد كان الشيخ اطفيش أنموذجا يعكس لنا هذا التوجه السائد في الفكر الإسلامي,حيث يتجلى لنا التداخل في مستويات مختلفة من فكره،مما جعل الآراء العقدية تمتزج بالمباحث الأخلاقية والأحكام الفقهية تجتمع بالمعاني الصوفية,وكان يعنى في مصنفاته بالفقه والتوحيد والأخلاق,وهي فنون متداخلة في نسق تكامليّ.ونعرض مثالا واحدا لتوضيح هذا الملحظ:

- ذكر الشيخ اطفيش أن قواعد الإسلام أربع, هي: العلم والعمل والنية والورع,ثم شرح كل قاعدة على حدة،موضحا العلاقات التي تربط بينها إذ إن كل واحد من الأربعة قاعدة للثلاثة الأخر,أي لا يصح واحد منها إلا مع الثلاثة الباقية[40].

فأيّ حكم شرعيّ إلا ويستند إلى مقصد أخلاقيّ يتمثل في النية وهي معيار قبول الفعل أو بطلانه,والإخلاص في النيات هو من متعلقات توحيد الله سبحانه.

7) _ تقييم وتعقيب

بعد هذا العرض التحليلي يمكن لنا تسجيل النتائج الآتية:

- إن المنحى الروحي للشيخ اطفيش بدأ من نقطة ميلاده في بيت أسرة متدينة وفقيرة وفي بيئة صحراوية قاسية,ثم ارتفع بالتدرج مع تحصيله للمعارف على مشايخ عصره واعتماده على عصاميته في التكوين،ليبلغ الذروة والاستقرار,ويشهد بذلك مرحلة النضج والاقتدار على الاجتهاد والنقد,ويسهم في التنوير والعطاء.
- استوحى فلسفته الأخلاقية من منابع الشريعة الإسلامية معتمدا على أصولها ونصوصها الثابتة في القرآن والسنة,ويهدف من خلال اهتمامه ببحوثه الأخلاقية إلى

النهوض بأمته وإصلاح أوضاعها الاجتماعية لتكون لها الغلبة والتمكين, والخروج من قبضة الاستعمار المهين.مما جعل فلسفته الأخلاقية ذات طابع عملي اجتماعي هادف.

- عَرَفَ الشيخ علم التصوف دراسة وممارسة,ثم اتخذ منه بعد ذلك موقفا نقديا يميز بين الجائز منه والمحظور.
- تأكيده على التوفيق بين علم الظاهر والباطن,وأن في انشطار أحدهما عن الآخر سبباً للزلل والضلال.
- مزجه للعلوم الإسلامية في وحدة متكاملة:توحيد وفقه وأخلاق وتصوف وتفسير وأصول ولغة, يعكس لنا تكوينه الشمولي الموسوعيّ.
- أما عن الجانب السلبي في بحوثه الأخلاقية فيتجلى في تساهل الشيخ في إيراده لأحاديث ضعيفة وموضوعة أحيانا,وروايات إسرائيلية صريحة,وآثار وقصص من اللامعقول من غير تمحيص أو تعليق, قصد استقصائه في جمع الشواهد المتعلقة بالموضوع المبحوث واستئناسه بها.

ونحن لا نشك في نزاهة الشيخ وورعه وتقواه وبُعده من الكذب عن الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن اتصافه بشيء من الغفلة والسهو في هذا الجانب جعله يغلب عليه طابع التجميع على حساب تحري الصحة في النقل.

[1] ـ مصطفى ونتن : آراء الشيخ احمد بن يوسف اطفيش العقدية, نشر جمعية التراث,المطبعة العربية،غرداية ط1,,1996م, ص:26

[2] ـ المرجع نفسه, ص:46

[3] ـ محمد بن يوسف اطفيش:الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص: تح. أبي إسحاق اطفيش,البعث، قسنطينة،ط2, 1980م،ص: 75

[4] ـ عن تلاميذ الشيخ يراجع: محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة,المطبعة التعاونية,ط1. 1965م:ج1 /ص 377_381

[5] ـ المرجع نفسه:ج1 /ص:340. 347_348 .350 . ونتن: آراء الشيخ اطفيش العقدية,ص:32

[6] ـ محمد اطفيش: كشف الكرب: ج1/ ص106 . ونتن: آراء الشيخ اطفيش, ص:31

[7] ـ محمد علي دبوز: نهضة الجزائر، ج1/ ص333_336

[8] ـ محمد اطفيش:الذهب الخالص, كلمة الناشر,ص:339_340

[9] ـ خضير باباواعمر:الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي, نشر جمعية التراث,المطبعة العربية,غرداية,ط1،2009 , ص:77.

[10] ـ البخاري: الجامع الصحيح،كتاب الشروط,باب مايجوز في الشروط: رقم: 2585 .

[11] ـ محمد اطفيش:الذخر الأسنى في شرح أسمى الله الحسنى,طبعة حجرية,1326 هـ,ص:10.29

[12] ـ محمد علي دبوز: نهضة الجزائر، ج1/ ص 321

[13] ـ محمد اطفيش:شرح النيل وشفاء العليل,تح أبي إسحاق اطفيش,مكتبة الإرشاد, المملكة العربية السعودية،ط3. 1985م,ج17/194.

[14] ـ المصدر نفسه:ج17/ 198 _ 202

[15] ـ المصدر نفسه:ج17/ 203

[16] ـ المصدر نفسه:ج17/ 213

[17] ـ المصدر نفسه:ج17/ 225

[18] ـ المصدر نفسه:ج17/ 225

(19) _ المصدر نفسه: ج17/ 228, 236

(20) _ البخاري: الجامع الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم :1

(21) _ المصدر السابق: ج17/ 277_280

(22) _ المصدر السابق: ج17/ 309

(23) _ المصدر السابق: ج17/ 324_ 332

(24) _ المصدر السابق: ج19/16

(25) _ المصدر السابق: ج21/16

(26) _ أبو داود: السنن، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، رقم:3567

(27) _ المصدر السابق: ج29_26/16

(28) _ المصدر السابق: ج445/16

(29) _ المصدر السابق: ج450/16

(30) _ محمد اطفيش: الذهب الخالص، تح أبي إسحاق، ص: 291_ 339

(31) _ محمد اطفيش: الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ،ص:26_27

(32) _ المصدر نفسه ،ص:2

(33) _ المصدر نفسه،ص: 20_22

(34) _ المصدر نفسه،ص: 51_52

(35) _ البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه، رقم:09

(36) _ المصدر السابق, ص:52_54

(37) _ المصدر السابق،ص:142_143

(38) _ المصدر السابق،ص:39_41

(39) _ يراجع عن التداخل المعرفي وتكامل التراث: طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3, 2007 ،ص:89 وما بعدها. وعن مشكلة الحد الفاصل بين العلوم: كارل بوبر: منطق البحث العلمي، ترجمة: محمد البغدادي ،المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2006, ص:69_82

(40) _ محمد اطفيش: شرح عقيدة التوحيد، تح. مصطفى ونتن، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، ط1, 2001 , ص:143_148

الشيخ أمحمد بن يوسف اطفيش فقيها

أ. د. مصطفى بن صالح باجو
أستاذ التعليم العالي، جامعة الأمير عبد القادر
قسنطينة. الجزائر

شخصية القطب اطفيش وعصره:

لقد حظيت شخصية الشيخ اطفيش بعدد من الدراسات الأكاديمية والعامة، أفاضت في بيان الجانب التاريخي للشيخ، وتحليل ما أحاط به من مؤثرات بيئية اجتماعية وثقافية وسياسية(1).

---

(1) — تناولت دراسات أكاديمية عديدة شخصية الشيخ اطفيش، وإنتاجه العلمي، وبخاصة في مجال التفسير، وثمت مشاريع جديدة لتناول نتاجه الفقهي والأصولي والمقاصدي.
من هذه الأعمال:

- الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ اطفيش، ماجستير، إعداد جهلان عدون، جامعة الجزائر. نشرته جمعية التراث، القرارة.
- الشيخ اطفيش ومذهبه في التفسير، ماجستير، يحي بوتردين، جامعة عين شمس، القاهرة، 1989م.
- الشيخ اطفيش ومنهجه في التفسير، ماجستير علواني عكي، جامعة الجزائر، سنة؟؟.
- الشيخ اطفيش وآراؤه العقدية، ماجستير، مصطفى وينتن، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1995م.
- مقاصد الشريعة عند الشيخ اطفيش، مشروع دكتوراه، إبراهيم بافولولو، جامعة الأمير. 2010م.
- تخريج الفروع على الأصول عند الشيخ اطفيش، مشروع دكتوراه، زهير بابا وإسماعيل، جامعة الأمير، 2010م.
- وانظر ترجمته وافية في "معجم أعلام الإباضية" قسم المغرب، ترجمة رقم 864. وفيها حصر لمصادر ومراجع ترجمة القطب بصورة وافية.

وهي دراسات تغني عن تكرار الحديث في هذه الجوانب؛ بيد أن منهج البحث يقتضي التمهيد بتقديم صورة إجمالية تذكر بملامح هذه الشيخ، ومساره العلمي وآثاره، بما يعين على وضع شخصيته الفقهية في إطارها المناسب، ويفسر توجهه الفقهي ومنهجه الاجتهادي.

فهو المحمد(2) بن يوسف بن عيسى بن صالح. ولقبه اَطْفَيَّشْ، وهي لفظة تحمل معاني الجود والكرم(3). اليزجني أسرة ونشأة(4)، الغرداوي مولدا(5).

وعُرف الشيخ اطفيش عند إباضية المغرب بقطب الأئمة، وعند المشارقة بقطب المغرب(6). نظرا لمكانته العلمية عندهم، ثم صار لقب القطب يطلق عليه عند الجميع(7).

وتذكر المصادر أن نشأة اطفيش كانت عادية كسائر لداته في بيئته المحافظة: إذ درج في كتاتيب القرآن وحفظه كاملا دون سن البلوغ، وأخذ مبادئ العلوم عن مشايخ بلدته: الذين توسّموا فيه النبوغ منذ بواكيره الأولى، وأظهر رغبة ملحة في الطلب والتحصيل.

---

(2)_ يفضل الشيخ اطفيش كتابة اسمه بالألف "المحمد"، تمييزا له عن اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخشية أن ينال المصطفى سبٌّ أو شتم بسببه. ينظر: محمد بن يوسف اطفيش، كشف الكرب، طبعة سلطنة عمان، 1985، ج1، ص263.

(3) – معناه باللهجة المزابية مركّب من ثلاث كلمات، هي: اَطّف- اَيّا- اَشْ. بمعنى: خُذْ – تعالَ- كُلْ. ولعل هذا كناية عن الكرم والجود.

(4) _ وأصل أسرته من بلدة بني يزجن الملاصقة لغرداية. انظر: دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص 290.

(5) _ كان مولده بمدينة غرداية سنة 1236هـ، الموافق لـ1821م. انظر: الحاج سعيد عيسى، الإمام اطفيّشْ المصلح الاجتماعي الديني، ص 35.

(6)_ دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص 290. – Apercus sur CUPPERLY, Pierre l'histoire de l'Ibadisme au Mzab. P5.

(7) – يحي بوتردين، الشيخ اطفيش ومذهبه في التفسير، الفصل الأول، نسخة رقمية.

ومن أبرز مشايخه شقيقه الأكبر الحاج إبراهيم اطفيّش، الذي فتح داره للتدريس في بلدته بعد عودته من المشرق، وفي هذه الدار تفتح عقل الفتى على مختلف العلوم، فدرس «العلوم الشرعية والعربية، كما درس المنطق والحساب والفلك، ولقد درس التفسير والحديث والفقه وأصول التشريع وعلم الكلام، وفي العربية النحو والصرف والبلاغة والعروض، كما درس تاريخ الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وزوده بالكتب التي درس فيها التاريخ الإسلامي وتاريخ العالم»(8).

وتجلّت عبقرية الفتى في تبكيره للتأليف، إذ نظم كتاب «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام في خمسة آلاف بيت، وعمره ستة عشر عاما.

ومطلعها:

مغني اللبيب جنة ... أبوابها ثمانية

ألا ترى وهي لا.. . تسمع فيها لاغية

ثم جلس للإفتاء وعمره عشرون سنة(9). وغدا عالم ميزاب ومرجعه في الفتوى، ثم آلت إليه إمامة العلم لدى الإباضية مشرقا ومغربا.

وتكوين القطب عصامي، كانت أسسه ما أخذه من مبادئ على شيوخ بلدته، ثم انطلق معتمدا على الله في تكوين ذاتي متفرد، سخر له كل طاقاته الفكرية والجسدية والمادية.

ودفعه شغفه بالعلم إلى العكوف على المكتبات يلتهم كتبها ويستنسخ منها، ويستعير، ويطلب الكتب من المشرق بواسطة الحجاج، بل إنه تزوج امرأة لأن والدها كانت له مكتبة غنية، ورغم كل التحديات والبعد عن مراكز الإشعاع العلمي كالأزهر

---

(8)_ دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص 301.

(9)_ دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص 302.

والشام والزيتونة والقرويين، فقد استطاع أن يمتلك مكتبة نادرة تزخر بنفائس الأمهات في شتى العلوم(10).

وتأثر بشيوخه المباشرين ومنهم الشيخ عمر بن سليمان، والشيخ سعيد بن يوسف، والشيخ الحاج سليمان بن عيسى، والشيخ محمد بن عيسى أزبار، وشقيقه الشيخ إبراهيم بن يوسف اطفيش(11).

أما شيوخه غير المباشرين فهم كُثُرٌ، وفي صدارتهم ضياء الدين عبد العزيز الثميني(12)، الذي نسج على منواله، وبنى على أسسه في مجال الفقه بصورة أساسية، فكان شرحه لكتابه النيل، بوابة للعالَم على الفقه الإباضي، ونافذة رئيسة للاطلاع على آراء فقهائه والتعرف على مصادره.

وإذا استنطقنا مؤثرات المحيط العام، وجدنا القطب قد عاصر فترة شهدت انقلابات مصيرية في تاريخ الجزائر بعامة، ومنطقة ميزاب بخاصة، وأحداثا غيرت وجه العالم قاطبة.

فقد شهد دخول الاستعمار إلى الجزائر (1830م)، ووصول جيوشه إلى الصحراء وميزاب (1882م)، كما شهد الحرب العالمية الأولى (1914م).

كما امتد به العمر قرابة قرن كامل فكان له من هذه المحطات التاريخية منفذ لسبر الأحداث، واستخلاص العبر، واستكناه أسرار التاريخ.

في خضم هذا المحيط، وعلى امتداد هذه الرحلة الطويلة المباركة، قضى الشيخ اطفيش سواد شبابه وبياض عمره مع القلم والكتاب، يؤلف ويحقق، ويربي ويعلم.

---

(10)_ دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص 385.

(11)_ أبو اليقظان إبراهيم، ملحق السير، ص 155.

(12)_ عمرو مسعود أبو القاسم، قطب الأئمة ودوره في الإصلاح والتربية، مهرجان القطب، البلابل الرستمية، غرداية، 1981. ص17.

وأنشأ معهدا للتعليم قصده الطلبة من مختلف المدن والبلدان، من داخل الجزائر وخارجها في ليبيا والحجاز.

وذاع صيته بين علماء عصره لما تميز به من أصالة في الاجتهاد، وسعة أفق في معالجة قضايا العصر، فضلا عن مواقفه الحاسمة من الاستعمار الفرنسي، ورفضه التبعية، ودعوته للجهاد ضد المستعمر، وهو ما برز في تلاميذه الذين انبثوا نجوما للسراة، وقادة للمقاومة في مختلف البلدان.

ومن أشهرهم سليمان باشا الباروني زعيم المقاومة الوطنية للاستعمار الإيطالي في ليبيا (13)؛ وأبو اليقظان إبراهيم رائد الصحافة الوطنية بالجزائر، الذي قارع المستعمر بثمان جرائد دامت اثنتي عشرة سنة (14)، وأبو إسحاق اطفيش العالم المجاهد الذي نفته فرنسا بسبب مواقفه إلى تونس ثم إلى مصر، ولمع بين علماء الأزهر، وله سجل ذهبي حافل في مجالات العلم والوطنية والجهاد (15).

والمقام لا يتسع للحديث عن خصال الشيخ وشمائله، إذ كان مثال العالم العامل،

---

(13) – سليمان باشا الباروني، ابن الشيخ يحي بن عبد الله الباروني، (أبو الربيع)، من أبرز رجال العلم وأبطال المقاومة الوطنية في ليبيا، ولد عام 1310هـ / 1892م – وتوفي سنة 1382هـ / 1962م. ينظر ترجمته مفصلة: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم 421.

(14)– إبراهيم بن عيسى، حمدي أبو اليقظان، أحد أبرز رجالات النهضة الإصلاحية بالجزائر، من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ولد في 29 صفر 1306 هـ / أوائل نوفمبر 1888م ـــ توفي في 26 صفر 1393 هـ / 30 مارس 1973م. ينظر ترجمته: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم 042.

(15)– إبراهيم بن امحمد بن إبراهيم بن يوسف، اطفيّش (أبو إسحاق). أحد رجال العلم والوطنية والإصلاح في الجزائر، برز في السياسة والصحافة والتحقيق والعمل الإسلامي العام. وكان شخصية لامعة في الجزائر وتونس ومصر. ولد عام *1305هـ / 1886م ـــ توفي يوم 20 شعبان 1385 هـ / 26 ديسمبر 1965م.*

ينظر ترجمته مفصلة في: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم 037.

الزاهد المتواضع، المربي القدير، المجتهد البصير.

شهد له بهذه الخلال شيوخه ومعاصروه، وتلاميذه وأحباؤه، وقد حفظت هذه الشهادات في مراسلات ووثائق محفوظة، بعضها منشور وبعضها لا يزال حبيس خزائن المخطوطات.

جهوده وآثاره:

عكف القطب على العلم؛ إحياءً له في النفوس، وتحبيرًا في الطروس، فتفرغ للتعليم بياض نهاره، وللتأليف سواد ليله. كما منح المجتمع قسطا من اهتمامه، يفتي الناس ويحل مشاكلهم، وينيرهم بدروسه العامة في المسجد، مما كان له أكبر الأثر في نهضة وادي ميزاب والجزائر بخاصة، وبعض بلدان العالم الإسلامي بعامة حيث انتشر عدد من تلاميذه النجباء.

وقد تميز الشيخ اطفيش بقلم سيال وفكر جوال، إذ كتب الكثير، وخاض في شتى العلوم، ولم يخل ميدان من ميادين المعرفة الإسلامية إلا وله فيه أثر، ما بين موسوعة مطولة، وبين رسالة وجيزة.

وقد عمِّر القطب ستَّة وتسعين عاما، وظلَّ حريصا على الكتابة، لا يتركها في حضر ولا سفر، وصفه تلميذه أبو اليقظان بأنَّهُ «لا يُعرف إلاَّ في تدريس علم، أو تأليف كتب»، فألَّف في بني يسجن، والقرارة، ووارجلان، وبريان، والحجاز، وَفي السفينة قاصدا الحجَّ.

فقد كتب في التوحيد والفرق، والديانات، والأصول والفقه، والحديث والمصطلح، والتاريخ والسيرة، واللغة والنحو والبلاغة، والفلاحة والطب، والمنطق والرياضيات.

وتبعا لذلك فقد تباينت الأخبار حول إحصاء آثار القطب العلمية، حتى بلغ بها بعض الدارسين إلى ثلاثمائة عنوان. ولكن الدكتور مصطفى وينتن حصرها وصنفها حسب طبيعتها بصورة دقيقة، وغدا عمله معتمدا للباحثين اللاحقين.

ولا يسعنا المقام لاستقراء هذه الآثار، ونجتزئ بالإشارة إلى بعض مؤلفاته المتعلقة بمجال الفقه حيث نجد فيه القطب فقيها مجتهدا، ومنه نترسم معالم شخصيته الفقهية.

مؤلفات اطفيش الفقهية:

1. في أصول الفقه:

- «فتح الله: شرح شرح مختصر العدل والإنصاف»، (مخ)، وهو موسوعة في أصول الفقه المقارن، ضاع نصفها، وبقي نصفها مخطوطا، ولو طبعت لكانت في اثني عشر مُجَلَّدا.

2. في الفقه: وهو أوسع مجالات تأليفه:

- «شرح كتاب النيل وشفاء العليل»: موسوعة فقهية جامعة لآراء المذاهب الإسلامية، يقارن فيها بين الأقوال بروح متفتحة، ويرجّح ما يراه بالحجة والدليل، وأصبح هذا الكتاب معتمد الإباضية في الفقه. طُبع مرارا، وبواسطته تعرّف العالم الإسلاميُّ على الفقه الإباضيِّ، واعتمدته لجان موسوعات الفقه الإسلاميِّ في مصر والكويت.
- نظم الشيخ البطّاشي العُماني شرح النيل في 124 ألف بيت، سَمَّاه: «سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب»، طبع في عشر مجلدات.
- «إطالة الأجور وإزالة الفجور»، حققه الباحث عمر بازين (مط).
- «الذهب الخالص المنوَّه بالعلم القالص»، مطبوع في مجلد واحد.
- «ترتيب تحفة الأديب وتخصيب القلب الجديب»، (مخ). وهو ترتيب كتاب لعمرو بن رمضان التلاتي.
- «ترتيب كتاب اللقط للشيخ عمرو بن رمضان التلاتي»، (مخ).
- «ترتيب كتاب المعلقات»، لمؤلف مجهول، (مط).
- «ترتيب المدوَّنة الكبرى لأبي غانم بشر بن غانم الخراساني»، مطبوع في ثلاث مجلدات، بتحقيق د. مصطفى باجو.

- «ترتيب نوازل نفوسة»، (مخ)، وهي مجموعة أجوبة ورسائل لبعض أيـــمَّة الإباضيـــة.
- «تفقيه الغامر بترتيب لقط موسى بن عامر»، (مط).
- «جامع الوضع والحاشية»، الوضع لأبي زكرياء الجناوني، وحاشيته لمحمد بن عمر أبي ســـتَّة المحشِّي، (مط).
- «حاشية أبي مسألة»، لأبي العَبـــّاس أحمد (مخ).
- «حاشية القناطر»، لإسماعيل الجيطالي، (مخ).
- «حاشية على جواب ابن خلفان»، (مخ).
- «حاشية على شرح الرائية»، (مخ).
- «حكم الدخان والسعوط»، حقّقها الأستاذ بكير بن يحيى الشيخ بالحاج، ضمن رسالة ماجستير بمعهد أصول الدين بالجزائر.
- «حيّ على الفلاح: وهي حاشية على كِتَاب الإيضاح» للشيخ عامر بن علي الشـــمّـــاخـــي، (مخ).
- «شامل الأصل والفرع»، (مط). ذكر فيه أنـــّهُ كتبه بعد أن بلغ درجة الاجتهاد.
- «شرح الدعائم الموسَّع»، (مخ).
- «شرح الدعائم»: شرح بَعض منظومات ابن النضر العماني المسمَّاة: الدعائم، (مط).
- «القنوان الدانية في مسألة الديوان العانية»، (مط).
- «كِتَاب التحفة والتوأم»، في علم الميراث (مط).
- «كشف الكرب»، طبع في مجلدين.
- «مختصر في عمارة الأرض»، (مخ).

معالم منهجه الفقهي:

من خلال هذا الكم الوفير من مؤلفات القطب الفقهية، وفي قراءة غير مستقصية تتجلى لنا معالم القطب فقيها. وتتمثل في الملامح الآتية

●بلوغه درجة الاجتهاد:

لقد تبوأ القطب مرتبة الاجتهاد، بجهوده الشخصية، وكان عصامي التكوين، إذ لم يأخذ عن شيوخه سوى مبادئ العلوم، ثم أبحر معتمدا على الله، وعلى ما وهبه من قدرات عقلية وفكرية متميزة. حتى استوى على مرتبة الاجتهاد بجدارة، رغم حرمانه من نمط التكوين المتعارف عليه في المراكز العلمية الشهيرة آنذاك، مثل الأزهر والزيتونة والقرويين، وكان له في المكتبات التي اقتناها عوض عن فقد الشيوخ الأحياء، والأساتذة الأكفاء.

واستطاع بجده وعزيمته وعصاميته أن يعتلي سدة مجتهد المذهب ولّما يجاوز الثلاثين، وظل عمدة الإباضية في الفقه طول عمره. وقد صرّح بنفسه ببلوغ هذه المرتبة، مرددا قول السيوطي: «قد كملت عندي آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى، أقول ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى لا فخرًا»(16).

وفي مؤلفاته الفقهية برهان هذه المرتبة دون مزايدة أو ادعاء، وبخاصة كتبه الشهيرة: شرح النيل، وشامل الأصل والفرع، والذهب الخالص. إذ يستعرض فيها آراء فقهاء الإسلام من شتى المذاهب ثم يرجح ما يختاره بالحجة والدليل.

●اعتماد النظرة الشمولية إلى الفقه.

كان مدلول الفقه في أول الإسلام شاملا للدين كله، وهو ما يفيده قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرًا يُفَقِّهُهُ في الدين»(17)، فشمل بذلك التوحيد

---

(16) - حمار إبراهيم، السلاسل الذهبية في الشمائل الطفيشية، ص 40/39.

(17) — صحيح البخاري – كتاب العلم، باب : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين – حديث: 71.

والأحكام والأخلاق. ثم استقل كل فرع علما قائما بذاته، واقتصر علم الفقه على درك الأحكام العملية المستفاد من أدلتها التفصيلية، بيد أن بعض المذاهب والأئمة ظلوا أوفياء للمفهوم الأول، فجمعوا في مؤلفاتهم أبواب الإسلام كلها، وذلك ما نجده واضحا في مدونات الإباضية منذ الصدر الأول إلى العصر الحديث، وكان الشيخ اطفيش على هذا النسق، فرأينا في كتبه: «الذهب الخالص»، و «شرح النيل» أبواب التوحيد والتزكية ضمن موضوعات الكتاب. تناولها بالبحث وأولاها حقها من التحليل والبيان.

●اعتماد الدليل في الاجتهاد.

● سيرا على مبدإ القرآن الخالد، وتجسيدا للقاعدة العلمية «إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدعيا فالدليل»(18)؛ رأينا الشيخ اطفيش يحرص على أن يدعم آراءه الفقهية بدليلها: من مصادر التشريع المعتمدة، ويخرجها على قواعد الاجتهاد. وإن تفاوت العمل بالدليل لديه بين الإيجاز والإسهاب حسب المؤلفات التي بين يديه مطولات أو مختصرات. فيكتفي في بعضها بمجرد نقل الآراء ونسبتها لأصحابها، كما في كتابه «الذهب الخالص المنوّه بالعلم القالص» وبعضها يفيض في عرض الأدلة ومناقشتها، صنيعه في كتاب «شرح النيل».

●توظيف المقاصد والقواعد.

● يبرز الاهتمام بالمقاصد جليا في كتابات القطب الفقهية، نظرا لاعتماده الفقه الإباضي الذي تبرز فيه قضية اعتبار النوايا والبواعث للحكم على أفعال المكلفين واضحة في اجتهاد الفقهاء، حرصًا على تحقيق مقاصد الشارع من التكليف، وهو سمة بارزة في كتب الإباضية منذ عصر مبكر، نجدها في رسائل الإمام جابر وكتب أبي عبيدة، وفي جامع ابن بركة البهلوي، وما تلاه من الجوامع والموسوعات الفقهية لدى إباضية المشرق والمغرب على حد سواء.

---

(18) – ينقل عن الغزالي أفاق المناظرة، ص : 309 وما بعدها.

وكان نتاج القطب حلقة في هذا الاتجاه، ومن أمثلة ذلك قوله في القبلة: «وَمَعْنَى كَوْنِ الْحَرَمِ قِبْلَةً لِلآفَاقِ، أَنَّ أَهْلَ الآفَاقِ يَسْتَقْبِلُونَ إِلَى جِهَةِ الْحَرَمِ لأَجْلِ الْكَعْبَةِ لَعَلَّهُمْ يُوَافِقُونَهَا، فَإِنَّمَا يَسْتَقْبِلُونَ الْحَرَمَ قَصْدًا لِلْكَعْبَةِ وَنِيَّةً لَهَا لاَ قَصْدَ الْحَرَمِ لِذَاتِهِ، وَهَكَذَا يُقَالُ فِي اسْتِقْبَالِ أَهْلِ الْحَرَمِ مَكَّةَ، وَاسْتِقْبَالِ أَهْلِهَا الْمَسْجِدَ، هَذَا مَا ظَهَرَ لِي وَهُوَ حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَوْ نَوَى أَهْلُ الآفَاقِ الْحَرَمَ، أَوْ أَهْلُ الْحَرَمِ مَكَّةَ، أَوْ أَهْلُ مَكَّةَ الْمَسْجِدَ بِلاَ قَصْدٍ لِلْكَعْبَةِ لَمْ تَجُزْ صَلاَتُهُمْ» (19).

وفي باب الصوم قال: «(وَمَنْ تَعَمَّدَ إِفْطَارَ آخِرِ يَوْمٍ مِنْهُ ثُمَّ صَحَّ أَنَّهُ مِنْ شَوَّالٍ أَسَاءَ)، وَقِيلَ: عَصَى، وَقِيلَ: كَفَرَ (وَلَزِمَتْهُ تَوْبَةٌ) مِنْ إِسَاءَتِهِ (فَقَطْ عَلَى الأَصَحِّ، وَقِيلَ:) لَزِمَتْهُ تَوْبَةٌ (وَكَفَّارَةٌ أَيْضًا كَمُفْسِدِ يَوْمٍ مِنْهُ)، غَيْرَ أَنَّ مُفْسِدَ يَوْمٍ يَلْزَمُهُ مَعَ ذَلِكَ قَضَاءُ مَا مَضَى أَوْ يَوْمِهِ، وَظَاهِرُ كَلاَمِ الشَّيْخِ أَنَّهُ يُبْدِلُ الْمُفْطِرُ مَا مَضَى مِنْ رَمَضَانَ إِذَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ أَفْطَرَ فِي شَوَّالٍ، وَلاَ يَظْهَرُ لَهُ وَجْهٌ إِلاَّ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي نِيَّتِهِ أَنَّ الْيَوْمَ مِنْ رَمَضَانَ وَتَعَمَّدَ إِفْسَادَهُ، مَعَ أَنَّ مُتَعَمِّدَ الأَفْسَادِ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ، كَانَ كَمَنْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْقَضَاءَ، وَلَهُ نَظِيرٌ كَمَنْ جَامَعَ امْرَأَةً زِنًى فَإِذَا هِيَ زَوْجَتُهُ فَإِنَّهَا حَرُمَتْ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْمُشَدِّدِينَ، وَكَمَنْ عَصَرَ عِنَبًا وَنَوَاهُ خَمْرًا فِي حِينِهِ فَقَدْ قِيلَ : يَهْلِكُ»(20).

وقال في باب الحج واستبدال شاة المتعة: « (وَلاَ بَدَلَ عَلَى مِصْرِيٍّ اشْتَرَى ضَحِيَّةً وَنَوَاهَا إِنْ مَاتَتْ بِآفَةٍ)، وَكَذَا مَنْ تَلْزَمُهُ مِنْ بَادٍ أَوْ حَاجٍّ أَوْ مُعْتَمِرٍ لَمْ يُمَتِّعْ، أَوْ مُتَمَتِّعٍ إِذَا زَادَ ضَحِيَّةً غَيْرَ مَا لَزِمَهُ مِنْ هَدْيٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَأَرَادَ بِالْمِصْرِيِّ مَا يَشْمَلُ الْقَرَوِيَّ. وَذَلِكَ إِذَا مَاتَتْ بِلاَ تَعَمُّدٍ مِنْهُ، وَكَذَا سَائِرُ الْمَتَالِفِ بِلاَ عَمْدٍ»(21).

---

(19) — اطفيش، شرح النيل، ج2، ص76.

(20) — اطفيش، شرح النيل، ج3، ص425.

(21) — اطفيش، شرح النيل، ج4، ص 209.

● التيسير على الناس. الأخذ بالأحوط والثقة في الدين.

● يتجلى دور الفقيه الفقيه في حرصه أن يستظل الناس بظلال الإسلام، وينعموا بأحكامه، وهو ما يدعو إلى التيسير عليهم في الإفتاء، تأسيا بهدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، «يسّروا ولا تعسّروا وبشروا ولا تنفروا»(22). وكانت سنته صلى الله عليه وسلم الأخذ بالأيسر ما لم يكن إثما(23).

بيد أن الحرص على التيسير لا يعني لدى الفقيه الأمين البحثَ عن الرخصِ بأيّ ثمن؛ بل نجده حريصا على الأخذ بالعزائم، وبناء الاجتهاد على الثوابت، وتوجيه المستفتي وإرشاد الناس إلى اعتماد الحزم في أمر دينهم، والعمل بالأحوط بعيدا عن الشبهات، صنيعَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله: «كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في الحرام ت»(24).

وبين هذين الحدّين خط رفيع، يجعل العالم بصيرا بحال السائل وظروف المستفتي، فيهديه إلى مراشد الأمور من أحكام العزائم، دون أن يوصد دونه أبواب الشرع، أو ينفره من تعاليم الدين.

وكذلك كان شأن القطب في فتاويه للناس كما يذكر عنه عارفوه ومن كتبوا في سيرته ومنهجه في الإفتاء.

ومن أمثلة ذلك قوله في باب الطهارة: « وَمَنْ كَانَ تَارَةً يُحِسُّ إِذَا شَكَّ فَيَجِدُ النَّجَسَ وَتَارَةً يَشُكُّ وَيُحِسُّ فَلاَ يَجِدُ، وَشَكَّ تَارَةً وَلَمْ يُحِسَّ، حُكِمَ بِأَنَّهُ طَاهِرٌ وَلَوْ كَانَ الْغَالِبُ الْوُجُودَ، وَالأَحْوَطُ أَنْ يَغْسِلَ إِذَا كَانَ الْغَالِبُ أَنَّهُ يَجِدُ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ مَنْ كَانَ فِي الصَّلاَةِ وَأَحَسَّ بِنَجَسٍ فِي ذَكَرِهِ أَوْ دُبُرِهِ فَأَحَسَّ بِيَدِهِ انْتَقَضَتْ صَلاَتُهُ وَوُضُوءُهُ بِالْمَسِّ، لاَ

---

(22) — صحيح البخاري – كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم – حديث:69

(23) – صحيح البخاري – كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم – حديث:3388

(24) — ذكره الغزالي في الإحياء عن بعض الصحابة دون تسمية أحد منهم. ينظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص268. ونسبه صاحب نهج البلاغة إلى أبي بكر الصديق. ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ج11، ص186.

مَا قِيلَ إِنَّهُ إِنْ لَمْ يَجِدْ نَجَسًا مَضَى عَلَى صَلاَتِهِ، وَلاَ مَا قِيلَ : إِنَّهُ يَمَسُّ بِظَاهِرِ الْيَدِ فَلاَ يَنْتَقِضُ وُضُوءُهُ، وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ أَنْ يَنْظُرَ إِنْ أَمْكَنَهُ أَوْ يَضْرِبَ بِيَدِهِ عَلَى ذَكَرِهِ إِلَى فَخِذِهِ مِنْ فَوْقِ الثَّوْبِ» (25).

وقال عن تحية المسجد: « وَمَنْ دَخَلَهُ وَقْتَ إِقَامَةِ الصَّلاَةِ فَلْيُصَلِّ الصَّلاَةَ الْمُقَامَ لَهَا، وَإِنْ دَخَلَهُ فِي وَقْتٍ لاَ يُصَلَّى فِيهِ فَلاَ يُصَلِّيهِمَا عِنْدَنَا وَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ، وَقَالَتْ الشَّافِعِيَّةُ: الأَصَحُّ صَلاَتُهُمَا مُخَصِّصِينَ النَّهْيَ عَنْ الصَّلاَةِ فِي تِلْكَ الأَوْقَاتِ بِغَيْرِهَا، عَامِلِينَ بِعُمُومِ : إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ مَسْجِدًا فَلْيُصَلِّهِمَا. وَالأَحْوَطُ أَنْ تُسَنَّ صَلاَتُهُمَا لِلدَّاخِلِ وَلَوْ تَكَرَّرَ دُخُولُهُ وَلَوْ كَانَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْمَسْجِدِ مَا لَمْ يَمْنَعْ مَانِعٌ»(26).

●الاستفادة من أهل الخبرة.

كان الشيخ اطفيش يلجأ إلى أهل الاختصاص في المسائل التي تستدعي خبرة معينة في الطب أو العرف أو عوائد الناس، أو شؤون المعاملات أو أو الحرب أو طبيعة المواد والمنتجات، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

ولعل في فتاويه المخطوطة، ومراسلاته مع العلماء شواهد تكشف عن خصيصته في هذا المجال.

و لم يمنع هذا المبدأ، مبدأ استشارة الخبراء، الشيخَ اطفيش أن يجتهد بنفسه في التعرف على عديد من الفنون فتعلمها وبرع فيها، وكتب فيها كتابة الخبير صاحب الشأن، ومؤلفاته شاهدة على ذلك. منها كتابه «الحب في أصل الطب»، وكتاب «النحلة في غرس النخلة»، و «إيضاح المشرق في علم المنطق»، و «القلصادي في علم الحساب»، و«مطلع الملك في علم الفلك».

فقد وظف معرفته بعلم الفلك في مسألة تحديد القبلة، إذ يقول: «وتُعلَم [القبلةُ] بمحاريب أهل التوحيد وقبورهم إذا عُلم أين الرأس، وأنه وُضع على قفا أو يمين، ويُحمل الأمر عليه إذ القبر على القفا نادرٌ. و[تُعلمُ] بالعقرب، ومطلع ومغرب الشمس والقمر،

---

(25) ـ اطفيش، شرح النيل، ج1، ص497.

(26) ـ اطفيش، شرح النيل، ج5، ص298.

والمنازل وشفق العشاء، وأن يجعل في الأيسر هنا بنات النعش الكبرى أو الصغرى، وهي أولى لانضباطها بالصغر عند نهاية ارتفاعها، والقطب وهو نجم بين الجدي والفرقدين، بل ثقبة لا تتحرك، وهي بعد الجدي بينهما نحو ذراع بيضاء، والجدي نجم مضيء يدور عليها كغيرها. والجدي هو آخر بنات النعش الصغرى، بينه وبين النعش نجمان غير مضيئين، وأسفل النجم هو نجمان أيضا غير مضيئين، وأعلاه هو نجمان مضيئان يسميان الفرقدين. وحكم البنات والجدي والقطب في شأن القبلة واحد أو متقارب. وفي الأثر للجدي حكم القطب»(27).

وقال أيضا: « (وَالْقِبْلَةُ مَا رَدَّ مَطْلَعَ الشَّمْسِ فِي) وَقْتِ (الاعْتِدَالِ)، وَهُوَ الْيَوْمُ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ مَارِسَ وَسِتْمْبِرَ، (لِمَطْلَعِ سُهَيْلٍ) وَقِيلَ : مَا رَدَّ مَطْلَعُهَا شِتَاءً إِلَى سُهَيْلٍ، وَقِيلَ : مِنْ الثُّرَيَّا لِسُهَيْلٍ، وَقِيلَ : مِنْ الذِّرَاعِ إِلَى سُهَيْلٍ، وَهَذِهِ الأَقْوَالُ تَتَأَتَّى بِأَهْلِ هَذِهِ الْبِلاَدِ، وَزَعَمَ بَعْضٌ إِلَى مَغْرِبِهَا شِتَاءً، وَهَذَا إِنَّمَا يَتَأَتَّى لِمَنْ سِمْتُهُ ذَلِكَ، وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ : مِنْ مَطْلَعِ بَنَاتِ النَّعْشِ إِلَى مَطْلَعِ سُهَيْلٍ، وَهِيَ أَقْوَالٌ لاَ يُعَوَّلُ عَلَيْهَا، وَقِيلَ : مِنْ الْحُوتِ لِلسُّنْبُلَةِ، وَأَخْتَارُ أَنَا أَنَّهَا مِنْ مَطْلَعِ الْمِيزَانِ إِلَى مَطْلَعِ الشَّمْسِ فِي غَايَةِ هُبُوطِهَا شِتَاءً»(28).

كما نجد في ثنايا كتابته في أبواب المعاملات نظراته الدقيقة في تحليل طبيعة المعاملات، وما جرت به عوائد الناس في ذلك، مما مكنه من الاجتهاد فيها والفتوى للناس بما يناسب تلك المسائل إباحة أو تحريما، وفق قواعد الشرع ومقاصد الإسلام.

ففي باب المضاربة قال: «(وَمَحِلُّهَا) أَيْ مَحِلُّ الْمُضَارَبَةِ (النَّقْدَانِ) الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ الْمُسَكَّكَانِ (بِوَزْنٍ) عِنْدَ عَقْدِ الْمُضَارَبَةِ، وَلَوْ كَانَا لاَ يُضْرَبَانِ إِلاَّ بِوَزْنٍ كَالأَدْوَارِ الفرنساوية، فَإِنَّهَا تُضْرَبُ عِنْدَهُمْ بِوَزْنٍ فَلاَ تُعْطَى عَلَى هَذَا الْقَوْلِ فِي الْقِرَاضِ إِلاَّ بِوَزْنٍ

(27) — اطفيش، الذهب الخالص، ص140.

(28) — اطفيش، شرح النيل، ج2، ص76.

لإِمْكَانِ نُقْصَانِ وَزْنِهَا عِنْدَ ضَرْبِهَا أَوْ بَعْدَهُ وَعَدَمِ وَزْنِهَا وَإِمْكَانِ زِيَادَتِهِ، (وَجَازَ) عِنْدَ بَعْضِهِمْ فِي الْمُضَارَبَةِ (عَدَدٌ بِعُرْفٍ) بِلاَ وَزْنٍ، وَلَوْ لَمْ يُوزَنْ عِنْدَ الضَّرْبِ، أَوْ وُزِنَ وَنَقَصَ، وَعَلَى هَذَا فَتَجُوزُ الْمُضَارَبَةُ بِسِكَّةِ الأَنْدَلُسِ، وَسِكَّةِ فَرَنْسَا، وَسِكَّةِ الْجَزَائِرِ، وَسِكَّةِ تُونُسَ، وَسِكَّةِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، الأَدْوَارُ وَالرِّيَالاَتُ وَالأَرْبَاعُ وَالأُثْمَانُ وَالأَنْصَافُ وَغَيْرُ ذَلِكَ، وُزِنَتْ عِنْدَ ضَرْبِهَا أَوْ عِنْدَ الْعَقْدِ أَمْ لَمْ تُوزَنْ، وَذَلِكَ إِذَا جَرَى الْعُرْفُ بِهَا فِي مَوْضِعٍ بِدُونِ اعْتِبَارِ وَزْنِهَا كَمَا فِي بِلاَدِنَا هَذِهِ، وَكَذَلِكَ فِي السَّلَمِ كَمَا مَرَّ»(29).

وقال في هبة الثواب: « (وَ) تَجِبُ كَمَا مَرَّ مُكَافَأَةُ الْمُهْدِي إِذَا دَلَّتْ قَرِينَةٌ عَلَى إِرَادَةِ الثَّوَابِ، وَتَرْكُ الْمُكَافَأَةِ حِينَئِذٍ تَطْفِيفٌ كَمَا قَالَ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ، وَالتَّطْفِيفُ كَبِيرَةٌ، وَسُمِّيَ تَرْكُ الْمُكَافَأَةِ تَطْفِيفًا تَشْبِيهًا بِإِعْطَاءِ بَعْضِ الْحَقِّ دُونَ بَعْضٍ بِنَقْصِ الْكَيْلِ بِجَامِعِ مُطْلَقِ عَدَمِ إِيصَالِ الْحَقِّ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ كَمَا فِي غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ الْكُتُبِ : أَنَّهُ (اُسْتُحْسِنَ مُكَافَأَةُ مُهْدٍ وَلَوْ مَاتَ مِنْ مُهْدًى إِلَيْهِ) بِكَسْرِ مِنْ مُتَعَلِّقَةً بِمُكَافَأَةٍ (إِنْ أَتْهَمَ أَنَّهُ أَهْدَى إِلَيْهِ لِيُكَافِئَهُ بِأَكْثَرَ) مِمَّا أَهْدَى إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا يُكَافِئُهُ بِمِثْلِ مَا أَهْدَى إِلَيْهِ لاَ بِأَكْثَرَ إِنْ اتَّفَقَ الْجِنْسُ حَذَرًا مِنْ الرِّبَا، وَأُجِيزَتْ الْمُكَافَأَةُ بِأَكْثَرَ وَلَوْ مِنْ الْجِنْسِ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ اتِّفَاقٌ وَعَقْدٌ وَتَصْرِيحٌ بِالأَكْثَرِ وَلَيْسَتْ عَلَيْهِ الْمُكَافَأَةُ وَاجِبَةً لاَ بِمِثْلٍ أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ، لأَنَّهُ لَمْ يُشْتَرَطْ الثَّوَابُ كَمَا قَالَ (لاَ بِوُجُوبٍ) إِلاَ إِنْ احْتَاطَ لَعَلَّهُ قَدْ أَهْدَى لِلْمُكَافَأَةِ إِذْ يُمْكِنُ أَنْ لاَ يَقْصِدَ الْمُكَافَأَةَ وَأَنْ يَقْصِدَهَا وَأَنْ يَقْصِدَ الزِّيَادَةَ، وَبِأَكْثَرَ مُتَعَلِّقٌ بِ يُكَافِئُهُ كَمَا فِي الأَصْلِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمُكَافَأَةٍ لأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكَافِئُ بِأَكْثَرَ، وَيُفْهَمُ بِالأَوْلَى أَنَّهُ لاَ تَجِبُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَتْ بِأَقَلَّ أَوْ مُسَاوٍ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : " {كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا}"، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : {وَهَبَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاقَةً فَأَثَابَهُ عَلَيْهَا، فَقَالَ : رَضِيت ؟ قَالَ : لاَ، فَزَادَهُ، فَقَالَ : رَضِيت ؟ قَالَ : لاَ، فَزَادَهُ فَقَالَ : رَضِيت ؟ فَقَالَ : نَعَمْ، قَالَ : لَقَدْ

(29) – اطفيش، شرح النيل، ج10، ص 310.

هَمَمْتُ أَنْ لاَ أَقْبَلَ الْهَدِيَّةَ إلاَ مِنْ قُرَشِيٍّ }، وَإِنْ كَانَ الْمُهْدِي حَيًّا وَقَالَ : «إِنَّمَا أَهْدَيْتَ لَكَ لِتُكَافِئَنِي بِأَكْثَرَ أَدْرَكَ الْمِثْلَ فَقَطْ»، وَلاَ تَجِبُ الزِّيَادَةُ إلاَ إِنْ تَبَرَّعَ الْمُهْدَى إِلَيْهِ، وَهَذَا دَاخِلٌ فِي كَلاَمِ الْمُصَنِّفِ. وَيُرَاعَى فِيهَا الْعُرْفُ وَالْعَادَةُ كَإِهْدَاءِ بَعْضٍ لِبَعْضٍ لِمَعُونَةٍ أَوْ وَلِيمَةٍ لِيُعَاوِنَهُ مَرَّةً أُخْرَى فَيَلْزَمُهُ قِيلَ قِيمَةُ ذَلِكَ الشَّيْءِ وَلَوْ قَامَ إِنْ لَمْ يَكُنْ اتِّفَاقٌ بَيْنَهُمَا، وَلاَ تُرَدُّ قِيمَةُ الْهَدِيَّةِ فِي الْحُكْمِ إلاَ إِنْ شَرَطَ ثَوَابَهَا مَعْلُومًا إِذْ لاَ حُكْمَ عَلَى مَجْهُولٍ»(30).

●المقارنة بين المذاهب وعدم التعصب.

تبرز في كتابات الشيخ اطفيش الفقهية سمة واضحة لكل مطلع، وهي أنه فقيه متفتح، لا يحصر نظره على مذهبه الفقهي الموروث، بل يعرض بكل اقتدار وأمانة آراء المذاهب كلها، دون تحيز ولا إقصاء، ويتناول المسائل بأدلتها، ويخلص في النهاية إلى ترجيح ما اعتضد بالدليل القوي، وإن كان من غير مذهبه.

والمقارنة بين الآراء مسلك قديم في التراث الفقهي عرف بعلم الخلاف أو الفقه المقارن، حسب مقصد المؤلف، إذ إن علم الخلاف يعمد إلى ترجيح آراء المذهب وبيان الفروق بينه وبين غيره، بينما يتسع الفقه المقارن للنظرة الموضوعية في العرض والترجيح بين آراء الفقهاء.

وكتاب «شرح النيل وشفاء العليل» صورة جلية للفقه المقارن الذي اعتمده الشيخ اطفيش في هذا الكتاب. كما نجد هذا في كتابه «شامل الأصل والفرع»، وكذا في «الذهب الخالص»، وإن كان مسلك المقارنة في هذا الأخير موجزا، يكتفي فيه بالأقوال وذكر أصحابها بالترميز، توخيًا للاختصار، وهو منهج أوضحه في مقدمة الكتاب(31).

أما المقارنة بصفة عامة فكان عمل القطب فيها امتدادًا لمسلك درجت عليه أيضا كتب الفقه الإباضي، منذ القرون الأولى، مثل كتاب جامع ابن بركة، وأجوبة ابن

---

(30) — اطفيش، شرح النيل، ج12، ص49.

(31) — اطفيش، الذهب الخالص، ص2.

حفنون، والمصنف لأحمد بن عبد الله الكندي، والضياء لسنمة العوتبي، وبيان الشرع لمحمد بن إبراهيم الكندي، وقواعد الإسلام لإسماعيل الجيطالي، والإيضاح لعامر بن علي الشماخي، وغيرها من المصادر الفقهية القديمة.

●مراعاة أدب الخلاف.

من الكاتبين من يوسع المجال لعرض الآراء المختلفة في مجال تأليفه، بيد أنه يضيق عليهم في التعامل، فيلمز هذا، ويستصغر ذاك، ويخطئ دون بيان، وربما رمى شخصا بالعيّ والغباء، أو اتهم أحدا بالزيغ والضلال.

وهو تعامل ينافي قيم الإسلام وأخلاقه السمحة، كما أنه معيار لتقويم مدى صفاء الطوية، وسلامة القصد، وسمو التفكير، ورفعة الأخلاق عند الكاتبين. وهذا ما تحليه مؤلفات القطب بعامة، وكتبه الفقهية بخاصة، إذ اجتهد أن ينقيها من رواسب عصور خلت، كان التنابز بين المسلمين عامتهم وخاصتهم مسلكا معتدا، ومنهجا مقبولا. ولكن المتأخرين استبصروا فنبذوا هذا الانحراف، وعادوا إلى مبادئ الإسلام التي تجعل أبناءه أمة واحدة لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى. وإلى تعاليمه التي توسع الأفق وتسمح بالاختلاف، ما دام قائما على الدليل، يرمي إلى إصابة الحق، ولا ينتصر لشخص ولا لمجموعة، وإنما يبتغي رضوان الله منطلقا ومصيرا.

مميزات اطفيش الفقيه:

●الاستطراد في المسائل الفرعية.

يلحظ الدارسون لكتب الشيخ اطفيش سمة لا يرتضيها مَن درج على المنهج الأكاديمي المحوري؛ وهي استطراداته في الكتابة، إذ يفتح أقواسا جانبية يعرج منها إلى مسائل فرعية، وقد يطيل فيها ثم يعود إلى صلب الموضوع، ولكن بعد لأي، ثم لا يلبث أن يعاود الكرة ويفتح قوسا جديدة، في مسألة فرعية ويعرج إلى محطة جانبية قد تأخذ منه جهدا غير يسير، وزمنا ليس بالقصير، وهو مسلك يَحولُ دون الإفادة الكاملة من كتبه لعامة المثقفين، بل ولكثير من المتخصصين.

●تشتيت القارئ بكثرة الأقوال.

يعد كتاب شرح النيل موسوعة فقهية غزيرة في الأقوال وآراء الفقهاء، تدل على

تمكن الشيخ اطفيش من مادته، وإحكامه لها، نظرا لكثرة مؤلفاته فيها، بمختلف الصيغ والأشكال.

ولكنه أحيانا يورد الآراء في المسألة متفرعة إلى فروع عديدة، يصعب معها التحكم في شجرة الأقوال، ثم في مستنداتها وأدلتها، بلهَ الترجيح بينها عند الاقتضاء.

وأحيانا يكتفي بذكر الأقوال دون الترجيح، فيترك القارئ في حيرة من أمره، ولا يدري ما رأي القطب المعتمد، وربما استأنس من ترتيب الأقوال أن مختار القطب أولها.

يقول في حكم دم الاستحاضة:

«(وَهُوَ دَمُ عِلَّةٍ)، فَإِنْ بَانَتْ أَمَارَةُ ذَلِكَ فَالدَّمُ دَمُ اسْتِحَاضَةٍ تَغْتَسِلُ بِهِ لِكُلِّ صَلاَةٍ أَوْ لِكُلِّ صَلاَتَيْنِ تَجْمَعُهُمَا، أَوْ تَغْسِلُ النَّجَسَ فَقَطْ، أَقْوَالٌ»(32).

وقال في حد السفر:

«(وَ) هَلْ (حَدُّ السَّفَرِ) يَوْمٌ أَوْ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ أَوْ ثَلاَثَةُ أَمْيَالٍ أَوْ فَرْسَخَانِ مِنْ بَابِ الْمَسْكَنِ، أَوْ فَرْسَخَانِ مِنْ بَابِ الْعُمْرَانِ، أَوْ (فَرْسَخَانِ) مِنْ سُورِ الْبَلَدِ إِنْ كَانَ الْبَلَدُ، أَوْ مِنْ طَرَفِ مَا وَطَنَّ مَوْضِعًا كَانَ أَوْ مَسْكَنًا كُلُّهُ أَوْ بَلَدٌ ؟ أَقْوَالٌ»(33).

•توظيف الخبرة اللغوية في الترجيح الفقهي.

الشيخ اطفيش عالم لغة ضليع، كتب في فنونها كتابة الخبير المتمكن، سواء في النحو والصرف، أم في البلاغة وعلومها.

وولعه بالدرس اللغوي غالب عليه، ولا يكاد يفوت فرصة سانحة للحديث فيه، سواء كان في مجال الفقه أم الحديث أم التفسير.

وقد تتعثر خطى الدارس عن المتابعة نظرا لدقة المسائل اللغوية التي يطرقها، فيحرم بقية فوائد المسألة من حيث اللغة والإتقان.

وهذا الملحظ بارز في مواطن عديدة جدا من مؤلفات القطب.

---

(32) — اطفيش، شرح النيل، ج1، ص213.

(33) — اطفيش، شرح النيل، ج2، ص352.

يقول في باب التوحيد: ««تجب معرفة الله سبحانه والإقرار به أنه (لا إله إلا هو)، فـ «لا إله» عام مخصوص، فلم يدخل فيه الله، والاستثناء متصل يكفي شمول العام بحسب الوضع للمستثنى في كونه متصلا. فلو عَنَى دخوله أشرك بعنايته، وأسلم بقوله «إلا الله»: وليس كذلك. وكذا كل استثناء متصل يراد المستثنى منه من أول الأمر أنه لم يدخل فيه المستثنى، فالمستثنى منه عام أريد به الخصوص، وإلا كان كاذبا ثم كان صادقا، وليس كذلك. وكفى في اتصال الاستثناء شمول المستثنى للمستثنى وضعًا»»(34).

●التمكن من اللغة وسيلة للاجتهاد.

لئن كان الاهتمام باللغة عائقا عند البعض، فإن التمكن منها شرط ضروري للاجتهاد، ونحن في مسيس الحاجة إلى علماء راسخي الأقدام في اللغة حتى يقوم اجتهادهم على أساس سليم، وقد كان الإمام الشافعي واضع علم الأصول، حجةً في اللغة. شهد له بذلك أساطين اللغة أنفسهم، أمثال الجاحظ في وصفه لكلام الشافعي بأنه ينظم الدر(35).

وقد وظف الشيخ اطفيش اللغة لضبط المفاهيم بصورة دقيقة، ففي تحديد مفهوم الاستنجاء يقول: «الاستنجاء لغة إزالة النجو بالماء أو الحجر، وهو ما يخرج من البطن من ريح وغائط وبول، وإزالة الريح إزالة رائحته من حول المخرج. وتسمية الغائط والريح نجوًا حقيقة: أو مجاز مرسل علاقته المجاورة، لأن الغائط والريح الخارج معه، يقصد بهما المكان المنخفض، وهو مجاور للمرتفع بالنسبة إليه ضرورة. والنجو حقيقة في الأماكن المرتفعة، والواحد نجوة، وتسمية الغائط غائطا باسم محله، فهي مجاز مرسل علاقته الحالية أو المحلية: أو هما، فإن الغائط حقيقة المكانُ المنخفض. وتسميةُ فضلةِ الطعام غائطا وفضلةِ

---

(34) — اطفيش، الذهب الخالص، ص7.

(35) — يقول الجاحظ: " نظرت في كتب هؤلاء النَّبَغَة الذين نبغوا في العلم، فلم أر أحسن تأليفا من المطّلبي، كأن لسانه ينظم الدُّرّ".

نظر: الشافعي، كتاب الرسالة، مقدمة المحقق، ص14.

الماء بولاً اصطلاحٌ للفرق. والذي في القرآن تسميتهما معًا بالغائط تسميةً للحالّ باسم المحلّ.

وشرعًا: إزالة أثر الغائط والبول بالماء، بعد إزالة عينهما بنحو الحجارة، وهو الصحيح.»(36).

●قوة الشخصية في الترجيح بين الآراء:

يلحظ الدارس لكتب الشيخ اطفيش بروز شخصية الشيخ في كتاباته بصورة جلية جدا، فقد كان واثقا من نفسه فيما يقرر من مسائل ومواقف، لا يتوانى في إبرازها والدفاع عنها.

وفي إحصائية إلكترونية لكلمة «عندي» في كتاب شرح النيل، وجدتها تتجاوز ألف مرة، تأتي بعبارات مختلفة، «وعندي»، «والحق عندي»، «والواضح عندي» «والصحيح عندي»، «والذي عندي»، وغيرها كثير(37).

كما يتضح من كتابات القطب شجاعته في إبداء رأيه ولو استبان له الرجحان في غيره لاحقًا عدل عن الأول إلى الراجح، وصرّح بذلك إنصافا وشجاعة.

يقول في نقض الوضوء بمس العورة إذا فصلت عن الجسد:

«وَبِمَسِّ فَرْجِ غَيْرِ الدَّابَّةِ) فَرْجِ نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ عَمْدًا، فَقِيلَ : مُطْلَقًا، وَفَرْجُ الدَّابَّةِ لاَ يَنْقُضُ إلاَّ بِتَجَسٍّ أَوْ بِشَهْوَةٍ (وَفِي) مَسِّ فَرْجِ الأَنْسَانِ (الصَّبِيِّ أَقْوَالٌ) النَّقْضُ بِهِ وَعَدَمُ النَّقْضِ، لاَ لِرُطُوبَةٍ أَوْ اشْتِهَاءٍ، هَذَانِ قَوْلاَنِ (ثَالِثُهُمَا الْمُخْتَارُ النَّقْضُ ب) فَرْجِ (الأَنْسَى)، وَقِيلَ : يُنْتَقَضُ بِفَرْجِ الْمُرَاهِقِ وَالْمُرَاهِقَةِ، وَقِيلَ : يُنْتَقَضُ بِفَرْجِ الْحَيَوَانِ حَالَ الاِنْتِشَارِ، وَيُنْتَقَضُ بِمَسِّ الْفَرْجِ الْمَقْطُوعِ بِنَظَرِهِ عَلَى الْخُلْفِ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ مَسَّ الْفَرْجِ الْمَقْطُوعِ وَالنَّظَرَ إلَيْهِ كَمَسٍّ غَيْرِ الْمَقْطُوعِ وَالنَّظَرِ إلَيْهِ فِيمَا مَرَّ أَوْ يَأْتِي مِنْ الْخِلاَفِ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ الشَّعْرَ وَكُلَّ لَحْمٍ إذَا كَانَ عَوْرَةً، وَيَزِيدُ الْمَقْطُوعُ بِأَنَّهُ مَيْتَةٌ، وَهَكَذَا كُلُّ مَا كَانَ عَوْرَةً فَعَوْرَتُهُ بَاقِيَةٌ بَعْدَ قَطْعِهِ، وَهَكَذَا كُنْتُ أَقُولُ، وَالنَّظَرُ كَالْمَسِّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَقُولُ الآنَ : لاَ نَقْضَ بِنَظَرِ الْمَقْطُوعِ مِنْ ذَلِكَ إذَا كَانَ لاَ يُشْتَهَى، كَمَا لاَ نَقْضَ بِالنَّظَرِ إلَى مَنْ لاَ

---

(36) — اطفيش، الذهب الخالص، ص102.

(37) — أجريت هذا الإحصاء من خلال برنامج المكتبة الشاملة التي تضم كتاب شرح النيل.

تَشْتَهِي إِلاَ فَرْجَ الأُنْثَى فَإِنَّهُ مُطْلَقًا مُشْتَهًى فَالنَّظَرُ إِلَيْهِ نَاقِضٌ وَلَوْ مَقْطُوعًا مِنْ عَجُوزٍ»(38).

●رد الآراء الغريبة في اجتهادات الفقهاء:

التمييز بين آراءالفقهاء للترجيح أمر مطلوب، ولكنَّ ثمةَ محورا يغفل عنه بعض المؤلفين، ألا وهو فرز ما لا يصلح للاحتفاظ به ضمن آراء الفقهاء، وخاصة ما كان نشازا، أو مخالفا للنصوص والقواعد الشرعية المحفوظة.

قال في تحمل العاقلة دية قتل الخطإ: «(وَ) دِيَةُ الْخَطَأِ (هِيَ عَلَى عَاقِلَةِ الْجَانِي) وَقَالَ بَعْضُ قَوْمِنَا : دِيَةُ الْعَمْدِ الَّتِي لَمْ يَقْصِدْ صَاحِبُهَا الْقَتْلَ عَلَى الْعَاقِلَةِ إِذَا كَانَ مِمَّا يُمْكِنُ الْقَتْلُ بِهِ وَلاَ يَبْعُدُ، وَسَوَاءٌ فِيمَا يَكُونُ عَلَى الْعَاقِلَةِ الدِّيَةُ وَمَا دُونَهَا فَصَاعِدًا. وَاخْتَلَفَ قَوْمُنَا فِي دِيَةِ الْمَأْمُومَةِ وَالْجَائِفَةِ أَنْ تَكُونَ عَلَى الْجَانِي أَوْ عَلَى الْعَاقِلَةِ ؟ وَكَذَلِكَ فِي دِيَةِ الْكِتَابِيِّ، قِيلَ : فِي مَالِ الْجَانِي، وَقِيلَ : عَلَى الْعَاقِلَةِ إِذَا قَتَلَهُ الْمُسْلِمُ، وَكَذَلِكَ فِي دِيَةِ الأَبِ إِذَا قَتَلَهُ ابْنُهُ وَلَوْ عَمْدًا ؛ لأَنَّهُ يُقْتَلُ فِيهِ كَذَا كُلُّ مَنْ لاَ يُقْتَلُ، وَكَذَا دِيَةُ الَّذِي يَمُوتُ فِي اللَّعِبِ، وَكَذَا الَّذِي يَمُوتُ مِنَ الأَدَبِ، وَكَذَا إِذَا شَجَّهُ وَأَسْرَى ذَلِكَ إِلَى نَقْصِ بَصَرِهِ أَوْ سَمْعِهِ، وَالْمَذْهَبُ إِنَّ الْعَاقِلَةَ لاَ تَعْقِلُ الْعَمْدَ مُطْلَقًا إِلاَ عَمْدَ الصَّبِيِّ وَالْمَجْنُونِ. وَقَالَ الأَصَمُّ وَبَعْضُ الْخَوَارِجِ : إِنَّ الْعَاقِلَةَ لاَ تَحْمِلُ شَيْئًا أَبَدًا وَهُوَ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ»(39).

وفي المسألة المشتركة في الميراث قال: «وَاعْلَمْ أَنَّهُ أُلْغِيَتْ قَرَابَةُ الأَبِ فِي حَقِّ الشَّقِيقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ حَتَّى لاَ يَسْقُطَ، وَلاَ يَفْضُلُ الذَّكَرُ عَلَى الأُنْثَى إِلاَ بِالنِّسْبَةِ لأَوْلاَدِ الأَبِ، فَلَوْ كَانَ فِي الْمُشَرَّكَةِ مَعَ الشَّقِيقِ أُنْثَى أَوْ إِنَاثٌ خُلِّصٌ لأَبٍ سَقَطَتْ أَوْ سَقَطْنَ عِنْدَ مَنْ قَالَ بِالتَّشْرِيكِ كَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَعِنْدَ غَيْرِهِمْ كَالْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ جَرْيًا عَلَى الأَصْلِ فِي حَجْبِ أَوْلاَدِ الأَبِ بِالْعَصَبَةِ الشَّقِيقِ بِالإِجْمَاعِ، وَلاَ نَعْلَمُ أَحَدًا اسْتَثْنَى مِنَ الإِجْمَاعِ الشَّقِيقَ فِي الْمُشَرَّكَةِ، وَنُقِلَ عَنْ إِمَامِ الْحَرَمَيْنِ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّمَا أُلْغِيَتْ قَرَابَةُ الأَبِ فِي حَقِّ الْعَصَبَةِ الشَّقِيقِ حَتَّى لاَ يَسْقُطَ أَيْ لاَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَقَدْ أَخْطَأَ بَعْضُ الْمُفْتِينَ إِذْ أَفْتَوْا أَنَّهُ

---

(38) — اطفيش، شرح النيل، ج 1، ص164.

(39) — اطفيش، شرح النيل، ج15، ص 133.

لِلإِخْوَةِ لِلأَبِ فِي الْمُشْتَرَكَةِ، وَتَعُولُ إِلَى تِسْعَةٍ أَوْ إِلَى عَشَرَةٍ، لأَنَّ الأَخَ الشَّقِيقَ إِنَّمَا وَرِثَ فِيهَا بِقَرَابَةِ الأُمِّ، وَأُلْغِيَتْ قَرَابَةُ الأَبِ فَلاَ يَحْجُبُ الأَخَوَاتِ لِلأَبِ كَأَخٍ لأُمٍّ، وَهُوَ قَوْلٌ بَاطِلٌ مُخَالِفٌ لإِطْلاَقِ الإِجْمَاعِ»(40).

كما كان للشيخ اطفيش مواقف فقهية على الصعيد الاجتماعي إذ ردّ كثيرا من الآراء غير المستساغة، وأبطل عوائد كانت تحسب من الدين، وهو منها براء. كحرمان المرأة من الميراث، واعتماد عبارة «صباح الخير» بدل تحية الإسلام، واجتهد لمحاربة هذه الانحرافات، وكلفه ذلك عناء وبلاء، ولكنه أفاد الناس بأحكام الشرع، فصححوا كثيرا من أخطائهم في العبادات والمعاملات(41).

●التجوّز في الاستشهاد بالأخبار:

كانت عناية القطب اطفيش بالحديث متأخرة عن عنايته بالفقه، وقد أفاد من رحلته إلى الحجاز في استجلاب مصادر الحديث التي كانت نادرة في بيئته، ولذلك تأثر إنتاجه الفقهي بهذا النقص في المصادر الحديثية. ولئن كتب في علم مصطلح الحديث متأخرا، فإن في نتاجه الفقهي عددا من الأحاديث الواهية، وفي كتابه شرح النيل أيضا نصيب منها.

ونورد على سبيل التمثيل ما ذكره من الوعيد في من عقد عقدا بعد النداء لجمعة، إذ يقول شارحا قول الثميني صاحب النيل:

«(وَجَازَ) عَقْدُ الْبَيْعِ وَالنِّكَاحِ وَغَيْرِهِمَا (لِمَنْ لاَ تَلْزَمُهُ) الْجُمُعَةُ (وَلَوْ بَعْدَ أَذَانِ وَخُطْبَةٍ)، وَإِنْ كَانَ أَحَدُ الْعَاقِدَيْنِ لِلْبَيْعِ مَثَلاً مِمَّنْ تَلْزَمُهُ صَحَّ الْعَقْدُ مِنْ بَابِ أَوْلَى عِنْدَ مَنْ صَحَّحَهُ مِمَّنْ لَزِمَهُمَا، وَبَطَلَ عِنْدَ مَنْ أَبْطَلَهُ عَمَّنْ لَزِمَهُمَا لِبُطْلاَنِ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ، وَكَذَا السَّفَرُ يَجُوزُ، وَأَمَّا مَنْ تَلْزَمُهُ فَلاَ يُسَافِرُ بَعْدَ الزَّوَالِ، وَرُخِّصَ وَيُسَافِرُ قَبْلَهُ، وَقِيلَ : لاَ يُسَافِرُ بَعْدَ صَحْبِهِمَا إِلاَّ لِحَجٍّ أَوْ غَزْوٍ أَوْ عِلْمٍ وَنَحْوِهَا، وَالْحُلْفُ فِي الإِمَامِ أَيْضًا، أَمَّا الْبَيْعُ

---

(40) — اطفيش، شرح النيل، ج15، ص 470.

(41) — ينظر: مصطفى وينتن، الشيخ اطفيش وآراؤه العقدية: فصل الإصلاح الاجتماعي للشيخ اطفيش.

فقوله : {إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع}: نص في تحريمه قبل النداء، وقوله : {فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض}نص في جوازه بعد الصلاة، وأما بقية الصنائع غير العقود كالخياطة والنسج وعمل اليد ففيه وعيد يذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أنه : «من فعل من النساء والرجال ففعلُه يومَ الجمعة حرام، وكسبُه كالميتة والدم ولحم الخنزير، ولا يُقبلُ صومُه ولا صلاتُه ما دام في بطنه. وإذا لبس من كسب يوم الجمعة لا يقبلُ اللهُ منه صرفًا ولا عدلاً، ويخرجُ من الدنيا ذلك الكاسبُ بلا إيمان، ويجدُ شدةَ الموت وملكُ الموت عليه غضبان، ويشتدُّ عليه سؤالُ منكر ونكير، ويُشدَّدُ عليه عذابُ القبر وتشتدُّ ظلمةُ قبره ويُحشرُ مع الكفار بصورة كصورة الخنزير ويدخلُ النارَ والربُّ عليه غضبان». كذا وجدت الحديث يرويه أبو أمِّ أبي، واسمُه يوسفُ بنُ محمَّد، ويُلقَّبُ بالطَّرَابُلسيِّ رحمهُ اللهُ»(42).

وتحليل القطب للآية والاستدلال بها دليل على تمكنه من علم الأصول، وما أورده من آراء الفقهاء المستفادة من الآية صورة لملكته الفقهية، ولكنه لم يشف الغليل حين جنح إلى إيراد حديث يتعلق بالموضوع وجده يرويه جده لأمه.

ولا يخفى أن جده ليس حجة في صحة الأحاديث، وقد أحسن القطب إذ أخبر أنه وجد الحديث كذلك. بيد أن هذا لا يكفي لاعتماده دليلا أو شبه دليل، إن لم يوثقه نقلة الأخبار وعلماء الجرح والتعديل.

خاتمة

من خلال هذا العرض الوجيز لملامح اجتهاد القطب نخلص إلى أنه كان اجتهادا أصيلا، قائما على أدلة الشرع، مستوعبا لقضايا العصر، مسترشدا بمقاصد الإسلام.

وكان القطب في إنتاجه الفقهي بما احتواه من مؤلفات ذاتية، وشروح، وفتاوى، فقيهًا بصيرا، أدرك موقع الفقه في حياة المسلم، ودوره في توجيه المكلف لأن يستمسك بعرى الشريعة، وأن يستظل بأحكام الله في كل مناحي الحياة.

وسعى لكي يظل الفقه صورة الواقع الصادقة، ودليل المجتمع الأمين، وملاذه الآمن،

---

(42) — الطفيش: شرح النيل، ج1، ص331.

يعصمه من التيه والحيرة، وينجده بأحكام الله في كل مناحي الحياة.

ولئن انتسب الشيخ اطفيش إلى المدرسة الإباضية فلم يكن ذلك حائلا دون الإفادة من كل الجهود المباركة لفقهاء الإسلام من مختلف المدارس، يستقي منها الآراء السديدة، وينفح بها السائلين، دون تحيز ولا تعصب.

والاعتراف بالجهد الطيب للقطب في تجديد الفقه وتأصيله واجب على الخلائف وفاء وبرًّا بالآباء، مع ضرورة الإنصاف والتنبيه إلى ما قد يتخلل هذا النتاج من مآخذ في الشكل أو الأسلوب، وما في بعض الآراء من ضعف أو عوز إلى الدليل. والغاية في النهاية ابتغاء رضوان الله والتعاون على البر والتقوى كما أمرنا المولى في كتابه الخالد.

وهذه الروح تتضافر الجهود للإفادة المثلى من تراثنا الفقهي، وتطويره حتى يتبوأ مقعده الصحيح في ريادة الأمة، وإحيائها وجمع كلمتها، فنجل من اختلاف الآراء ثراء يغنينا لمجابهة تحديات العصر وتطوره السريع، ولا يتسنى ذلك إلا بأعمال اجتهادية جماعية متضافرة، وأن نكف عن تبديد الجهد والزمن في محاولات فردية متنافرة. فذلك هو المخرج الوحيد، وليس لنا من خيار، سوى الاعتصام بالكتاب وسنة المختار، لتحقيق التوحيد في المعتقد والمسار.

أهم مصادر الدراسة

1. أبو اليقظان إبراهيم، ملحق السير، ترجمة القطب اطفيش. مخطوط.
2. احمد بن يوسف اطفيش، الذهب الخالص المنوّه بالعلم القالص، طبع وتعليق أبي إسحاق إبراهيم اطفيش، ط2، مطبعة البعث، قسنطينة، 1400هـ، 1980م.
3. احمد بن يوسف اطفيش، شامل الأصل والفرع، نسخة مصورة عن طبعة المطبعة السلفية، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، د.ت.
4. احمد بن يوسف اطفيش، شرح النيل وشفاء العليل، دار الفتح، بيروت، لبنان، 1972م.
4. احمد بن يوسف اطفيش، كشف الكرب، طبعة سلطنة عمان، 1985، ج1، ص263.
5. جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م.
6. جهلان عدون، الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ اطفيش، ماجستير جامعة الجزائر. نشر جمعية التراث، القرارة.
7. الحاج سعيد عيسى، الإمام اطفيّشْ المصلح الاجتماعي الديني، محاضرة ألقيت في مهرجان القطب، -البلابل الرستمية-، غرداية، 1981م.
8. حفار إبراهيم بن بكير، السلاسل الذهبية في الشمائل الطفيشية.
9. الشافعي، كتاب الرسالة، مقدمة المحقق.
10. صحيح البخاري - كتاب العلم، باب : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين.
11. عمرو مسعود أبو القاسم، قطب الأئمة ودوره في الإصلاح والتربية، مهرجان القطب، البلابل الرستمية، غرداية: 1981.
12. محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة.
13. مصطفى بن الناصر وينتن، الشيخ احمد بن يوسف اطفيش وآراؤه العقدية، نشر جمعية التراث، 2000.

14. يحي بوتردين، الشيخ اطفيش ومذهبه في التفسير، ماجستير، يحي بوتردين، جامعة عين شمس، القاهرة، 1989م.

15. Apercus sur l'histoire de l'Ibadisme au Mzab. P5. CUPPERLY, Pierre

المسألةُ الفلكيّةُ عند قطبِ الأئِمّةِ

محمد بن قاسم حدبون

1. توطئة:

يَعترفُ المتابعُ المتفحِّصُ لمؤلّفات قطبِ الأئمة الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش بالموسوعيَّةِ في التأليف، والتبحُّرِ في صنوف العلوم؛ فقد تعدَّدت مجالاتُ تأليفِه وتنوعَّت، واتسعت ميادينُ اهتمامه وتشعَّبت، حتى استحق القطبُ لقبَ مجدِّدَ المذهب الإباضيِّ بجدارة، وبات "مرجعا أساسيًّا من مراجع الفكر الإباضيِّ، تُعرِب أعمالُه عن حقيقة مبادئِ هذا المذهب"؛([1]) فكان علاّمة عصره في علوم كثيرة، له الكعب المعلّى تأليفًا وشرحًا وتعقيبًا وتصويبًا.. بذلك كلّه استطاع احتواءَ مادة علميَّة غزيرة، تمكّن من إعادة تقديمها وصياغتها في مستوًى يناسب عصرَه.

وتكتسبُ تلك المكانةُ العلميَّة قيمةً أكبرَ، معرفتُنا بمعاناة الشيخ في حياته العلميَّة التي كانت شحيحةَ المصادر؛ فلم يُعرف عنه أنّه شرَّق وغرَّب، أو ضرب أكبادَ الإبل في رحلات طلبًا للعلم؛ بل إن التزاماته التعليميَّةَ، وواجباته الدعويَّة والاجتماعية، جعلته قليلَ الأسفارِ،([2]) كثيرَ الإقامة –جبرا لا اختياراً– في واديه القَفْرِ من أسباب العلم والحياة؛ ويبقى السببُ الأقوى تضييقُ الاستعمار الفرنسيِّ عليه، إذ كان لا يتنقل إلاّ برخصة تُطلَب من القائد العسكريِّ.

لذلك كلّه، "عُرِف القطب باعتماده شبه الكلّي على نفسه في تعلُّمه؛ فالإنتاج العلميُّ الذي تركه لا يعادل المحيط الذي عاش فيه، والظروف التي عرفها من نقص في المشايخ والكتب".([3])

---

1) ينظر: مصطفى ويتن: آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية؛ نشر جمعية التراث، ط1، 1996، ص: 08.

2) يُستثنى من ذلك رحلته إلى الحجاز مرورا بجزيرة جربة، وفيهما التقى بالعديد من العلماء في الحرم المكي والمدني، واقتنى بعضا من الكتب. وفي قصيدته الحجازية نقلٌ لبعضٍ من تلك الأخبار العلميَّة.

3) المرجع السابق، ص 47-48.

وإن تصدَّر شرحُ النيلِ والتيسيرُ وغيرُهما مؤلفاتِ القطب، وربَّما حازا فضلَ العلميَّة عنه، فثمَّةَ فنونٌ اهتم بها القطب، وأظهر فيها تمكُّنا وقدرةً لا تقلُّ شأنا عمَّا اشتُهِر به في الدين وأصوله، والفقه وفروعه، والقرآن وعلومه، والحديث وفنونه.. ومن ذلك **علمُ الفلك**، والحساب، والمنطق، واللغة، والطب.

وتتلمس هذه المقالةُ معالمَ **المسألةِ الفلكيَّةِ** في مؤلفاته، وترصد اهتمام الشيخ بمباحث هذا الفنِّ ومصطلحاته؛ لتكتمل الجوانبُ العلميَّة لعلَمٍ من أعلام الفكر الإسلاميِّ الحديث، جدَّد لهذا الدين، وحمل همَّ النهضة في العالم الإسلاميِّ قاطبة، وناهض المستعمِرَ.([1])

2. تأصيل النظر الفلكي عند القطب.

يؤسِّس القطبُ لمسألة النظر في ملكوت الله تعالى(الكون)، ويوجهه الوجهةَ التي ينبغي أن تكون عليه: فالنظر عنده هو ذلك الذي يثمر إيمانا، "وَالْمُرَادُ نَظَرُ اعْتِبَارٍ لَا نَظَرُ الْعَيْنِ"، ولا بأس بنظر مجرَّد، غيرِ مستحضِرٍ للعظمة: "لأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِفْتَاحًا لِنَظَرِ الاعْتِبَارِ بِالْقَلْبِ". والنظر الوارد في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾([2]) قال: "والنظر بمعنى **العلم**". وتركُ النظر كان سببًا لضعف المسلمين حتى اعتدى عليهم الكفار، تلك هي نظرته الشهيرة في أسباب استعمار العالم الإسلاميِّ. لذلك وغيره كان يدعو إلى التفكر في ملكوت الله تعالى، ويقول في هذا الصدد: "وَانْظُرْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالنُّجُومِ، وَمَنْ نَظَرَ فِي غَيْرِهِنَّ فَقَدْ فَاتَهُ النَّظَرُ، فَالْأَرْضُ وَالْبِحَارُ وَالْهَوَاءُ وَكُلُّ جِسْمٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى السَّمَاوَاتِ كَقَطْرَةٍ فِي بَحْرٍ وَأَصْغَرَ، وَانْظُرْ كَيْفَ تَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ وَفِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ".([3])

---

1) وهو القائل في موقفه من المستعمر الكافر:

لولا ثلاثٌ هنَّ: تعليم جـــــاهل ... وخدمةُ ربِّي والجهاد لذي كفرٍ

لَمَا كنتُ أخشَى الموتَ والموتُ لازمٌ ... وإلاَّ فما الحياةُ والمرءُ في قـــهرٍ

2) سورة ق: آية 06.

3) ينظر: محمد بن يوسف أطفيش: شرح كتاب النيل وشفاء العليل: 299/16.

وقال ناصحا "وَاعْتَبِرْ دَوَامَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ بِلَا فُتُورٍ فِي مَطَالِعَ وَغُرُوبِهَا فِي مَغَارِبَ مُتَفَاوِتَةٍ وَسَيْرِهَا سَيْرًا مُقَدَّرًا لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَبَعْضُ نُجُومِهَا عَلَى صُورَةِ الْعَقْرَبِ وَالْحُوتِ وَالْحَمَلِ وَالثَّوْرِ وَالْأَسَدِ وَالْإِنْسَانِ، وَلَا صُورَةَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا لَهَا مِثَالٌ فِي السَّمَاءِ، وَانْظُرْ اخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُصُولِ الْأَرْبَعَةِ، وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَزَمَانِ الِاعْتِدَالِ".(1)

كلُّ ذلك "دليلٌ على وحدانية الله تعالى في السموات؛ من نجوم وذوات أذناب وغيرها وتغير أحوالها، والقطب الشمالي ودوران النجوم عليه والقطب الجنوبي.. والمجرة وفيها نجوم كبار تدور معها وسط السماء ومطلعها ومغربها، وإذا استقبلت جهة تقوست إليها، وبنات النعش الصغرى والكبرى، وإضاءة ما قابل الشمس من القمر، وخلو ما لم يقابلها منه وغير ذلك".(2)

هذا ومِّما يؤكد مستوى تحكُّمِ القطب في علم الفلك، والتمكُّن من ناصيته، ذكرُه للمئات من المصطلحات الخاصة بهذا الفنِّ، وعلى أدق وجه واستعمال؛ ولو أحصينا ما ورد من مصطلح فلكيٍّ فيما كتبه القطب، لخرجنا بقاموس فلكي معتبَر، ما بين أسماء للنجوم والكواكب، والظواهر والأحداث الفلكية، والأعلام والمناطق.

3. المسألةُ الفلكيَّة في مؤلفات الشيخ:

تبرز اهتماماتُ الشيخ بالجانب الفلكيِّ في نظرنا في صورتين:

أوَّلا: التأليف المستقلُّ، المصنَّف أساسًا ضمن فنِّ علمِ الفَلك، ونعني بذلك مؤلَّفَه الذي أشار إليه في مقدمته لكتابه "شرح كتاب النيل وشفاء العليل"؛ نوَّه به قائلا "فَانْظُرْ كِتَابِي فِي فَنِّ الْفُلْكِ الَّذِي سَمَّيْتُهُ "مَطْلَعُ الْمُلْكِ فِي فَنِّ الْفُلْكِ".(3)

---

1) المصدر والصفحة نفسه.

2) المصدر نفسه: 395/1.

3) ينظر: شرح كتاب النيل وشفاء العليل: 36/1.

وصف المؤلَّف: الكتاب مخطوطٌ، رقمه في مكتبة القطب (أ-ض 1)، يُشتهر بعنوان "مسلّكُ الفلك" اختصارا، وله اسم آخر ذكره القطب في مقدمة المخطوط "وسميتُه الرسالة الفتحيَّة في الأعمال الجيبية". وأصله شرح لرسالة "الرُّبُعُ المجيَّبُ"[1] لعالم الفلك والرياضيات سبط المارديني، كما يصرِّح بذلك في مقدمته للكتاب "فهذه رسالة في الرُّبُع المجيَّب..". [2]

والمخطوط في حالة جيِّدة؛ يضمُّ مائةً وثمانية وعشرين صفحة (الوجه والظهر)، غير مخروم الحواشي، بخط واضح مقروء، وبلونين (أسود، وأحمر للعناوين)، بحواشيه تعليقاتٌ وإضافاتٌ، مُشفَّعٌ بجداول ورسومات توضيحيَّة. ويبدو أنَّ الناسخ لم يفرغ من نسخه، أو أنَّ القطب لم يكمل شرحه، إذ فيه التصريح بتضمن الكتاب لعشرين بابا مع مقدمة، لكن المخطوط انتهى عند الباب التاسع عشر، في ذكره لفوائدَ، ويؤكد السياق هذا الانقطاع "الفائدة الخامسة عشر...(فراغ)".

وقد ذكر الأستاذ مصطفى وينتن في بحثه القيّم عن القطب "آراء الشيخ المحمد بن يوسف أطفيش العقدية" تشكيك الأستاذ عدون جهلان نسبة هذا الكتاب إلى القطب؛ ثم فنَّد ذلك وصحَّح نسبة الكتاب إليه، بأدلة كافية تثبت ذلك، لعلَّ أقواها تنويهُ المؤلِّف بكتابه هذا في شرحه للنيل –كما أسلفنا–، ووجوده ضمن فهرس مؤلفات الشيخ.

ومن عناوين الأبواب التي حواها الكتاب نذكر: باب معرفة الارتفاع، معرفة الجيب من القوس وعكسه، معرفة الظل المجهول من الارتفاع المعلوم وعكسه، معرفة الميل الأول

---

1) كذا ضبطه المؤلف في حاشية المخطوط "بضم الراء والباء، أو بضمِّها وإسكان الباء". ينظر المخطوط ظ: أ.

2) الرُّبُع المجيَّب sine quadrant واحد من أنواع أرباع الدائرة، وهو في الأصل من الأسطُرلاب ينقش على ظهره، وهو آلة بسيطة أساسها ربع دائرة، مكونة من قوس مقسم إلى 90 درجة، ترسم عليها خطوط متنوعة، تستخدمه عادة القبلة، ميل منطقة البروج، وأكثر الأعمال التي يقوم بها الاسطرلاب.

ومع هذه الآلة توجد آلات أخر مقاربة منها آلة الربع التام perfect quadrant وآلة الربع الدائري أو الربعيّة، كلُّها آلات فلكية تراثية قديمة كانت تستعمل لحساب المواقيت. ينظر: عبد الأمير مؤمن: قاموس دار العلم الفلكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط 1: 2006، ص: 218-219.

المجهول من درجة الشمس، معرفة عرض المَيل، معرفة الماضي ومعرفة الباقي من النهار، معرفة سعة المشرق والمغرب، معرفة الارتفاع الذي لا سمت له: معرفة مقدار السمت، معرفة مقدار سمت القبلة، معرفة استخراج الجهات الأربع، معرفة بعد الكوكب، معرفة حال الكوكب في وقت مفروض.

ثانيا: **الآراء الفلكية للقطب من ثنايا تآليفه**؛ وهي اجتهاداتٌ وتوضيحاتٌ في مسائل فلكيَّة بثَّ فيها القطب، لكنَّها مبثوثة في مؤلَّفات خارج تخصص فن الفلك، وبخاصة تفسيره "تيسير التفسير"، هذا الذي ينطوي على علم غزير بالجانب الفلكي، اقتضته آيات الكون في القرآن الكريم، فسَّرها القطبُ من أفق معرفيٍّ لعالمٍ بالفلك. ولو قُدِّر لباحث تتبُّع تلك الآراء بمسح شامل لكلِّ مؤلفات الشيخ لخرج بمؤلَّف مستقل آخر، يُعنى بإبراز المسألة الفلكية عند القطب، على أكمل وجه، وأعمق تصوُّر. ولعلَّ فيما ننقله من الدرر اليسير من خلال التيسير، الخطوةُ أولى، والنواةُ لهذا المشروع.

وما من شك أنَّ الاهتمام بهذا الجانب لأمر يستحق العناية والعناء من الباحثين، وسيكشف لا محالة عن مستوى اهتمام الشيخ بهذا العلم ومتابعته للجديد فيه،[1] وما أضاف إليه انطلاقا من منطقته بمزابَ،[2] وكيف وظَّفه خدمةً لأداء العبادات. [3]

4. جوانب من البحث الفلكي من خلال التيسير:

أ. البروج:

---

1) كذكره لعالم الفلك الشهير "هرتشل"، وما ظفر به من معرفة للكواكب السيارة فوق المعروفة. يقول في تفسيره لآية 54 من سورة الأعراف "وزاد بعضٌ الآن ستاوز ونوا وبالاس وسرس أو أرنوس، ويُسمَّى هرشل وهو اسم المنجِّم الذي ظفر برصده".

2) نحو اجتهاده لتحديد خطوط الطول والعرض لبلاد مزاب في كتابه "مسلك الفلك".

3) ويظهر ذلك من حرصه الشديد على معرفة ضبط الأوقات، لضبط مسألة أداء العبادات. وللقطب مزولة خمسية لضبط الوقت بدقة متناهية، قام بإنجازها.

يفردُ القطب لمعرفة البروج أهمية بالغة، فمعرفتها بأدق تفاصيلها له مقصد دينيٌّ، لا يمكن إغفاله، ولا يتصور منشغلٌ بالفلك منصرف المعرفة بها.

نجده بداية يدقّق في الأصل اللغويّ لكلمة البروج، ومناسبة التسمية، فيقول "وأصلُ البُرْج الظهور؛ والبروج الإثني عشر المعروفة في فنِّ الفلك، المشبَّهَةِ بالقصور لظهورها، ولنزول النجوم فيها، كما ينزل الإنسان في قصره"؛([1]) ثم هو يحصيها ويسمِّيها "فالبروج الإثنا عشر: الحمَل وهو الكبش، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت".([2])

هذه البروج هي "منازلُ القمر، إذ قسِّمت إلى ثمانٍ وعشرين منزلة"([3]) وهي "منازل الكواكب السيارة؛ لكلٍّ كوكب بَيْتان يقوى حاله فيهما، وللشمس بيت وللقمر بيت، فالحمل والعقرب بيتان للمريخ، وللثور والميزان بيتان للزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتان لعطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتان للمشترى، والجدي والدلو بيتان لزحل".([4])

أما مقدار البروج فكلٌّ "برج ثلاثون درجة، والدرجة ستون دقيقة، والدقيقة ستون ثانية، والثانية ستون ثالثة، وكذا إلى العاشرة. ولكل برج منزلتان وثلث، وأيامه ثلاثون وعشر ساعات ونصف".([5])

ومما شاع في النظام البطلمي القديم القول بنظام الأفلاك، وعليه بنى القطبُ قوله في "فلك البروج هو الثامن وعليه الكواكب الثوابت، وهو فلك الأفلاك السبعة، تحته فلك زحل، ثم فلك المشترى، ثم فلك القمر، ثم فلك الشمس، ثم فلك الزهرة، ثم فلك عطارد، ثم فلك

---

1) احمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير، 140/16.

2) المصدر والصفحة نفسه.

3) المصدر والصفحة نفسه.

4) المصدر نفسه: 211/10.

5) المصدر نفسه:16/ 141.

القمر"[1] ويسوق كلاما طويلاً مفصلاً عن السرعات المتفاوتة للكواكب في اليوم والليلة لمتابعها.

ويتقل لنا توزيع البروج على الفصول حيث "ثلاثةٌ ربيعيَّة: الحمل والثور والجوزاء، وتسمى التوأمين، وثلاثة صيفية: السرطان والأسد والسنبلة، وتسمى العذراء، والست شمالية، وثلاثة خرفية: الميزان والعقرب والقوس، ويسمى الرامي، وثلاثة شتوية: الجدى والدلو وسمي الدالي وساكب الماء والحوت، وتسمى السمكتين، والست جنوبية".[2]

ب. النجوم:

يهتمُّ القطب بالنجوم أيّما اهتمام؛ فهي التي زيَّنت السماء ورصَّعت فضاءها، وكثيرا ما يتوقف عند الآيات التي تناولت النجوم بالذكر، فيستعرض الأقوال التي بلغته في الموضوع. من ذلك مثلاً، ما نقله إلينا عند تناوله لمعنى النجم الثاقب في سورة الطارق، وعند تفسيره لآية الشعرى من سورة النجم. فممَّا نقله عن الأوَّل أنَّ النجم الثاقب "زحل، وهو أبعد السيارات لأنه في السابعة، ويثقب الأفلاك كلّها، فهو الثاقب الكامل". وقيل هي الثريا لشهرتها عند العرب باسم النجم".[3].

أما النجم الوارد ذكره في بداية سورة النجم فهي "الثريا كما هو عُلِم بالغلبة عليها". وقول ثان هو "الشعرى، يقال له بالبربرية إِسَرْغ بكسر ففتح فإسكان فكسر"، وثالث هو "الزهرة، وكانت تعبد".[4]

ومما ثبت عنده عن موضوع الشعرى، قال موضِّحا ومفصلا "يقال لها: الشعرى العَبور (بفتح العين)، لأنها عبَرت السماء طولا، وسائر النجوم عبرتها عُرضا". وأثناء ذلك يتعرض للمجرة، فيعرفها "والمجرة هي طريق التبانين، تشبه طريق حاصلي التبن الساقط".[1]

---

1) المصدر والصفحة نفسه.

2) المصدر نفسه: 211/10.

3) المصدر نفسه: 160/16.

4) المصدر والصفحة نفسه.

ومن اللافت أنَّ مَن تكلم عن شعرى العَبور لا بُدَّ وتكلّم عن الشعرى "الغموض أو الغميضا بصيغة التصغير وبالمد..

وهي كوكب خلف الجوزاء، ويسمى كلب الجبار.. وتسمى العبور كلب الجبار ؛ لأنها تتبع الجوزاء المسماة بالجبار، كما يتبع الكلب الصائد به، وقيل: وكما يتبع الصيد: وأما الغميصاء ففي ذراع الأسد المبسوطة". وليس بعيدا عن هذا المقام يزيد الموضوع توضيحا بقوله: "هما اثنتان، يمانية وشامية، ويقال لإحداهما: العبور، والأخرى الغميضاء"،([1]) مع ميله إلى أن المقصود منهما في الآية هي "العبور لضوئها وشهرتها، ولأنها التي عبدت العرب من حمير وخزاعة، فرد الله تعالى عليهم بأنهم مربوبة لله عز وجل رب".([3])

وعنده –كما كان الأمر شائعا في الفلك القديم إلى حدود نهاية عصره- أنَّ "النجوم تشمل الدراري الخمس الباقية؛ زحل وعطارد والمشترى والمريخ والزهرة، والشمس والقمر فهن سبعٌ".([4]) ونوّه هنا بأمرٍ ملفتٍ للانتباه، **يؤكّد اهتمام القطب بالجديد من علم الفلك**. ومتابعتُه **لأحدث** الأرصاد وهو يسمي النجوم قولُه "وزاد بعضٌ الآن سناوز ونوا وبالاس([5]) وسِرِس([6]) أو أُرَنُوس،([7]) ويُسمَّى **هرشل**([1]) وهو اسم المنجِّم الذي ظفر برصده".([2]) .

1) المصدر نفسه: 168/14.

2) المصدر نفسه: 169/14.

3) المصدر والصفحة نفسه.

4) المصدر نفسه 77/5.

5) هو أحد الكويكبات الكثيرة التي تجري في حزام الكويكبات الواقع بين مداري كوكبي المريخ والمشتري: اكتشفه الفلكي الألماني أولبرز عام 1802. ويعد من أكبر الكويكبات المكتشفة.

6) أحد أشهر الكويكبات: وهو أولها اكتشافا، رصده لأول مرة الفلكي الإيطالي بياتزي. ينظر: قاموس دار العلم الفلكي، ص: 271.

7) أورانوس كوكب سيار ضمن المجموعة الشمسية، يحتل المدار السابع، وهو كوكب غازي، هو ثالث أكبر كواكب بعد زحل والمشتري، اكتشفه السير وليم هرشل. ينظر: قاموس دار العلم الفلكي، ص: 77.

كما نجد القطب يُثبت الكثير من الحقائق الفلكيَّة، بمناسبة ورود ذكر النجوم في بعض الآيات، من ذلك قوله "وكلُّ نجم له فلك يجري فيه، وذلك مجرى في الهواء مستدير أو في جسم لطيف غير الهواء"([3]) "والنجوم السيارة والثوابت، كلُّها مضيئة وبعضها أضوأ من بعض"([4])

ت. الثريا:

وعما كان يعتقد أنه نجم واحد قبل اكتشاف التلسكوب قوله: "وليس كل مترل نجما واحدا، بل بعضها نجم، وبعضها اثنان، وبعضها ثلاث، وأكثر فالثريا ستة أنجم، وقيل خمسة"([5]) طبعا مع تطور التلسكوبات والأقمار الصناعية ظهر ما كان يبدو أنه نجم واحد أنه مجرة تحوي ملايير النجوم.

ث. القمر:

يرتبط القمر بشعائر الدين ارتباطا وثيقًا لقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾([6]) لذلك اهتم القطب بمعرفة القمر وأحواله معرفة دقيقة؛ فتابع ميلاده، ورسم منازله، وطلوعَه وغروبَه، وكيفيَّةِ خسوفه.. بما وصل إليه من العلم بالموضوع، وبالتحقيق والتجريب.

---

1) هو السير وليم فردريك هرشل: عالم فلك إنجليزي من أصل ألماني، أكبر راصد في عصره، عاش ما بين (1738-1822) عرف بكفاءته في صناعة التلسكوبات، ومن خلالها قدم أفضل الاكتشافات الفلكية في عصره، ساهمت في تطوير علم الفلك. ومن خلاله تسكوبه اكتشف سنة 1871 الكوكب السابع أورانوس **uranus** فكان أول كوكب يكتشف عبر التلسكوب، فاشتهر به في أنحاء العالم". قلت وذلك عين ما أورده القطب.

ينظر: عبد الأمير مؤمن: قاموس دار العلم الفلكي، ص: 531-532.

2) المصدر نفسه 77/5.

3) المصدر نفسه: 47/12.

4) المصدر نفسه 190/14.

5) المصدر 44/12.

6) سورة البقرة: 189.

فهو يدقق في ضبط ماهية القمر ويميزه عن الهلال: إذ "القمر المشهور عند اللغويين أنه بعد الاجتماع مع الشمس (الاقتران) ومفارقته إياها، لا يسمى قمرا إلاّ من ثلاث ليال وستّ وعشرين، وفيما عدا ذلك يسمى هلالا".([1])

كما يوضّح ظاهرة الاقتران/الاجتماع مع الشمس، التي منها ميلادُ الهلال الجديد فيقول "والشمس والقمر يجتمعان في آخر كلّ شهر عربيٍّ في منزل واحد، ودرجة واحدة، وهو يوم ثمانية وعشرين إن كان سير الشمس بطيئا أو يوم تسعة وعشرين إن كان سريعا".([2])

كما يحرص على عدّ أيام الشهر القمري بما لا يترك مجالا للعابثين من الجهلة في بدايات الشهر ونهايته، وبخاصة الصوم والإفطار، ويقرّر ذلك بما لا يترك مجالا للشك "ولا يخفى أن الشهر ثلاثون أو تسعة وعشرون بحسب الرؤية، والشرع جاء على هذا لا غير".([3])

وأنّ "المعتبر في التاريخ العربيّ الإسلاميّ السنة القمرية، والتفاوت بعشرة أيام وإحدى عشرة ساعة ودقيقة واحدة في سنة الشمس؛ وهي ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وخمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة، وسنة القمر ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وثماني ساعات وثمان وأربعون دقيقة".([4])

فالقمر ذي المنازل "يزيد مقدار النور في كل يوم، ثم ينقص كذلك، لأن نوره من نور الشمس، بدليل اختلاف تشكلاته بالقرب والبعد منها"

---

1) المصدر نفسه: 45/12.

2) المصدر والصفحة نفسه.

3) المصدر والصفحة نفسه.

4) المصدر نفسه 192/06-193.

ومنازله ثمانية وعشرون،([1]) والمنزل عبارة عما يقطعه القمر في يوم وليلة، وذلك أنه يختفي ليلتين من آخر الشهر، وقسموا دور الفلك عليه فكان كل قسم اثنتي عشرة درجة، وإحدى وخمسين دقيقة تقريبا، وهو أسباع درجة، ونصيب كل برج منه منزلتان وثلث".([2])

ويتوقف القطب وبكثير من التفصيل عند مسألة إمكانية رؤية الهلال الجديد، ووقت الاقتران، ما ينم عن قدرة حسابية وخبرة فلكية رائدة.

"والقمر سريع السير، فعند غروب ليلة الثلاثين يكون القمر قد سار في اليوم والليلة ثلاث عشرة درجة، فالبعد أكثر من اثنتي عشرة درجة فيرى الهلال، ويكون الشهر ناقيا[كذا]، وإن اجتمعا نهار تسعة وعشرين أو ليلة ثلاثين عند الغروب بعد مضى نهار تسعة وعشرين فعند الغروب يكون القمر قد سار في اليوم والليلة منزلة واحدة، والبعد بينه وبين الشمس أكثر من اثنتي عشرة درجة، فيرى الهلال، ويكون الشهر تاما.

والحاصل أنه متى كان القمر في برج الحمل، أو الحوت خلف الشمس وبينهما إحدى عشرة درجة رؤى الهلال، وإن كان في برج الجوزاء أو الجدي وبينهما اثنتا عشرة درجة رؤى، وإن كان في برج السرطان أو القوس، وبينهما خمس عشرة درجة رؤي، وإن كان في برج الثور أو الدلو، وبينهما خمس عشرة درجة رؤي، وإن كان في برج الأسد أو العقرب، وبينهما خمس عشرة درجة رؤي، وإن كان في برج الجوزاء أو الجدي وبينهما خمس عشرة درجة رؤي، وإن كان في برج السنبلة، أو كان بينهما ثلاث عشرة درجة رُؤي، وإن كان أقل من هذه الدرج لم ير ولم يظهر إلا بالحساب الدقيق".([3])

---

1) وقد أورد أسماءها كما هي معروفة فقال "المنازل ثمانية وعشرون: الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة الطرفة والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك الأعزل والغفر والزبانى والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية وفرغ الدلو المقدم والفرغ المؤخر وبطن الحوت .

2) المصدر نفسه: 45/12.

3) المصدر نفسه 46/12-47.

وقد تفهم من هذا التدقيق والمتابعة ما كان يعانيه الشيخ من إشكالية ثبوت الأهلة من عدمها، كما هو الحال اليوم ولا يزال في العالم الإسلاميّ.

ج. الشمس:

وفي تفسير لكلمة "المشارق" الواردة جمعا في سورة الصافات، يقول: "مشارق الشمس عند طلوعها كلّ يوم في السنة، فهي عدد أيام السنة، وهي ثلاثمائة وستون بإسقاط الكسر، لأن السنة الشمسية تزيد بستة أيام، والمغارب مغاربُها كلّ يوم كذلك.. وإن شئت فمشارق الشمس مائة وثمانون، لأن مشارقها من رأس السرطان أول بروج الصيف، إلى رأس الجدي أول بروج الشتاء متحدة معها، من رأس الجدي إلى رأس السرطان، ولكل برج ثلاثون يوما".([1])

ح. الليل والنهار وتخالفهما:

يتوقف القطب عند اختلاف الليل والنهار في أكثر من تفسير للآية، كما يبين أصل هذه الآية، وعن أصلها يرى أنّها "تكونت بالسماء، ولكن الأثر في الأرض بزوال الضوء وحلول الظلمة فجعلت في آيات الأرض، والمشهور أن النهار زمان ظهور الشمس وانتشار الضوء".([2])

ويتخالف الليل والنهار طولا وقصراً إلا وقت الاعتدال، وزيادة ونقصاً، وذهاباً ومجيئاً، وظلمة ونوراً.. واختلافاً للأوقات، فكل ساعة مغرب في موضع، وعشاء في آخر، وثلث ليل في آخر ونصفه في آخر، وسدس في آخر، وسحر في آخر، وتوسط في آخر، وزوال في آخر، ووسط الوقتين في آخر، وعصر في آخر، واصفرار في آخر، وغروب في آخر، وما بين ذلك كله أيضاً متخالف، ولا تزول ولو لحظة، تغرب عن موضع، وتطلع في آخر من خلفها وقدامها، ..وكل بلد يكون عرضة للشمال أكثر من طوله، يكون أيام صيفه

---

1) المصدر نفسه: 87/12.

2) المصدر نفسه 77/5.

أقصر من أيام شتائه، والظلمة سابقة على الضوء فتقدم الليل لذلك، فالنهار لليلة قبله، **وهو الصحيح**، وقيل بالعكس".([1])

وفي سورة يس بعد تسمية الفصول يقول: "وفي أول الربيع يستوي الليل والنهار، ويزداد النهار بعد بقدر ما ينقص الليل، وينتهيان أول الصيف، فيكون أطول نهار الثاني والعشرين من يونيه، وليلته أقصر ليلة، ثم ينقص النهار ويزيد الليل إلى أول الخريف، فيستويان، فيزداد الليل وينقص النهار إلى أول الشتاء، فأطول ليلة ليلة الحادي والعشرين من ديسمبر، ونهارها أقصر نهار، ويزداد الليل حتى يستويان أول الربيع".([2])

خ. خطوط الطول والعرض:

لا تغادر النماذج الفلكية للقطب قبل إشارتنا إلى حديثه عن قضية خطوط الطول والعرض حيث يقول واصفا شكل الكرة الأرضية إجمالا "ثم إني قد أخبرتُك أنّ الأرض ليست تامة التكوير، بل بُسطت عند القطبين، ومنتفخة عند خط الاستواء، وذلك من قياس خط نصف النهار، وهو الدائرة العظيمة المارة بالقطبين التي تقسم الأرض إلى نصفي كرة، أحدهما شرقي، والآخر غربي. وقياس خط الاستواء وهو الدائرة العظيمة التي تقسمها إلى نصفي كرة، أحدهما شمالي، والآخر جنوبي، فوجد أن خط الاستواء يزيد على طول نصف النهار بنحو سبعين ألف متر، وكذا قطره، ويزيد عن قطر خط نصف النهار بنحو عشرين ألف متر، فعلى فرض تكوير الأرض ليس تكويرها تاما".([3])

5. مباحث من الفلك القديم لم يستدركها القطب:

ككلّ عالم له مأخوذ ومتروك، وصحيح ومهجور، فقد وردت للقطب آراء نقلها في مسائل كوسمولوجية، لا يمكن للعقل المعاصر أن يقبلَها، لم يدركه العلم الصحيح فيها بل

---

1) المصدر نفسه 01/332-333.

2) المصدر نفسه 12/46-47.

3) المصدر نفسه 12/13-14.

كان ابن عصره فيها؛ وخلاصة ما فيها خلط بين مفهوم السماء المادي والغيبي.[1] ونورد لذلك نماذج وردت عند القدامى من غير تصحيح ولا تمحيص:

- حديثه عن مادة خلق السماوات "فالأولى: من زبد الماء متجمداً، والثانية: من رخام أبيض، والثالثة: من حديد، والرابعة: من نحاس، والخامسة: من فضة، والسادسة: من ذهب، والسابعة: من ياقوت أحمر"،[2] ومفهوم السماوات اليوم أعقد ما يكون، يلتبس فيه المفهوم المادي بالغيبي، وإن كان يقصد بالسموات الكون المرئي فإن فروع الفلك الحديث لا تقول بذلك مطلقا.
- إيرادُه للمسافات بين السماوات بالمقاييس القديمة، نقلها من غير تعليق، أو لنقل هي نسبية غير واضحة، كقوله "وبين كلّ سماء وأخرى، وأرض وأخرى، والأرض والسماء خمسمائة عام".[3] وعلم الفلك الرصدي اليوم يميز بين المجرات وعناقيد المجرات، وفيه تنضوي الكواكب بأبعادها، والزمن معلم، لكن بدلالة أية حركة.
- اعتباره "السموات والأرض ساكنات، والكواكب والشمس والقمر متحركات في أفلاك غير السموات، أو في غير أفلاك".[4] أل عمران. وقد حسم مسألة امتداد الكون منذ إدوين هبل بما لا يدع مجالا للشك، وسكون الكون علم يوناني قديم. لا أساس له في العلم الفلك الحديث.
- أخذه بالنظام الجيومركزي الذي يجعل من الأرض مركز الكون، وأن الشمس هي التي حول الأرض، ونحن نعلم أن نيكولاي كوبيرنيكوس قد قلب هذه المسلمة، وربما لم تصله. نلمس منه هذا الرأي في حديثه عن الليل والنهار إذ يقول: "يتحقق

---

1) ينظر: نضال قسوم، جمال ميموني: قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم، ص:35. وما بعد.

2) أحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير 332/01.

3) المصدر والصفحة نفسه.

4) المصدر نفسه: 105/03.

الاختلاف بدوران الشمس على الأرض"[1] وقال في تفسيره لآية في سورة الرحمن "ويستدل بجريان الشمس بدليل الآية ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ثم يقول "**وهو الظاهر** ولا يلتفت إلى زعم من زعم أن المتحرك هو الأرض".[2]

- في ظلّ غياب وسائل الرصد لديه، بقي الشيخ متمسكا باعتبار الأرض مركز الكون وذات حجم لا يضاهى، يقول "وليست –النجوم المنكدرة- كبيرة كما في علم الهيئة بل هي كما ترى أو أكبر بقليل **وهذا هو الصواب** ألا ترى إلى تقاربهم وإدراك العين لما لا يحصيه إلا الله عز وجل ويجمعها مقدار من الأرض تحيط به العين".[3] ويقول في الموضوع ذاته "والنجم على ما زعموا أعظم من الأرض".[4]
- ومع تقدم أبحاث الضوء، وتطور الفيزياء الفلكية، فقد ردّ القطب بعضا من نتائج هذه التخصصات الفلكية الدقيقة والتي لم تصل إليه أمام الحصار، ولم يصل بجهوده الخاصة أمام قلة الوسائل والإمكانات العلميّة المتاحة لديه. يقول "وزعم الفلاسفة قبّحهم الله عز وجل أنّ من النجوم ما لا يصل إلينا شعاعه إلا في عدة سنين، وأنّ شعاع الشمس يصل إلينا في ثماني دقائق وثلاث عشرة ثانية، وأن بيننا وبينها أربعة وثلاثين مليونا من الفراسخ، والمليون ألف ألف والمليار في هذه اللغة ألف مليون".[5]

6. مسائل كوسمولوجية صحّحها القطب وردّها:

وأمّا ما تبين له فيه وجه الحق والصواب، فقد صححه وردّ المغلوط منه، ومن الأمثلة نذكر:

---

1) المصدر نفسه: 106/03.

2) المصدر نفسه: 214/14.

3) المصدر نفسه: 75/16.

4) المصدر نفسه: 190/15.

5) محمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير 259/11.

- ردُّه للاعتقاد الميثولوجي الهندي القديم في اعتبار الأرض على ظهور بعض الحيوانات تحملها. قال مهاجما هذه الأفكار البالية التي سماها تخاليط "وقيل سبع أرضين متماسة يحملهن ثور على صخرة إلى آخر **التخاليط**".([1]) ثم قدم النظرة الصحيحة فقال "والأرض أنزلها الله تعالى في **الفراغ** لا ترتكز على شيء كما ظنه اليهود أنها ارتكزت على قرن ثور، أو ظهره، وأنّ الثور على صخرة، والصخرة على حوت، والحوت في بحر، والبحر على الظلمة، ونحو ذلك من **الأقوال الباطلة**، وهل ترى الظلمة جسما يحمل شيئا، ولزم التسلسل، فدع السلسلة إلى قدرة الباري الماسك لها بالتكوين دون مركز، ولعلّ بعض الفراعنة الذين يعبدون البقر وضع ذلك عمدا أو تعمد أن الثور المعبود هو الواسطة في حرثها وغرسها ومنفعها".([2])
- اعتباره الظلمة أصل في الكون والضياء حادث، وقد تناول أولبرز ذلك في مفارقته. قال "وقدّم الليل، لأنّه أصل بتقدم الظلمة والنور حادث".
- تمييزه بين النجوم ذات النور والإشعاع الذاتي، والكواكب التي تكتسب ضوءها من غيرها من النجوم، قال "ونور الشمس والنجوم مخلوق فيهن.. ونور الكواكب من نور الشمس".([3])
- اعتباره الفرق الكبير الشاسع بين الشمس والقمر، مما لا يصح المجال للمقارنة حتى مثله بأحسن مثال للفرق فقال "وقد قيل إن القمر إلى الشمس كالبعوضة إلى الفيل".([4])
- مناقشته لمسألة النسبية في الزمن، خاصة في آيات الخلق، قال في معرض تفسيره لآية الخلق في سورة ق "والآية ردٌّ على اليهود لعنهم الله، أو نزلت فيهم إذ قالوا عن

---

1) المصدر نفسه: 234/11.

2) المصدر نفسه:12/ 14-15.

3) المصدر نفسه 77/12.

4) المصدر نفسه 25/12.

التوارة كذبا، إن الله تعالى بدأ خلق العالم في يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى عن العرش سبحانه عن ذلك وأمثاله، أو كان شيء من ذلك في التوراة ولم يفهموه" ثم يبين حقيقة الزمن إذ يقول مصححا "والأحد والإثنين وغيرهما أزمنة، فإذا كان ابتداء خلق السموات والأرض في يوم الأحد لزم تقدم الزمان على الأجسام، والزمان لا ينفك عن الأجسام، وقبل خلق السموات والأرض لم يكن شمس لا قمر".

7. مصادر المعلومة الفلكية عند القطب.

أخيرا، بعد عَرضٍ مقتضَب لنماذجَ من آراء القطب الفلكيَّة، لسائل أن يسأل عن مصادر المعلومة الفلكية لديه؛ وإنَّ السؤال ليبدو أكثر إلحاحا، إن نحن استحضرنا ما أشرنا إليه سابقا من شح المصادر الثقافة والمعرفة لدى القطب.

وفي تقديري –والله أعلم– أنَّ هذه مصادر المعلومة الفلكية لدى القطب تتلخص في ما يلي:

1. **التكوينُ الذاتيُّ والاعتمادُ على النفس في تحصيل العلوم**: وهو السمة الغالبة على جلِّ العلوم التي اكتسبها القطب، فكما أسلفنا فقد "عُرِف القطبُ باعتماده **شبه الكلِّيِّ على نفسه** في تعلُّمه؛ فالإنتاج العلميُّ الذي تركه لا يعادل المحيطَ الذي عاش فيه، والظروفَ التي عرفها من نقص في المشايخ والكتب.. بل كان يتحيَّن الفرص للتعلُّم، ويترقب مجيء أهلِ العلمِ من المشرق ليأخذ عندهم؛ هذا ما جعله **يعتقد أنَّ الاجتماع بشيخ إنما يحدث في بداية تعلُّم كلِّ فنٍّ، والطالب بعد ذلك يستطيع أن يواصل ما بقي من الفنِّ بالمطالعة**".([1]) وهذا الذي جعله يخطئ التقدير في بعض المباحث الفلكية كما مرَّ بنا آنفا. ويقرِّر الباحث مصطفى وينتن أنَّ القطب قرَّر هذه القاعدة

---

[1]) المرجع السابق، ص 47-48.

على نفسه، وكانت له **المخرج** في تعلُّمه في بيئة فقيرة من أسباب العلم. وربَّما ساعده في ذلك ذاكرتُه القوية في الحفظ، وموهبتُه في الفهم السريع، ليلتقي كلُّ ذلك مع رغبته الشديدة في التلقي والتعلُّم، وقد أثمرت هذه العصامية نتاجا علميا معتبراً.

2. **الاهتمام بالمتابعة والتجريب والتحقيق الميداني:** وذلك من صميم المنهج التجريبي الذي كان سمة المنهج العلمي الحديث، وأحدَ أسباب التطور العلميِّ في شتى الأصعدة ومنه علم الفلك. يقول القطب مبيِّنًا هذا المسلك من التحقيق والتجريب، وهو بصدد رصد الهلال "ويستتر القمر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وليلة إن كان تسعة وعشرين، هذا **غالب، وتحققت مرتين** أنه رؤِي بعد الفجر". فالوصول إلى الحكم بالتغليب كان مبنيا على التحقيق والمتابعة.

3. **متابعتُه للأخبار والمستجدات في الموضوع:** ويبدو أنَّ القطب كان مولعًا بالجديد في الموضوع ما أمكنه الأمرُ، مشتغلاً بالمستجدات فيه، وإن لم نستطع تحديد مصدر أخباره الجديدة (جرائد أم مجلات أم أخبار تصله ويسأل عنها)، ومِمَّا يدلُّ على متابعته **لأحدث** الأرصاد وهو يسمي النجوم، قوله "**وزاد** بعضُ الآن سناوز ونوا وبالاس وسِرِسْ أو أُرَنُوس، ويُسمَّى **هرشل** وهو اسم المنجِّم الذي ظفر برصده".

4. متابعته للأخبار ممَّن يُظَنُّ أنه أهلٌ لذلك، وإفادتُه لنعلم بالسماع والمشافهة؛ يقول وهو في صدد الحديث عن كروية الأرض "**نعم أخبرني رجل** أنها –أي الشمس– تقطع المحيط كله"

هذا ما منَّ الله به، من توضيح لاهتمام القطب بالمسألة الفلكية، وفي الحسبان القريب إن شاء الله تعالى أن يوفقنا الله تعالى لتحصيل الآراء الفلكية من كلِّ ما كتب، ويكتمل

الصرح الفلكي للقطب بتحقيق رائعته "مطلع الفلك في مسلك الفلك". والحمد لله أوّلا وآخرا.

المصادر والمراجع:

- **أمحمد بن يوسف أطفيش**

1. تيسير التفسير، نشر جمعية التراث، القرارة، غرداية. الأجزاء: 1، 3، 5، 6، 10، 12، 14، 15، 16.
2. شرح كتاب النيل وشفاء العليل.
3. مطلع الملك في مسلك الفلك (مخطوط). مكتبة القطب (أ-ض 1).

- **جمال ميموني، نضال قسوم**

4. قصة الكون، من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم، دار هومة، ط2.

- **عبد الأمير مؤمن.**

5. قاموس دار العلم الفلكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 2006.

- **وينتن مصطفى.**

6. آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية؛ نشر جمعية التراث، ط1، 1996.

أدب الرحلة
والمراسلات

مخاطبات ورسائل قطب الأئمة أحمد بن يوسف الطفيش إلى سلاطين زنجبار في شرق إفريقيا

الدكتور عبد الحق ميحي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وبعد

لقد شاء الله تعالى أن يكون لأهل الجزائر منذ الزمن الغابر الأثر البالغ في الحضارة الإنسانية. ولما أكرم الله هذه البقعة من المعمورة بنور الإسلام، والالتحاق بركب الحضارة الإسلامية لم تفت الساخة أبناءها الكرام من أن يدلوا بدلوهم، ويساهموا في إرساء دعائم هذه الحضارة في شتى المجالات ، ويقدموا مشاعل النور للسالكين مهما كانت أطيافهم العرقية ، والدينية ، واللغوية . ولقد تعدى تأثير علماء الجزائر حدود الزمان والمكان ، تعدى تأثيرهم حدود الجزائر والمغرب العربي فتركوا بصماتهم الواضحة وآثارهم الطيبة في مناطق قد لا يتخيلها الإنسان وخاصة كان ذلك في عهود لم تكن وسائل الاتصال ميسورة كما الشأن الآن ، مناطق لو ذكرت عند أهل الزمان لتخيلها ألها من روائع الأساطير وحكايات الأسمار . ولكنها الحقائق ، فلقد ساهم علماء الجزائر في الحضارة الإسلامية وصناعة الأحداث ، بل وتغيير بعض مجريات الأحداث العالمية في مناطق شتى من العالم . ومن هذه المناطق شرق إفريقيا والتي كانت تمثل فيها زنجبار حاضرة الحضارة الإسلامية . حيث ترك علماء وادي ميزاب — آل اطفيش — معالم واضحة في التراث الإسلامي فكرا وفقها وسياسة في وقت كان الاستعمار الفرنسي في الجزائر يقمع كل ما يمت للإسلام والعربية بصلة ويئد كل فكرة إصلاحية أو رغبة في تجديد في المهد فلا ترى النور ، وما ذلك إلا لضمان بقائه مسيطرا على الجزائر الأبية أرضا وشعبا وهوية .ومن

هؤلاء الزعماء الإصلاحيين الشيخ قطب الأئمة امحمد بن يوسف اطفيش الميزابي والذي رأى أن يسلك بإنتاجه الفكري والفقهي سبلا وعرة حتى ترى النور، ولا تظل حبيسة الخزائن والأدراج فيعلوها التراب ، أو تمزقها الحشرات ، وتأتي على أطرافها هوام الأرض ودوابها ، أو تتعرض للحرق والإتلاف شأنها شأن مئات الموسوعات ، فكان يبعث بها إلى المطبعة العربية في زنجبار للتطبع ، وتوزع، فيتخذها أهل زنجبار فقهاء وقضاة مراجع في الفتاوى، والأحكام التي يصدرونها للعامة من الناس . فاقتضى أمر إرسال الكتب من الجزائر إلى زنجبار — وخاصة في ظل انعدام وسائل الاتصال السريعة من جهة، وبعد المسافة بين البلدين من جهة أخرى — وكذا ما يتلقاه الشيخ من مكافآت من السلاطين على ذاك المجهود الجبار أن يراسل بعضهم بعضا إما على سبيل السؤال ، أو للإخبار والاطمئنان ، أو الشكر أو غير ذلك من مواضيع الرسائل والمخاطبات ، وإن لم تسعفنا المراجع أن نجد مخاطبات السلاطين للشيخ امحمد بن يوسف ، فإن التوفيق الإلهي كان حليفنا في العثور على مخاطبات الشيخ امحمد بن يوسف للسلاطين في أرشيف زنجبار وخاصة أثناء إقامتي فيها مدة خمس سنوات ، ومن ثم فسوف نحاول تسليط الضوء على العلاقة الوطيدة بين قطب الأئمة وسلاطين زنجبار ومحتوى تلك الرسائل بأسلوب علمي أكاديمي .

الوجود العربي في شرق إفريقيا :

إن الصلات بين إفريقيا والعرب موغلة في القدم والعلاقات حيث تشير العديد من المصادر التاريخية للوصول العربي المبكر إلى هذه المنطقة إذ يذكر صاحب كتاب الرحلة الدائرية وصفا دقيقا لعلاقة العرب بهذه المنطقة (شرق أفريقيا) حيث يذكر أن السفن الإغريقية الرومانية التي كانت تجوب عباب المحيط الهندي لغرض التبادل التجاري كانت تمر على المدن التجارية في شرق أفريقيا التي لم تكن خاضعة لسلطة مركزية واحدة إنما تحكم كل مدينة حاكم يتبع إداريا لسلطات الدولة القوية في جنوب الجزيرة العربية ويضيف قائلا: انه من المألوف رؤية التجار العرب في مناطق الساحل الشرقي لإفريقيا).

بل ولعل الوصول العربي إلى الساحل الشرقي من القارة أقدم من وصول قبائل البانتو التي استوطنت المنطقة المعروفة اليوم (تترانيا) ويدعم ذلك اسم الميناء (راباتا) ذو الاشتقاق العربي (ربط) أو مربط السفن . كما كان وصول المسلمين لشرق القارة واكتشاف مجاهيلها أسبق من وصول البحارة البرتغاليين والألمان المستعمرين ومن بعدهم الإنجليز, فلقد ذكرت الكتب والمصادر التاريخية أن المسلمين وصلوا إلى سواحل المحيط الهندي في القرن الثاني الهجري القرن السابع الميلادي ، وذلك لما عصفت الفتن بدار الخلافة الأموية وخرج أبناء عباد بن عبد الجندلي على الخليفة عبد الملك بن مروان فلما خسروا معركتهم مع الحجاج بن يوسف الثقفي. اختاروا شرق إفريقيا موطنا لهم وملاذا مما أصابهم , وكان ذلك سنة 695ميلادية الموافق ل 84 هجرية(5) ، في حين لم ترسوا السفن البرتغالية بقيادة البحارة (فاسكو دجاما) إلا في القرن الخامس عشر ميلادي سنة 1498م على شواطئ المحيط الهندي. وقد وجد فيها ممالك إسلامية كمملكة كلوة ، ومباسة ، وسفالة ، وزنجبار ، وغيرها من المماليك الإسلامية التي كانت ممتدة في إفريقيا شرقا، وغربا، وشمالا، وجنوبا و كانت تزخر بالعمران ، والمعالم الحضارية ، والثقافية ، والرفاهية والاقتصادية والاجتماعية .

وأما جزيرة زنجبار فقد كانت واحدة من الحواضر الإسلامية في شرق إفريقيا، ولكن لم يكن لها ذلك الشأن والمكانة المرموقة إلا في عهد سعيد بن سلطان البوسعيدي وذلك عندما اتخذها عاصمة الإمبراطورية العمانية في عام 1832م ، حيث امتدت رقعتها الجغرافية من أرض عمان والخليج العربي ببندر عباس من أقاليم فارس وحتى رأس دلغادو في أقصى شرق أفريقيا، وداخلية البر الإفريقي .ورغم الانقسام والتشرذم الذي شهدته

---

[1] سد الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية: يوسف فضل حسن: ندوة العرب وإفريقيا، منشورات مركز الدراسات الوحدة العربية ص 127.الطبعة الثانية عام 1987.

الجزيرة بموت السلطان السعيد عام 1856م إلا أنها لم تفقد مكانتها الاقتصادية والسياسية والثقافية.

تأسيس المطبعة العربية في زنجبار : لقد كان للوجود العربي المكثف في المنطقة الفضل الكبير في تأسيس المطبعة العربية وذلك من أجل طباعة الكتب العربية ،بل والجرائد الصادر باللغة العربية كجريدة النجاح التي أسسها عميد الصحافة العربية في زنجبار أبو مسلم البهلاني الرواحي [2]. ولقد أنشأت المطبعة العربية في عهد السلطان برغش بن سعيد ثالث سلاطين زنجبار والذي حكم زنجبار بين الفترة 1870 م إلى غاية 1888م وقد تأسست المطبعة عام 1879م [3]. يقول المغيري تأكيدا للتاريخ والسبب من وراء إنشاء المطبعة العربية أثناء الكلام عن خصال السلطان برغش:{ وقد أنشأ مطبعة عربية لطبع الكتب الدينية والأدبية وسائر العلوم وهي باقية إلى الآن }[4]. ويقصد بذلك زمن السلطان خليفة بن حارب والذي توفي سنة 1960م وكانت تلك المطبعة تطبع جريدة النهضة والفلق والنجاح والإصلاح التي أسسها الشيخ محمد الأمين بن علي المزروعي في ممباسا [5] ، وغيرها من الجرائد الصادرة في زنجبار باللغة العربية أو غيرها [6] .

بدايات الاتصال بين قطب الأئمة المحمد بن يوسف أطفيش وبين سلاطين زنجبار : دأبت بعض الكاتبات عن قطب الأئمة المحمد بن يوسف أطفيش أن تذكر أن المخاطبات

---

[2] ـــ جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار / ص 422/ مقدمة مجلة المنهاج / أحمد بن حمد الخليلي /

[3] ـــ البوسعيديون حكام زنجبار / الشيخ عبد الله بن صالح الفارسي / ص 21 ـــ 22/ طبعة الأولى وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان

[4] ـــ جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار / سعيد بن علي المغيري / ص 237/ الطبعة الرابعة وزارة التراث القومي والثقافة 2001/

[5] ـــ مكونات التنوير وشخصياته في صحافة أرض المهجر العماني / محسن الكندي / مجلة نزوى / العدد الثامن عشر / الصادر بتاريخ 28/ 6 / 2009

[6] ـــ نفس المرجع

والرسائل المتبادلة كانت زمن برغش بن سعيد ثالث سلاطين زنجبار ولكن التحقيق العلمي، وما بين أدينا من مراسلات كانت زمن سابع السلاطين وثامنهم السلطان حمود بن حمد ، والسلطان علي بن حمود . علما أنه لو كانت زمن السلطان برغش لعثر عليها إذ أن جميع المراسلات التي كانت لسلاطين زنجبار ما تزال محفوظة في أرشيف زنجبار حتى تلك المراسلات الواردة إلى السلطان سعيد بن سلطان أول سلاطين زنجبار هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن أول سني طباعة همیان الزاد كان سنة 1305 وهي سنة وفاة السلطان برغش . واستمرت طباعة همیان الزاد إلى زمن السلطان حمود بن حمد سابع سلاطين زنجبار ، والذي أراه راجحا أن همیان الزاد طبع على نفقة برغش بوصية منه ، حيث تولى السلاطين بعده طباعة الكتب الشرعية .

أولا : المراسلات الخاصة بالسلطان حمد بن حمود : وقد تولى هذا السلطان الحكم يوم 17/ ربيع الأول / 1314 الموافق ل 1896م وحكم زنجبار مدة ست سنوات حيث توفي عام 1320 هـ الموافق لعام 1902 م . وكان من أهم ما يميز حكم هذا السلطان تزايد نفوذ الإنجليز وتدخلهم في شؤون السلطنة وإنهاء موضوع الرق في القارة الإفريقية بشكل نهائي، حيث يقول المغيري : { وفي أيام السيد حمود زاد نفوذ الإنجليز نفوذا محسوسا في الأمر والنهي والحل والعقد في حكومة زنجبار}[7]. كما أدخل بعض التعديلات في نمط الحياة الاجتماعية في زنجبار و لم تكن معهودة عند أسلافه كالأكل على الطاولة [8].

مواضيع المراسلات : أول المراسلات كانت عبارة عن إخبار وشكر وثناء وسبب الشكر أن الشيخ قد استلم مبلغا وقدره 155 ريال كمكافأة على طبعاة بعض الكتب الإسلامية في مطبعة زنجبار[9] . والعجيب أن الشيخ لا يؤرخ رسائله ولكن المؤكد أنها كانت بعد

---

[7] ـ جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار / المغيري / ص 403/

[8] ـ نفس المرجع / ص 403/

[9] ـ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت الرقم / AA5 / 17 / 134

تولى السلطان حمود الملك أي بعد سنة 1896م والكتاب المطبوع هو الجزء الأول من كتاب همیان الزاد .

المراسلة الثانية من الشيخ إلى السلطان حمود : ورغم عدم وجود تاريخ لهذه المراسلة إلا أن موضوعها كان استفسارا من الشيخ عن وصول مجلدين من همیان الزاد حتى تتم طباعتهما ، ومع الكتابين قصيدة في مدح للسلطان حمود بن حمد كان قد نظمها في الجزائر[10].

المراسلة الثالثة والرابعة إلى السلطان حمود بن حمد : وكانت هذه المخاطبة إخبار لسلطان زنجبار بوصول مبلغ وقدره 655 ريالا كمكافأة ، ومن ثم فقد شكر الشيخ احمد بن يوسف السلطان[11] . كما كان موضوع المراسلة الرابعة شكر وإخبار عن استلام الشيخ لمبلغ وقدره 115 ريالا[12] ، والريال هي العملة التي كان يتعامل بها أهل زنجبار من أيام السلطان برغش والذي يعتبر أول اتخذ عملة في زنجبار[13] .

المراسلة الخامسة : وموضوع هذه الرسالة رد على استفسار من السلطان حمود عن عدم تلقيه لجزئين من كتاب همیان الزاد[14] ، كما تسفر هذه المراسلة عن علاقات وطيدة للشيخ مع وجهاء زنجبار منهم الشيخ البرواني[15] ، إلا أنه لم يفصح عن أي شخص بتكم بالتحديد ، إذ أن هناك ثلاثة أشخاص يحملون اسم محمد البرواني ، فالأول هو الشيخ محمد بن علي البرواني ، والثاني هو الشيخ محمد بن علي البرواني ، والثالث الشيخ محمد بن سعيد البرواني ، وكلا من هؤلاء ثلاث لهم مكانتهم في زنجبار . فالشيخ محمد بن هلال

---

[10] ـــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت الرقم / AA 5 / 21/ 213

[11] ـــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت الرقم AA5/ 23 / 24

[12] ـــ ـــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت الرقم AA5/ 23/51

[13] ـــ جهينة الأخبار بتاريخ زنجبار / المغيري / ص 339 /

[14] ـــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت الرقم AA5 /24 /30

[15] نفس المرجع

البرواني كان رئيس تحرير جريدة الفلق التي تأسست سنة 1929م في زنجبار وأحد مؤسسي الجمعية العربيةالتي تأسست سنة 1922[16]. واعتقد أنه ليس المقصود في الرسالة نظرا لفارق الزمن بينه وبين الشيخ احمد بن يوسف اطفيش ، كما استبعد أن يكون المقصود في الرسالة الشيخ محمد بن سعيد البرواني لأنه معاصر للشيخ محمد بن هلال البرواني ، وهو أحد أعضاء مجلس الجمعية العربية ، فلم يبق سوى الشيخ محمد بن علي البرواني وهذا الأخير من كبار علماء زنجبار ،كما عرف عنه كثرة أسفاره إلى مصر والشام والحجاز وقد تولى هذا الأخير طباعة ونشر سبعة أجزاء من همیان الزاد كما جاء في مجلة المنهاج[17]، والذي يرجح أن المقصود في الرسالة هم محمد بن علي البرواني وليس غيره ورود اسمه في المنهاج بصفة العالم الفاضل وهذا وصف لا يطلقه أبو إسحاق إلا على من بلغ رتبة العلم والفضل فعلا وهو من كان مشهورا بالعلم والتأليف دون غيره ممن يحمل نفس الاسم[18].

1 ــ كثرة أسفاره إلى مصر، والشيخ احمد بن يوسف كان يبعث بكتبه إلى زنجبار إما عن طريق الحجيج كما سنعرف فيما بعد، وإما عن طريق وكالة الجاموس هي من أوقاف الإباضية في مصر ، حيث كانت تعتبر بمثابة مدرسة تُجمع فيها كل الأعمال العلمية التي تصدر عن إباضية جربة بتونس ، و علماء نفوسة بليبيا، و شيوخ وادي ميزاب بالجزائر، وترسل إلى زنجبار للطباعة ، أو عمان بل حتى المراسلات والمخاطبات التي تكون بين أقطاب الإباضية في المغرب العربي كانت تجد طريقها إلى زنجبار أو عمان عن طريق وكالة الجاموس التي كان مقرها بمصر الطولونية وكانت وقفا من أوقاف الإباضية بمصر كما جاء في ترجمة الشيخ العلامة سالم بن محمد بن يعقوب للشيخ مهنا بن راشد السعدي : أ

---

[16] ــ جريدة الفلق العدد 30/ الصادر بتاريخ 26 أكتوبر / 1946/ الموافق ل30 ذو القعدة 1356 هجرية /

[17] ــ المنهاج / أبو إسحاق إبراهيم أطفيش / العدد الصادر في جمادى الثانية عام 1344 هجرية

[18] ــ نفس المرجع .

وقد كان يسكن ـــ أي الشيخ سالم ـــ وكالة الجاموس بطولون مصر ، ويقضي معظم وقته في الاستنساخ، فنسخ من مخطوطات مكتبة الإباضية لوكالة الجاموس نصيبا وافرا }[19].

2ـــ كان من معاصري الشيخ امحمد بن يوسف حيث ولد سنة 1878م وتوفي في زنجبار سنة 1953م[20].

3ـــ الشيخ محمد بن علي البرواني ليس شخصية عادية في زنجبار فقد كان من كبار العلماء والشخصيات المرموقة في المجتمع الزنجباري فله العديد من المؤلفات ، جلها أحرق وأتلف أثناء مجزرة 1964 التي أتت على كل ماهو عربي في زنجبار فلم يبق منها سوى المقامات التي عرفت بمقامات أبي الحارث أو كتاب رحلة أبي الحارث[21] ، وهذا ما يرجح أن تكون بينه وبين قطب الأئمة علاقات وطيدة ومراسلات.

4 ـــ في المراسلة يطلب الشيخ من السلطان أن يسأل الشيخ محمد البرواني عن الكتب وهذا يدل على أن الشيخ البرواني من المقربين من البلاط السلطاني وهو ما يؤكده المغيري ، حيث يقول :{ وفي يوم 4 رجب 1317هـ سافر من زنجبار ويقصد السلطان ـــ في الباخرة أنيانزة، وبصحبته الأشياخ امحمد بن يوسف المعولي ، وحمد بن محمد بن جمعة المرجبي، ومحمد بن علي البرواني والجنرال ركس }[22] . إذ ليس من المعقول أن يسأل السلطان واحدا من عامة الناس ، ولكن السؤال المطروح كيف استلم البرواني هذه الكتب من الشيخ امحمد بن يوسف ؟ هناك احتمالان لا ثالث لهما .

---

[19] ـــ مقال بعنوان الشيخ العلامة سالم بن محمد بن يعقوب / بقلم مهنا بن راشد بن حمد السعدي / www;istiqama .net

[20] ـــ قراءة أولي لمقامات البرواني / آسية البوعلي / مجلة نزوى العدد الرابع والعشرون /

[21] ـــ نفس المرجع

[22] ـــ جهينة الأخبار / المغيري ص 401/

الاحتمال الأول : أن الشيخ امحمد بن يوسف قد سلم الجزئين من هميان الزاد للشيخ محمد البرواني في موسم الحج وهذا الاحتمال لا نجد ما يسعفنا لترجيحه ، إذ لا نعلم في أي سنة حج البرواني ، هل كانت في النفس السنة التي حج فيها قطب الأئمة ؟ حتى نجزم بالتقاء بينهما .

الاحتمال الثاني : أن يكون الشيخ البرواني قد استلمها عن طريق وكالة الجاموس في القاهرة ، ولم يحصل أي لقاء بينه وبين الشيخ محمد اطفيش ، وهذا ما نراه راجحا لكثرة أسفار الشيخ البرواني للقاهرة .

المراسلة السادسة : لم تحمل هذه المراسلة الجديد في طياتها سوى السؤال عن وصول كتاب حاشية أبي مسألة وكان قد بعث بها الشيخ للطباعة في زنجبار ويؤكد بالسؤال على استلام سموه للنسختين من القصيدة التي مدحه فيها والجزء الثاني من كتاب همیان الزاد [23]

ثانيا المراسلات الخاصة بالسلطان علي بن حمود :

علي بن حمود بن حمد بن سعيد : هو ثامن سلاطين زنجبار حكم بعد موت أبيه سنة 1902الموافق ل 1320 هجرية وكان يوم توفي والده في إنجلترا يواصل دراسته فعينت الحكومة المستر راجس نائبا عن السيد علي بن حمود إلى حين رجوع السلطان إلى زنجبار، وقد استمر حكمه من سنة 1902 وإلى 1911م وقد تنازل عن العرش تنازلا من العاصمة الفرنسية باريس وبقي فيها إلى أن توفاه الله تعالى سنة 1327 هجرية الموافق ل 1919 م[24] .

المراسلة الأولى : موضوع الرسالة هو تعزية السلطان علي بن حمود في والده حمود بن حمد بن سعيد مذكرا له بخصال والده الحميدة و مآثره وأعماله الجليلة ولقد تقدم بالتعزية

---

[23] ـــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت الرقم 121 / 24 / AA5 .

[24] ـــ جهينة الأخبار / المغيري / ص 421 /

باسمه الشخصي وجميع الشعب الجزائري ، كما حملت الرسالة عنصرا جديدا حيث حدد تاريخها بعام 1902 وهو تاريخ وفاة السلطان حمود بن حمد[25] .

المراسلة الثانية : وكانت هذه الرسالة عام 1321 م الموافق لعام 1903م حيث طلب قطب الأئمة محمد بن يوسف من السلطان أن يصدر أوامره لمحمد بن علي البرواني أن يعيد له الكتاب الذي استلمه منه في مصر، ومن جهة أخرى يرجو من السلطان أن يرغب أهل عمان على شراء خمسمائة نسخ من هميان الزاد بدل أربع مائة ، وليس من الضروري أن يكون البرواني قد استلم من قطب الأئمة الكتاب مباشرة وإنما عن طريق واسطة وهذا هو الراجح . كما تفيدنا الرسالة بموضوع غاية في الأهمية وهو توزيع الكتاب في سلطنة عمان ، حيث كانت توزع مطبوعات المطبعة السلطانية باللغة العربية في زنجبار على أهل عمان نظرا لما كانت تشهده الحركة التجارية من نشاط وحراك كبيرين بين زنجبار وعمان في تلك الحقبة [26] .

المراسلة الثالثة : وأما موضوع هذه المراسلة فهو بخصوص طباعة كتب الشيخ محمد بن يوسف في المطبعة الإنجليزية ، حيث بعث الشيخ مستفسرا من السلطان علي بن حمود عن إمكانية طباعة كتبه في المطبعة الإنجليزية في زنجبار ، ويرجو من السلطان التوسط لدى الجهات المختصة من أجل تسهيل الموضوع[27] . وهذه الرسالة تدل على

1ـــ إحاطة الشيخ بشؤون زنجبار وما يجري فيها ، إذ أنه يعلم أن هناك مطبعة إنجليزية يدير شؤونها الإنجليز المحتلين لزنجبار .

2ـــ يبدو أن المطبعة في زنجبار أصبحت عاجزة عن طباعة الكتب على نفقتها ، أو نفقة السلاطين ويتضح ذلك من خلال تراجع قيمة المكافآت التي كانت تصل الشيخ حيث

---

[25] ـــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت الرقم AA5 / 11 / 168

[26] ـــ مكونات التنوير وشخصياته في صحافة أرض المهجر العماني / محسن الكندي / مجلة نزوى / العدد الثامن عشر / الصادر بتاريخ 28/ 6 / 2009

[27] ـــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت الرقم AA5 /11/ 131

كان آخر ما وصل الشيخ 100 روبية ، وهذا ما أخبر به الشيخ السلطان علي بن حمود في آخر رسالة من أنه تلقى رسالة من السلطان متبوعة ب 100 روبية [28]

المراسلة **الرابعة** : وفيها يخبر الشيخ محمد بن يوسف السلطان علي بن حمود بإرساله مخطوطا للطباعة على أمل أن يترك له مجموعة نسخ بعد طباعته ، وحقيقة لا نعلم ما عنوان هذا المخطوط ، وإن كنا نرجح أنه جزء من أجزاء همیان الزاد[29] ، وقد يكون غيره لأن هناك كتبا عديدة للشيخ محمد بن يوسف طبعت في زنجبار .

المراسلة **الخامسة**: وهذه الرسالة لم تخرج عن مجال الطباعة والنشر ويخبر السلطان علي بن حمود أن الشيخ محمد البرواني قد تعهد بإرسال الكتابين اللذين ورد ذكرهما والإشارة إليهما في الرسالة السابقة[30] .

المراسلة **السادسة** : لقد حملت هذه المخاطبة الجديد في العلاقة بين الشيخ محمد بن يوسف أطفيش وبين السلطان ، حيث إنها لم تكن مجرد متابعة لموضوع طباعة الكتب ولكن عبارة عن شكر عن الوساميين المرسلين من قبل السلطان علي بن حمود لقطب الأئمة عرفانا له بمجهوداته في خدمة الحركة العلمية في العالم الإسلامي وزنجبار خصوصا ولكن للم نعثر سوى على أثر وسام واحد في مكتبة القطب محمد بن يوسف أطفيش ولا ندري ما مصير الوسام الثاني ، كما لم يفوت الشيخ محمد بن يوسف الفرصة لإخبار السلطان بشأن الجزئين المرسلين للشيخ محمد بن علي البرواني ، والذي تكفل بنشر أجزاء همیان الزاد طالبا من السلطان أن يسأل البرواني عن ذلك ،كما وعد بإرسال المزيد من مخطوطات همیان الزاد ، و كل ما أنتج من أعمال علمية أخرى في القريب العاجل[31] .

---

[28] ـــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت رقم AA5/ 25 /25

[29] ـــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت الرقم AA5 / 17 / 09

[30] ـــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت الرقم AA5 / 23 / 33

[31] ـــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار تحت الرقم AA5 / 23/ 70

المراسلة السابعة : في هذه الرسالة التي وقعت بين أيدينا يخاطب فيها الشيخ احمد بن يوسف أطفيش السلطان بأوصاف كبيرة ومعظمة[32] ، كما يمكن أن نتوقع تاريخها وهو سنة 1322 هجرية إذ أنه يخبر السلطان في الرسالة كتبا مع حجاج عام 1321 هجرية[33] ، كما تدلنا هذه الرسالة على تغيير اسم العملة المتداولة في زنجبار من الريال إلى الروبية ، حيث جاء في الرسالة أن الشيخ تسلم 200 روبية كاملة[34] وقد أكد ذلك المغيري إذ يقول : {وفي أيامه ــ أي علي بن حمود ــ اعتبر صرف الروبية رسميا بزنجبار وذلك في عام 1908 م }[35] . كما دلتنا الرسالة على أن المخاطبات بين الشيخ وأهالي زنجبار لم تكن مقتصرة على السلاطين ، أو الشخصيات المرموقة في زنجبار ، ولكن يبدو أن كثيرا من طلاب العلم وأهله يراسلون الشيخ إما من أجل السلام ، وإما من أجل الفتوى والاستشارة ويؤكد ذلك قوله :{ وبلغ سلامي لكثير من طلاب العلم الذين يسلمون علي ، وأطلب منهم أن يعذروني لأني أنسى الأسماء وتضيع الورقة}[36].

ونستطيع أن نجزم بالقول أن سنة 1910 هي آخر سنوات الاتصال والمخاطبات بين قطب الأئمة وبين السلطان علي بن حمود لأن هذا السلطان عُزل من عرش زنجبار في سنة 1911 في طريقه إلى بريطانيا لحضور حفل تتويج الملك جورج الخامس ، حيث عدل عن السفر إلى بريطانيا وبقي في فرنسا وواصل مرافقه السلطان خليفة بن حارب السفر إلى بريطانيا وبقي هو في باريس إلى أن توفي سنة 1337 الموافق 1919[37].

---

[32] ــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار الرقم / AA5 / 24 /162

[33] ــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار رقم / AA5 / 24 /162

[34] ــ نفس المرجع

[35] ــ جهينة الأخبار / سعيد بن علي المغيري / ص 422/

[36] ــ رسالة مأخوذة من أرشيف زنجبار رقم / AA5 / 24 /162

[37] ــ جهينة الأخبار بتاريخ زنجبار/ المغيري / ص 421/

مؤلفات قطب الأئمة المطبوعة في زنجبار :

1ـ همیان الزاد إلى أرض المعاد / وهو كتاب تفسير ألفه القطب محمد بن يوسف في أيام شبابه وقد طبع في 14 جزء بدأت طباعته زمن برغش سنة 1305 واستمرت حتى سنة 1314 هجرية .

ـ إزالة الاعتراض عن محقي آل إباض وهو كتاب في العقائد وعلم الكلام .

ـ وفاء الضمانة لأداء الأمانة وهو كتاب في العلوم الحديث .

ـ شامل الأصل والفرع وهو كتاب في أصول الفقه وهو من أنفس الكتب وقد ألفه الشيخ بعدما بلغ درجة الاجتهاد وقد مات و لم يكمله [38] .

ـ حاشية أبي مسألة وهو من تأليف الشيخ أحمد أبي العباس بن محمد بن بكر النفوسي المتوفى سنة 504 هـ ويطلق عليه الكتاب الجامع ، أو الجامع في الفروع [39]. ويبدو أن هذه الكتب قد طبعت في عهد السلطان علي بن حمود ، وذلك لأن هذه الرسائل لم تشر إلى عنوانين الكتب سوى ماذكر في الرسالة الأخيرة للسلطان حمود بن حمد ،حيث ورد ذكر كتاب حاشية أبي مسألة .

ـ السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة وهو كتاب في سيرة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم طبع الطبعة الأولى في زنجبار .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

---

[38] ـ مجلة المنهاج / إبراهيم أطفيش / ج1 / م4/ سنة 1347

[39] ـ جهينة الأخبار / سعيد بن علي المغيري / ص 327/

التبادل الثقافي بين القطب والعمانيين من خلال مراسلاته

أ . مصطفى بن محمد شريفي
أستاذ العقيدة – جامعة الأمير عبد القادر (سابقا)

مقدمة

لم أجد – فيما اطلعت عليه من دراسات حول القطب اطفيش – من تعرَّض إلى تحليل مراسلاته لاستكشاف حركة التبادل الثقافي مع العمانيِّين، وقراءتها في ظل الظروف والأوضاع التي يعيشها العالم الإسلامي آنذاك.

وأقصد بالثقافة ما يتعلق بحركة الفكر وصياغة التوجهات والقناعات، كتبادل المعارف بمختلف أشكالها، سواء منها ما تعلق بالتأليف ومنهجيته، أو علاقات المسلمين فيما بينهم...

واقتصرت على الجانب الثقافي للمراسلات، نظرا لقلَّة المصادر الخاصة بهذا الموضوع لدى الإباضية في تلك الفترة، فقد انصرف اهتمام علمائهم منذ ذلك العهد إلى اليوم في الغالب إلى مسائل الفقه والعقيدة.

ومراسلات القطب وإن كانت في أغلبها عبارة عن فتاوى، غير أن بعضها لا يخلو من إشارات إلى معلومات تاريخية، تتعلق بالثقافة بشتى أبعادها: الفكرية والاجتماعية والسياسية... على الباحث أن يحسن اقتناصها.

وأهدف من هذا المقال إلى تسليط الضوء على الجانب الثقافي في تلك المراسلات، لأنها مرآة صادقة لقضايا الفكر المطروحة، ولخبايا النفس، آلامها وآمالها.

واستخدمت فيها المنهج الوصفي، لعرض المراسلات التي اطلعت عليها، مع تحديد أماكن وجودها، وإبداء الملاحظات التي عنَّت لي بشأنها.

والمنهج التحليلي لاستخلاص المعلومات من تلك المراسلات.

والمنهج المقارن لمقارنة ما ورد في تلك الرسائل بالكتب التاريخية المؤلّفة حول تلك الفترة، سواء في الجزائر أم عمان، مع قلتها.

وقد اعتمدت على جملة من الوثائق المخطوطة، إما نُسَخًا أصلية أو مصوَّرة، وإما خطّ أصحابها، أو منسوخة منها بيد نُسَّاخ علماء، فكان لها من الوثوق وندرة الأخطاء ما يجعلها ذات قيمة علمية معتبرة. كما اعتمدت أيضا على المصادر المطبوعة. وقد أخضعت الكلّ للنقد الداخلي والخارجي، بطريقة علمية لا يتسع المقام لتفصيلها.

وقد تعمَّدت في كثير من الأحيان المحافظة على نصوص القطب بحرفيتها؛ لأنّ «الوثائق بالنسبة للمؤرِّخ تعتبر كشهود في محكمة بالنسبة للمحامي»[1]. بالإضافة إلى أني أرى فيها تقديم مادة أولية للمؤرخين، استخلصتها مما تمكنت من الاطلاع عليه، توفيرا لجهدهم ووقتهم.

ولم أقم كذلك بتتبع ما هو متوفر في مكتبات وادي ميزاب، ومن أبرزها مكتبة القطب، بني يزقن؛ لأن ذلك يقتضي وقتا أطول وبحثا أعمق، وجهدا أكبر لا تسمح به الظروف، وحسبي أني قدمت بين يدي القارئ نماذج منها تعطيه لمحة وجيزة عن طريقة تفكير القطب ومراسليه.

ورغم أني حصرت الموضوع في المراسلات الثقافية بين القطب وأهل عمان دون سواهم، فإنه يصعب الإلمام به في هذه العجالة، لعدة أسباب، منها:

- أن الاستقصاء يستدعي القيام برحلات مراطونية بين مختلف مكتبات سلطنة عمان لجمع تلك المراسلات.

- أن مراسلات القطب هي في الأغلب أجوبة فقهية وعقدية، والمعارف الأخرى فيها

(1) محمّد زيان عمر: البحث العلمي، مناهجه وتقنياته، ص164.

قليلة، ليست إلا ومضات خاطفة، على الباحث اقتناصها، وتحليلها.

- أن كثيرا منها لا يزال مخطوطا، ولم يطبع منها إلا قليل، ومع قلته يحتوي على أخطاء، وانعدام للفهارس التقنية.

- أن ما طُبع منها أكثره غير مؤرَّخ، وبالتالي يصعب وضعها في إطارها الزماني، وهذا لم يمنعنا من استغلال الإشارات التي توحي بتاريخ أو ظرف معين.

ولا بد من الاعتراف بالفضل لذويه، وتقديم أخلص عبارات الشكر لكل من قدَّم لنا يد المساعدة لإنجاز هذه الدراسة، ونخصُّ بالذكر: الأستاذ بشير بن موسى الحاج موسى في مؤسسة الشيخ عمي سعيد بغرداية، الذي أفادنا ببعض المراسلات التي يقوم بتحقيقها. والسيد: الحاج محمد اطفيش، قيم مكتبة القطب ببني يزقن الذي فتح لنا أبوابها للاطلاع على الرسائل المخطوطة، وفريق العمل التابع لجمعية أبي إسحاق، القائم بالتصوير الرقمي بالمكتبة. وكذا جامعة الأمير عبد القادر التي اختارت أن تسمي دفعة التخرج في هذه السنة الجامعية (1430-1431هـ/ 2009-2010م) باسم الشيخ اطفيش. والدكتور مصطفى بن الناصر وبنتن الذي شجعني على الكتابة حول هذه الشخصية الفذة. جزى الله الجميع خير الجزاء.

مدخل: صعوبات التواصل في عصر القطب:

وجدنا في عدة رسائل شكوى من صعوبة الاتِّصال وبطئه، لبُعد المسافة وقلة الوسائل، وربما تضيع الأسئلة أو الأجوبة في الطريق أو تتعرض للتلف لأي سبب من الأسباب البشرية أو الآفات السماوية[1]. وإن تعجب فعجب كثرة هذه الرسائل مع قلة الوسائل! فلم تكن المراسلات تبعث عن طريق البريد المعروف، ولم تكن بطريق مباشر، بل كانت في أغلب الأحيان تسلم يدويًّا، وقد تجوب عدة أقطار حتى تصل إلى المرسَل إليه؛ فتسلَّم لأحد المسافرين

(1) ينظر: كشف الكرب، 5/1، 6؛ 285/2.

إلى مصر، أو زنجبار، أو الحج، لتبلّغ بيد أحد العمانيّين إلى بلدهم. وقد ذُكرت في الوثائق التي اطلعنا عليها عدة شخصيات كانت تقوم بالوساطة في تبادل الرسائل مع العمانيين، نذكر منهم: محمد بن يوسف الباروني[1]، السلطان فيصل بن تركي[2]، سالم بن محمد بن سالم الرواحي[3]. ورغم لجوئه أحيانا إلى البريد فإن احتمال الضياع بقي قائما[4]؛ إذ لا يؤمَنَ شرُّ القائمين على البريد آنذاك، إذ كان أغلبه بأيدي المحتلين للبلاد الإسلامية، ولا يخفى على أحد ما كان يقوم به المستشرقون وسلطات الاستدمار من تهريب للمخطوطات والتراث الإسلامي إلى بلدانهم.

ومع تلك الصعوبات فقد حفظت الوثائق لنا كمًّا كبيرا من تلك التبادلات العلمية بين عمان والجزائر. وارتأينا تقسيم محاورها إلى ما يأتي:

أولا – البعد العقدي في مراسلاته.

ثانيا– المواضيع الفكريّة.

ثالثا– هموم الأمة الإسلامية.

رابعا– أثر مراسلات القطب في العمانيين.

---

(1) محمد بن يوسف الباروني (النصف الثاني ق: 13هـ) من علماء جبل نفوسة بليبيا. أسّس في مصر «المطبعة الباروني»، أثرت المكتبة الإسلامية بأمّهات الكتب الإباضية. (ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب. ترجمة رقم: 860، 397/2).

(2) فيصل بن تركي بن سعيد (حكم: 1305-1331هـ): سلطان عماني، حكم وهو لا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، وكان «جليلا، مهيبا، باسلا، جوادا، حليما، متيقّظا للمكائد». (ينظر: أبو بكر: لمحة، ص237. لاندن: عمان مسيرا، ص427-452. شريفي: السالمي حياته وآثاره، 31-35).

(3) سالم بن محمد بن سالم الرواحي: زنجباري مهتم بجمع الكتب واقتنائها. له مراسلات إلى القطب وأبي اليقظان وإبراهيم مطياز، آخرها مؤرخ في 1355هـ. لم أقف على ترجمته. (ينظر: قائمة مصادر معجم الأعلام، قسم المغرب. تطور الكتابة التاريخية عند العمانيين لمهنا السعدي، ص63. المكتبة الشاملة)

(4) ينظر: المصادر نفسها: 5/1، 86.

أولا – البعد العقدي في مراسلات القطب:

عند تصفّحنا لمراسلات القطب إلى السلطان فيصل بن تركي العماني، أثارت انتباهنا ملاحظة عجيبة، وهي أنّ السلطان، بالرغم من أنه إباضي، وأنه كثيرا ما يراسل القطبَ ويجلّه، وقد يتخذه القطب "جسرا بريديا" لتبليغ رسائله إلى المستفتين من عمان[1]، بالرغم من كل ذلك لم نجد من القطب – فيما اطلعنا عليه – أيَّ لفظ من ألفاظ التبجيل أو الإطراء للسلطان، رغم حرصنا على تتبع مراسلاته إليه، بل نجده يدخل في الموضوع مباشرة، منها قوله: «أما بعد: فسلام على سلطاننا ومن دونه، وعلى العلماء والعباد من عمان وزنجبار...»[2]. «وسلّم على السلطان وأخبره بنصحي لك»[3]. «وبعد: فسلام من كاتبه أمحمد بن الحاج يوسف اطفيش على السلطان فيصل هداه الله إلى العدل في الرعية ونفع المسلمين ونصره ويسر له مراده وجازاه على الإسلام خيرا. اعلم رحمك الله أن عروس الخافقين...»[4]. ويقول مخاطبا السلطان بلا أي مقدمة: «الجواب: إن قوله: «مستبيح» بالجر نعتٌ...»[5]. وقوله: «الجواب: أنه لا يدرك الشفيع على المشتري»[6].

ولكن العجب سرعان ما يزول إذا عرفنا شدَّة القطب في التمسك بالمبادئ، فهو يعتقد أن الإمامة واجبة، وأن نظام السلطنة الموالي للإنجليز ليس من شيم الإسلام، وهو على دراية تامة بما تتلقاه جماعة أنصار الإمامة من مضايقات السلطان وولاته وأعوانه، ومن ولاء ذليل أمام القنصل البريطاني الموجود في مسقط، والذي يملي على السلطان كل ما يريد، فلا يتحرك هذا الأخير إلا

---

(1) ينظر: المصدر نفسه، 5/1.
(2) المصدر نفسه، 34/1.
(3) المصدر نفسه، 223/1، وتكرر في 379/2.
(4) المصدر نفسه، 223/1.
(5) المصدر نفسه، 254/1.
(6) المصدر نفسه، 246/2.

باستشارته، ولا يوقّع شيئا ذال بالٍ إلا بإذنه[1].

وهذا يدلُّ على تمسُّك الشيخ بمبدأي الولاية والبراءة؛ لأن من مبادئ الإسلام - عموما، والإباضية خصوصا - الالتزام بالحكم الإسلامي الشوري العادل (حكم الإمامة)، وهو خلاف ما تجري عليه تقاليد تنصيب سلاطين عمان، المبني على الوراثة، ولو على حساب الكفاءة الدينية والخلقية والعلمية، وهو ما ينتقده أنصار النظام الإمامي، حتّى إنهم يسمُّون السلاطين أحيانا بالجبابرة[2].

وعلى العكس من ذلك نجده يطري مراسليه ممن لمس فيهم الالتزام بالشرع، وصدق العزيمة على الرشد، فيصف هذا بـــ«العالم الناصح الإبريز»[3]، وذاك بـــ«العلاّمة»، «جامع المعقول والمنقول الشيخ»[4]. ويبدى اهتماما بالغا بعالمين بارزين في عصره، هما الشيخان نور الدين عبد الله بن حميد السالمي[5]، وعيسى بن صالح الحارثي[6]، ويصفهما بـــ«...العلامتين العمانيين الدينيين الدنيويين»[7].

ويبدو أنه يخاطبهما حين قال: «ولا تظنّا أن الاشتغال بإجابتكما يثقل عليّ، لا والله، ولو

---

(1) ينظر: غباش: عمان الديمقراطية، ص242. شريفي: السالمي حياته وآثاره، ص31-35.

(2) ينظر: انظر: تعليق أبي إسحاق إبراهيم اطفيّش في هامش كتاب تحفة الأعيان، لنور الدين السالمي.

(3) وصف به الشيخ راشد بن عزيز. كشف الكرب، 271/2.

(4) وصف به الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي. كشف الكرب، 55/1، 117.

(5) عبد الله بن حميد بن سلوم السالمي، نور الدين أبو محمد (ت: 1332هـ/1914م): أبرز علماء عُمان في العصر الحديث. كف بصره وهو صغير السن. كان حاد الذكاء، قوي الذاكرة. ترك عدة تآليف تزيد على الثلاثين عنوانا، في شتى الفنون، منها: شرح الجامع الصحيح، طلعة الشمس، مشارق أنوار العقول، معارج الآمال... (ينظر: بحثنا: الشيخ نور الدين السالمي، حياته وآثاره ومواقفه الإصلاحية والسياسية، كنه).

(6) عيسى بن صالح بن علي الحارثي، الأمير (ت: 1365هـ): تولى الإمارة بعد استشهاد أبيه في معركة ضدّ السلطان فيصل. ثم تحسنت العلاقة بينهما، فأكرمه وأجرى له راتبا شهريًا. كان جسورا في الحقّ. له أجوبة جمعها ورتّبها الشيخ سالم بن حمد الحارثي بعنوان: «خلاصة الوسائل في تحرير المسائل». (ينظر: أبو بشير: نهضة، ص87-95، 125. الحارثي: اللؤلؤ الرطب، ص228-241. الزركلي: الأعلام، 104/5).

(7) كشف الكرب، 45/1.

كثر السؤال منكما لمزيد المحبَّة مني لكما ولقصد إحياء العلم»[1]. فليست هذه الرغبة رياءً ولا سمعةً ولا محبَّة شهرة، وإنما رغبةً في إحياء العلم، والغاية من كل ذلك بطبيعة الحال إرضاء الله عز وجل، خاصة في ظرف عزَّ فيه المهتمون بالعلم، وتفشى فيه الجهل، وقلت فيه وسائل العلم الشرعي العربي، وكثر فيه معارضوه، في ظل الاستدمار الفرنسي المشؤوم.

وفي هذا الموضوع أيضا اشتُهر في الروايات الشفويَّة[2] أن القطب اطفيَّش هو الذي أطلق على عبد الله بن حميد السالمي لقب «نور الدين»، ولكن لم أجد فيما بين يدي من المصادر المكتوبة القديمة التي تعود إلى تلك الحقبة ما يدل على ذلك.

ثانيا– المواضيع الفكريَّة:

اطلعنا ضمن مراسلات القطب الفكرية على ثلاثة جوانب: التبادل العلمي مع العمانيِّين، ومناظراته مع الخليلي[3]، وتوضيحات حول منهجه في التفكير والتأليف.

أ– التبادل العلمي مع العمانيِّين:

اختصرناه في النقاط الآتية:

– تبادل آخر الأخبار بشأن الإنتاج الفكري، قال القطب للشاعر محمد بن شيخان[4]:

---

(1) المصدر نفسه، 68/1.

(2) مقابلة أجراها الباحث مع الشيخ الناصر بن محمد المرموري.

(3) سعيد بن خلفان بن أحمد الخليلي (1287هـ)، الزعيم الروحي للدولة الإمام عزان بن قيس. له «النواميس الرحمانية في تسهيل الطريق إلى العلوم الربانية»، قصائد في السلوك، مناظيم في فتوحات الإمام عزان، وأجوبة مسائل نظمها، وألفية «المقاليد»، و«السيف المذكر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، و«التمهيد»، و«كرسي الأصول». (ينظر: السالمي: تحفة، ط. 1347هـ، 209/2، 230، 138-239، 257-262. أبو بشير: فضة، ص381، 387-388. الحارثي: اللؤلؤ الرطب، ص7، 36-40).

(4) محمد بن شيخان بن خلفان السالمي، أبو نذير، شيخ البيان (ت: 1346هـ): شاعر، درَّس في الرستاق مختلف الفنون. أخذ عنه علماء وقضاة. تبوَّأ مكانة عليا في الأدب والشعر، فسمَّاهُ القطب: «شيخ البيان»، فاشتهر به. ضاقت حاله فتكسب بشعره بمدح السلطان وأولاده، مما سبَّب له جفوة بينه وبين نور الدين. ثم جفاه السلطان =

«ووصلني نظمك البارع كلُّه، و لم تصلني نونيَّة تُعارِضُ [بها] نونيَّةَ ابن النضر[1] في خلق القرآن وعدم خلقه، فأرسِلْها إليَّ، ولقد أعجبني ذلك الردُّ الذي أرسلتَ إليَّ. ولقد عارضتُ كلَّ ما قاله ابن النضر في قِدَم القرآن في شرحي على الدعائم، وذكرتُ فيه وجه عدم البراءة منه بذلك. وأخبِرْني هل وصلتك أجوبتي؟»[2]. وقال عن شرح النيل: «وقد أرسلته إلى مصر ليكتب بالقالب»[3]، أي طبعة حجرية. وفيه يخبر عن بدئه في تأليف مختصر في الفقه، ولعلَّه يعني به الذهب الخالص[4]. وربما سُئل عن مسيرته في التأليف فقال: «وأمَّا التفسير فتفسير دقيق إن شاء الله الرحمن الرحيم، وقد وصلتُ من فضله تعالى إلى سورة بني النضير المسمَّاة سورة الحشر... فادع الله تعالى أن يعينني عليه وعلى إتمام شرح المعالم»[5].

والمؤسف أننا لا نعلم تواريخ هذه المراسلات، إمَّا لأنها غير مذكورة أصلا، أو حذفها النُّسَّاخ أو المرتِّب، وهو ما أرجِّحُه[6]. وبمعرفة تواريخها يتبيَّن المتقدِّم من المتأخِّر، علما أنَّ حياته في التأليف امتدَّت لعدَّة عقود، فقد يتراجع في اللاحق عن بعض ما في السابق.

ونقرأ في رسالة من سالم بن سلطان بن قاسم الريامي[7]، إخبارَ القطب بأنه بصدد طبع كتاب مشارق أنوار العقول، والكتابين اللذين بهامشه: بهجة الأنوار والحجج المقنعة. حرِّرت

=

لقرابته من زعيم الإمامة الشيخ نور الدين. له ديوان شعر. (ينظر: أبو بشير: نهضة، ص127، 459-461. مُقَدِّمَة أبي بشير لديوان ابن شيخان، ص13-16. الخصيبي: شقائق، 189/1).

(1) أحمد بن سليمان بن عبد الله بن النضر الناعبي، أبو بكر (ت: 690هـ): قيل فيه: أشعر العلماء وأعلم الشعراء. تعرض للاضطهاد والظلم لوقوفه أمام السلطان الجائر خولة بن سماعة النبهاني، فكان مصيره القتل، وإتلاف مكتبه. من أشهر ما بقي من مصنفاته، "الدعائم". من شرَّاحها القطب اطفيش. (ينظر: معجم أعلام المشرق، ترجمة رقم: 30، ص54).

(2) كشف الكرب، 7/1.

(3) المصدر نفسه، 317/2. المادة رقم 71 (ملك.ع.س).

(4) ينظر: كشف الكرب، 317/2.

(5) المصدر نفسه، 257/1.

(6) رجَّحت هذا بناء على أنَّ أغلب ما اطَّلعنا عليه من مراسلات مخطوطة ذُكرت فيها التواريخ.

(7) هو ناشر طلعة الشمس لنور الدين السالمي حي سنة 1321هـ حسب مراسلاته. لم أقف على ترجمته.

بتاريخ 11 ...[تآكل] 1321هـ.

– **إرسال كتب إلى عمان:** وسواء أكانت من تآليفه للإفادة، كما قال: «يأتيكم إن شاء الله مختصر القواعد والحاشية بزيادات مفيدات كبيرة جدا على الذي عندك رحمك الله عزَّ وجلَّ في الفقه، وشرح شرح أبي سليمان داود[1] في النحو وغير ذلك شيئا فشيئا إن شاء الله عزَّ وجلَّ»[2]. أو كانت كتبا لغيره لتُنسخ وتُردَّ، كما قال: «وقد أرسلت إليكم كتابا في المعقول فأخبروني هل وصلكم؟ وأرسلت إليكم كتاب الشيخ هود[3] تنسخونه وتردُّونه»[4].

– **نسخ كتب في ميزاب لأهل عمان:** كان حريصا على نسخ الكتب، سواء أكانت من تأليفه أم من تأليف غيره، إلاَّ أن قلَّة ذات يده كانت تحول دون الإكثار منها، كما تدلُّ عليه عدَّة مراسلات، منها قوله: «وأمَّا الكتب فإن وجدتُ مالا فلا أبخل عن نسخها لكم، والله يعلم وأنا والله راغب في نسخها لكم»[5].

– **إعجاب بكتب الشيخ نور الدين السالمي:** رغم أن القطب يكبر الشيخَ السالميَّ بـ48 سنة، فإن ذلك لم يمنعه من إبداء إعجابه الكبير به، فقد قال الشيخ اطفيَّش في رسالة مؤرَّخة في 9 رمضان 1325هـ/16 أكتوبر 1907م وجَّهها إلى السالمي: «اعلم أنِّي قد نشرت تآليفك كلَّها، وأمرت بمطالعتها، والعمل بما فيها، ولا يُشكل شيء إلاَّ بيَّنته لهم، حتَّى يفهموه بفضل

---

(1) داود بن إبراهيم النلاتي الجربي، أبو سليمان (ت: 967هـ) من أعلام جربة بتونس، تنقل بينها وبين نفوسة ومصعر وميزاب للتعلم. من تآليفه: «شرح عقيدة التوحيد»، «شرح متن الآجرُّومية». تولى رئاسة العزَّابة ومجلس الحكم بجربة. قتله درغوث باشا. (ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم: 306، 140/2).

(2) كشف الكروب، 6/1.

(3) هود بن محكِّم الهواري (ق: 3هـ): عالم متقن مفسِّر، اشتهر بمؤلَّفه «تفسير كتاب الله العزيز». (ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم: 961، 443/2).

(4) كشف الكروب، 5/1.

(5) المصدر نفسه، 10/1، وتكرر مثل هذا في: 6/1، 8، 258، 259/2.

الله، وينقادوا، ويدركوه على قصدك من الوجه الحقّ»[1]. وأشاد في رسالة أخرى بمؤلّفاته، وذكر أنّ المغاربة كانوا يتزاحمون عليها: «وأمعن صاحب مشارق الأنوار في بيان ما ذكره منها [من مسائل الديانات]، ونشرتُ ما أُلّف في بلادنا هذه، وتزاحموا عليه»[2].

– **الاشتغال بالتأليف:** عاب القطب على العمانيين اشتغالهم بالتأليف وترك العمل والدرس، «وقد وجدوا من كفاهم مؤونة التأليف!»[3]. وقد يبدو هذا الانتقاد غريبا، ولكن إذا علمنا أنّ أضخم جامع فقهيّ إباضي ــ على ما نعلم ــ وهو قاموس الشريعة[4] ألّفه عمانيٌّ في ذلك العصر، وهو الشيخ جميل بن خميس السعدي[5]، فإن العجب يزول إذا علمنا أن أغلب مؤلّفات العمانيّين الجامعة آنذاك عبارة عن نقول لتراث السابقين، قد تمتدُّ لعدّة صفحات بحرفيّتها، وبهذا يقلُّ التحليل والتحقيق، ويندر الإبداع والتدقيق.

– **إلحاح العمانيّين على القطب بطبع شرح النيل،** قال القطبُ: «ورأيت رغبتك في شرح النيل، طبعِه أو نسخِه فوق كلّ رغبة، وذلك طَرَفٌ من رغبتك في الله عزّ وجلّ»[6]، ويودُّ القطب لو يلبّي هذه الرغبة، ولكن تَحُولُ دون تحقيقها عقبات تقنيّة ومادّيّة، وظروف قاهرة، منها:

* «أنه لا توجد إلاّ نسخة واحدة من نسخة خطّي عزيزة»[7].

---

(1) المصدر نفسه، 1/5-7، 45. وينظر: أبو بشير السالمي: نهضة الأعيان، ص122.

(2) كشف الكرب، 1/39.

(3) المصدر نفسه، 2/317. المادة رقم: 71 (ملك.ع.س).

(4) قاموس الشريعة الحاوي طرقها الوسيعة، يقع في تسعين جزءاً. بدأت نشره وزارة التراث بسلطنة عمان، سنة 1403هـ/1983م.

(5) جميل بن خميس بن لافي السعدي (ق13هـ/19م): قلّده السيّد حمود بن عزان أمر صُحار بعُمان سنة 1262هـ/1846م. (ينظر: السالمي: تحفة الأعيان، ط. 1347هـ، 2/209. معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، ترجمة رقم: 148، ص89).

(6) كشف الكرب، 1/6-7. ونفس الفكرة في 1/8.

(7) المصدر نفسه، 1/8.

* غلاء نسخ شرح النيل وطبعه مع قلّة ذات اليد : «وأجرة النسخ غالية لقلة الناسخ المصحِّح [...] ولا نقدر على أجرة طبعه لعظمها [...] واعلم يا أخي أنّي لم أجد من يُعينُني على النسخ ولو بأربعة ريالات، ولم أجد الطَّوْل إلى الاستئجار من عندي، واسأل الله العفوَ والرزق الحلال الواسع»[1].

* ومنها: أن النُّسَّاخ المتمكِّنين، والعارفين بخطّ الشيخ الدقيق قليلون «ولا يمكن أن أرسل لكم خطّي؛ لأنه في الألواح صعب دقيق»[2]، وبالفعل لقد اطّلعنا على بعض النسخ من الكتاب، ورأينا صعوبة استخراج حواشي القطب الدقيقة، ويزداد الوضع صعوبة إذا كتبها بسرعة؛ فالعمل يحتاج إلى دقّة وصبر، وعلم وإتقان، «ولا يوجد في مضاب[3] إلاّ ناسخ واحد يصلح لاستخراج الهوامش والصبر لها وعدم الضجر، وقد كان واحدٌ قبله أكبرُ منه إلاّ أنه انقطع عنّي!»[4]. ويضيف في شكواه من النُّسَّاخ: «والله ما قصَّرت في إرسال الكتب بل عدمت النسَّاخ إلاّ واحدا، وغيره لا يحسن ولا يجيد الخطّ، وإن أجاده لم يُوف، ويحرِّف، ولم يدم، وليس كلُّ أحد يخرج خطي من كتابتي [...] وليس كلُّ أحد ينسخ من خطّي، لأني أكتب كتابا واحدا لتزاحم الأشغال ولا أعيده نسخا، فالناسخ ينسخ الطُّرَر[5] الدقيقة المتقاربة، ومن الطرة يكون خروج الأخرى، وهكذا[6]، والله المعين»[7].

* أنّه بحاجة إلى التفرُّغ لتصحيحه: «واعلم يا أخي أني ما بخلت به عليك... بل لأني

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) «مضاب»: صيغة أخرى لاسم منطقة وادي ميزاب، بغرداية.

(4) كشف الكرب، 7/1.

(5) طرة الثوب: حاشيته وحرفه وهدبته. ابن منظور: لسان العرب، 500/4، مادّة: «طرر».

(6) يبدو أنه يقصد هنا أنّ حواشيه دقيقة: ومنها تتفرّع حواش أخرى؛ لذلك يصعب التعامل مع مؤلّفاته التي هي بهذا الشكل.

(7) كشف الكرب، 10/1.

أحتاج إلى التفرُّغ إلى إصلاحه وإصلاح نسخه»[1].

نظرا لهذه العقبات اقترح الشيخ أن تكون الطباعة بالتدريج. تسهيلا للأمور : «...أن أُرسِلَ إليكم ما قوبل وصُحِّحَ ولو من وَسَطٍ أو آخرٍ، كالنكاح والبيوع، وأُرسلُها إليكم ليطبعَا. وأهيِّئ لكم من غيرها شيئا فشيئا، وأن ترسل إليَّ ما نَسختم من الفرائض والتبيين فأصحِّحهما وأردُّهما إليكم، وعدًا عليَّ، فإنَّ لي أشغالا لا تحتمل التأخير والله المستعان»[2].

– **الحرص على توثيق المراسلات:** قال لعيسى الحارثي: «وهذا جواب سؤالك بفضل الله عزَّ وجلَّ، فاكتبه واكتب كلَّ سؤال ورد منِّي إليك وإلى غيرك»[3].

– **طلب إرجاع بعض تآليفه من عمان لوجود نسخة وحيدة،** منها: رسالة الردِّ على الشيخ سعيد بن خلفان، في وجوب السلام عند الاستئذان وتأديب الأطفال بالضرب في القدمين وغيرهما من المسائل[4].

– **طلب إرجاع كتب ألفها في صغره للتصحيح:** «وأما ما في عمان من كتبي التي هي حاشيتي على شرح القطر، وحاشيتي على شرح الشذور، وحاشيتي على شرح الآجرُّومية لأبي القاسم[5]، وحاشيتي على التمرين، فإنَّما طلبتُ ردَّها لأنَّها من عملي في صغر سنِّي، فأحببت مطالعتها للتصحيح»[6]. وأضاف في مراسلة أخرى كتاب شرح لامية ابن مالك، وبرَّر عدم رضاه بها بقوله: «...كلُّهن تآليف في حال ابتدائي في التعليم، رغبتي فيهنَّ إكثار المسائل لا

---

(1) المصدر نفسه، 6/1-7.

(2) المصدر نفسه. ونفس المقترح تكرر في 8/1.

(3) المصدر نفسه، 55/2.

(4) كشف الكرب، 8/1. وتكرر الجواب في 119/1. وينظر: 10/1-11. وتكرر في 359/2-360.

(5) أبو القاسم بن يحيى بن أبي القاسم الغرداوي المصعبي (ت: 1102هـ): من مشايخ غرداية، وهو حلقة في سلسلة النسب الذهبي. من مؤلفاته «شرح الآجرومية». «قصائد شعرية». (ينظر: معجم أعلام الإباضية: قسم المغرب، ترجمة رقم: 753، 347/2-348).

(6) المصدر نفسه، 11/1. المادة رقم: 73 (ملك، ع.س)

تحقيقها، وأنا حينئذ مبتدئ، ولا ينتفع بها أهلُ عمان»[1]. وهذا كلام يهمُّ كلَّ باحث يتصدَّى لتحقيق هذه الكتب، إذ عليه أن يميِّز بين القديم والحديث، والناسخ والمنسوخ منها.

– **طلب ترجمة ابن النضر**[2]: من المعلوم أنَّ القطب قام بشرح الدعائم، وهي قصيدة من تأليف أبي بكر أحمد بن النضر العماني؛ لذلك احتاج إلى وضع ترجمة لهذه الشخصية الشهيدة، فقال لمحمد بن شيخان: «لا بدَّ جزاك الله خيرا، أُكتبْ لي عاجلا ترجمةَ ابن النضر، اسم أبيه وجدِّه فصاعدا، وقبيلته من العرب، وهل وُلد له؟ وكم وُلد له؟ وكم عمره؟ ومتى مات؟ وهل مات مقتولا؟ ومن قتله؟ وما سبب قتله؟ وجميع ما تعلَّق به قدر الطاقة وعجِّل بذلك»[3].

– **طلب كتب من شتَّى البقاع**: نلاحظ لدى القطب اهتماما كبيرا بجمع الكتب، وقد صادفنا من العناوين التي طلبها: «ديوان أبي النجم»[4]. «ديوان الكميتِ [كذا] أو بعض أشعاره»، و«ما بعد الجزأين الأولين من شرح الترتيب للشيخ عبد الله بن حميد»، وديوان أبي العتاهية[5]. وذُكرت كتبٌ بأنها في طريقها إلى القطب، منها: جوهر النظام، ومؤلَّف في الرد على من أنكر عذاب القبر كلاهما للسالمي[6]. وهذا العنوان الأخير يعتبر بالنسبة لنا جديدا إذ لم يذكره من ترجموا للسالمي، ولم نطَّلع عليه عند بحثنا حول هذه الشخصية، ولعلَّ أحدا سيكشف اللثام عن هذا المؤلَّف في قابل الأيام.

ولم تقتصر هذه الطلبات على كتب من عمان، بل من شتى بقاع العالم، ولو أدَّى ذلك إلى تدخُّل من "رئيس الدولة" السلطان فيصل بن تركي لجلبها من مصر!. قال القطب: «وإلى الآن

---

(1) كشف الكرب، 1/119-120.
(2) تقدمت ترجمته.
(3) المصدر نفسه، 1/7.
(4) المصدر نفسه، 1/11.
(5) المصدر نفسه، 1/45.
(6) المصدر نفسه.

ترسلوا إليَّ ديوان ابن الرومي، فاكتبوا إلى مصر يرسلوه إليَّ، واطلبوا من السلطان فيصل يأمرْ بذلك»[1].

وقد أثمر هذا الحرصُ الشديد على اقتناء الكتب، مكتبةً زاخرة بالنفائس، لا تزال إلى اليوم – بعد قرن من وفاة الشيخ – أغنى خزانة بالمخطوطات في وادي ميزاب، بلا منازع!. فنجد في مكتبته ببني يزقن كتبا كثيرة نُصَّ فيها على أنها مجلوبة من عُمان[2]، أبرزها موسوعة قاموس الشريعة، لجميل بن خميس السعدي العماني في 90 مجلدا.

ب– مناظراته العلمية مع المحقق الخليلي[3]:

بعث الشيخ عمر بن يوسف المصعبي[4] إلى المحقّق سعيد بن خلفان الخليلي جملة من المسائل، منها: ما حكم تأديب الأطفال بالضرب على باطن القدمين؟ وهي طريقة معتادة عند المغاربة، فأباحها الخليلي، ومنعها القطب اطفيّش، وتتبّع أقوال الخليليِّ واستدلالاته على الإباحة بالدحض والإبطال[5].

وعقّب أيضا على جواب الخليلي المذكور عن سؤال آخر من عمر بن يوسف أيضًا، اتّهم فيه القطبُ الخليليَّ بالتخليط، وردَّ عليه في عدة مسائل[6]، منها أن الجماع على السقف يورث النفاق!!. ويبدو لي أنَّ الخلاف بينهما في المنهج، بحيث إنَّ القطب انطلق من نصٍّ منسوب إلى رسول الله ﷺ، وهو: «...ولا تجامع امرأتك على السقف فإنّه إن قضي بينكما بولد يكون

---

(1) المصدر نفسه، 11/1. المادة رقم: 73 (مك.ع.س).

(2) منها ديوان السلطان سليمان بن سليمان بن مظفر، مخطوط رقم ق16 في المكتبة. والمخطوط رقم: غ5.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) عمر بن يوسف بن عدُّون (حيٌّ في: 1262هـ)، من العلماء المصلحين ببني يسجن. فتح داره للتعليم. من تلامذته الشيخ صالح بن عمر لعلي. (ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم: 678، 315/2).

(5) كشف الكرب، 347/2-351.

(6) المصدر نفسه، 165/2-171.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
المكتبة المركزية

منافقا» ، وهو خبر لا تصحُّ نسبته إلى رسول الله ﷺ[1]. بينما المحقّق الخليلي بنى فتواه على قواعد متينة مؤسَّسة على صريح القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[2]، وعلى صحيح السنة، وهو قوله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ...»[3]، واعتمد على قواعد أصوليَّة وفقهيَّة، وملاحظات مستندة إلى الواقع والتجربة[4]. ونلاحظ أنّ القطب في ردِّه هذا على الخليلي ألزمه بما لم يقله أحيانا، ثم اعترف بهذا الإلزام الغلط، إذ قال: «وهذا غلط، لا أظنُّ سعيد بن خلفان يتعمَّد مثل ذلك. والحاصل أنه ساء فهم السائل والمسؤول فوقعا في الخطأ»[5]. وطال النقاش، واحتدَّ كلام القطب في هذه المسألة الجزئيَّة... وفي تصوُّرنا أن الخليليَّ كان أقوى حجة في هذا الموضوع، ولو أنّ القطب اهتم بتضعيف هذا الحديث لكفى نفسه، وكفى صديقه المحقّق الخليلي، وكفى قُرَّاءه مؤونة متابعة النقاش ولجاجته، وإثارة زوبعة في كأس!.

وبعد تلك الزوبعة والردِّ اللاذع قد يتوهَّم القارئ أنّ القطب يستنقص من علم المحقّق الخليلي، غير أننا نجده يُشيد به ويعترف له بطول باعه في العلم والعمل، إذ قال في شهادته: «وأظنُّ العلامة العمالة ذا القلم والسيف سعيد بن خلفان لها [أي: لعلم المكاشفة] حاويا»[6].

---

(1) بحثت عنه فيما بين يدي من مئات المصادر السنية والإباضية الرقمية فلم أجده، ولا ذُكرت درجته. غير أنه يشهد على وضعه متنُه الطويل الذي يذكر ممنوعات الجماع، يخجل المرء من قراءتها، فكيف يصرح بها الرسول ﷺ الحَيِي، لزوج ابنته الزهراء: علي؟!. وقد تكرر وروده في كتب الشيعة، وأقدم مصدر ورد فيه هو: كتاب الأمالي للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت: 381هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم، نشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، 1417هـ، ص664.

(2) سورة الأنعام: 164.

(3) متفق عليه. رواه البخاري في كتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله، رقم: 4497، 1792/4. ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم: 2658، 2047/4.

(4) ينظر: كشف الكرب، 166/2-168.

(5) المصدر نفسه، 169/2.

(6) المصدر نفسه، 374/2.

وعليه فينبغي على الباحث أن لا يأخذ الفتاوى إلا في سياقها الزمني، وأن لا يجتزئ منها ما يريد، ويدع ما يريد.

ج- منهجية التأليف:

- انتقاد تصرُّف العمانيين في كتب القدامى: انتقد القطب بشدَّة من يضيف تعليقات في متن مؤلَّفات غيره، لتأييد آرائه أو معارضتها، أو لمجرَّد زيادة فائدة. وطريقتهم في ذلك بدل أن يعلِّق أحدهم في الحاشية - كما هو معروف - فإنَّه يكتب كلمة: «ومن غيره»، ويكتب تعليقه وسط المتن، وقد يطول التعليق لصفحات، ثم يقول: «رَجْعٌ». وهذا ممَّا يربك القارئ، ويوهم غير المتنبِّه بأنَّها من المؤلِّف الأصلي. وإذا أغفل الناسخ كتابة الكلمتين، أو ابتدأ القارئ قراءته من وسط الكلام، فإنَّه قد يخلط بين الأصل وبين الزيادة، وربَّما يقع التناقض في الكتاب الواحد، الأمر الذي يوجب التحفُّظ والتحقُّق في مثل تلك المؤلَّفات. وهذا التشويش على الأصل من جملة الإشكالات العويصة التي تعترض المحقِّقين للتراث العماني القديم بصفة خاصَّة!.

وهذا مما دفع بالقطب إلى أن يدعو بالشرِّ عَلَى من يَمَسُّ كتابه شرح النيل بهذه الكيفيَّة. إذ قال: «وقد دعوت بالشرِّ على من يختصره أو يُحشِّي به على النيل أو يزيد فيه ويقول: "من غيره"، ثم يقول: "رجع"»[1]. ولما سمع بالتصرف فيه اهتمَّ لذلك كثيرا[2].

ورغم انتقاده هذا فقد استعمل هو أيضا نفس الطريقة فيما بعثه إلى العمانيِّين، للتعليق على أجوبة الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي[3]، ولعله من باب مخاطبة الناس بما يفهمون!.

- التعامل مع رأي الآخر في تآليفه: وضَّح منهجه في التعامل مع الروايات التي تناقض آراء المذهب الإباضي، فقال: «قد رددت بعضها إلى بعض بالتأويل، كتقييد بعض ببعض،

---

(1) المصدر نفسه، 317/2. المادة رقم: 71 (ملك.ع.س).

(2) ينظر: كشف الكرب، 247/1.

(3) ينظر: المصدر نفسه، 164/2، 171، 237-239، 347-351.

وبأنواع الإعراب، ولا أذكر حديثا موهما لما لا يجوز إلاَّ نبهت عليه وذكرت تأويله ونبَّهت أنَّه لغيرنا. فكيف لا أنبِّه عنه إذا لم يقبل التأويل؟ [...] وليقتدِ بما أخذتُ له منهم مصنِّفي، ولينته عمَّا قلت له منهم متكدِّر، فقد كَفَيتُه المؤونة، ومن الله المعونة، وعلمتُ من هو منهم عدل في شأن العلم ونقلتُ عنه كما نقل مَن قبلَنا من أصحابنا عمَّن علموا عدله، فليدعْ لي بالخير إذا كانت المسألة راجحة من مذهبهم ولو لم تذكر في مذهبنا هي حقٌّ»[1].

– **ليس كل ما أورده الشيخ من الآثار قولا مختارا له**، مثال ذلك: تحريم الزعفران، فقد قال لعبد الله بن حميد السالمي: «أعلِم الناس عنِّي أنَّ ما ذكرتُه من تحريم الزعفران ليس مختارا لي، وإنَّما ذكرته في إزالة الاعتراض على طريق حكاية قولٍ في الأثر أنه حرام، وعَجِلْتُ عن أن أذكره قولا، وأن أذكر أنه ضعيف. وأعْلِم الناس أنَّ المحمد اطفيَّش... مختارُه حِلُّ الزعفران؛ لأنه صلى الله عليه وسلم والصحابة يستعملونه»[2]. وهذه الطريقة في الكتابة قد لا يعلمها كثير ممن يتعامل مع تراث الشيخ، فينسب إليه أقوالا لا يقول بها، فيهضمه حقَّه، أو قد يَسِمُه بالتناقض. وهذا الكلام يُلقم به كلُّ من يحتطب بالليل من كتب القطب، ثقةً به في كلِّ ما ألَّفه!.

– **منهجه في التفسير**: قال لنور الدين السالمي وعيسى الحارثي: «ولكما الآن والحمد لله الرحمن الرحيم من تفسير المذهب ما يغنيكم إن شاء الله عن تفسير غيره... ولست مقلِّدا لأحد، ولاسيما التيسير الذي قَرُبَ إن شاء الله الرحمن الرحيم كماله. والله ما ذكرته إلاَّ لترغبوا فيه لأنه غير طويل، بل متوسِّط، مع جمعِه ما ليس في المطوَّلات»[3]. ووصفه بأنه دقيق[4]، ونحن وإن كنا نوافقه على وسطيَّته عموما بين التطويل والإيجاز، وعلى تدقيقه في أغلب الأحيان، غير أنه لا يخلو من بعض الإسرائيليَّات والروايات التي تحتاج إلى تحقيق، مع تطويل في إيراد تفاصيل

(1) المصدر نفسه، 91/1. وتكرَّر الجواب في: 94/1.
(2) المصدر نفسه، 173/1.
(3) المصدر نفسه، 96/1.
(4) ينظر: المصدر نفسه، 89/2.

ونكت نحوية ولغوية وبلاغية، مما حدا بمحقّقه الشيخ إبراهيم طلاي إلى اختصاره.

ثالثا– هموم الأمة الإسلامية:

أ– وضعية العالم الإسلامي:

ينبغي أن لا نتصور أن القطب – الذي لم يغادر وطنه الجزائر لغير الحجّ[1] – منعزل لا يعرف معاناة المسلمين بسبب الاستدمار الأوروبي، بل كان ذا اهتمام بالغ بأوضاعهم، وكاد يخنع نفسه همًّا وغمًّا لسوء أحوالهم، إذ قال: «واعذرني في عدم البحث في المسألة، فإنّ قلبي مشتّت بفتن الناس في البلاد، وبطرابلس المغرب يقاتلها أهل روما، وبالمغرب الأقصى تغلّب عليها نصارى أندلس و فرنسيسية، وكادت روحي تخرج بذلك!»[2].

ب– التقريب بين المسلمين:

منهجُ القطب واضح في نبذ التعصُّب، وقبول أقوال المخالفين، إذ أشار على الشيخ نور الدين السالميِّ بأن لا يذكر أسماء غير الإباضيِّين، فقال: «إني أختار لك إذا صحَّت عندك مسألة من كتب قومنا[3] فاذكُرْها بلا ذكر لهم، ولا بأس عليك، وأخلصْ أعانك الله وإيانا»[4]. قد يبدو هذا غريبا ومناقضا للأمانة العلميَّة، ولكنَّ القطب برَّر ذلك في رسالة أخرى بأنَّ بعض النفوس في ذلك الوقت لَمَّا تتهيَّأْ بعدُ لقبول الرأي المخالف، إذ رأى أنّ ذكرهم يفضي إلى ترك آرائهم لأنـّها مسترابة عند المتعصِّبين، «فذكرها بلا نسبة إليهم أولى، إذ تُرابُ بذكرهم وليست باطلة. وفي القرآن: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ

(1) ينظر: ويتن: آراء الشيخ اطفيش، ص28-29. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية: 399/2.

(2) كشف الكرب، 207/2.

(3) مصطلح «القوم»، أو «قومنا» في مصادر الإباضية يعني: المذاهب الأربعة خصوصا، أو غير الإباضية عموما. ينظر: مجموعة من الباحثين: معجم مصطلحات الإباضية، 885/2.

(4) كشف الكرب، 6/1.

يُهْدَى﴾[1]، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾[2]. والحقُّ يُقبل من كلِّ من جاء به»[3]. كما ردَّ على أولئك المتعصِّبين بشدَّة قائلا: «ومن العجيب أن تكون المسألة حقًّا فتُترك لأنَّها جاءت من مخالف! هذا غلوٌّ !!. واذكروا قوله تعالى في غير أهل القبلة: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى...﴾[4]»[5].

وفي مراسلة أخرى أطال الشيخُ في الجواب عن سؤال: «هل يجوز الأخذ بروايات القوم وهم غير عدول عندنا؟ وهل يجوز استفتاء عالمهم فيما جاز فيه الخلاف؟ وهل الإدخال من كتبهم في كتبنا جائز؟»، وبيَّن فضلَ بيانِ ضرورةَ الأخذ بروايات غير الإباضية، «بأمر برهاني وأمر إقناعي»[6] حسب تعبيره.

هنا نلاحظ تفتُّح القطب على المذاهب الإسلامية الأخرى، بالحثِّ على إيراد أقوالهم جنبا إلى جنب مع آراء الإباضية، دون تعصُّب. ونلاحظ كيف وازن بين المصلحة المتوخَّاة من الأمانة العلميَّة بذكر صاحب الرأي، وبين المفسدة المترتِّبة عن رفض الحقِّ، فقدَّم درء المفسدة على جلب المصلحة.

ووضَّح طريقته في التعامل مع المسائل الخلافية بين المذاهب الإسلامية، فربما رجَّح ما يخالف المذهب الإباضي إذا اتَّضح له صوابه، إذ يقول في نفس الرسالة: «ولا أذكر من كلام القوم إلاَّ ما لا بأس به، ولو وُجد في مذهبنا ما يخالفه إذا كان له وجه صحيح ظاهر لا تكلُّف فيه، وربما رجَّحته على ما في المذهب لقوَّته بأدلَّة وجدتها؛ لأنَّ القول بالحقِّ واجب مع الحبيب والبغيض.

---

(1) سورة يونس: 35.
(2) سورة يونس: 32.
(3) كشف الكرب، 91/1. وتكرَّر الجواب في: 94/1.
(4) سورة المائدة: 8.
(5) كشف الكرب، 95/1.
(6) المصدر نفسه، 1/ 89-92.

والواصل يحرم عليه التقليد. وفي كلٍّ مذهب راجح ومرجوح، وأكثر مسائلنا في الفروع راجحات والحمد لله، وكلُّها حقٌّ في الأصول. وإذا ترجَّح قول غيرنا في مسألة من الفروع على قولنا بأدلّة، أو ذكروا مسألة لا بأس بها ولم تذكر في المذهب جاز ذكرها في كتبنا ولو بلا نسبة لها إلى قومنا»[1].

وليس هذا المنهج في التعامل مع المخالفين وليد فكر القطب، بل هو ما انتهجه جلُّ علماء الإباضية، فـ«الشيخ يوسف بن إبراهيم[2] قرأ في قرطبة من أندلس، وأبو عمار[3] في تونس المعقولَ والأصولَ وعلمَ الكلام، وعملاً بذلك وحملاه واسطةً للفقه أيضا. وفي بعض سند الربيع[4] رجال ليسوا من أصحابنا [...] وجلُّ مسائل المنهاج من غيرنا بلا نسبة إلى غيرنا [...] وما زال أصحابنا يأخذون من كتبهم كأبي ستة[5] وصاحب القناطر»[1]. ثم إن كثيرا من

---

(1) المصدر نفسه، 90/1.

(2) يوسف بن إبراهيم بن مناد السدراتي الوارجلاني، أبو يعقوب (ت: 570هـ): فقيه أصولي متكلم رحّالة. رحل إلى قرطبة طالبا للعلم، حتى لقبه الأندلسيون بـ«الجاحظ». واستكشف مجاهل إفريقيا فاكتشف خطّ الاستواء. له «تفسير القرآن الكريم» ضاع. «الدليل والبرهان» في الكلام، و«العدل والإنصاف» في الأصول، و«مسرح البحرين» في المنطق وغيرها. (ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم: 1049، 481/2-484).

(3) عبد الكافي بن أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل التناوتي الوارجلاني، أبو عمار (ت قبل: 570هـ): من علماء وارجلان، من رفقاء أبي يعقوب الوارجلاني. تعلم ببلده وبتونس. قصده الطلبة من مختلف أقطار المغرب الإسلامي. من تآليفه: «الموجز»، و«شرح الجهالات»، و«الفرائض». (ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم: 562، 258/2-259).

(4) الربيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدي البصري، أبو عمرو (ت: حوالي 170هـ) إمام فقيه، ومحدث، أخذ عن جابر بن زيد وأبي عبيدة مسلم ومجاهد وابن سيرين. له المسند، رتبه أبو يعقوب الوارجلاني. (ينظر: الكعبي: الربيع بن حبيب محدثا. معجم أعلام الإباضية من خلال بيان الشرع، ترجمة رقم: 157، ص76).

(5) محمد بن عمر بن محمد ... ابن أبي ستّة القصبي السدويكشي، أبو عبد الله (ت: 1088هـ): من جربة تونس. درس بالأزهر، وفيه درّس وفي المدرسة الإباضية بالقاهرة. ترأس حلقة العزابة بجربة. كان شديدا في الحقّ، ورعا، متواضعا. له حواش كثيرة على أمّهات الكتب الإباضية، فاشتهر بـ«المحشّي»، منها: حاشية على قواعد الإسلام، وعلى الوضع، وعلى مسند الربيع. وله أجوبة فقهية. (ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب. ترجمة رقم: ، 389/2-390).

العلوم والمعارف تؤخذ من غير الإباضية، ويدرَّسونها في حلقاتهم، كاللغة والتفسير، والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق، وتبنى عليها أحكام فقهية[2]، وإن جُلَّ المسائل العقديَّة والكلاميَّة، كأسماء الله الحسنى، وأسماء النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأهوال الحشر والبعث والموقف والجنة والنار، من كتبٍ غير إباضيةٍ، فإن لم يأخذ منها المتعلم حُرِمَ بركتها[3].

واعترف القطب بفضل مخالفيه في التفسير، وانعدام المفسرين من الإباضية في عصره – سواء – فقال لمن استشكل الأخذَ من كتب غير الإباضية: «وهل فسَّر القرآنَ غيرُهم في هذا العصر؟! إلا الشيخ هود رحمه الله، ولم يصلْ تفسيرُه هؤلاء المستشكلين، وإن وصلهم فقد لا يجدون مقصدهم»[4].

وهو مع تفتُّحه دعا إلى التمسُّك بمذهبه؛ وكتب في ذلك رسالة وجَّهها إلى السلطان ومَن دونه، وإلى العلماء والعباد من عمان وزنجبار من أتباع المذهب، وذكر فيها جملةً من علماء غير الإباضية ممن تبنَّوا بعض آرائهم، كابن العربي[5]، والأذرعي[6]، وعليش[7]، وحسبي الله[1]،

=

(1) كشف الكرب، 92/1.

وصاحب القناطر هو: إسماعيل بن موسى الجيطالي، أبو طاهر (ت: 750هـ): عالم جليل ينسب إلى إنجطال بجبل نفوسة من ليبيا. فقيه، حافظ، شديد في الأمر والنهي. سُجن لصراحته في الحق. انتقل إلى جربة بتونس، وبها توفي. من تآليفه: «قناطر الخيرات»، و«قواعد الإسلام». (ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم: 110، 57/2-58).

(2) ينظر: كشف الكرب، 91/1.

(3) ينظر: المصدر نفسه، 92/1.

(4) المصدر نفسه، 96/1.

(5) محمد بن عبد الله بن محمد، أبو بكر ابن العربي المالكي الأندلسي (ت: 453 هـ): قاض، مجتهد، من حفاظ الحديث. من كتبه: العواصم من القواصم. (ينظر: الزركلي: الأعلام، 230/6).

(6) الأذرعي: يوجد عدة أعلام بهذه النسبة، ولم نتمكن من تحديد أيهم يقصد القطب. (ينظر: المرجع نفسه، 286/1).

(7) محمَّد بن أحمد بن محمَّد عليش، أبو عبد الله (1299هـ): فقيه مالكي مغربي الأصل، ولد بالقاهرة وتعلم في الأزهر، وولي مشيخة المالكية فيه. سُجن وهو مريض لاقامه بالمولاة لثورة عرابي فتوفي في المستشفى. من تصانيفه: «فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك»، و«منح الجليل على مختصر خليل». (ينظر: المرجع نفسه، 19/6).

وداحلان[2]، والتفتازاني[3]، وحرَّضهم على توزيع رسالته التي جاء فيها: «وأعزم عليكم أن تشهِّروا هذه الورقة، وتنسخوها، وتُرُوها الراجعَ إلى الخلاف»[4]. وهذه الدعوة إلى التمسُّك بالمذهب الإباضي لا تتناقض مع وجوب قبول آراء المخالف إذا كانت حقًّا، وفرقٌ بين التحيُّز المذموم، والتعصُّب المذموم، كما سبق بيانه.

رابعا- أثر مراسلات القطب في العمانيين:

أ- إثارة خلافات فكرية:

لقد أوجس القطب في نفسه خيفة أن يتسبب كلامه في إثارة أيِّ فتنة مهما كان نوعها[5]، وخاصة إذا تعلَّق الأمر بالدماء، فهو حريص أشدَّ الحرص على تفادي أسبابها، إذ قال وهو يوصي أحدهم: «وخذ حذرك أن يصيب أهلَ عمان منِّي ما يضرهم، وخذ حذرك أن يتبدَّل[6] كلامٌ أو يُفهم على غير مرادي، وكلُّ ذلك بلا عمد، وأما العمد فمنتفٍ حاشاكم»[7]. ووضَّح قصده بقوله: «وأما تحذيري أن تصيبني مضرَّة... فمعناه التحذير أن يغتاظوا ويظنُّوا أنِّي أتعصَّب لبعض على بعض»[8].

=

(1) يبدو أنه يقصد محمد بن سليمان حسب الله (ت: 1335هـ): فقيه مكي شافعي. له: الرياض البديعة في أصول الدين وبعض فروع الشريعة، وحاشية على مناسك الحج للخطيب الشربيني. (ينظر: المرجع نفسه، 152/6).

(2) أحمد بن زيني دحلان (1304هـ) فقيه مؤرخ. أصله من مكة، توفي بالمدينة، له عدة مؤلفات مطبوعة، منها: الفتوحات الإسلامية، والرد على الوهابية... (ينظر: المرجع نفسه، 129/1-130).

(3) مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين (ت: 793هـ): من أئمة العربية والبيان والمنطق. من كتبه: تهذيب المنطق والمطول وشرح العقائد النسفية والتلويح. (ينظر: المرجع نفسه، 219/7).

(4) المصدر نفسه: 33/1-34.

(5) ينظر: كشف الكروب: 11/1. المادة رقم: 85 (مك.ع.س).

(6) في الأصل: «يتبدد».

(7) المصدر نفسه، 276/2.

(8) المصدر نفسه، 277/2.

وقد وقع بالفعل ما كان يخشاه القطب، ويظهر ذلك من خلال الجواب الذي أعتبرُه بمثابة نداء عامٍّ إلى «أهل عمان العلماء والتلاميذ والرؤساء والعباد، خصوصا الشيخ عبد الله بن حميد والشيخ عيسى بن صالح قائلا: جاءتني أسئلة منكم وأردت إجابتها على شرط أن لا تكون بينكم فتنة. فعاملُوني بما لا تكون فيه»[1]. ويبدو أن هذا النداء جاء عقب إثارة مسألة محو ما في اللوح المحفوظ الآتي ذكرها.

ومن الفتاوى التي يبدو أنها أثارت خلافا بين العمانيين ما يأتي:

– **مسألة تغيُّر ما في اللوح المحفوظ:** وخلاصة المسألة أنَّ الله تعالى حين يكتب أنَّ أجل فلان ستِّينَ عاما مثلا، وإذا عمل ما يزيد في العمر – كصلة الرحم – فإنَّ الله تعالى يزيد في عمره في اللوح، وإلى هذا الرأي مال الشيخ نور الدين السالمي أوَّل الأمر، ولكنَّ القطب رأى أنَّ الله تعالى لا تبدو له البدوات، ولا يغيِّر ما في اللوح. وأخطر ما في الأمر إفتاء القطب بأن المسألة ليست من الفروع، بل هي من الأصول التي لا يجوز الخلاف فيها، وبالتالي يُتبرَّأ من المخطئ فيها، وهو ما جرَّ على السالميِّ متاعب كثيرة، مما جعله يتراجع عن رأيه.

– **منع الفتوى ممن لم يتأهَّل لها:** حَكَمَ القطب بالضلال والكفر على من تصدَّر للفتوى و لم يكن أهلا للاجتهاد، ويقصد كُفْرَ النعمة، (أي كفرًا دون كفر، أو النفاق العملي) بطبيعة الحال. ويبدو أن السؤال الذي جاءه كان مغرضا؛ إذ من المشهور في فترة الشيخ نور الدين السالمي أن الشاعر محمد بن شيخان اتُّهم بأنه غير مؤهَّل للفتوى، وأنه يقول بغير علم، فأرسل أهلُ عمان إلى القطب بسؤال عن حكم من يفتي وهو لم يبلغ درجة الاجتهاد فقال: «إنَّه لا يجوز لمن لم يبلغ درجة الاجتهاد أن يقول برأيه، فإن قال به ضلَّ وكفر نفاقا، وضل متَّبعُه وهلكَا، ولو وافق الحقَّ!»[2]. وقد كانت بين الشيخ نور الدين السالمي وابن عمِّه الشاعر محمَّد بن شيخان وحشةٌ،

(1) المصدر نفسه: 1/52-53. المادة رقم: 85 (ملف ع.س).
(2) المصدر نفسه: 1/81.

واتهمه بتصدّيه للفتوى بدعوى عدم أهليّته لذا، فخاطبه نور الدين بقصيدة مطلعها:

«خل التعاطي في الفتا .:. وى واشعر فيمن شعر»[1]

ويبدو أنّ القطب لم يكن يعرف أنّ المتهم به هو صديقه الحميم الشاعر المعجب به – إذ لقّبه بشيخ البيان – حتّى أخبره بذلك، فاهتمّ القطب لذلك كثيرا، وبعث إليه جوابا مؤرّخا بأواخر ربيع الثاني سنة 1318هـ، يعترف له بفضله في الشعر والفقه ويقول: «حيّا الله الرحمن، الشيخ محمدَ بنَ شيخان، الكاتب الشاعر، منهل الفقه لنوارد والصادر [...] ولما وصلني [كتابُك] أهمّني ما ذكرت جدًّا، وأختار لك أن تتمهّل، وآمرك بالصبر، ولو قلّ صبري. فإنّ عاقبته محمودة، ولأنْ يسمع الإنسان الإنسانَ أسلم له من أن يقول. [...] ولك دعاء الخير منّي بإذن الله ما ذَكَرْتُ، ولستَ هيّنا عندي، ولكن أردتُ أن يَظهَرَ فيك أثر قوله صلى الله عليه وسلم: "من تواضع رفعه الله"[2]». وفي نفس الرسالة خفّف من فتواه الشديدة السابقة، ووضّح رأيه قائلا: «ومَن عَلِم معاني الحروف ومصادر الأفعال وموازين الأسماء والنحو واللغة ومارس الفقه بالتعلُّم جاز له الإفتاء بما في الكتاب بترجيح، وإن لم يقدر على الترجيح رجّح له قادر عليه، وجاز له الإفتاء للإنسان مطلقا بما حفظه من ثقة»[3].

ثم مضت الزوبعة لتعود القلوب إلى بعضها، فسرّ بذلك الشيخ اطفيش وقال لهما: «أما بعد فسلام [...] على الشيخ العلم عبد الله بن حميد، حامدا الله عزّ وجلّ على ما سمعنا من رجوع الشيخ محمّد بن شيخان بالصلح، وأنكما متحابّان كأوّل مرّة»[4].

---

(1) قصيدة من آخر مخطوط أرسله الشيخ السالمي للقطب، برقم: ع5. (ملك.ق).

(2) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم: 2588، 2001/4. ونصّه: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ».

(3) كشف الكرب، 86/1.

(4) المصدر نفسه، 83/1-84. وتكرر في: 35/2.

ب- تغيير توجُّهات فكرية وسياسية:

يعتبر الشيخ نور الدين السالمي أبرزَ شخصية علميَّة عمانيَّة راسلها القطب بكثرة[1]، ولعل وحدة اهتماماتهما في كثير من الجوانب الإصلاحيَّة كان بسبب تلك المراسلات، فقد كان السالمي هو السائل؛ لأنـــهُ كان أصغر سنًّا[2]. كما أنَّ السالميَّ كثيرا ما كان يعتمد على القطب في تآليفه[3].

نأخذ نموذجين من تأثير القطب في توجُّهات السالمي: فكريًّا وسياسيًّا.

1- توجهات فكرية:

من أبرز القضايا الكلاميَّة التي تغيَّر فيها رأي السالمي بسبب تلك المراسلات، هو تجويزه أن يغيِّر الله تعالى ما كتبه في اللوح المحفوظ، فبعد أن لقي نقدا لاذعا، وحكما قاسيا من القطب، وبعد أن دوَّن رأيه في كتابه "مشارق أنوار العقول"، عدل عنه فمحاه. فقال عن هذا التطوُّر: «ولنا عند قولنا بثبوتها تشبُّـــثات كنَّا نظنُّها حُججا، ثُمَّ ظهر لي بعد مناظرة طويلة من إخواننا المتعلِّمين صواب ما قاله شيخنا [صالح الحارثي] في منع تغيير ما كُتب في اللوح، فرجعتُ عمَّا كتبته في المشارق [...] فلذا كتبت إلى أهل الآفاق بإبطال مسألة اللوح في نُسَخ المشارق [...] فالحقُّ الذي لا مرية فيه أنَّ ما كتب في اللوح لا يصحُّ تبديله»[4]. وقد ذكرنا سابقا الحُكْمَ القاسي الذي أصدره القطب فيمن يجوِّز تغيير ما في اللوح المحفوظ: وهو كفر النعمة. وقد تركت هذه الفتوى أثرًا بالغًا في قلب السالميِّ، ويوحي بذلك جوابه لأحد سائليه: «هذه المسألة

(1) ينظر: أبو بشير السالمي: ترجمة السالمي (مخ)، ص12-13. أبو بشير السالمي: نهضة الأعيان، 122، 448.

(2) من قَدَر الله أنهما عاشا في نفس الفترة، وتُوُفِّيا في نفس السنة، فضلا عن تشابه ظروفهما الاجتماعيَّة والسياسيَّة الـــتي عانيـــا منها. غير أن القطب توفي وعمره 96 عاما، وتوفي السالمي وعمره 48 عاما، أي النصف!. ينظر: ويـــمن: آراء الشيخ اطفيش، ص25، 27-28. شريفي: السالمي حياته وآثاره، ص61-63، 290.

(3) ينظر على سبيل المثال: السالمي: مشارق أنوار العقول، ص227، 237، 241... بهجة الأنوار، ص4.

(4) السالمي: العقد الثمين، 1/240-241. جوابات الإمام السالمي، 5/436-438؛ 6/200-201.

في غاية من الإشكال، وهي التي أوقعت محبَّك في مسألة اللوح الممحوَّة من "المشارق" لا أبقى الله لها ذكرا !!»[1].

2- توجهات سياسيَّة:

كان الشيخ نور الدين السالمي مساندا مخلصا لشيخه صالح بن علي الحارثي[2] في مواجهته العنيفة للسلطان، ثم ما لبث أن تحوَّل إلى المعارضة السلمية بعد وفاة أستاذه الذي كان ينتظر أن يكون هو الإمام الشرعي. ولعل تغيُّر موقفه كان استجابة لمراسلة القطب اطفيَّش التي دعاه فيها إلى مداراة السلطان ليعمل على تنفيذ شرع الله تعالى في إبطال ما فرضه الاحتلال الإنجليزي على حكَّام عمان، من إباحة استيراد الخمور والخنزير والدخان، علما أن معارضي السلطان تركي بن سعيد[3] وابنه فيصل قد رفضوا هذه الموالاة للإنجليز رفضا قاطعا، وانتقدوها عليهما أشدَّ الانتقاد... قال القطب: «...وأنصحكم لله أن تطلبوا من الجائر وتداروه ولو بمال أن يخلِّي بينكم وبين إهراق الخمر وقتل الخنزير وإبطال الدخان، وبينكم وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكتبوا بذلك، ويكون عونا لكم، وجاء الحديث: "إذا رأيتم أمرا لا تقدرون عليه فدعوه

---

(1) جوابات الإمام السالمي، 6/181-182.

(2) صالح بن علي بن ناصر الحارثي، الأمير (ت: 1314هـ): عالم عماني. حاول إحياء الإمامة في الصومال فلم يتمَّ له ذلك. عاد إلى عمان، وساند الإمام عزان بن قيس (حكم: 1285-1287هـ)، وبعد الإطاحة بدولته قام محتسبا لإعادة إحيائها، في عدة ثورات، استشهد في آخرها. ترك عدَّة مُؤلَّفات، منها: "عَلَم الرشاد في أحكام الجهاد"، ورسائل وأجوبة كثيرة جمعها ورتَّبها القاضي أبو الوليد سعود بن خُلَيْفين في كتاب سمَّاه: "عين المصالح في أجوبة الشيخ الصالح". من تلاميذه: ابنه عيسى، ونور الدين السالمي. (ينظر: السالمي: تحفة الأعيان، 2/227-233، 247، 251-252، 267-270، 283-285. أبو بشير: فهرسة، ص83-85. الحارثي: اللؤلؤ، ص62...).

(3) تركي بن سعيد بن سلطان البوسعيدي (ت: 1305هـ): سلطان عماني. تولى الحكم يوم 8 ذو القعدة 1287هـ عند إطاحته بإمامة عزَّان بن قيس، بمساعدة الإنجليز. (ينظر: لاندن: عمان، ص379-426. شريفي: السالمي حياته وآثاره، 29-30. معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، ترجمة رقم: 107، ص75).

حتَّى يكون الله هو المغيِّر له"[1]»[2].

وقد أخذ الشيخ السالميُّ بهذا الرأي، وهو جواز مداراة الجبابرة إذا كان يلحق أهلَ البلد ضررٌ، شريطة أن لا يكون القصد هو المعاونة[3]. فرأيناه قد تحوَّل من المواجهة العنيفة، إلى المواجهة السلميَّة، بإسداء النصائح للسلطان، فامتدَّت فترة الهدنة بينهما 17 عاما، وذلك ما بين وفاة المعارض المحتسب الشيخ صالح الحارثي سنة 1314هـ وإعلان قيام دولة الإمامة سنة 1331هـ، اتَّسمت بالهدوء والاحترام المتبادل، كان السالمي يعدُّ فيها الرجال بالتدريس والتأليف، وتكوين قادة دولة الإمامة المنشودة[4].

الخاتمة

إن تحليل فتاوى القطب ومراسلاته تحليلا تاريخيا يحتاج إلى جهد أكبر من هذا، إذ إن فتاواه ومراسلاته مبثَّة في شتَّى مكتبات العالم الإسلامي الخاصَّة والعامَّة، ومثل هذا التحليل يفيدنا كثيرا في فهم المواقف التي يتَّخذها العالم، والأحكام التي يصدرها المفتي، سواء القطب أم غيره، وذلك يشبه إلى حدٍّ ما معرفةَ أسباب النزول لفهم القرآن الكريم.

ومن خلال هذه القراءة السريعة نستخلص عدَّة نتائج، نذكر منها:

– أن القطب أولى اهتماما بالغا بنشر العلم، وإفادة كلِّ من يريد الاغتراف من معينه، سواء القريب أم البعيد.

---

(1) رواه الطبراني في الكبير بلفظ: «إذا رأيتم أمرا لا تستطيعون تغييره فاصبروا حتَّى يكون الله هو الذي يغيِّره»، رقم 7685: 164/8. وفي سنده عفير بن معدان، قال النسائي: «ليس بثقة ولا يكتب حديثه». وقال الذهبي: «ضعَّفوه»، وقال الهيثمي: «قال الهيثمي: عفير بن معدان ضعيف، وفي الميزان: حديث منكر»، فيض القدير: 360/1.

(2) كشف الكرب: 90/2، وتكرر في: 379/2.

(3) السالمي: العقد الثمين، 453/2.

(4) ينظر: سريحي: السالمي حياته وآثاره، ص 250.

– أن ظروفه المادية لم تمنعه من بلوغ أهدافه السامية، فقد كانت غايته إرضاء الله تعالى، لا مجرد الترقّي في الوظيف، أو الجري وراء الرغيف. وفي هذا عبرة لأجيالنا المعاصرة.

– أن المفتي قد يكون سببا في تغيير الوضع القائم، إيجابا أو سلبا، غير أنه من المؤكد، ومن خلال هذا التحليل، يمكن أن نلمس بوضوح أن بُعد المفتي عن المستفتي، وعدم إلمامه بواقعه وملابسات الاستفتاء وظروفه الزمانية والمكانية، كثيرا ما يجرُّ إلى نتائج وخيمة، قد تؤدِّي إلى صراعات عنيفة، تتجاوز القول إلى الفعل، وأنَّ استيراد الفتاوى وعدم الثقة في العلماء المحلِّيين ليس حلاً للمشكلات، إنَّما قد يكون سببا للأزمات والمعضلات!...

في الأخير نوصي المؤسسات العلمية والباحثين بما يأتي:

– جمع مراسلات القطب الصادرة والواردة، في مختلف المجالات، دون أن تقتصر على جانب دون آخر، وتحقيقها تحقيقا علميًّا دقيقا، لتتمكن من اكتشاف جوانب لا تزال مجهولة من حياة الشيخ أو حياة مراسليه، بالإضافة إلى ما يمكّنه هذا العمل من معرفة تطوُّر فكر الشيخ: العقدي، الأصولي، الفقهي، الاجتماعي، التربوي، السياسي... وهذه توصية نرجو أن تتبناها المخابر العلمية في جامعاتنا.

– إعادة تحقيق كتاب كشف الكرب، وفق الضوابط المنهجية المعروفة، لتفادي النقائص السابق ذكرها. وتوجيه الباحثين إلى العكوف على تحقيق تراث الشيخ عموما، لإخراجه إلى النور.

نسأل الله أن يقيض لهذه الأمة مجدِّدين، مخلصين لله في عملهم، معتدلين في فكرهم، مسايرين لعصرهم، لا يثني من عزيمتهم قساوة الظروف، ولا معارضة الألوف!.

المصادر والمراجع

أ- المصادر المخطوطة:

- أبو بشير محمَّد شيبة بن نور الدين السالمي (1395هـ): ترجمة الإمام نور الدين السالمي، (مخ) الناسخ: الشيخ عمر بن يوسف عبد الرحمن اليسجني، بتاريخ 15 مُحَرَّم الحرام عام 1372هـ/ 6 أكتوبر 1952م، بمَكَّة المكرَّمة، المقاس: 17×22 سم، المسطرة: 23 سطرا، الخط: مغربي واضح، مرقم بالصفحات. نسخة مصورة بمكتبة الباحث من مكتبة جمعية أبي إسحاق لخدمة التراث، بغرداية، الجزائر.

- بطاقة بريدية من زنجبار، من محمد بن سلطان بن قاسم الريامي، مختومة على الطابع البريدي Zanzibar MR 12 14 فيها أخبار عن طباعة بعض كتب القطب، وإخبار بوفاة الشيخ نور الدين السالمي. مؤرخة في 14 ربيع الآخر 1332هـ. مكتبة القطب، دون رقم.

- رسالة من راشد بن عزيز، حول طبع شرح النيل، وتحديد وساطة الاتصال، مؤرخة بمنتصف جمادى الآخرة عام 1304هـ. مكتبة القطب، دون رقم.

- رسالة من محمد بن عبد الله الخليلي. مؤرَّخة بيوم 4 شوال 1327. في ثلاث صفحات. مكتبة القطب، دون رقم.

- رسالة من: سالم بن سلطان بن قاسم الريامي، يخبره فيها بأنه بصدد طبع كتاب مشارق أنوار العقول، والكتابين اللذين بهامشه: بهجة الأنوار والحجج المقنعة. حررت بتاريخ 11 ...[تآكل] 1321هـ.

- مجموع رسائل وأجوبة، الناسخ: الشيخ حمو باباموسى، رقمها: أز5 ورقم: أز6. ورقم: أز9، مكتبة القطب، ببني يزقن. مصورة من مكتبة الأستاذ محمد بن أيوب الحاج سعيد، بغرداية.

- مجموع رسائل، الناسخ: الشيخ عمر بن يوسف عبد الرحمن. مكتبة القطب، رقم: أ.ز.6،

نسخة مصورة من مكتبة الشيخ عمر بن يوسف.

- مخطوط أرسله الشيخ السالمي إلى القطب، تاريخ النسخ: 17 ربيع الآخر 1318هـ، الناسخ: سيف بن راشد بن علي الحجري. مكتبة القطب، رقم: غ5.

ب- المصادر والمراجع المرقونة:

- شريفي مصطفى بن محمد (معاصر): الشيخ نور الدين السالمي، حياته وآثاره ومواقفه الإصلاحيَّة والسياسيَّة. بحث ماجستير، مرقون، كليَّة أصول الدين، جامعة الجزائر، إشراف الدكتور عمَّار جيدل، نوقش في ربيع الثاني 1423هـ/جوان 2002م.
- المادة رقم71: جواب على مسائل علماء عمان. (النسخة المعتمدة هي الجواب رقم 36 من المجموع02) مكتبة مؤسسة الشيخ عمي سعيد.
- المادة رقم72: جواب على مسائل عبد الله بن حميد السالمي (النسخ المعتمدة تسعة، منها: النسخة الأولى هي الجواب رقم 25 من المجموع 06...) مكتبة مؤسسة الشيخ عمي سعيد.
- المادة رقم73: جواب على مسائل عبد الله بن حميد السالمي وعيسى بن صالح الحارثي (النسخ المعتمدة ثمانية، منها: النسخة الأولى هي الجواب رقم 28 من المجموع 06) مكتبة مؤسسة الشيخ عمي سعيد.
- المادة رقم74: جواب على مسائل عبد الله بن حميد السالمي (النسخ المعتمدة ثلاثة، منها: النسخة الأولى هي الجواب رقم 36 من المجموع 06) مكتبة مؤسسة الشيخ عمي سعيد.
- المادة رقم85: جواب على مسائل أهل عمان (النسخ المعتمدة اثنتان، منها: النسخة الأولى هي الجواب رقم 63 من المجموع 06) مكتبة مؤسسة الشيخ عمي سعيد.

ج- المصادر والمراجع المطبوعة:

- ابن بابويه، الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (381هـ): الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم، نشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة

النعثة، الطبعة الأولى، 1417هـ.

- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري (711هـ): لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت.
- اطفيّش، أحمَّد بن يوسف (1332هـ): كشف الكرب في ترتيب أجوبة الإمام القطب، ترتيب: أبي الوليد سعود بن حميد بن خُليفين المضيربي، تحقيق: محمَّد علي الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، 1405هـ- 1406هـ/1985م-1986م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (256هـ): صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا. ط3، دار ابن كثير , اليمامة، بيروت، 1407هـ/ 1987م.
- جمعية التراث لجنة البحث العلمي: معجم أعلام الإباضية، من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، قسم المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1421هـ/2000م.
- الخارثي، سعيد بن حمد بن سليمان (1429/4/9هـ): اللؤلؤ الرطب في إبراز مستودعات القلب. د.ن. ، د.ت. [حوالي سنة 1405هـ/1985م].
- الزركلي أبو الغيث خير الدين بن محمود (1396هـ): الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1406هـ/1986م.
- السالمي، أبو بشير محمَّد شيبة بن نور الدين (1395هـ): نهضة الأعيان بحريَّة عُمان، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، د.ت.
- السالمي، نور الدين أبو محمد عبد الله بن حميد (1332هـ): بهجة الأنوار شرح أنوار العقول في التوحيد، طبع بهامش الجزء الأوّل من كتاب شرح طلعة الشمس نشر: سالم بن سلطان الريامي، مطبعة الموسوعات، مصر، د.ت.
- السالمي، نور الدين أبو محمد عبد الله بن حميد (1332هـ): تحفة الأعيان بسيرة أهل

عُمان، طبع وتصحيح أبي إسحاق إبراهيم اطفيّش، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1347هـ.

- السالمي، نور الدين أبو محمد عبد الله بن حميد (1332هـ): جوابات الإمام السالمي: تنسيق ومراجعة: د. عبد الستار أبو غدة، إعداد الفهارس: عزّ الدين خوجة وعبد الرحمن السالمي، إشراف: عبد الله السالمي، نشر: مكتبة السالمي، بدية، مطابع النهضة، سلطنة عُمان، الطبعة الأولى، 1417هـ/1996م. 7 أجزاء.
- السالمي، نور الدين أبو محمد عبد الله بن حميد (1332هـ): جوهر النظام، المطبعة السلفية، القاهرة، 1346هـ.
- السالمي، نور الدين أبو محمد عبد الله بن حميد (1332هـ): العقد الثمين نماذج من فتوى نور الدين، قام بتصميمه وتحقيقه والتعليق عليه وترتيبه: سالم بن حمد الحارثي، وأشرف على إصداره وتصحيحه محمّد محمّد الدهان، دار الشعب، القاهرة، مصر، د.ت. (تاريخ المقدّمة: 27 رجب 1373هـ).
- السالمي، نور الدين أبو محمد عبد الله بن حميد (1332هـ): مشارق أنوار العقول، تعليق: الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، نشر: زاهر بن حمد الحارثي، مطابع العقيدة، سلطنة عُمان، الطبعة الثانية، 1398هـ/1978م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (360هـ): المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، 1404هـ/1983م.
- غبّاش، حسين عبيد غانم (معاصر): عُمان، الديمقراطية الإسلاميّة، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث (1500-1970م)، نقل النص إلى العربيّة د. أنطوان حمصي، دار الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1997م.
- لاندن، روبرت جيران: عمان منذ 1856 مسيرا ومصيرا، ترجمة: محمّد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، الطبعة الثالثة، 1404هـ/1983.

- مجموعة من الباحثين [من جمعية التراث]: معجم مصطلحات الإباضية، نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، 1429هـ/2010م.
- محمّد زيان عمر (معاصر): البحث العلمي، مناهجه وتقنياته، الطبعة الرابعة، دار الشروق جدّة، السعودية، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1987م.
- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (261هـ): صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.
- مقابلة الباحث مع الشيخ الناصر بن محمد المرموري، في بيته بالقرارة، بتاريخ: 05 صفر 1422هـ/28 أفريل 2001م.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف (1031هـ): فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط1، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1356هـ.
- ويبتن، مصطفى بن الناصر (معاصر): آراء الشيخ المحَمَّد بن يوسف اطفيَّش العقديَّة (1332هـ / 1914م)، جمعيَّة التراث، القرارة الجزائر، 1996م.

د- البرامج الرقمية:

- الرواحي إدريس: معجم أعلام الإباضية، أكثر من 3400 علم، الإصدار 2.0.0. د.ت. [1430هـ/2009م] (http://www.alamlalmushriq.net).
- شركة البرامج الإسلاميَّة الدولية: موسوعة الحديث الشريف، الإصدار الثاني، 1997م.
- شريفي مصطفى بن محمد (جمع وإعداد): المكتبة الشاملة الإباضية، الإصدار الثاني، نشر: جمعية التراث، القرارة، غرداية، ومعهد المناهج، الجزائر، 1431هـ/2010م.
- مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي: المكتبة الألفيَّة للسنة النَّبويَّة، عَمَّان، الأردن، الإصدار: 1.5، 1419هـ/1999م.
- مركز المعجم الفقهي ومركز المصطفى للدراسات الإسلامية: مكتبة أهل البيت عليهم

السلام، الإصدار الأول، 1426هـ/2005م.

الرموز المستخدمة:

(مك.ح.س): مكتبة محمد بن أيوب الحاج سعيد، بغرداية.

(مك.ع.س): مكتبة مؤسسة الشيخ عمي سعيد، بغرداية.

(مك.ق): مكتبة القطب اطفيش، ببني يزقن، ولاية غرداية.

أدب الرحلة عند القطب المفيَّش

قراءة في رحلته الحجازية أنموذجًا

الأستاذ: يحي بن بهون حاج امحمد

قسم اللغة والأدب العربي-المركز الجامعي غرداية —

تتلخص الدراسة حول النقاط الآتية، وهي:

- القُطب أطفيَّشْ نسبه ومولده.
- نشأته ووفاته.
- نبوغـــه.
- وفـــاته.
- معهده.
- منهجه في التدريس.
- مكانته العلمية.
- مؤلفـــاته.
- أخلاقه وجهاده التربوي.
- جهاده الاجتماعي.
- محاربته للاستعمار الفرنسي.
- رحلاته وأسفاره.
- رحلاته الحجازية.
- ظروف الرحلة.
- من فوائد الرحلة.
- نماذج من قصيدته الحجازية.

القُطب أطفيَّش نسبه ومولده:

هو: المحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمن بن عيسى بن إسماعيل ابن محمد بن عبد العزيز بن بكير الحَفصِي، أطفيَّش أشهر عالم إباضيٌ بالمغرب الإسلامي في العصور الحديثة، من عائلة شهيرة بالعلماء من بني يسجن، غرداية، الجزائر، من عشيرة آل باحمد[1]، وينتهي نسبه إلى عمر بن حفص الهنتاتي، من العائلة الحفصية المالكة بتونس بين (625-983هـ/ 1229-1574م)، وفي بعض كتبه يُنهي القُطب نسبه إلى أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ.

يقول عنه تلميذه الشيخ إبراهيم أبو اليقظان في ملحق السير: "منهم الشيخ الحاج المحمد بن يوسف أطفيَّش الشهير بقُطب الأئمة عند المغاربة، وبقطب المغرب عند المشارقة وهو جدير بحق بهذا اللقب العظيم، فإن علماء المشرق والمغرب كالكواكب تدور على هذا القطب في فلكه الواسع، ويتصل نسبه بسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ فهو من بني عدي"[2]، أمَّا لقب "قُطب الأئمة" فقد أطلقه عليه الشيخ عبد الله بن حميد السَّالمي[3] _مجدد العلم بعُمان_ فاشتهر به حتى صار علمًا عليه.

نشأته ووفاته:

ولد القُطب في مدينة غرداية لما انتقل إليها والده، سنة 1236هـ/ 1820م، وعاش بها طفولته الأولى، ويُعد والده الحاج يوسف من الشخصيات البارزة في وادي مزاب على

---

[1] – آل باحمد بن عبد العزيز: من أكبر عشائر بني يسجن وأشهرها إلى اليوم وتحوي عائلات عريقة في العلم والدين، وقد رأيت دفترًا صغيرًا بمكتبة الاستقامة ببني يسجن يحوي شجرة نسب هذه العشيرة.

[2] – ينظر: ملحق السير، إبراهيم أبو اليقظان، ج3 ص 153، مخطوط.

[3] – عبد الله بن حميد السالمي (نور الدين): (1286-1332هـ) علم من أشهر علماء عُمان في العهد الحديث، له مؤلفات عديدة تعد مرجعًا في العقيدة والتوحيد منها: "مشارق الأنوار"، و"مدارج الكمال" وغيرها، لقبه القُطب بـ"نور الدين"، وقد عاش 46 سنة فقط وكأنها ليركتبها مائة سنة. ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، تأليف: د.محمد صالح ناصر وسلطان بن مبارك الشيباني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2006، ص 271-273.

ذلك العهد، حتى وإن لم يسجل لنا التاريخ كُلَّ آثاره، أمَّا عن السبب المشهور لنفي والده إلى مدينة غرداية فيرجع إلى الخلافات التي كانت تنشب بينه وبين وجهاء بلدته يسجن حول إصلاح الأوضاع الاجتماعية[1].

إلاَّ أنَّ التَّنعُّم بظلّ الوالد لم يدُم طويلاً للفتى محمد، فقد توفي الأب والابن لم يتعد الرابعة من عُمُره، فتركه يتيمًا تحت كفالة والدته التي توسَّمت فيه بوادر النبوغ فرشَّحته بكل ما تملك لنيل العلم النافع رغم قسوة ظروف الحياة ومرارة العيش، هذه الأم الرءوم هي: مَامَة سَتِّي بنت الحاج سعيد بن عدون بن يوسف بن قاسم بن عمر بن موسى بن يدَّر، من عائلة آل يدر ببني يسجن، وتعتبر هذه الأم الفاضلة بحقٍّ من الأمهات المكافحات وقد بذلت كلَّ جهدها في سبيل تنشئة ابنها التنشئة الصالحة، وقديمًا قال الشاعر:

وَيَنشَأُ نَاشِئُ الفِتيَانِ مِنَّا عَلَى مَا كَـــانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

وَمَـــا دَانَ الفَتَى بِحِجًى وَلَكِن يُعَلِّمُهُ التَّدَيُّنَ أَقرَبُوهُ

ويقول عنها المؤرخ الأستاذ محمد علي دبوز: " لقد كان لوالدة القطب أعظم الجهد فيه بوراثتها الشريفة، فكانت هي السبب في اتجاه القطب إلى العلم بعد وفاة والده، فلولاها لاتجه اتجاهاً مادياً يُودي بنبوغه كما أودت المادة والجهل بنبوغ كثير من اليتامى وأبناء الأمهات الجاهلات"[2].

فحينما بلغ محمد بن يوسف أطفيَّش الخامسة أدخلته أمه في كُتَّاب المسجد لحفظ القرآن، فسطع نجمه أمام أترابه، حيث لم تمر ثلاث سنوات حتى كان الفتى اليافع قد حفظ القرآن الكريم بكامله حفظاً جيداً عن ظهر قلبٍ وهو لم يبلغ بعدُ ثماني سنوات.

لقد فتح هذا النبوغ والذكاء الخارق مع الكفالة الطيِّبة الشَّهية للفتى محمد، فسارع لحضور حِلقِ العلمِ في المسجد وفي بعض دور العلماء ــ مع قِلَّتهم على عهده ــ، فملأ منها بعض

---

[1] – هكذا تذكر معظم المصادر ولا أدري بالضبط سببا غير هذا لانتقال والد القطب إلى مدينة غرداية، وقد اشتهرت عادة نفي الدعاة والعلماء قديمًا من قُراهم بسبب تنشي الجهل والعصبية.

[2] – ينظر: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، المطبعة التعاونية، 1965م، ج1 ص290 وما بعدها.

وضَابِه إلاَّ أنها لم تشف غليله، إذ لم يأخذ منها الشيء الكثير بل انتهى إلى المبادئ فقط، فمن أخيه الأكبر إبراهيم بن يوسف[1] أخذ مبادئ النحو والفقه، وعن الشيخ سعيد بن يوسف وينتن[2] تلقى مبادئ المنطق، وكان يحضر حلقة الشيخ عمر بن سليمان نوح[3] مع أخيه إبراهيم، وحلقة الشيخ الحاج سليمان بن عيسى آل الشيخ[4] في دار التلاميذ اليسجنيين.

وقد كان لأخيه إبراهيم الأثر الكبير والفعال في تثقيف شخصية القُطب، ويمكننا أن نستدل على ذلك بما كتبه تلميذه أبو اليقظان، إذ قال: " لما رجع أخوه الشيخ الحاج إبراهيم من المشرق العربي من عُمان ومصر وهو مملوء بأوسع المدارك كما مر بيانه، إذ احتضنه تعليماً وتثقيفاً، فوجد منه بحراً زاخراً، عذباً يروي غلته من العلم والمعرفة، فأخذ حظه منه في سائر العلوم، ثم تفرغ للتدريس والتأليف، وصرف قوة شبابه فيهما إلى آخر عمره"[5].

وعلى ضوء هذا فإن أخاه الحاج إبراهيم، هو من كوَّن فيه الرغبة الخالصة في المعرفة مع التوجيه السليم، حيث درس عليه العلوم الشرعية كالعقيدة والفقه، وعلوم القرآن والمنطق

---

[1] – إبراهيم بن يوسف: الأخ الأكبر القُطب، تلميذ الشيخ عبد العزيز الثميني، وجد أبو إسحاق إبراهيم أطفيَّش (ت: 1303هـ/1886م)،
ينظر بتفصيل: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ج2 ص71.

[2] – سعيد بن يوسف وينتن: من حكماء مزاب على عهده، ناصر القُطب في نهضته العلمية بعد نبوغه، (حي في: 1267هـ/1847م)،
ينظر بتفصيل: نفسه، ج3 ص387.

[3] – عمر بن سليمان نوح: من علماء بني يسجن، خلُف بنتًا فاضلة تزوَّجها القُطب فوهبت له الخزانة التي ورثتها عن أبيها، (ت:1292هـ/1875م)، ينظر: نفسه، ج3 ص643.

[4] – سليمان بن عيسى: من علماء بني يسجن وأبطاطا، تلميذ ضياء الدين الثميني، وصاحب مدرسة علمية رائدة (حي في: 1265هـ/1848م)، ينظر: نفسه، ج3 ص433 وما بعدها.

[5] – ينظر: ملحق السير، إبراهيم أبو اليقظان، ج3 ص 153 وما بعدها، مخطوط.

والتاريخ، ثم إن أحاد قد منح له كل كتبه التي جاء بها من المشرق العربي، فدرسها دراسة علمية وقرأها من دون أستاذ حتى تمكن فيها كل التمكن، وفقه مسائلها وأدرك أسرارها.

بعد ذلك شمر امحمد على ساعد الجد بعزيمة لا تعرف الكلل ولا الملل، يدفعه في ذلك ذكاءه الحاد وذاكرته الوقّادة مع رغبة في طلب العلم لا تعرفُ الحدود.

نشأ الشيخ أطفيّش عصاميًّا مُعتمدًا على نفسه في طلب العلوم فلم يسافر لتحصيلها بل جعل دأبَهُ الحرص الشديد على اقتناء الكتب واستنساخها لنفسه، مجتهدًا في طلبها من كلّ البُلدان، رغم ضيقِ ذات اليد وبُعدِ المسافات، وقد أقبل على المكتبات يلتهم كنوز المعرفة من بطونها، وساعدته في ذلك بعض الظروف فمن حسن حظه أن دعاه نجل الشيخ عبد العزيز الثميني وفتح له خزانة والده[1]، ثم وهبت له بعد ذلك زوجته الصالحة عائشة نوح[2] الخزانة التي ورثتها عن أبيها الذي كان عالما، بهذا وجد القطب نفسه أمام عدد من خزائن الكتب، فلم تتق نفسه إلى الرحيل خارج الوطن طلبا للعلم مكتفيا بما حوله من الكنوز.

نبوغـــه:

لم يكد القُطب يبلغ السادسة عشرة من عُمره حتى جلس للتدريس والتأليف، ولّما بلغ العشرين صار عالم وادي مزاب، ثم في كهولته بلغ درجة الاجتهاد، كما يذكر ذلك بنفسه في كتابه شامل الأصل والفرع، ولا أدل على ذلك من نبوغه النحوي، بحيث استطاع أن ينظم كتاب المغني لابن هشام في خمسة آلاف (5000) بيت وعمره لا يزيد على ستة عشرة (16) سنة.

---

[1] – خزانة الشيخ ضياء الدين الثميني هي المعروفة اليوم بمكتبة الاستقامة ببني يسجن، غرداية، الجزائر.

[2] – عائشة نوح: (ت: 1357هـ/1938م) من عالمات بني يسجن، أخذت العلم عن والدها وعن زوجها القُطب الذي وهبت له خزانة أبيها؛ ينظر بتفصيل: معجم أعلام الإباضية، ج3 ص499.

وفـــاته:

توفي القُطب ــرحمه اللهــ بعد عمر طويل قضّاه في الطاعات، وقد شهد له جميع من عرفوه من العلماء الأعلام بالرسوخ في العلم، توفّي بمرضٍ دام أسبوعًا و لم يمرض من قبله بمرض معجزٍ، بعد أن قضى قرابة القرن في الجهاد العلمي والإصلاح الاجتماعي، عن عُمرٍ يناهز 96 سنة.

وتذكر بعض المصادر أنه كان من السبعة المقتولين بالسم سنة 1914م، إذ وضع له أحد العملاء الفرنسيين سُمًّا في حذاءه تسبب في وفاته بعد أسبوع[1]، وتوفي يوم السبت 23 ربيع الثاني 1332هـــ/ مارس 1914م).

معهده:

أنشأ القُطب عام 1253هـــ/1837م معهدًا للتدريس في بني يسجن هي في الأصل داره: ثم دخل حلقة العزابة، وقد تعرض للنفي من بلدته إلى بلدة بنورة (آت بونور) ومكث بها حوالي عشر سنوات ألف فيها كتبا كثيرة، وتخرج عليه في الفقه بها كثير من الطلبة، ولما عاد إلى بلدته خلف الشيخ الحاج محمد بن عيسى ازبار في مشيخة المسجد في: 25 ديسمبر 1878م/1296هـــ.

تخرج على يديه عشرات من التلاميذ، أصبحوا فيما بعد من أبرز العلماء وأجل الشخصيات المجاهدة والداعية، وقد انبثُوا في معظم أقطار المغرب والعالم الإسلامي، من مْزاب وجربة ونفوسة وعُمان، أشهرهم: سليمان باشا الباروني النفوسي[2]، وسعيد بن تعاريت الجربي[3].

---

[1] – لم ينفرد بهذه الرواية إلاّ الشيخ حمو عيسى النوري، نقلا في رواية عن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم أطفيش، ينظر: حمو عيسى النوري، نبذة من تاريخ المزابيين، ج1 ص326.

[2] – سليمان باشا الباروني: من زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة بليبيا، عالم وزعيم مجاهد وأديب، (1870م/1940م)، ينظر بتفصيل أكثر: معجم أعلام الإباضية، ج3 ص426 وما بعدها.

[3] – سعيد ابن تعاريت: من شيوخ جزيرة جربة البارزين، صاحب "رسالة في تراجم علماء الجزيرة" (ت: 1289هـــ/1872م)، ينظر: نفسه، ج3 ص375.

ومنهم أيضًا: إبراهيم أبو اليقظان[1]، وأبو إسحاق إبراهيم أطفيّش الجزائري[2]، وبابكر بن الحاج مسعود[3]، وصالح بن عمر لعلي[4]، وصالح بن يحيى بن الحاج سليمان آل الشيخ[5]، وأحمد بن الحاج إبراهيم حميد أوجانة، والحاج عمر بن حمو بكلي[6]، والحاج ناصر بن إبراهيم الداغور، ويحي بن صالح باعمارة[7]، والحاج عمر بن يحيى[8]، ومحمد بن صالح بن يحي الثميني[9]، وإبراهيم بن بنوح مطياز[1]، وصالح بن الحاج محمد الداودي، وغيرهم..

---

1 – إبراهيم أبو اليقظان: (1888م/1973م) من أعلام الجزائر في العصر الحديث، يعتبر شيخ الصحافة الجزائرية المجاهدة، أصدر ثماني جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية بين 1926 و1938م. ينظر: نفسه، ج2 ص52 وما بعدها.

2 – أبو إسحاق إبراهيم أطفيش الجزائري: (1886/1965م)، من أعلام الجزائر والعالم الإسلامي، عالم وسياسي ومجاهد، وهو شيخ المحققين، من مؤسسي حزب الدستور التونسي، ومؤسس مجلة "المنهاج" بمصر، له تآليف وتحقيقات لكتب عديدة، ينظر: نفسه، ج2 ص44 وما بعدها.

3 – بابكر بن الحاج مسعود: (ت: 1325هـ/1907م) قاضي بالمحكمة الإباضية بغرداية، يعد من بين تلاميذ القُطب النابغين. نفسه، ج2 ص133.

4 – صالح بن عمر لعلي: (1870/1928م)، من أجلة علماء بني يسجن ومزاب، من أبرز تلاميذ القُطب وقد خلفه في ميدان الإصلاح والنهضة العلمية الحديثة، ينظر: نفسه، ج3 ص475 وما بعدها.

5 – صالح بن يحي آل الشيخ: (ت: 1948م)، من رجال بني يسجن الثوريين والوطنيين البارزين، العضد الأيمن للشيخ عبد العزيز الثعالبي وأحد مؤسسي الحزب الحر الدستوري التونسي، ممن كان له السبب في نجاح مهمة الحزب خاصة في جمع التبرعات . نفسه، ج3 ص487 وما بعدها.

6 – عمر بن حمو بكلي: (1837/1922م)، من أعلام بلدة العطف البارزين، ومن خيرة طلبة القُطب، وهو صاحب آثار ومواقف تاريخية مشهودة. ينظر: نفسه: ج3 ص632 وما بعدها.

7 – يحي بن صالح: (1867/1938م)، من مدينة مليكة بمزاب، وهو قاضيها المفوض بتعيين من شيخه القُطب، استقر في منصبه مدة 36 سنة و لم يُنقَض له فيها أيُّ حُكم. ينظر: نفسه، ج4 ص964.

8 – الحاج عمر بن يحي: (1858/1921م)، من أعلام القرارة ومزاب، ومن بين أنجب تلاميذ القُطب، يعتبر "معهد الحياة" امتداد لمعهده الإصلاحي. ينظر: نفسه، ج3 ص654 وما بعدها.

9 – محمد بن صالح بن يحي الثميني: (1897/1970م)، أحد أفذاذ بني يسجن ورجالها المخلصين، ومن الوطنيين البارزين، عضو اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، ومبعوث الحكومة المؤقتة الجزائرية إلى أمريكا والمغرب. ينظر: نفسه، ج4 ص803 وما بعدها.

لقد أفرغ القُطب من خلال معهده كل جهده في إصلاح سلوك المجتمع ومحاربة الآفات الاجتماعية دون كلل في كل لحظة، وكان هدفه الأول هو خدمة الإسلام قولاً وعملاً، فالإسلام في نظره هو منهج للحياة التي أوجدها الله في طبيعتها الفطرية، إذ يقول الله عز وجل: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" سورة الروم، الآية 30.

منهجه في التدريس:

يعتمد منهج القطب في التدريس على استغلال الوقت والتركيز على التلقين، بحيث تستمرُّ دروسه طيلة أيام الأسبوع من الضحى إلى الزوال إلاَّ يوم الجمعة، ثم يزيد دروسًا في المساء بعد العصر.

لا يدرِّس القُطب في الليل إلاَّ الغُرباء والنجباء والمتفوقين، لأنه كان في العادة يخصص الليل للتأليف والإجابة عن الرسائل والاستفتاءات وغيرها، وكان مع ذلك متفانيًا في التعليم فقد تصل دروسه إلى أزيد من عشر دروس مختلفة التخصصات في اليوم الواحد.

قد يستعمل القُطب اللسان البربري المحلي "اللهجة المزابية" عند الاقتضاء، ولا يحاسب تلاميذه على الغياب أو الإبطاء، وإذا رأى منهم تعبًا روَّح عنهم بما يدفعهم إلى النشاط والتركيز، كما كان يولي اهتمامًا بالغًا لأسئلة تلاميذه فيكتبها ويحقق مسائلها، ولا يعجزه شيء عن الرجوع إلى المصادر المختلفة حتى أثناء الدرس.

لقد فتح منهج القُطب في التدريس الباب على مصراعيه لجحافل الطلبة الذين تهاطلوا عليه من كلِّ مكان طلبًا للعلم النافع، وأمام ضيق ذات اليد لم يستطع القطب استقبال كلّ من طلب الدراسة عنده[2]، ومع ذلك فقد تخرَّج على يديه معظم روَّاد الحركات الإصلاحية في مزاب وتونس وليبيا وعُمان كما أسلفت.

---

[1] – إبراهيم بن بتوح مطياز: (1885/1981م) من علماء بني يسجن النابغين، من أنصار نادي الترقي لتابع جمعية العلماء، وله كتاب "تاريخ وادي ميزاب". ينظر: نفسه، ج2 ص19 وما بعدها.

[2] – ينظر تيسير التفسير، ج6 ص49. والسلاسل الذهبية، إبراهيم حفار، مخ، ص41.

مكانته العلمية:

لقد سطع نجم القُطب مبكّرًا في سماء مزاب والجزائر والعالم الإسلامي، وساهم بذكائه وحسّه الإسلامي المرهف في تحسيس المسلمين بأهمية العلم وضرورته، وكذا بخطورة الاستعمار وسياسته في تجهيل الشعوب وجعلها تابعة له، فعرف المنصفون مكانته العلمية فقدّروها حقَّ قدرها، وتسارعوا إلى لقائه وإرسال وفود الطلبة إليه، حاملين معهم الهدايا والكتب القيمة من سادتهم ووجهائهم.

فقد أهدى إليه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني نيشانًا عندما حل لغز الماء، في مسابقة وقعت بين معاصريه من العلماء، فقال رجال الأكاديمية الفرنسية: "نحن أحق وأولى من تركيا في تكريم العالم أطفيَّش.."، فأعطوه وسام الاستحقاق: "السعفة الذهبية" (la palme académique).

وقد كانت للقطب مع سعة مداركه مراسلات إلى أبعد الآفاق الإسلامية، فله رسائل مع سلطان زنجبار "برغش" الذي كان يدفع له منحة شهرية ويشارك في حركة النهضة بطبع المؤلفات الإباضية، كما كانت له مراسلات كثيرة مع أعلام الفكر الإسلامي لاسيما أهل عُمان إذ تلتقي سنة 1298هـ/1881م نسخة من "بيان الشَّرع" لمحمد بن إبراهيم الكِندي العُماني، وهذه الموسوعة تحتوي على 71 مجلداً، وأخرى من "قاموس الشريعة" لجميل بن خميس السعدي التي تحتوي على 92 مجلداً.

ومن هنا فإن جلَّ العلماء الذين عرفوه قد شهدوا له بالتفقه والاجتهاد، وهذا الأخير قد ظهر جليًّا في شرحه لمتن كتاب النيل للعلامة عبد العزيز الثميني، وعلى أية حال فإن كتاب "شرح النيل وشفاء العليل" يعد موسوعة فقهية، فالقطب ـ رحمه الله ـ قد عالج فيه كل القضايا الفقهية بنظرة إسلامية تقوم على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وآراء المذاهب الإسلامية جلها، هذا وإن القطب لا يأخذ الآراء الفقهية إلا بعد نقدها وغربلتها حتى يحكم لها أو عليها ولو كان هذا الرأي من مذهبه، وفي هذا يقول الأستاذ يحيى بكوش: "إن القطب يحكم مطالعته الكثيرة، إذا وجد بعد ذلك في المسألة ذاتها رأياً لإمام

أو شواهد تؤيد موقفه في كتاب ولو كان مخالفه في المذهب لا يتردد في توجيه الحمد لله تعالى على توفيقه إليها".

أما بالنسبة لمنهجه في شرح كتاب النيل فإنه يورد النص الأصلي من الكتاب فيشرح الكلمات الغامضة ويعربها في بعض الحالات ويزيل إبهامها، وبعد ذلك يقدم الأدلة الشرعية والنقلية، ويقيم المسألة من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأراء المذاهب الإسلامية.

إن شرح كتاب النيل يوازي الأمهات الفقهية الكبرى، بحيث أعطى دفعةً جديدة للمذهب الإباضي خاصة، والفقه الإسلامي في عصرنا هذا، ومن هنا قيل إن شرح النيل وشفاء العليل، هو موسوعة فقهية كبرى تقف جنباً إلى جنب مع الموسوعات المذهبية الأخرى الذي تتجه إليها أنظار العلماء والباحثين من جميع البلدان.

مؤلفـــاته:

لقد بلغ عدد مؤلفات القُطب أكثر من مئة مؤلف في شتى العلوم: الأخلاق، والأصول، والبلاغة، والتفسير، والتجويد، والتوحيد، والتاريخ، والحديث، والحساب، والرسم، والسير، والطب، والصرف، والفقه، والعروض، والفلك، والفلاحة، والفرائض، والفلسفة، واللغة، ومصطلح الحديث، والمنطق، والنحو، والمراسلات المختلفة.. ولعلي أذكر هنا أهم وأبرز مؤلفاته:

أ – علم التفسير:

- هيمان الزاد إلى دار المعاد، مط، ويقع في 13 مجلدًا.
- داعي العمل ليوم الأمل، مخ.
- تيسير التفسير، مط، يقع في 13 جزءًا.

ب – التجويد:

- تلقين التالي لآيات المُتعالي، مخ.
- جامع حرف ورش، مط.

ج – الحديث والسيرة:

- ترتيب الترتيب، إعادة ترتيب مسند الربيع بن حبيب ﷺ، مط، طح.
- وفاء الضمانة بأداء الأمانة، مط.
- جامع الشمل في حديث خير الرسل ﷺ، مط.
- السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة، مخ.
- المغسول من أسماء الرسول، مط، طح.
- رسائل الصلاة على النبي ﷺ، مخ.
- شرح نونية المديح، مخ.

د – الفقه وأصوله: وهو أوسع مجالات تأليفه.

- فتح الله: شرح شرح مختصر العدل والإنصاف، مخ، في 12 مجلدا.
- جامع الوضع والحاشية، مط. طح.
- شامل الأصل والفرع، مط. طح.
- شرح كتاب النيل وشفاء العليل، مط. طح.
- إطالة الأجور وإزالة الفُجور، مط.
- الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص، مط.
- حكم الدخان والسعوط، مط.
- حي على الفلاح (وهي حاشية على كتاب الإيضاح)، مخ.
- القنوان الدانية في مسألة الديوان العانية، مط. طح.
- أساس الطاعات لجميع العبادات، مط.
- كتاب التحفة والتوأم في الفرائض، مط، طح.
- شرح كتاب الزكاة، مخ.

هـ – التوحيد وعلم الكلام والفلسفة:

- شرح عقيدة التوحيد، مط، طح.

- الحجة في بيان المحجة في التوحيد بلا تقليد، مط، طح.
- فتح الباب للطلاب، شرح معالم الدين، مخ.
- إزهاق الباطل بالعلم الهاطل، مط، طح.
- الجنة في وصف الجنة، مط، طح.
- الرد على الصفرية والأزارقة، مط، طح.

و- اللغة العربية وعلومها:

- نظم متن مُغني اللبيب، في 5000 بيت، مخ، نظمه وهو ابن 16 سنة.
- بيان البيان في علم البيان، مخ.
- إيضاح الدليل إلى علم الخليل، مخ.
- ربيع البديع في علم البديع، مخ.
- تخليص العاني من ربقة جهل المثاني، مخ.
- كتاب الرسم في تعليم الخط، مط، طح.

ز- التاريخ:

- رسالة موسعة في تاريخ وادي ميزاب، مخ.
- الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل ميزاب، مط، طح.
- مسائل السير، مط، طح.
- كشف الغمة، مط، طح.
- الإمكان في ما جاز أن يكون أو كان، مط، طح.

حـ - الفلك والحساب:

- مسلك الفلك، مخ.
- شرح القلصادي، مخ.

ط - تآليف مختلفة:

- تحفة الحب في أصل الطب، مط.

- النحلة في غرس النخلة، مط.
- شرح لغز الماء، مط.
- أجور الشهور على مرور الدهور، مط.
- الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، مط، طح.

أخلاقه وجهاده التربوي:

إن الدعوة الإسلامية التي طالما دعا إليها الشيخ أطفيّش تعود إلى إيمانه القوي بنور الإسلام، لأن فضيلة التقوى هي أصل مكارم الأخلاق لأنها نابعة من طهارة القلب الذي لا يأتي الناس، ولا تفتر إرادته المخلصة أمام الحواجز التي يتلقاها، قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك". أخرجه أحمد والترمذي، ويقول الله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مُسلمون" آل عمران 102.

كان القطب رحمه الله يخاف ربه ويرجوه في كل شيء في قوله وعمله ودعوته الإصلاحية التي رفع لواءها، وهكذا نجد تلميذه أبا اليقظان يصف لنا شمائله الأخلاقية قائلاً : "كان شديد الوطأة على الفساق والعصاة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، شفوقاً على الفقراء والمساكين، كريم النفس، سخي اليد، عطوفاً على الملهوف، يفكر تفكيراً إنسانياً في أوسع آفاقه، شديد الاهتمام بأحوال العالم الإسلامي يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، عاملاً بمقتضى الأثر كل من قال وآمن بحق الشهادتين لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو أخي في الإسلام، تلزمني نحوه حقوق كثيرة، أولها النصح في الله، يقول الله تعالى: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ" (التوبة، 71) "[1].

أمَّا الجوانب الأخرى من شخصية القطب المتمثلة في المعرفة العلمية الصحيحة، بحيث أنه أدرك البعد العميق للعلم الصحيح ما دام يسعى إلى سعادة الدنيا والآخرة، يقول ـــرحمه

---

[1] - ينظر: ملحق السير، إبراهيم أبو اليقظان، ج3 ص 154 وما بعدها، مخطوط.

الله_ الورع بالعلم هو عماد الدين وهو الكف عما يوجب النار، إذن فالعلم الصحيح عنده يجب أن يكون مبنياً على التقوى وإخلاص النية لله عز وجل خدمة القرآن الكريم والسنة المطهرة تدريساً وتأليفاً وسلوكاً، وهذا لن يكون إلا لمن التزم بالقيم الأخلاقية الإسلامية العالية وحارب الجهل مهما كانت طبيعته، وهو الأمر الذي لا يحصل إلا لمن اكتسب أمهات الكتب الدينية والعلمية والمنطقية.

وعلى ضوء هذا فإن الشيخ أطفيّش _رحمه الله_ استطاع أن يملك مكتبة عظيمة جداً، بالرغم من الحواجز المادية والطبيعية والبشرية التي تقف أمامه آنذاك، يقول الأستاذ محمد علي دبوز: "وكانت مكتبته تحتوي على آلاف من نفائس الكتب، لقد استطاع بجده وعزيمته الفولاذية وغرامه وشغفه بالعلم أن يملك من الكتب النفيسة في أعماق الصحراء في وقت الفتن وصعوبة المواصلات، وقلة المطابع ما لم يملكه أغلب العلماء الجامعيين اليوم"، إن امتلاك هذه المكتبة العظيمة من القطب رحمه الله لهي دليل كبير على شغفه بالعلم وخدمته، لأن هذا العلم الصحيح لا يقل عن الجهاد بالنفس، ولنتأمل هذا الحديث الشريف: (عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد قال: رسم المداد في ثوب أحدكم إذا كان يكتب به علما كالدم في سبيل الله، ولا يزال ينال به الأجر مادام ذلك المداد في ثوبه) -جامع الصحيح مسند الربيع بن حبيب-.

بناء على هذا الحديث الشريف نقول: إن القطب رحمه الله قد شمر عن ساعده، فجد كل الجد في البناء التربوي حيث تمكن من إنشاء معهد إسلامي في مدينة بني يزقن محاولاً بذلك إصلاح المجتمع وتربيته تربية إسلامية تقوم على أخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية، وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم، والجدير بالملاحظة أيضا هو أن القطب _رحمه الله_ قد شخص تلك الأخلاق الإسلامية في سلوكه وسلوك طلابه الذين عاشوا الإسلام عقيدة وعبادة وسلوكاً، وسخروا كل طاقاتهم الفكرية والمادية لإعلاء بناء الإسلام، وهكذا فإن الطلبة الذين تخرجوا من معهد الشيخ أطفيّش حملوا مشعل النهضة الحديثة في العالم الإسلامي.

جهاده الاجتماعي:

إن القطب ـرحمه اللهـ قد سلك نهج الصالحين العاملين في جهاده الإسلامي، إلا أن الوصول إلى هذا الطريق الإصلاحي ليس بالأمر الهين، نظراً إلى سعي معارضيه الذين حاربوه وضايقوه في جهاده، فطالما استفزوه في إصلاحه ليلاً ونهاراً، فشعر بأن دائرة السوء تسعى بكل قواها كي تحطمه وتنهي نهضته الإصلاحية في مهدها، كما بين ذلك في رسالة بعثها إلى بعض إخوانه العُمانيين قائلا: (فسلامٌ على الشيخ العالم عبد الله بن حميد والشيخ الفهامة عيسى بن صالح الفارسي من كاتبه أحمد بن الحاج يوسف، أعذرني يا أخي في تأخير الجواب بعض التأخر وما ذلك إلا لأهوال عظام من النصارى ومن أهل بلدي..)[1].

لاشك أن المجتمعات البشرية لا ولن تخلو من الصراع بين رجال الفضيلة ورجال الرذيلة وبين أهل الحق وأهل الباطل، إلاَّ أن عزيمة الصادقين هي من يكون لها الغلبة في النهاية لأن الباطل ساعة والحق إلى قيام الساعة.

من هنا يتبين لنا من خلال استعراض المسار التاريخي للأحداث التي واكب القُطب أطفيِّش معظمها، أن هذا الأخير قد خاض معركة الكفاح الاجتماعي لعدة سنوات مبيناً المنهج الإسلامي الصحيح، رافضا كل مظاهر الجمود الفكري والتعصب المذهبي، داعياً إلى العلم النافع وتطهير النفوس من أدناس الجهل والتخلف، مجاهًا في جهاده الاجتماعي مختلف الأعداء حتى من اشترى الاستعمار ضمائرهم من ضعاف النفوس، ممن سخَّرهم هذا الأخير لمجابهة القُطب في جهاده الإصلاحي.

محاربته للاستعمار الفرنسي:

إن الشيخ أطفيِّش رحمه الله يمثل الجبهة الصلبة المعارضة لفرنسا عند وصولها إلى وادي مزاب، وكان يدعوا إلى الجهاد وعدم التعامل معها مادياً وعسكرياً، وحتى تجارياً، وهكذا فإن الجنرال الفرنسي "دولاتور" قد سجنه في نوفمبر 1882م مباشرة بعد وصوله إلى

---

[1] - احمد بن يوسف أطفيِّش، كشف الكُرب، طبع وزارة التراث، سلطنة عُمان، ط1، 2000، ج1، ص 86.

وادي مزاب بأمر من الوالي العام الجزائري ليُقنع العزابة بعدم جدوى وفاعلية مقاومتهم لإلحاق مزاب بالاحتلال الفرنسي، ناسين أو متناسين أن القُطب يعتقد جازمًا أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، مردِّدًا هذه العبارة الأخيرة في كلّ مرة معتزًّا بالإسلام أيما اعتزاز.

ومن طريف ما يروى عن القُطب أن وفداً فرنسيًّا زاره في الدار التي يدرس فيها وذلك قصد تسليمه وسام الاستحقاق عن حله لُغز الماء الذي حيَّر العلماء، وكان ضمن هذا الوفد القائد العسكري العام الفرنسي في الجزائر ومجموعة من الضباط الفرنسيين والقساوسة، وحينما دخلوا عليه الدار وجدوه جالساً يدرّس طلاّبه، ولما وقفوا أمامه قام القُطب واعتلى بعض الدُّرُج، فطلب منه حاكم التراب أن ينزل ليسلمه رئيس الوفد النِّيشان، فأجابه القُطب قائلاً: "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه"، وعندما دنا منه أحد الحشود ليعلق له الوسام على صدره أرخى له القطب طرف بُرنُسه من الأسفل وقال له علّقه هنا..

وكان يستدعى مرّات إلى التحقيق بسبب تجرؤه المستمر على السلطات الاستعمارية في بلدته وسائر قرى مزاب، حتى إنه فُتّش وسُئل مرّات عن وضعه الطابع البريدي مقلوبًا إلى الأسفل على أظرفة البريد، وقد يبدوا للبعض بأن هذا السلوك الأخير تصرف ساذج، إلاّ أنه في حقيقة الأمر شكل من أشكال الرفض الصريح والمتواصل لكل أشكال تواجد المستعمر.

رحلاته وأسفاره:

لما ذاع صيتُ القُطب قافت الطلبة عليه من كل مكان، وطلب الملوك والأمراء لقائه كذلك، فأرسل له الكثير منهم يطلبون تشريفه بزيارة بلدانهم.

إلاّ أنّ اشتغاله المستمر والمتواصل بالتربية والتعليم أخذا جُلّ وقته، فاستعاض عن الرحلات إلى الأمصار البعيدة بالمراسلات المختلفة إلى أولئك الملوك والوجهاء والأعيان، فمن خارج الجزائر راسل شخصيات من البحرين والحجاز، وعُمان ومصر وتونس وجبل نفوسة، والقُسطنطينية وبعض العواصم الأوربية، ولو جمعت تلك المراسلات لكونت مجلدات ضخمة فيها من أنواع المعارف والأخبار التاريخية فوائد كثيرة مهمة.

مع ذلك فهو يزور مدن وادي مزاب باستمرار لإلقاء الدروس والفتوى، مثل عادة زيارته لمدينة بريان التي غالبًا ما تكون مرّتين في السنة في الربيع والخريف، وهذا لإلقاء الدروس والوعظ والإفتاء.. كما زار مدينة القرارة مرارًا.

وقد زار القطب وارجلان (ورقلة) سنة 1320هـ/ 1902م، فتلقاه أهلها من خارج المدينة بطلقات البارود احتفاءً بوصوله إليهم، ومكث بها أسبوعين[1].

ويعود سبب قلة رحلات القُطب كما أسلفت إلى أوضاعه الشخصية، كاشتغاله منذ سنٍّ مبكرة بالتدريس الذي تطور من حلقات إلى طبقات، وما يتطلبه ذلك من التفرُّغ والتحضير الجيِّد، أضف إلى ذلك سياسة التضييق الممارسة عليه من طرف المستعمر الفرنسي وأذنابه والتي عانى من ويلاتها القُطب وطلبته الكثير، ولعل من أحقرها إجبارية طلب رخص التنقل بين قرى مزاب وخارجها.

رحلاته الحجازية:

تُجمع كل المصادر التي بين أيدينا اليوم على أن القُطب أطفيِّش قد حجَّ مرّتين في حياته أمَّا الأولى، فقد كانت حوالي سنة 1290هـ/1873م وهي التي يتردد ذكرها كثيرًا في مؤلفاته، وقد مكث في مكة مُجاورًا[2] سنة كاملة، درَّس خلال وجوده هناك كتاب: "السنوسية في عقائد المالكية"، وإن كان شرح هذا الكتاب من طرف القُطب لم يصل إلينا[3]، ثم دَوَّنَ في تلك الرحلة معظم ملاحظاته ولقاءاته مع الشخصيات والعلماء، وألّف

---

[1] – ينظر: إبراهيم بابزيز: كلمة ألقاها بمناسبة مهرجان القطب، حول رحلة هذا الأخير إلى وارجلان، أعمال المهرجان. مكتبة الحاج سعيد محمد، جمعية الشيخ أبي إسحاق لخدمة التراث غرداية، الجزائر.

[2] – عادة ما يلقّب الحاج المكث في الحجاز بالمجاور لبيت الله ومن هؤولاء تلقب الزمخشري صاحب الكشّاف بهذا فيقال له "جار الله الزمخشري".

[3]. يوجد متن السنوسية نظمًا في بعض الكتب الحجرية، أمّا شرحه من طرف القُطب فلم يصل إلينا بعد.. لقاء مع الحافظ الحاج سليمان بكاي، بمكتبة الاستقامة، بني يسجن، بتاريخ: 2007/07/17.

فيها كتابه الشهير في المنطق وهو: "إيضاح المنطق في بلاد المشرق"[1]، وقد كتب القُطب على وجه الورقة الأولى ما يأتي: "إيضاح المنطق في بلاد المشرق، ألَّفتُهُ في مكة، ولعلماء مكة تطاول إليه، وذلك في عهد الشيوخ الشافعيين دَحلاَن ومحمد حَسبيَ الله ورَحمَة[2]، والشيوخ الحنفيين عجمًا وعربًا، فمن العجم التركيين الشيخ محمد حقي بن علي بن إبراهيم[3] مؤلف "حزب الأبرار وحصن الأخيار" وغير ذلك، وكلهم محبُّون لي ولأموري"، وقد أعار القُطب هذا الكتاب لملك زنجبار سعيد بن علي الصقري وهذا بعد عودته من الحج ليقوم بطبعه على نفقته الخاصة، وهو ما ورد في عبارة صغيرة على جانب الورقة الأولى نفسها بخط القُطب نفسه وهي: "إلى الشيخ سعيد بن علي الصقري يطبعه ويردّه إلى مؤلفه احمد بن الحاج يوسف مع نُسخة من مطبعة، لأنه لما يُنسخ".

أما رحلته الحجازية الثانية فقد كانت سنة 1303هـ/1886م وقد كتب فيها "قصيدته الحجازية" وذكر فيها مسلك رحلته تلك إلى الحجاز ذهابًا وإيابًا، وأهم المدن التي نزل بها، والناس الذين اجتمع بهم في كلّ مرحلة، وقد عاد منها مع بداية سنة 1304هـ.

---

1. ويوجد هذا الكتاب مخطوطًا بمكتبة الاستقامة ببني يسجن، رقمه في الخزانة (1): 18، وفي الفهرس: 212، ويقع في 239 صفحة، قياس 27×19سم، كامل، وهو بخط القُطب أطفيّش ـرحمه اللهـ.

2. أحمد بن زيني دحلان: (1232ـ1304هـ/1817-1886م)، فقيه مكي مؤرخ تولى الإفتاء والتدريس بمكـة، وفي أيامه أنشئت أول مطبعة بمكة فطبع فيها بعض كتبه ومات بالمدينة، من تصانيفه: "الفتوحات الإسلامية". ينظـر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط11، 1995، ج1، ص130.

محمد حسب الله بن سليمان المكي الشافعي: (1244ـ1335هـ/1828ـ1917م)، فقيه أصولي، من آثاره: "الرياضة البديعة في أصول الدين وبعض فروع الشريعة"، وحاشية على مناسك الحج للخطيب الشربيني. ينظر: نفسه، ج6، ص152.

رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الحنفي: (ت: 1303هـ/1888م)، نزيل الحرمين، باحث، عالم بالدين والمناظرة، جاور بمكة وتوفي بها، له كتب منها: "إظهار الحق"، حزآن، وهو من أفضل الكتب في موضوعه. ينظر: نفـسه، ج3، ص18.

3. محمد حقي بن علي بن إبراهيم النازلي: (1301هـ/1884م)، فاضل متصوف من علماء "آيدين" توفي بمكة، لـه مؤلفات عديدة منها: "السوحات المكية" و"تفهيم الإخوان تجويد القرآن". ينظر: السابق، ج6، ص108.

أمَّا عن تاريخ الرحلة الحجازية الأولى ـنقلاً من ثنايا بعض مؤلفاته ـ فيقول: "..وكتابة العلوم بالقالب[1] فإنه أحدثت سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف (1138هـ) فتشاور علماء اسطنبول بينهم مرارًا واتفقت آرائهم على جوازها، وأفتى به قاضي القضاة عبد الله أفندي وأراده السلطان أحمد الغازي، ذكره الشيخ محمد حقّي بن علي بن إبراهيم التركي الحنفي في "منبع الحقائق" والتقيت معه في مكة عام ألف ومائتين وتسعين تقريبًا (1290هـ/1873م) وكان يُحبني ويقبل يدي في المسجد الحرام بحضرة الناس، حتى قام عليه الناس ونبَّهوه أنني لست من الأشعرية، فترك ذلك خوفًا منهم مع بقاء رغبته فيَّ.."[2].

ويقول عنها أيضًا في جوابه للعُقبي والشهير بـ"إن لم تعرف الإباضية": "..وإن لم تعرف الإباضية فقد عرفهم الشيخ إبراهيم حقّي العالم التُّركي المؤلف إذ خدمني في المسجد الحرام حتى حسدني أهل مكة وقد عرف أنّي إِبَاضِيٌّ وطلب أن أعطيه حكمة في علم الجدول"[3].

إلى أن يصل إلى القول: "..وإن لم تعرف الإباضية فقد عرفهم دَحلاَن وحَسبي الله الشَّافعيان، الحاضر أحدهما في إقرائي في المسجد الحرام تأليف السنوسي في التوحيد بحواشيه وأبحاثه وشروحه لجماعة في أُبَّهة عظيمة من أهل عُمان ومُضاب وأهل الجبل جبل نفوسة من أعمال طرابلس الغرب.." [4].

ويقول في كتاب تعليم الرَّسم: "أمَّا المصاحف الكبار فلا تغير عن الإمام وهي كتب كبار بخط غليظ جدا متفاسح السطور والحروف، لا تحتمل الحمل إلى المحاضر والكتاب، تجعل على محامل وقد شاهدتها في المدن الكبار بتلك الصفة ككتب السلطان في مصر وفي وكالة

---

[1]. يعني بداية العمل بالطباعة الحجرية.

[2] – ينظر: القُطب أطفيَّش، الدرر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، طح، ص240.

[3] – ينظر: القُطب أطفيَّش، إن لم تعرف الإباضية، طح، ص10 و11.

[4] – ينظر: نفسه، ص11 و12.

الجاموس للإباضية قرب مسجد ابن طولون في مصر جزء منها ولم يكن في رواقهم الذي في الجامع الأزهر وهو رواق لهم عند رواق المالكية في الجامع الأزهر قريبًا من رواق السعد التفتازاني وهو مالكي لا شافعي، ولذلك تراه يشرح كتب المالكية ويحشي عليها كما حشّى على شرح العضد على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه."[1]

وقد وقفت بعد ذلك على وثيقة تاريخية مهمَّة وشهادة من ابن الشيخ حمزة الرِّفاعي إمام المدينة نقلها عن والده مباشرة لبعض إخواننا المزابيين من الحجاج عندما زاروا المدينة المنورة وأرادوا الإطلاع على المزيد من أخبار القُطب حينما زار البقاع المقدسة والتقى بعلماء الحجاز، فقلت لابد من نقلها للأمانة التاريخية ليحصل بعض الفائدة العلمية لمن أراد الإطلاع عليها، وليطمئن الشَّاك ويتحقق من صحة المعلومات التي ذكرها القُطب عن إكرام أهل الحجاز له.

يقول كاتب الرسالة أحمد بن حمزة الرِّفاعي:

1/"..وبعد، لقد طلب مني بعض الأفاضل الإباضية أن أكتب لهم نبذة عن زيارة العلاَّمة الجليل الإمام الحاج الشيخ محمد بن يوسف الطفيش[2] الإباضي المزابي الجزائري حينما قدم إلى المدينة المنورة سنة 1298هـ ـعلى ما أذكرـ لزيارة قبر النبي ﷺ، فلبَّيتُ طلبهم بما سمعته من والدي المرحوم الشيخ حمزة الرفاعي المدني وظنًا الشافعي مذهبًا، الذي ترجم عنه في رحلته الحجازية المطبوعة سنة 1333هـ فضيلة العلم يدَّر الحاج أحمد[3] قاضي الإباضية في بلاد معسكر إيالة الجزائر عمالة وهران ـرحمه اللهـ.

---

[1] – ينظر: القُطب أطفيَّش، كتاب تعليم الرسم، طح، ص10 و11.

[2] – هو القُطب أطفيَّش نفسه.

[3] – للأسف لم أصل إلى معرفة هذا القاضي المزابي في بلاد معسكر، ولم أجد اسمه بين تلاميذ القُطب الذين قام بتعليمهم بأمر منه في مختلف مناطق تواجد المزابيين على غرار قصور وادي مزاب، غير أنه يبقى دون شك أنه من معاصري بني يسجن وذلك لاعتبارين أولهما: أن اللقب العائلي "يدَّر" لا يوجد إلاَّ بني يسجن، وثانيهما أنَّ معسكر عمرها تجار بني يسجن أكثر من غيرهم ولا زالوا فيها إلى اليوم.

تبيين للحقيقة

2/ هو أنه كان في عهد الدولة العثمانية من مآت السنين تعين أدلاء لوفود حجاج ضيوف الرحمن للقيام بمصالحهم وراحتهم وصيانتهم وزيارتهم لتلك المآثر الشريفة مدة إقامتهم وترحالهم.

يوجد وجرى ذلك في عهد الحكومة الهاشمية وكذا جرى ذلك في عهد حكومة الدولة العربية السعودية ـ حفظها الله وأيدها ـ.

3/ وقد كان نصيب السيد أحمد السَّمهُودي المدني ـ رحمه الله ـ دلالة القطر الجزائري وسائر أعماله دليلا رسميًّا بموجب تقرير خطي صادر من ولاة الأمر في ذلك الحين، وبعد وفاة السيد أحمد السَّمهُودي المذكور آل تقرير الجزائر رسميًّا إرثًا لبناته لأنه لم يُعقّب ولدًا ذكرًا له.

لذا كنَّ بنات المتوفي المذكور يوكلن أحد أقاربهن للقيام بزيارة الحجاج الجزائريين وسائر أعماله حسب المعتاد والجاري به العمل قديمًا وحديثًا.

فبعد وفات بنات السيد أحمد السَّمهُودي انحصر إرثه في أحد بناته وهي الشريفة فاطمة جدتي والدة والدي المرحوم الشيخ حمزة الرِّفاعي السالف الذكر الذي يتَّصل نسبها بالعلامة الجليل مؤرخ المدينة المنورة نور الدين علي بن أحمد السَّمهُودي مؤلف كتاب: "وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى" ومؤلف كتاب: "خلاصة الوفاء في أخبار قبر المصطفى ﷺ" المتوفى سنة 911هـ المدفون في بقيع الغرقد بالمدينة المنورة ـ رحمه الله ـ ثم آلت دلالة القطر الجزائري إرثًا رسميًّا لوالدي الراحل الشيخ حمزة الرفاعي المدني، ثم بعد وفاته آلت دلالة القطر الجزائري لورثته أولاده بموجب تقرير خطي رسمي من ولاة الأمر الذي لعبد الله أحدهم ومنهم أحمد بن حمزة الرفاعي المدني موطنًا الشافعي مذهبًا وإخوته الموجودين اليوم في قيد الحياة بالمدينة المنورة على سكانها أفضل الصلاة وأتم السلام.

4/ قد كان العلامة الجليل الشيخ الحاج محمد بن يوسف الطفيش ـرحمه اللهـ مدَّة إقامته نزيلاً ضيفًا عزيزًا مُحاطًا بحفاوة وإكرام ومن معه من الطلبة لدى والدي الراحل في دارنا بباب المجيدي لقربها من المسجد النبوي الشريف الذي كانت قديمًا نُزلاً لجميع حجاج الإباضية من ميزاب وذلك قبل أن تكون لهم دار وقف لسكناهم بالمدينة المنورة على سكانها أفضل الصلاة وأتم السلام.

* ملحوظة *

قد طلب الشيخ الحاج محمد بن يوسف الطفيش من والدي أن يُلقي درسًا تبرُّكًا من تفسير القرآن العظيم في المسجد النبوي الشريف.

وبما أن القاعدة الجارية المتبعة في عهد حكومة الدولة العثمانية هو أنه لا يسوغ لأي عالم يَقدُم من الخارج أن يلقي درسًا في المسجد النبوي الشريف إلاَّ بعد صدور الإذن له من مُفتي المدينة المنورة حينذاك.

فذهب والدي منفردًا لفضيلة مُفتي المدينة المنورة العلامة الجليل الشيخ محمد بالي المدني الحنفي ـرحمه اللهـ لطلب الإذن لضيفه الشيخ محمد بن يوسف الطفيش السالف الذكر، فكان سؤال الشيخ المفتي لوالدي ما هو مذهب ضيفكم؟ فكان جواب والدي: مذهبه إباضي، فأجاب الشيخ المفتي لوالدي: لا يسوغ لأي عالم يأتي من الخارج مذهبه خارجًا عن المذاهب الأربعة أن يدرِّس في المسجد النبوي الشريف كما هو الجاري والمعتاد.

فأجاب والدي ـرحمه اللهـ للشيخ المفتي: عندي ملحوظة وهي إذا استحسن نظر فضيلتكم عيَّنوا خلف درسه عُلماء، فإذا ظهر منه في درسه ما يخالف الكتاب والسنة، يَمنعوه حالاً، فوافق المفتي على طلب والدي وأذِنَ للشيخ الطفيش المذكور بالتدريس في المسجد النبوي الشريف، فابتدأ الشيخ الطفيش بتفسير آخر بتفسير آخر سورة البقرة الشريفة، "لله ما في السماوات والأرض" إلى آخر السورة فابتدأ ساعة واحدة في اليوم الأول وساعة واحدة في اليوم الثاني وساعة واحدة في اليوم الثالث وختمها بالدعاء

للإسلام والمسلمين، و لم يعترض عليه أحد من العلماء لمنعه، وكان موضوع درسه بالقرب من الموضع الذي يصعد إليه المؤذن ليبلغ إقامة الصلاة للمسلمين".

هذا ما سمعته من والدي ـرحمه اللهـ يقول محرره: ما أسعدها من رحلة من حرم إلى حرم، بقلم أحمد بن حمزة الرّفاعي المدني وطنًا الشافعي مذهبًا، خادم خدام الحرم النبوي الشريف ومنيره ـعفى الله عنهـ"[1].

هذا عن الرحلة الأولى، أمّا الثانية فقد كثر الحديث عنها وتضارب بعضه، خاصة فيما يتعلق بالأسباب الداعية إليها والوفد المرافق له وتفاصيل الرحلة وغيرها...، ذلك لأن القُطب ـرحمه اللهـ لم يفصل كثيرًا في قصيدته و لم يترك آثارًا نثرية تدل عليها مثلما فعل في الأولى، ولعلها ضاعت مع عوادي الزمن، إلاّ أنّ هناك من الملاحظات ما ورد في ثنايا قصيدته الحجازية المتطاولة، وهو ما يمكن أن نعلق عليه فنتثبت بذلك صحته.

ظروف الرحلة:

تذكر المصادر الشفوية المعتمدة أن من أهم بواعث رحلة القطب الثانية إلى الحجاز هو: تصحيحه للمفهوم الخاطئ الذي ساد مزاب ردحًا من الزمن، والذي كان يقضي بعدم السماح للمرأة بالسفر خارج مزاب إلاّ لضرورة قُصوى مُلحة كالعلاج مثلاً، أمّا ما سوى ذلك فلا، فأُسقِطَ بسبب ذلك الركن الخامس في الإسلام وهو الحج، طِيلة عقود من الزمن.

وللإشارة فإن هذه الظاهرة لم تكن بعيدة عن زمن القُطب فقد ذكر قبله بعقود قليلة الشيخ إبراهيم بن بحمان الثميني اليَسجني[2] هذه الظاهرة التي عرفها عصره بمزاب وما حولها، وقد أرجعها إلى تشبُّث الناس بعَرَضِ الحياة الدنيا ونقص الوازع الديني عندهم،

---

1. رسالة من الشيخ أحمد بن حمزة الرفاعي إلى قاضي الجماعة الإباضية في أيالة مُعسكر عمالة وهران، 3 صفحات، نسخة مصورة بحوزة الباحث.

2. إبراهيم بن بحمان: (ت: 1832هـ/1817م)، عالم جليل عاصر الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني، له مؤلفات عديدة ومراسلات تاريخية مهمة مع داي الجزائر حسن باشا الدُّولاتلي بخصوص قضية صالح باي. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص22.

فاضحًا تحجُّجهم وتستُّرهُم بانعدام الأمن في الطريق، قائلاً: "..هذا وإن الناس قد استخفوا بحق الله في الحج في هذا الزمان، فصار عندهم كأنه تطوعٌ وفضيلة، وأسقطوا فرضه وطرحوه بزاوية الهجران، وتقوّلوا فيه بعض الأقاويل الكاذبة، وتعلّلوا بالعلل الواهية الساقطة، فقالوا: إن طُرقه مشحونة بالآفات، مسدودة بالمخافات من كل الجهات، أولاً ينظرون إلى الناس في كل عام يرجعون من زيارة البيت والمقام سالمين الأجساد والأبدان، في كل سبيل وبلد من طوائف الدهر ونوائب الزمان؟! ...فلو قيل لهؤلاء إنكم قد وزنتم بمكة أو أقصى بلد منها مثلاً ألف درهم أو مائة دينار، لقطعوا إليها سَهل المفاوز وَوَعرَها آناء الليل وأطراف النهار، وخلعوا عن أنفسهم حينئذ ثياب العجز والكسل، وأسرعوا إليها المشي حُفاة الرؤوس والأرجل، وبلغوا إليها فرحين بلا مهمة وتوانٍ مستبشرين.."[1].

لعل القارئ يستدل من كلام الشيخ ابن يحمان على أن الناس بالفعل قد استخفوا بفريضة الحج بسبب الجهل ونقص الوازع الديني، وهو ما بقي عالقًا في اعتقادات الناس إلى زمن القُطب، إلاّ أنني لا أستبعد كذلك العامل الأمني فهو أحد الأسباب الفعلية المباشرة والقوية لتراجع قوافل الحجاج إلى بيت الله الحرام طيلة عقود من الزمن، فقد كانت بالفعل وفود الحجاج إلى الحجاز تعقد قبل انطلاقها في الرحلة أحلافًا وتجمع إليها ما أمكنها من القبائل في قوافل كبيرة يردون بها وحشية اللصوص والمغيرين الذين لا يرحمون صغيرا ولا كبيرًا، والذين لا يتورعون عن إزهاق الأرواح في سبيل سرقة كلّ ما خَفَّ وَغَلَى من متاع الحجاج المسافرين.

لقد اصطحب القُطب أطفيّش في رحلته هذه معظم تلاميذه النجباء المخلصين، كما أخذ معه زَوجَهُ مريامة فرطاس[2]، بعد أن استعان ببعض فَادِيه ممن هيَّأ له بغلاً يحمل هودج زوجه، ولعل من أبرز أنصاره وأقربهم إليه في هذه الرحلة الشيخ عمر بن حمو بكي

---

[1]. إبراهيم بن يحمان الثميني، مختصر المناسك ومهذب المسالك، مكتبة القُطب، بني يسجن، مخ، ص4، 5.

[2]. هي زوجة القُطب الثالثة، من عائلة فرطاس من بني يسجن، لقاء مع الحاج سليمان بكاي، 2007/07/17.

العطفي وفي رواية مع والده الشيخ حمو بن باحمد بكي العطفي، غير أني لم أجد ما يثبت ذلك، وقد تكفّلوا بتوفير معظم ظروف الرحلة ومنها الزاد والسلاح والحماية..، غير أن "ساعد القُطب الأيمن" الشيخ عمر بن حمو بكلي كما جاء ذكره ومدح خصاله في بداية القصيدة الحجازية[1]، قد كان له دور أساسي وفعال في نجاح هذه الرحلة الطويلة والشاقة، ولا شك أنّ سبب اعتماد القُطب على هذا الرجل كان لما يتمتّع به هذا الأخير من ذكاء وحصافة في الرأي مع البسالة والإقدام التي ورثها عن أبيه البطل الشيخ حمو بن باحمد.

ولا أدري إن كان مع الوفد المرافق للقُطب أناسٌ كثيرون من بني يسجن، إلاّ أن يكون قد اختار لموعد رحلته أقربهم إليه وأوثقهم صلة به، لأن الكثير من المعارضين لهذه الرحلة قد وقفوا له بالمرصاد خاصة في مسألة سفر الزوجة خارج مزاب حتى قيل إنّ هناك من استعد لإيقافه ومنعه من أخذ زوجه معه: حتى وإن اضطر في ذلك إلى استعمال قوة السلاح[2].

لقد ضَرَب القُطب لمرافقيه موعدًا هو ضحى يوم الخميس للخروج من يسجن ثم من مُزاب، وقد اختار وقت الضحى لاشتغال الناس بأعمالهم وبساتينهم، كما هي طبيعة أهل بلدته فمعظمهم يشتغلون بالفلاحة في بساتينهم الموجودة في الجهة الغربية من البلدة، في حين أن باب الخروج إلى الشمال هو الباب الشرقي، وبهذا انشغل عنه معارضوه عند انصرافه من بلدته، وتلقاه أصحابه مع زوجه خارج سور بني يسجن فحملوها في هودج على بغل كانوا قد أعدوه لذلك، وقد جاء ذكر صاحب الهودج والبغل في آخر القصيدة الحجازية وهو عيسى بن صالح[3]، كما دعا له الشيخ بالخير والبركة.

انطلق الركب في سِرّية تامة وتحت حراسة مشددة من مرافقي القُطب باتجاه بلدة بريان التي تبعد عن مزاب بـــ40كم إلى الشمال، ونجحت بذلك الخطة المُسطرة،

---

1. لقد مدحه القُطب كما مدح أهل قريته العطف، الأبيات من 5 إلى 10، ينظر: القصيدة الحجازية.

2. همَّ بذلك أفراد من أقاربها: ذكر لي ذلك الحاج سليمان بكاي، في نفس اللقاء بتاريخ: 2007/07/17.

3. لعله من آل عشّو من بني يسجن، ذكر لي ذلك الحاج سليمان بكاي، في نفس اللقاء بتاريخ: 2007/07/17.

وحُجبَ القُطب ـ بحفظ الله ـ عن عيون حرّاس أسوار المدينة ومن كل من يكيد له العَداء: ليصل إلى بريان في صباح يوم الجمعة.

وعن اسم بريان يقول القُطب: "ريَّان هو اسم لحافرها أضيف له البئر، أو معناه برٌّ قد ارتوى بوصف وموصوف.." [1]، ولعل القارئ سيلاحظ أن من عادة القُطب شرح أصل تسمية كل مدينة يترل بها بداية من بريان، ويفعل ذلك في كامل القصيدة الحجازية.

لم يكد يوم الخميس ينتهي ببلدة يسجن حتى كان خبر سفر القُطب مع زوجه إلى الحج قد بلغ أقاصي المدينة، فسارع المعارضون إلى جمع شتاتهم من أجل اللحاق بركب المسافرين قبل وصولهم إلى بلدة بريان، في تلك الأثناء كان القُطب ومرافقوه ينعمون بالراحة التامة استعدادًا لمواصلة الرحلة في تلك الليلة، وهم متيقّنون من أنّ المناوئين لاشك سيلحقون بهم، وفعلاً صار الأمر كذلك ووقع المحذور، حيث وصلت إلى بريان مساء الجمعة جماعة من الخيَّالة تطلب لقاء القُطب وتُلحُّ في الطلب.

استسمحهم وجيه القوم أو قائد البلدة قائلاً بأن القُطب ضيف بريَّان وهو متعبٌ الآن وسيرى في أمرهم في صباح اليوم الموالي، وفي رواية أخرى قال لهم بأن القُطب جالس يُفتي لأهل بريان في مسائل قدَّموها إليه، ولن يستقبل أحدًا من غير سكان بريان حتى يأتوا بجميع ما عندهم من المسائل؛ وقد جرت العادة أن يسافر القُطب إلى بريان مرتين في السنة من أجل إلقاء الدروس والإفتاء، ومن ثَمّ فإن حظهم من نصيب الشيخ قد حضر ولن يشاركهم فيه أحد من أهالي مزاب، فاقتنع الخيالة بذلك وجلسوا ينتظرون طلوع الشمس.

في تلك الأثناء كان القُطب ومن معه قد جددوا الرحلة إلى الشمال بعد أن حضَّر لهم أعيان البلدة الزاد والدليل الذي يفتح لهم الطريق باتجاه مدينة الأغواط التي وصلوها بعد مسيرة يوم وليلة.

---

[1] ينظر: القصيدة الحجازية، القُطب أطفيّش، البيتين 21، 22.

مرّ يومان على انتظار الخيّالة القادمين من مزاب لدورهم في مقابلة القُطب، حتى جاءهم الخبر بأن القُطب قد جدد الرحلة منذ يومين وهو الآن على مشارف مدينة الجلفة التي تبعد عن بريان بحوالي 270كم إلى الشمال، عندئذ سُقط في أيدي أولئك الخيالة ما دبّروا وخطّطوا، ولما علموا بأنه قد أحيط بهم استسلموا عائدين إلى مزاب وهم أذلة خانعين، لأن بُعد المسافة وقلّة الزاد والرفيق سيُجبرهم حتمًا على العودة من حيث أتوا؛ وبهذا طويت صفحة المعارضين لرحلة القُطب مع زوجه إلى الحجاز، ليُكمل بذلك ركب الحُجّاج بقية الرحلة بسلام.

لقد تلقى القُطب والركب المرافق له في كل محطة يصلون إليها كرمًا حاتميا، وحفاوة في الاستقبال والتوديع منقطعة النظير، وهو دون شك اعتراف بمكانته العلمية ومركزه الديني والاجتماعي المرموق، فحين دخل مدينة الأغواط استقبله أهلها بحفاوة كبيرة، ثم ما لبث أن التفّت به الجموع للتحية والسلام، واغتنم بعض الحاضرين فرصة وجوده لإلقاء بعض الأسئلة والاستفسارات في حضرته، فأجابهم القُطب مستبشرًا كعادته، مرتاحًا لسؤال الناس عن شؤون دينهم وتحيرهم عليه كحيرتهم على شؤون دُنياهُم.

أما عن اسم الأغواط فيقول القُطب: "تسمى كذلك لأن أرضها بعضه منخفض وبعضها الآخر عالٍ.."[1].

بعد مسيرة يوم وليلة دخل ركب القُطب مدينة الجلفة العامرة، فحضي وفده باستقبال كبير من سكانها لاسيما منهم جموع بني مزاب من التجار، فهم متواجدون بها بكثرة منذ قديم الزمان وخاصة منهم تُجّار بلدة العطف (تجنينت)، الذين انصهروا في المجتمع "التّايلي" وكوّنوا علاقات حميمة مع سكان المدينة وكذلك مع البدو الذين يقصدون محلات المزابيين بكثرة لشُهرتهم بالصدق والأمانة.

نزل القطب ومرافقوه ضيوفًا عند المدعو باحمد بن صالح السماوي[1] وهو من التجار المزابيين المرموقين بالجلفة، وقد استدعى هذا الأخير للضيافة أيضًا عنده بمناسبة

---

[1]. ينظر: القصيدة الحجازية، القُطب أطفيّش، البيت 34.

حضور القُطب ـ بعض أعيان المدينة وأشرافها ومنهم أشراف عرش أولاد نايل[2] وأشراف بن لحسن[3]، وأحد الكرماء الأسخياء ويدعى بلقاسم من أولاد بلّحرش[4] وغيرهم، وقد أمضى القُطب معهم ساعات طيبة، كما مدحهم طويلاً وذكر مناقبهم العديدة في قصيدته الحجازية.

وعن تسمية الجلفة يقول القُطب: "تسمى كذلك لأن أهلها من طبيعتهم القُلف في السخاء والكرم، والقِلف من العَيْش: الرغدُ الناعِمُ، ومنها سَنَةٌ قَلْفاءُ: أي مُخْصِبَةٌ وعامٌ أقْلَفُ مُخصب كذلك.."[5].

بعد يوم أو يومين جدد الركب الرحلة إلى الشمال باتجاه مدينة المدية، وفي طريقه إليها ذكر الشيخ بعض ما شاهده من طبائع الأقوام المنافية للشرع الحنيف، ومنها حلق اللحية والاستطالة في الشوارب، وقد بين وجه الدين في ذلك، وذكر ما يلزم صاحبها من أداء الكفّارات مع التوبة والإنابة.

وغير بعيد عن المديَّة جاءه الخبر بأنَّ الأوربيين يتحدثون عن كروية الأرض ويتمارون في ذلك فحاججهم بقوله تعالى: "والشمس تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم" سورة ياسين، آية 38. وهو الدليل الواضح على كروية الأرض وعدم استقرارها، وبدورانها حول نفسها وحول الشمس.

---

1. باحمد بن صالح: من آل السماوي من العطف، من تجار مدينة الجلفة المرموقين على عهده، وقد ورد على هامش النسختين (خ) و(ب): [هو جد حمو السماوي]، وهو ما أكده لي بعض آل سماوي. وهو سليل عائلة مرموقة، شارك معظم أبنائها في الثورة التحريرية المظفرة، ولا زال لبعضهم تجارة وعقارات بالجلفة ومسعد.
لقاء مع الأستاذ المحامي: سماوي عمر بن عيسى، بمكتبه بغرداية، بتاريخ: 2007/07/15.

2. أولاد نايل: من أكبر القبائل في الجزائر تنحدر من أصول عربية، تنسب هذه القبيلة إلى محمد بن عبد الله سيدي نائل بن الأمير إدريس بن عبد الله الكامل مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى هو عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط من ذرية الإمام علي كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء بنت محمد ﷺ.

3. أولاد بن لحسن: نسبة إلى السبط الحسن بن الإمام علي كرم الله وجهه، وهو عرش شهير بالجلفة إلى اليوم.

4. أولاد بن لحرش: من أعرق العروش في مدينة الجلفة وأشهرها، ينحدر منها آل بن شريف المعروفين.

5. ينظر: القصيدة الحجازية، القُطب أطفيّش: البيت 24.

وما دخل المدينة صادف ردّ الفرنسيين مسجدًا للمسلمين كانوا قد احتلوه أو أخلته أغياظ اليهود، فوقف فيه مخاطبًا المسلمين مهنّئًا لهم على استرجاعهم له[1].

بعد مسيرة يوم وصل القطب مدينة البنيدة وفيها تلقى ترحيبًا جماهيريًا كبيرًا من سكانها ومن التجار المزابيين بها كذلك، وقد اغتنم بعض الطلبة الفرصة للسؤال وطلب الفتوى فكان القُطب يجيبهم مستبشرًا من دون تردد.

سار الأمر مع القُطب والوفد المرافق له تمامًا كما عهد في كل مرحلة فعندما دخلوا مدينة الجزائر التي تُعرف قديمًا بجزائر بني مزغنّة، تسارعت إليه الوفود بأنواع الاحتفال ومجالس الأنس والذكر وطلب الفتوى.

أيامًا بعد ذلك اكترى وفد الحجاج سفينة إسبانية أصحابها من سكان جبل طارق، لتُقلّهم عبر البحر المتوسط إلى الحجاز؛ وقد مرت السفينة بجزر صقلية وسردينيا التي تقابل تونس في البحر، كما وصفها بذلك.

وصلت السفينة التي تقلّ وفد الحجيج إلى ميناء الإسكندرية بعد أيام قليلة، فرست هناك بعض اليوم ثم شقت طريقها باتجاه بحر القُلزم أو البحر الأحمر عبر قناة السويس، وقد وصف الشيخ أطفيّش كيف شُقت الجبال الراسيات وصار بها معبر كبير للسفن المتنوعة.

مسيرة أيام حتى حل الركب في ميناء جدة وهم فرحين مستبشرين بوصولهم سالمين غانمين إلى أرض الحجاز، فساروا إلى البيت الحرام وكلهم شوق إلى رؤيته وتقبيل الحجر الأسود، فصادف دخولهم إليه نزول أسراب الحمام إليهم واقترابها منهم وكأنها جاءت تسلم عليهم، كما التفت بهم وفود الحجيج من مختلف الأصقاع ولاسيما الموافقون[2]، وقد كانت فرصة مواتية للتعارف والتواصل بين مختلف المشايخ والعلماء، ومن بعض ما

---

[1]. هذا المسجد هو المسجد الحنفي بمدينة المدية، وهو من أعرق المساجد بها، وقد ذكر لي الباحث الشيخ المختار اسكندر بأن المسجد الحنفي كان قد اغتصب من طرف الفرنسيين ثم ردّ للمسلمين في **1886 وهي السنة التي حج** فيها القُطب، لقاء مع الباحث اسكندر بمنزله بحي المصلى بالمدية ديسمبر 2007.

[2]. الموافقون: عبارة يرددها القُطب أطفيّش ويقصد بها أصحاب المذاهب الإسلامية السنية وهي توافق مذهبه الإباضي.

طرح من المسائل على سبيل المثال: قضية جرّ اليد على البيت الحرام حين الطواف به، وأول من بدأ النطق بلغة العرب، وقصة وضع التشكيل والنقط على آيات القرآن الكريم، ومسألة الإشارة إلى الحجر الأسود حين الزحام هل تُجزي عن اللمس أم لا؟.. وغيرها من المسائل الفقهية المتعلقة بأداء مناسك الحج.

لقد عرف علماء مكة مكانة القُطب العلمية فتسارعوا إلى الجنوس إليه مباشرة عقب انتهاءه من أداء جميع المناسك، حتى قرّبوه إليهم وقدموه للدرس في حضرة الناس بالمسجد الحرام.

تناقش الشيخ أطفيّش مع علماء مكة أمثال رحمة الله الهندي وزيني دحلان ومحمد حسبي الله الكثير من القضايا الفقهية، فتبين له الموافقة والتقارب في أغلبها، كما كانت فرصة للاستزادة من معارفهم وتنقيح الكثير من الأفكار، وقد تلقى القُطب وتلاميذه في كل ذلك إحسانًا كبيرًا من أهل مكة ومن مختلف العلماء الأعلام، وافترقوا بعد ذلك وقلوبهم متعلقة بتلك الأماكن الجليلة وعيونهم تسيل من فراق البيت الحرام.

اتجه ركب الحجاج قاصدًا المدينة المنورة مرورًا بجُعرانة وعُسفان، وفي هذه الأخيرة التقى القُطب ببعض الأشاعرة الذين بادروا بطرح بعض الأسئلة عليه فلم يكن من الشيخ إلاّ أن يجيبهم بما علم في الموضوع، ومنها إلى صُفرى وبها قوم من الصفرية أو أتباع زياد بن الأصفر، ثم منها إلى عيون بدر ثم وادي حُنين فالطائف، وصولاً إلى طيبة أو المدينة المنورة.

نزل الحجاج ومعهم القطب أطفيّش ضيوفًا على المدينة المنورة وزاروا قبر الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وما كانوا ليخرجوا منها لولا موعد الرحلة، فقد تعلقت أرواحهم بها فصاروا كطامع في وصل ما انفصل، وخرجوا منها ودموعهم تسيل إلى وجهة ينبُع أو الينبوع وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر تقابل المدينة المنورة في نفس الخط بينهما مسيرة ليلة.

ركب وفد الحجاج السفينة التي أقلّتهم من ميناء ينبُع مرورًا بقناة السويس فميناء الإسكندرية نزولاً بميناء تونس الخضراء.

نزل وفد الحجاج من السفينة بأرض تونس وساروا فيها أيامًا، زاروا خلالها الجامع الكبير أو جامع الزيتونة، كما انعطفوا عند بعض المرابيين المقيمين بتونس ومنهم طلاب العلم والتجار الذين فرحوا كثيرًا بلقائهم، ومن بين من ضفر بضيافة القُطب عنده إبراهيم بن عمر وهو أحد أعيان المزابيين بتونس، وقد أحسن إكرام القُطب وأنزله منازل الخلفاء، وفعل كذلك مع جماعة الطلبة الذين معه، فأحبَّ القُطب لقائه حتى إنه عندما جدد للرحلة صعب عليه كثيرًا فراقه.

بعد مسيرة أيام دخل القُطب أطفيَّش مدينة بُونة وهي المعروفة اليوم بعنابة إحدى عواصم الشرق الجزائري الساحلية، فتلقوا ترحابًا وإكرامًا من الناس في كامل طريقهم، وقد نزل القُطب ضيفًا على المدعو يحي بن صالح وهو حفيد الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني، وأحد أعيان بني مزاب البارزين في مدينة عنابة، وفيها أيضًا الأجودان عيسى بن صالح وعيسى بن الحاج، وهما كذلك من تجار بني يسجن المرموقين بعنابة.

ذكر القُطب بعد ذلك أن الركب سار يريد الخروج من عنابة فتلقاهم عساكر الاحتلال قصد تفتيشهم، ففتشوا الجميع إلا القُطب وزوجه فإنهم لم يقتربوا منهم بتاتًا، وذلك بحفظ الله ورعايته سبحانه.

بعد مسيرة أيام وصل الوفد مدينة قسنطينة، وهي إحدى عواصم البلاد الشرقية الداخلية، ومنها إلى قالمة فباتنة ثم جَيبُ الأمير فبسكرة، وكلها مدن داخلية في الجهة الشرقية من الجزائر، وصولاً إلى شط الجريد حيث البوابير التي تعمل على استخراج الملح وتجفيفه ونقله.

لم يفصل القُطب بعد ذلك في المراحل التي تلي هذه المرحلة، غير أنه من الممكن أن يكون قد سلك نفس طريق الذهاب أي دخل الجلفة ثم الأغواط فبريان فمزاب، أو أنه سلك طريق الجنوب أتي من بسكرة باتجاه توقرت وصولاً إلى القرارة فبريان فوادي مزاب.

دخل القُطب مدينته بني يسجن مطمئنًا وسط احتفال جماهيري حاشد محتف بعودة عالمهم سالمًا غانمًا، فأثنى القُطب طويلاً على كل من ساهم في إنجاح رحلته التاريخية تلك، ولاسيما يوسف بن عيسى بن صالح صاحب الهودج والبغل الذي نقل زوج الشيخ إلى الحجاز ذهابًا وإيابًا.

من فوائد الرحلة:

لقد أولى السلف ـرحمهم اللهـ لتدوين الرحلات عناية كبيرة، فصنفوا لها وسجلوا دقائقها، ومنهم من بذل جهدًا لا يستهان به فنظم رحلته شعرًا حتى تنال مكانها في عقول وقلوب السامعين، وحاول تسجيل تفاصيل الأحداث بكثير من التحري والصدق في عرض الوقائع، وتفقد أوضاع البلاد الإسلامية، تعبيرًا عن تواصل المسلمين مع بعضهم البعض، حتى وإن تباعدت الأمصار وطالت المسافات بينهم؛ إلاَّ أن معظمهم استطاع التواصل مع كل من تعرف عليهم في رحلته، فحدثت بينهم المراسلات الأدبية المتنوعة وتبادل الكتب وغيرها.. وقد سجل لنا التاريخ بعض العلاقات التي أثمرت وخلقت أجواء مفعمة بالنشاط ووطدت العلاقات بين العلماء فلم يكتفوا بالتواصل بينهم فقط بل نقلوا ذلك إلى طلابهم وموارديهم، وفتحوا مجالات جديدة من صيد العلوم بإنشائهم ما يُعرف بـ"البعثات العلمية"، فقامت بعض الأنظمة بإشارة من علمائها بفتح معاهد تقوم برعاية شؤون الطلبة الوافدين إليها للانتهال من معين علمائهم، ومن تلك البلدان التي أقام بها الطلبة الجزائريون على سبيل التمثيل مصر حيث جامع الأزهر، وتونس حيث جامع الزيتونة، والحجاز حيث الحرم المكي والمدني.

لقد مكث القُطب في مكة مجاورًا سنة كاملة، ودرَّس خلال وجوده هناك كتاب: "السنوسية في عقائد المالكية"، ولو أن درس هذا الكتاب وشرحه من طرف القُطب أطفيَّش لم يصل إلينا، ثم دَوَّنَ في تلك الرحلة أيضًا معظم ملاحظاته ولقاءاته مع الشخصيات والعلماء، وألَّف فيها إلى جانب ذلك كتابه الشهير في المنطق وهو: "إيضاح المنطق في بلاد المشرق"، وقد زار مصر بعدها وجلس إلى علماء الأزهر فيها وإلى الطلبة

المغاربة المتمدرسين هناك من الإباضية والذين كانوا يقيمون بوكالة الجاموس قرب مسجد ابن طولون، كما اقتنى من رحلته تلك ما استطاع من الكتب، وبعث ببعضها إلى سلطان زنجبار ليطبعها وينشرها..، فقد كان الشيخ مهتمًا أشد ما يكون بنشر العلم في كل البلاد الإسلامية..

إنَّ من أهم ما يمكن التعليق عليه والوقوف عنده من الفوائد العديدة لرحلة القطب هو لقائه بالعلماء الأعلام وتدريسه الناس بالحرم المكي والمدني، والتفاف الطلبة على اختلاف مشاربهم من حوله، وذلك من أجل اقتناص الفوائد العلمية المتنوعة، ولم يكن القُطب في منهجه متعصبًا لفكرة ما أو اتجاه مذهبي معين بل كان متفتحًا على الجميع يسمع كل الآراء ويهتم بشؤون المسلمين في كامل البلاد الإسلامية، وأكثر من ذلك فقد انبرى مهاجمًا الاستعمار فاضحًا لكل دسائسه في استعباد الشعوب، ومبصِّرًا في ذلك المسلمين في مختلف الأقطار التي زارها أو راسل علمائها.

ومن فوائد رحلة القطب الجليلة أيضًا إلهاءه لمرحلة تاريخية عصيبة وتصحيحه لمفهوم خاطئ ساد مزاب وما حولها ردحًا من الزمن، والذي كان يقضي بعدم السماح للمرأة بالسفر إلاَّ لضرورة قُصوى مُلحة كالعلاج مثلاً، أمَّا ما سوى ذلك فلا، وقد كانت حجتهم في ذلك انعدام الأمن في الطريق، ولم يكن الداعي إلى التمسك بمثل هذه الأفكار إلاَّ تشبُّث الناس بعَرَضِ الحياة الدنيا ونقص الوازع الديني واستشراء الجهل ومظاهر التخلف.

نماذج من قصيدة القُطب الحجازية:

هَجَرْنَا مَسَاقِطَ الرُّؤُوسِ وَمَا نَرَى سِوَى الحَجِّ إنَّ الحَجَّ[1] قَد حَانَ أَنْ

وَغَيرَ اعتِمَارٍ وَالزِّيَارَةِ لِلنَّبِي عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ زَهَا الثَّرَى

---

[1] – إيذان من الشاعر بانطلاق موسم الحج، وبالتالي الرحلة لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام.

فَلِلّه حَمدٌ حَمدُ فَانٍ لِذِي البَقَا وَحَمدُ فَقِيرٍ لِلغَنِيِّ عَنِ الوَرَى

خَرَجنَا بِضَحوَةِ الخَمِيسِ بِمِثلِ مَا خَمِيسٍ، وَنَحنُ فِي خَلاَءٍ عَنِ المِرَا

وَفِينَا فَتَى الفِتيَانِ أَشجَعُ مَن أَرَى وَأَصدَقُهُم حُبًّا وَأَيقظُ مَن سَرَى[1]

وَأَتقَبُهُم ذِهنًا وَأَطوَلُهُم يَدًا وَمَجرَى أَبِيهِ[2] فِي شَمَائِلِهِ جَرَى

أَلاَ إِنَّهُ ابنُ السَّيِّدِ المُنتَخَى عُمَر[3] تَعَبدَلَ مَرَّتَينِ لِلخَيرِ مَصدَرَا

فَيَا لَيتَهُ فِي صُحبَتِي كُلَّ رِحلَةٍ إِلى مَكَّةَ الغَرَّاءَ فَاتِحَةِ القُرَى[4]

فَتًا اللهِ: إِنَّ الحَجَّ فَرضٌ وَلَو عَلَى النِّـ ـسَاءِ إِن استَطَعنَ حَقًّا بِلا افتِرَا

مَعَ الزَّوجِ أَو مَعَ مَحرَمٍ أَو جَمَاعَةٍ ثِقَاتٍ وَأَقوِيَاءَ فِي حَدَثٍ عَرَا

وَحَجُّ امرِئٍ بِالزَّوجِ سَبعُونَ حَجَّةً وَوَاحِدَةً وَالحُكمُ مِن أَثَرٍ طَرَا

فَقَد جَاءَ أَنَّ فِعلَ ذِي الزَّوجِ مُضَعَّفٌ بِسَبعِينَ وَالدَّاعِي كَفَاعِلِ مَا احتَرَا

فَرَيَّانَ هُو اسمٌ لِحَافِرِهَا وَقَد أُضِيفَ إِلَيهِ البِئرُ تُطوَى وَتُبتَرَى

وَقُل إِن تَشَأ مَعنَاهُ: بَرٌّ قَد ارتَوَى بِوَصفٍ وَمَوصُوفٍ وَتَركِيبُه اجتَرَى

---

[1] – السَّرَى: كالهُدَى: سَيْرُ عامَّةِ اللَّيْلِ. وفي قول القُطب "وأصدقهم حُبًّا.." تأكيد على ماكنة الشيخ عمر بن حمو في قلب شيخه وأستاذه، وتذكر مختلف الروايات أنه كان يناديه بـ"أمين السِّرّ".

[2] – هو القائد المغوار حمو بن باحمد العطفي، آخر من تولى إمامة للدفاع بمزاب لما أراد بشوشة الزحف على ميزاب قادمًا من وارجلان بعد تخريبها في 1871م. ينظر بتفصيل: دور المزابيين في تاريخ الجزائر، حمو عيسى النوري، دار البعث قسنطينة. ط1: 1970، ج1: ص295 وما بعدها.

[3] – ورد شرح على الهامش هذا نصه: [الحاج عمر بن حمو العطفاوي]؛ قلت هو ابن الشيخ حمو بن باحمد العطفاوي؛ وقد مر ذكره في التقديم.

[4] – يريد كونها أم القرى كما جاء وصفها بذلك في القرآن الكريم.

وَمِن بَعدِهِ الأَغوَاطُ[1]، أَغوَاطُ مَن ... وَشَرقٍ، وَقَدمًا كَانَ مِن أَهلِهَا القِرَى
تُسَمَّى لأَنَّ أَرضَهُ بَعضُهَا سَفَل ... وَبعضٌ عَلاَ، وَاللهُ مَا يَشَا بَرَا

دَنَونَا فَدَانَانَا الحَمَامُ كَمَن أَتَى ... يُسَلِّمُ وَهُو آمِنٌ إِثرَ[2] استَرَا
وَقَد أَكثَرَ السُّؤَالَ فِي مَكَّةَ المُوَا ... فِقُونَ وَأَصحَابُ المَذَاهِبِ وَاحتَرَا[3]
فَعَن جَرِّ بَعضِ الطَّائِفِينَ يَدًا عَلَى ... جِدَارِ الحَطِيمِ قُلتُ: جُورٌ بِحَرفِ رَا
لأَنَّ الطَّوَافَ عِندَ ذَاكَ بِبَعضِهِ ... عَلَى بَعضِ بَيتِ اللهِ فَالفَرضُ قَد
سِوَى مَا نَشَاءُ وَقَولِ أَربَعِ أَذرُعٍ ... وَسَبعُ ثَلاَثٍ أَو سِوَاهُ فَبِالمِرَا
وَنَاوِي المَقَامَ[4] قِبلَةً لاَ صَلاَةَ لَهُ ... وَلاَ لُبسُ ثَوبٍ وَاصِفٍ مِثلَ مَن سَرَى

وَلَمَّا اعتَرَفنَا وَامتَنَينَا[5] وَوَادَعُوا ... مَعِي البَيتَ بَيتَ رَبِّنَا افتَرَقُوا افتَرَا
وَأَبكَى فِرَاقُ البَيتِ عَينِي وَأَحرَقَا ... بِهِ القَلبَ إِذ وَادَعتُهُ أَيمَا احتِرَا

أَقَمنَا وَسِرنَا وَالأَنَامُ بِمَنظَرٍ ... إِلَينَا عَلَى الإِحسَانِ حَتَّى النُّصَيرَى
بِقَسَنطِينَةَ[6] وَالأَصلُ قَسَنطِينُ وَهُو ... بَنَاهَا وَزِيدَ النُّا جَلَّتهُ العَبَوتَرَى

---

[1] – الأغواط: مدينة حاضرة عامرة، تبعد عن وادي مزاب بـ 200كم إلى الشمال الشرقي.

[2] – في ن(ب): أبرَّ.

[3] – إن كثرة السائلين عن الدين من حول القُطب لدليل واضح على مكانته العلمية كما مرَّ في التقديم.

[4] – المقام: مقام إبراهيم الخليل، يريد أن من أراده قبلة لصلاته فلا صلاة له لأن الأصل استقبال الكعبة.

[5] – يريد: وقفنا بعرفات ودخلنا منًى، وهما مشعران من مناسك الحج شهيران.

[6] – قسنطينة: هي سيرتا، من أشهر مدن الشرق الجزائري، حافلة بآثارها الإسلامية وعلمائها المرموقين.

وَقَالِـــمَةُ[1] وَأَصلُهَا قَلَّ مَاؤُهَا أَو قَطَعَت أَصلَ العِدَا بِالحَبِيكَرَى

وَبَتنَا[2] وَأَصلُهُ بَقِينَا مَبَاتَنَا فَحُرِّفَ وَأُكِّدَ رَاسِمُهَا أَيمَا كَدرَا

بِجَيبِ الأَمِيرِ الجُندِ: إِنَّ مَبَاتَنَا مَبَاتٌ بِأَمسِنَا الَّذِي اختَرَم اختِرَا

وَذَاكَ زَمَانُ فَتحِ مِصرَ هَتَاكَ فِي يَسَارِ الَّذِي يَمضِي لِسكَرَةَ اقتَرَا

بِفَتحٍ وَكَسرِ البَاءِ وَاللَّفظُ مِن كَرَبٍ جَرِيدٍ يَمَامٌ فَوقَهُ وَالحُبَيرَا

فَعَوَّضَنِي رَبِّي كَرِيمًا لَهُ أَبٌ كَرِيمٌ وَأَجدَادٌ كِرَامٌ لَهَا النَّدَرَى

جَوَادٌ تَلَاهُ الجُودُ مِن سِنَّةٍ وَقَد فَدَتهُ نُفُوسُ حَاسِدِيهِ عَلَى اعتِرَا

إِذَا هَمَّ أَمضَى هَمَّهُ فَيُصِيبُ مَا يَرُوقُ العُقُولَ فَهِيَ فِيهِ بِغَيرَا

كَهَودَجِهِ الَّذِي عَلَى بَغلِهِ رَسَا كَقَبضَةِ جِصٍّ أُحكِمَت فَوقَ

فَزَوجِي فِيهِ مِثلُهَا فِي أَرِيكَةٍ فَلَم تَخشَ وَقصًا[4] أَو سُقُوطًا

إِلَى أَن وَصَلنَا بَلدَةَ الشَّيخِ قَاسِمٍ وَأَشيَاعِهِ فِي الدِّينِ فِي لَيلَةِ البَرَا

هُنَاكَ تَلَقَّانَا بِوَجهٍ مُقَسَّمٍ يُنَوِّرُ بِالتَّقوَى الدُّجَى وَالغَمَيدَرَا

فَمَا لَبِثتُ أَن شَاهَدتُ دَارَ يُوسُفَ بنَ عِيسَى بنَ صَالِحٍ[5] يَسجَنَ ذَا

جَزَى اللهُ عِيسَى ذَا الكِرَامِ وَهَودَجٍ وَبَغلٍ وَأَبقَى فِي وَلَايِدِهِ[6] كَرَا

ينظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية بالجزائر، ط1، 1350هـ، ص231 وما بعدها.

[1] – قالمة: مدينة ابتناها البربر والفينيقيون، شهيرة بحمّاتها المعدنية، ينظر: نفسه، ص230.

[2] – باتنة: اسمها القديم راس العيون، وفي سنة 1849 صارت رسميا باتنة. ينظر: نفسه، ص195.

[3] – شبه مظهر الهودج على البغل، كقبضة جصٍّ وهي مادة للطلاء صلبة، أحكمت فوقه بشدة.

[4] – وقَصَ عُنُقَه: كسَرها: يريد: أن زوجه لم تخش السقوط من بغلها فينكسر عنقها وتموت.

[5] – يوسف بن عيسى بن صالح: الأرجح أنه من آل أطفيش. نفس اللقاء مع الحاج سليمان بكاي.

[6] – يريد: في أولاده وذريته.

غِنىً وَاعتِزَارًا جَامِعًا وَكَرَامَةً وَسِترًا وَحِفظًا لَيسَ يَأسَى وَلاَ سَرَا

أُولَئِكَ أَحبَابِي نَأَوا فَأُصِيدهُم بِأَشرَاكِ أَحلاَمٍ فَبِاليَقظَةِ اخَرَا

فَوَاهًا وَلَكِن تَستَّرَتِ السَّمَا فَأَطمَاعُنَا فِي اللهِ إِذ نُورُهُ وَرَى

تمت في 232 بيتًا

الخلاصة:

يمكن القول إنّ ما أثبته القُطب أطفيّش في رحلته من ملاحظات وما أورده من معلومات وما وضعه من تعاليق يتّصف بمميّزات يمكن أن تُحدّد القيمة التّاريخية والاجتماعية لهذه الرحلة، كما يمكن أن تحدد مستواه الفني والأدبي.. ولعل من فوائد رحلته ما يأتي:

إن أسلوب القُطب في كتابة رحلته وخاصة في نظمها شعرا _على ما في شعره من جوازات_ يعكس رقيّ أديه في عصر تخلّفت فيه علوم العربية بسبب السياسات الاستعمارية البغيضة وتدني المستوى الثقافي، وهو ما ألزم معظم الرحّالة بتدوين رحلاتهم بكثير من الألفاظ العامّية، في حين التزم القُطب في نظمه باللغة العربية الراقية، مع التفنن والإبداع فيها، لذلك فإنه يمكن اعتبار رحلة القُطب أطفيّش من المصادر الأساسية في التعرف على أوضاع اللغة العربية في تلك الفترة، وكذا التعرف على المسائل الفقهية المطروحة في ذلك العهد وفي مختلف الأمصار.

كما كانت الرحلة فرصة لخلق أجواء من التواصل الإنساني الهادف بين المشرق الإسلامي ومغربه، خاصة لما كانت بيد العلماء الأعلام، ومن هنا فإنه يمكن اختصار آثار رحلة القُطب في بعث التواصل بين المشرق والمغرب فيما يأتي:

1- التأريخ لتراث الجزائر خصوصًا والعالم الإسلامي عمومًا.

2- التواصل بين العلماء عند التقائهم في الحجاز ومصر وتونس وغيرها.

3- تفقد أوضاع المسلمين في كامل أقطار العالم الإسلامي.

4- عرض العلماء لجديد اجتهاداتهم والتعرف والاعتراف بجهود بعضهم البعض.

5- استعراض أهم وقائع المسلمين في كل فترة تاريخية ومحاولة تصحيح بعضها.

6- التعرف على مختلف الجوانب الحياتية الأدبية والسياسية والاقتصادية.. في مختلف الأمصار.

7- التعريف بمؤلفات العلماء وما اشتهر منها وذاع صيته في كل فترة تاريخية.

8- خلق أجواء من التواصل الإخواني من خلال المراسلات المختلفة وتبادل الكتب وغيرها..

هذه بعض أهم الملاحظات التي وقفت عليها من خلال قراءتي المتأنية لرحلة القُطب الحجازية، ولاشك أن هناك غيرها من الآثار الكثير، قد يتوصل المتأمل لاستخراجها والتعليق عليها بما شاء.

إن رحلة القُطب الحجازية قد ضربت لنا مثالاً آخر في التواصل بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كما عكست جوانب فاضلة من أخلاق العلماء، ونقلت لنا صورًا حية عن طبائع المسلمين في تلك الحقبة التاريخية المهمة، وإن كان معظمها ما يزال بحاجة إلى المزيد من الدراسة والتحقيق.

المصادر ومراجع:

1- يحي بن بهون حاج امحمد، رحلة القطب، دراسة وتحقيق، العالمية للخدمات الطباعية، الجزائر، ط1، 2007.

[2] - ملحق السير، إبراهيم أبو اليقظان، مخطوط، ثلاثة أجزاء، منه نسخة مصورة بدار إروان، العطف، غرداية.

[3] - معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، محمد ناصر وسلطان بن مبارك الشيباني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2006.

[4] - معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، مجموعة من الباحثين، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط1، 1999.

[5] - محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، المطبعة التعاونية، الجزائر، 1965، ج1.

[6] - حمو عيسى النوري، دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، دار البعث، قسنطينة، ط2، د.ت، ج1.

[7] - إبراهيم حفار، السلاسل الذهبية، مخ، مكتبة القطب بني يسجن.

[8] - امحمد بن يوسف أطفيَّش، كشف الكُرب، طبع وزارة التراث، سلطنة عُمان، ط1، 2000، ج1.

[9] - إبراهيم بابزيز، خطبة بمناسبة مهرجان القطب 1981، رحلة القطب إلى وارجلان، أعمال المهرجان، مكتبة الحاج سعيد محمد، جمعية الشيخ أبي إسحاق لخدمة التراث غرداية، الجزائر.

10- امحمد بن يوسف أطفيَّش، إيضاح المنطق ببلاد المشرق، مخ، مكتبة الاستقامة ببني يسجن، رقمه في الخزانة (الأولى): 18.

[11] - خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط11، 1995.

12- القُطب أطفيَّش، الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، طح، مكتبة القطب، بني يسجن.

[13] - القُطب أطفيَّش، إن لم تعرف الإباضية، طح، مكتبة القطب، بني يسجن.

[14]- القُطب أطفيّش، كتاب تعليم الرسم، طح، مكتبة القطب، بني يسجن.

[15]- أحمد بن حمزة الرفاعي، رسالة إلى قاضي الجماعة الإباضية بمُعسكر عمالة وهران، 3 صفحات، نسخة بحوزة الباحث.

[16]- إبراهيم بن بحمان الثميني، مختصر المناسك ومهذب المسالك، مكتبة القُطب، بني يسجن، مخ.

[17]- لقاء مع الحافظ الحاج سليمان بكاي، قيّم مكتبة الاستقامة، ببني يسجن، بتاريخ: 2007/07/17.

[18]- لقاء مع الأستاذ المحامي: سماوي عمر بن عيسى، بمكتبه بغرداية، بتاريخ: 2007/07/15.

[19]- لقاء مع الشيخ المختار اسكندر، بمنزله بحي المصلى بالمدية ديسمبر 2007.

المقتطفات

من مقتطفات كتاب الهفيش

قال الإمام العالم العلامة الحبر البحر الفهامة، وحيد دهره وفريد عصره الشيخ محمد بن يوسف أطفيش المغربي – رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

1- قال رسول الله ﷺ ((أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة)). زاد عبد الرزاق ((قيل: وماهي الحنيفية السمحة..؟ قال: الإسلام)).

وصح عن أبي : أقرأني رسول الله ﷺ : ((إن الدين عند الله الإسلام)) الحنيفة السمحة: لا لليهودية ولا النصرانية، وهذا مما نسخ لفظه، وبقي معناه.

2- قال رسول الله-ﷺ – لمن قال له : يانبي الله أي الأعمال أفضل: ((إيمان بالله وتصديق به وجهاد في سبيل الله)). قال : أريد أهون من هذا.قال: ((لا تتهم الله في شيء قضى لله به)).

3- قال رسول الله ﷺ: ((آخر ما تكلم به إبراهيم حين ألقى في النار : ((حسبي الله ونعم الوكيل)).

4- قال رسول الله ﷺ: ((أبشروا وبشروا من وراءكم أنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقا بها دخل الجنة)).

5- قال رسول الله ﷺ: ((أبغض الخلق من آمن ثم كفر))

6- قال رسول الله – ﷺ: ((أحب الكلام إلى الله تعالى أن يقول العبد : سبحان الله وبحمده)).

7- قال رسول الله ﷺ: ((أحب الكلام إلى الله تعالى أربع سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. لا يضرك بأيهن بدأت)).

8-قال رسول الله ﷺ: ((أفضل الأعمال الإيمان بالله وحده، ثم الجهاد ثم حجة برة تفضل سائر الأعمال كما بين مطلع الشمس إلى مغربها)).

تفسير سورة يس مكية وآياتها 73

"يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين" يقولون لست رسولا، كما مر مثله في السورة قبل هذه، فنزلت هذه الآيات إلى "غافلون" تصديقا له كما قال الله عز وجل: "قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب" -سورة الرعد : 34- .وهذه السورة (قيل: إنها) قلب القرآن لاشتمالها على أمهات الأصول، يدفع بها الجهل والآفات، كما يصلح البدن بالقلب.

وفي الأثر: تسمى السورة المعمة والمدافعة والقاضية، تعم خير الدنيا والآخرة لقارئها، وتكابد عنه البلوى في الدنيا والآخرة، وتقضي له كل حاجة، روي ذلك بسند فيه ضعف.

(قلت:) ومن سمع أنه من فعل كذا من عبادة كصوم وصلاة وصدقة كان له كذا وكذا من الدنيا كرزق وصحة بدن ونصر فليفعل تلك العبادة لرضى الله تعالى وللحسنات والنجاة من النار، وغفران الذنوب ويدع بعد ذلك، ولا ينشيء عبادة لأمر دنيوي، بل ينشئها تقربا إلى الله تعالى، ويترتب عليها مراده من الدنيا.

ومعنى "يس" يا إنسان بلغة طي والحبشة، فقيل: أصله أنيسين، أو حروف مقطعة، أو يا حرف نداء، و سين حرف من إنسان اختصارا.

و"الحكيم" فعيل للنسب، بمعنى ذي الحكمة، لاشتماله عليها، أو بمعنى مفعول من الرباعي بالزيادة، أي محكم، أي متقن مضبوطا.

(على صراط مستقيم) خبر ثان لـ "إن" والمراد أنه من أهل ذلك الشأن الذي لا يصح سواه، فإنه لا سول إلا على صراط مستقيم. والصراط المستقيم الحق، اعتقادا وعملا وقولا.

(تنزيل العزيز الرحيم) خبر لمحذوف، أي هو تنزيل العزيز الرحيم، أي القرآن تنزيل العزيز الرحيم.

وفي إضافة "تنزيل" لـــ "العزيز الرحيم" تعظيم للقرآن، لأنه من ذي العـــزة الكاملـــة والرحمة العامة الكاملة، فلا بد من الإيمان به خوفا من سطوة الغالب القـــاهر وطمعـــا في رحمته التي منها الإحسان بتنزيله، كما قال عز وجل " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " — سورة الأنبياء 107

"لتنذر قوما" نعت لـــ "قوما"، والمراد: ما أنذر آباؤهم الأدنون، فهـــم في غايـــة مـــن الاحتياج إلى الإنذار، وأما آباؤهم الأبعدون فقد أنذرهم أبوهم إسماعيل، فتطاول الأمـــد حتى نسيت شريعته.

"فهم غافلون" عن دين الله تعالى بسبب أنه لم ينذر آباؤهم. والضمير للقوم، ولو أنـــذر آباؤهم لأتصل الإنذار فلا يغفلون إلا عمدا.

"لقد حق" والله لقد صح وثبت "القول" قولنا: "لأملأن جهنم منـــك..."– ســـورة ص58 وهذا أولى من تفسير القول بعلم الله عز وجل أو بقضائه، "على أكثرهم" هم تبعة إبليس، كما قال الله عز وجل "لأملأن جهنم منك، وممن تبعك منهم، أجمعين " متعلق بـــ "حق"، كقوله تعالى: "إن الذين حقت عليهم ..." — سورة يـــونس 96 -. "فهـــم" أي الأكثر " لايومنون" أي بسبب حق القول عليهم مع اختيارهم (الأعمال فليسوا مجـــبرين)، بمعنى أنه لا إجبار على كل حال مع أن اختياره مخلوق الله تعالى أيضا.

في العلم والإيمان من الكلام والملائكة والجن والشياطين شامل الأصل والفرع ج1 .ص1.2

سمي علما لأنه علامة يتميز بها العالم يهتدي بها، وهو لغـــة المعرفـــة، وقيـــل إدراك المركبات كإدراك زيد بصفة القيام في قولك قام زيد، والمعرفة إدراك البـــسائط كـــإدراك ذات زيد وكإدراك القيام ما هو، وقيل العلم يطلق على إدراك البـــسيط وعلـــى إدراك المركب وعلى المدرك بفتح الراء وعلى ما من شأنه أن يدرك كتسمية مسائل كل فن علما إذا اعتبر في التسمية كونها قابلة لأن تدرك لا كونها قد أدركها من أدركها.

قيل هو عرفا صفة يتجلى بها ما من شأنه أن يدرك لمن قامت هي به؛ وأنما يحيط بالعلم كله الله تبارك وتعالى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((العلم أكثر من أن يحصى فخذوا منه بأحسنه)) يعني ما يدلكم على الله عز وجل وتعلمون به كيفيه باب العلم والإيمان.

صلاح الأعمال وثبوتها وتعلمون الفرائض والسنن وما يستعان به على ذلك كعلوم العربية، وله ثلاث درجات: فمن بلغ الأولى استكثر ما علمه، فإذا بلغ الثانية استقل ما علمه، ولا يبلغ الثالثة إلا الله، فمن استكثر ما علمه فإنه لم يجاوز الأولى ولو كان أنحى من سيبويه وأعلم من علماء الفقه والصرف والمعاني والبيان والعروض والمنطق والفلك والإرث والقرآن والسنة كلهم، فإن مقصد العلم الخضوع وتحقير النفس واستجهالها وإثبات الكبرياء لله تعالى وروي أن العلم إما بالقلب وهو النافع، وإما باللسان وهو حجة الله تعالى على عباده. بالأول هو العلم بالله، وأسمائه وصفاته وأفعاله المقتضى لخشيته وإجلاله ومحبته ورجائه وهو أول علم يرفع كما قاله عبادة بن الصامت رضي الله عنه، ويبقى علم اللسان ويتهاون به الناس حتى حملته ثم يذهب بذهاب حملته، ولا يبقى إلا القرآن في المصاحف لا يعلم الناس منه شيئا ثم يرفع ثم تقوم الساعة على عرار الناس وليس منهم من يقول الله الله.

الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، الحمد لله الذي لا إله سواه، ولا نعبد إلا إياه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه، وعلى شيخنا الحاج إبراهيم بن يوسف وحزبه.

وبعد فهذا كتاب يجمع القواعد والحاشية مختصرا، أرجو به الموت على الإسلام والتسهيل يوم أكون محتضرا. سميته بـ (الذهب الخالص. المنوه بالعالم القالص).

وفي زوائد كثيرة تكاد ثلثا لا تكاد تجد مسألة أمر الحشي بتحريرها إلا حررتها وأثبتها ومهما رأيت من مخالفة فعن عمد أتيتها والبحث في الآيات أحيله على هميان الزاد وغيره من تفاسيري وكثيرا ما أصحح غير ما صحح في الأثر والفضل للأبي ستة لأنه الذي

أسس وكفاني فتفرغت لبعض ما لم يذكره و(التاء) علامة على قلت و(الميم) على مالك و(الشين) على الشافعي و(الحاء) على أبي حنيفة وما لم أنسبه إلى هؤلاء ولم أحكه بقيل فهو مذهبنا معشر الإباضية حيث كتبت لفظة (نا) ولو كان لنا مذهب آخر غيره و(القاف) على قولين و(الهمزة) و(القاف) على أقوال و(الظاء) على الظاهر و(الصاد) على الصحيح وأذكر الخلاف بلفظة (أو) ولفظة (أو) ولفظة قولين وأقوال بدون ذكر أداة الاستفهام وهو سبعة أركان. والتوفيق بيد الملك العلام. وأحيل ما يتعلق بالآي على التفسير، وأعبر عن الرخصة بالقول لأن كثيرا من الرخص عندهم صحت عندي أدلتها فخرجت عن حد الرخصة. ولأنهم كثيرا ما يطلقون الرخصة على الأمر السهل ولو [illegible] قولا له دليل واعتمدت ذلك لما فيه من اختصار. وقد فعله الشيخ عامر في الإيضاح في مواضع كثيرة يعبرون في الديوان بالرخصة ويعبرون في الديوان بالرخصة ويعبر هو بالقول في مسألة واحدة مثل قولهم في الديوان في باب الدين، ولا يقضي خليفة اليتيم في دين كان على اليتيم خلاف ما كان عليه وكذلك لا يأخذ خلاف ماله ومنهم من يرخص الوجهين جميعا، فقال الشيخ في الإيضاح في التعبير عن هذا الكلام ما نصه: وخليفة اليتيم والمجنون والغائب لا يقضون في ديونهم خلاف ما عليهم ولا يأخذون في ديونهم خلاف ما لهم وبعض جوز ذلك الخ. وذلك أن الرخصة لغة السهولة واصطلاحا ما خالف الدليل ولو صعب وفيه أن المعاني الاصطلاحية لابد فيها من بقاء المعنى اللغوي، فالأولى أن الرخصة الحكم الشرعي السهل المنتقل إليه الحكم الصعب لعذر مع وجود سبب الصعب.

من مقدمة كتاب النيل وشفاء العليل 41-49

وبعد، قد طال ما يتردد في خاطري أن أجمع مختصرا في الفقه جامعا مبينا لما به الفتوى من مشهور المذهب، لا مملا ولا مخلا مانعا فإن عبارة الخلف وإن قصر ذراعها أوضح من عبارة السلف وإن طال باعها، وكان يعوقني عنه قصور نظري، وجمود قريحتي، وعدم أهليتي لذلك، وخمود فطنتي، فلا أنظم في سلك سلاك تلك المسالك، ولقلة تصفحي للأصول والقواعد لا أعد من فرسان الفن وميدانه، ولم أظفر بنيل الفوائد وحفظ العوائد حتى أتأهل لحوز قصب السبق في مضماره مع ما أنا فيه من اشتغال بال قد [illegible] على سلطانه، واختلال حال قد تبين لدي برهانه، ومن أن العلم قد أدبرت أيامه وانطمست أعلامه وسدت مصادره ومنعت موارده، لولا أن لي خبيرا ماهرا جاب البلاد.

الانشراح

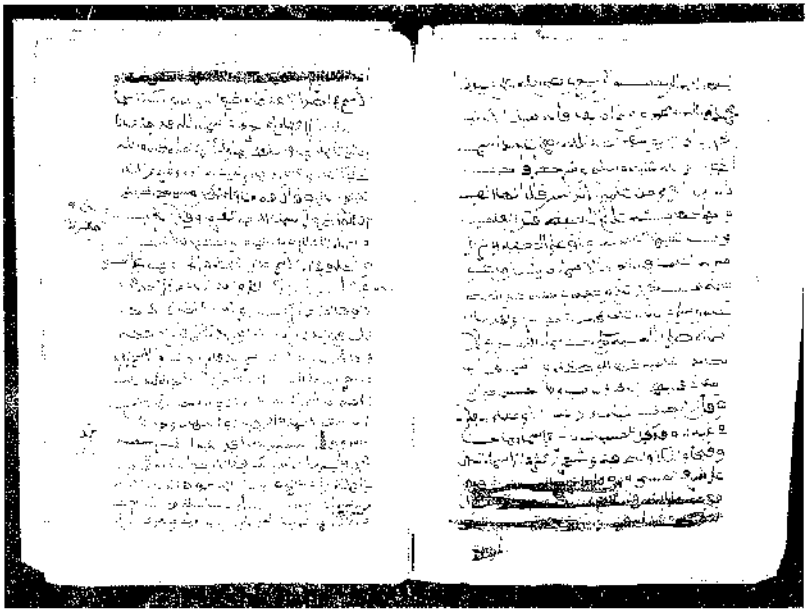

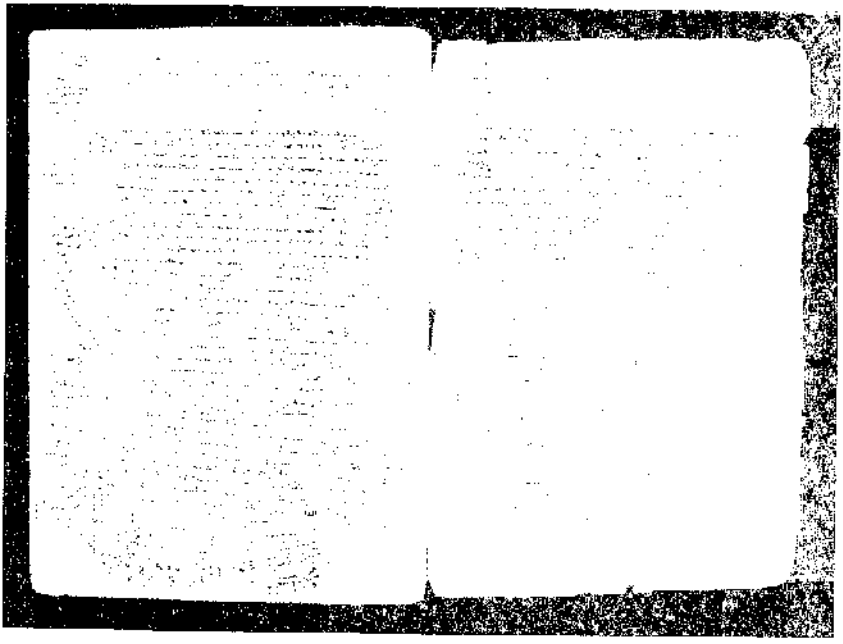

إيضاح الدليل

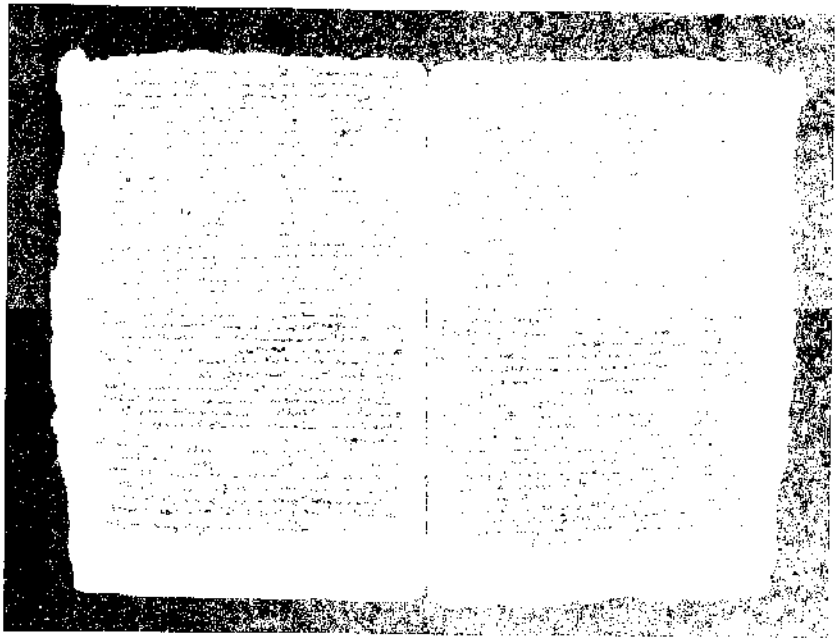

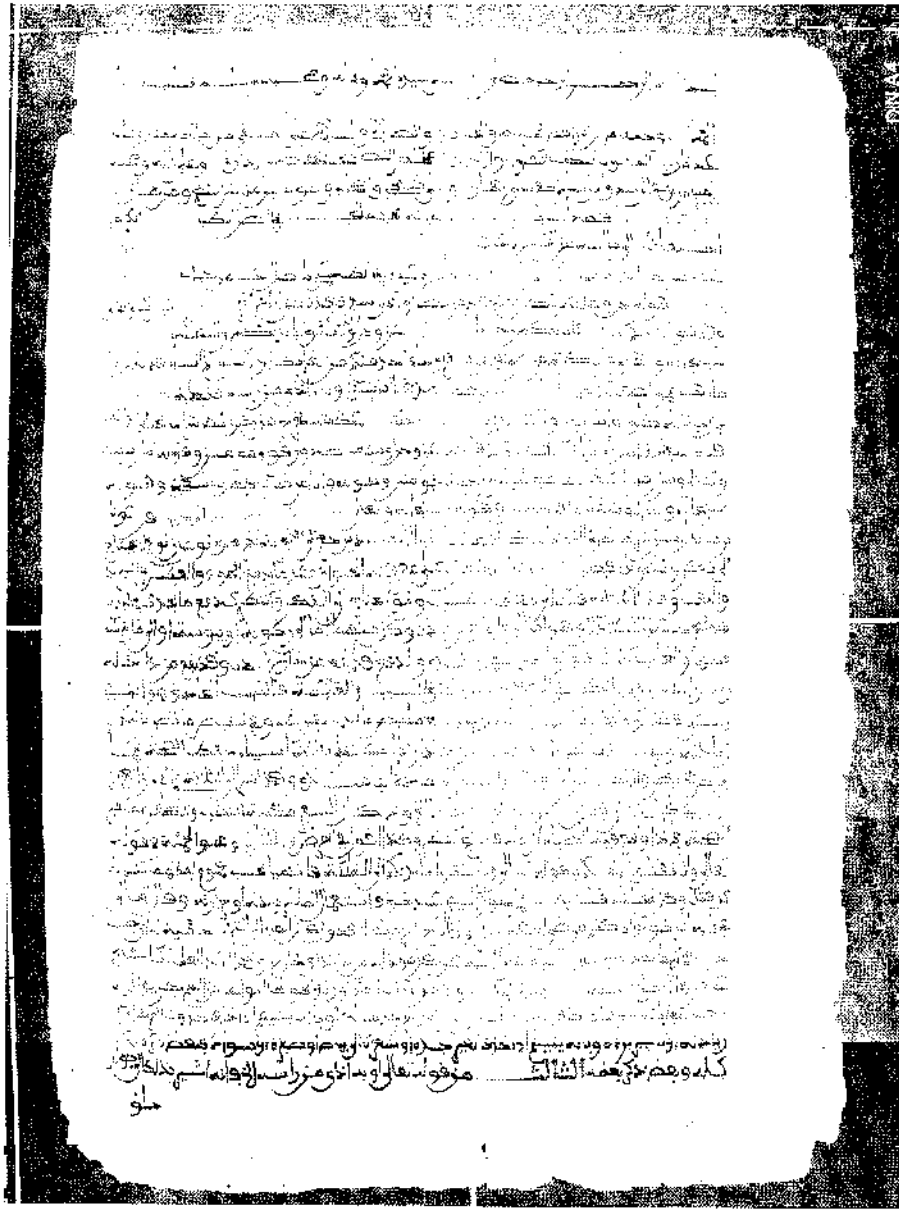

تحفة الحب

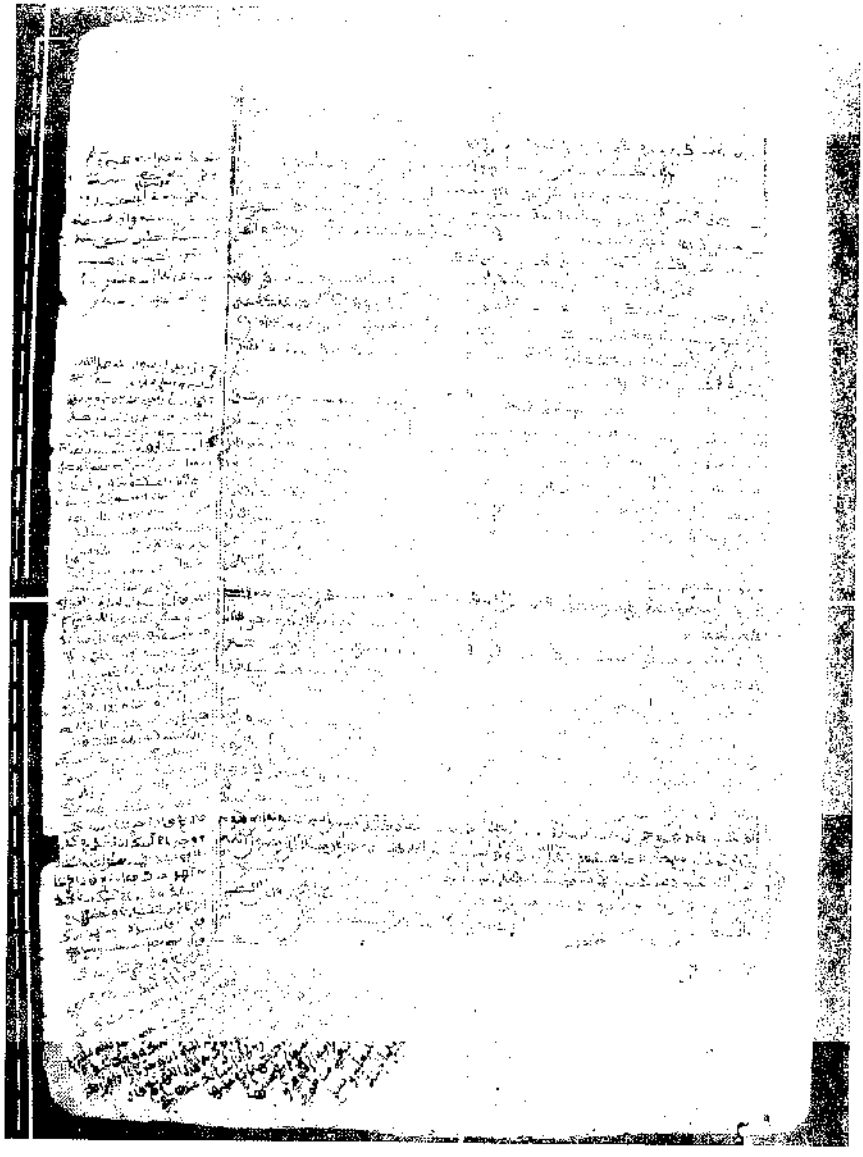

ترتيب الترتيب

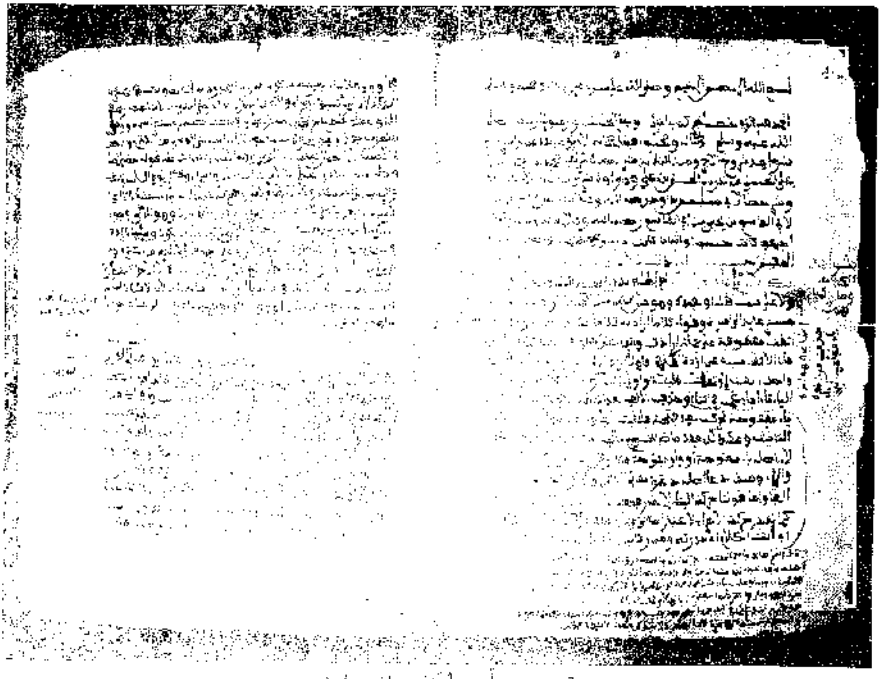

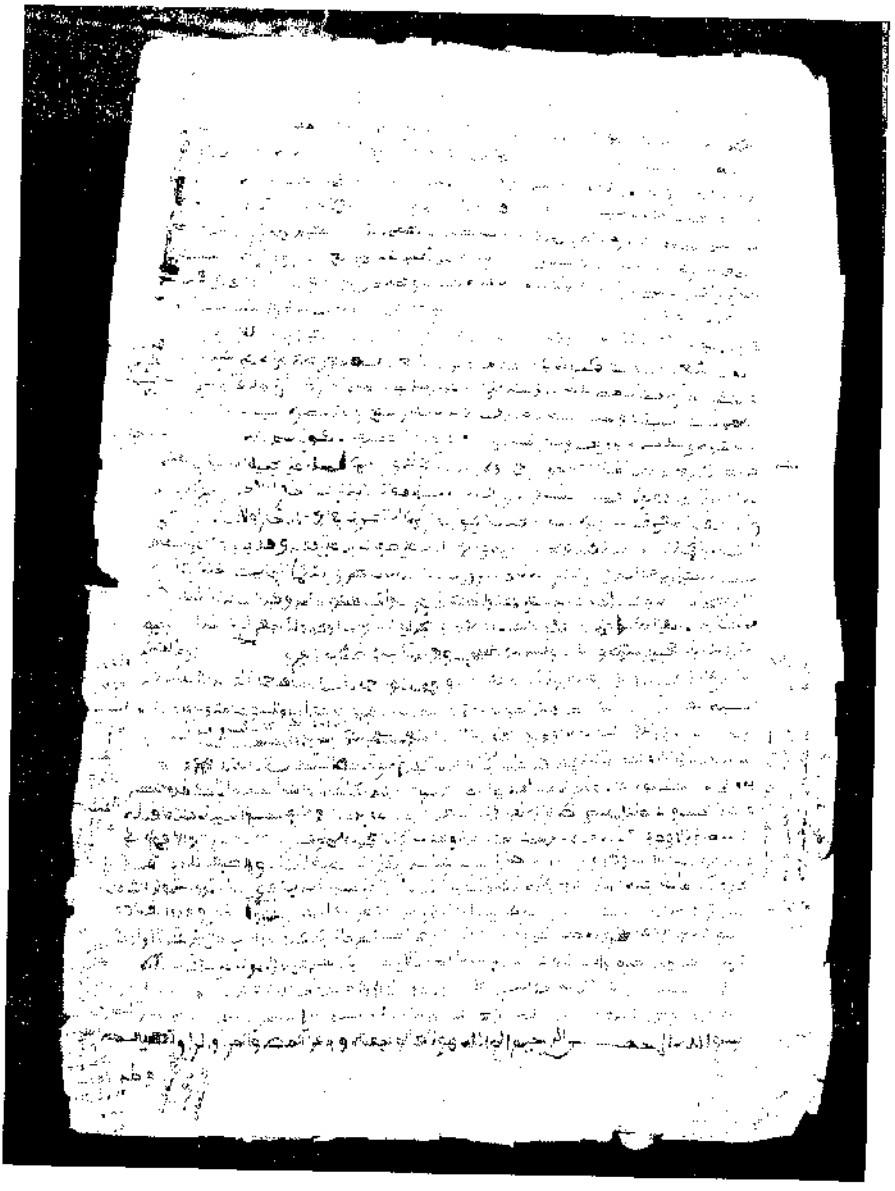

تيسير التفسير

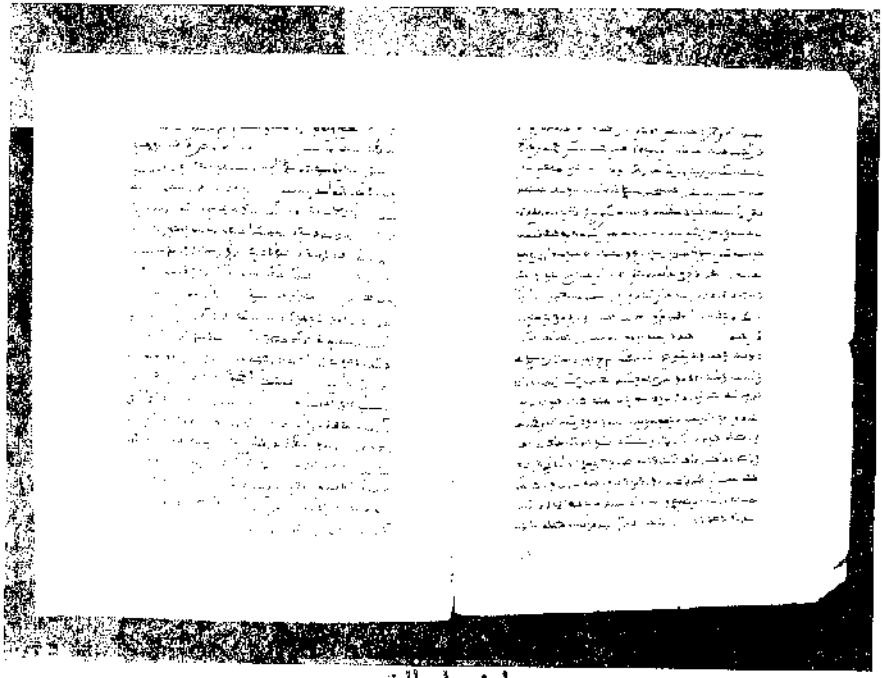

حاشية القمرين

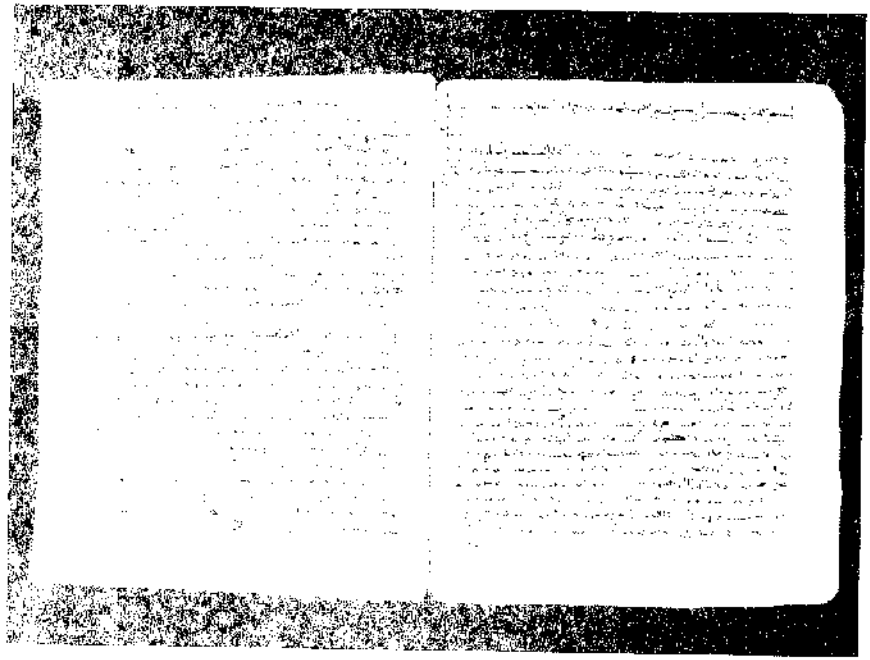

حاشية على شرح الملا

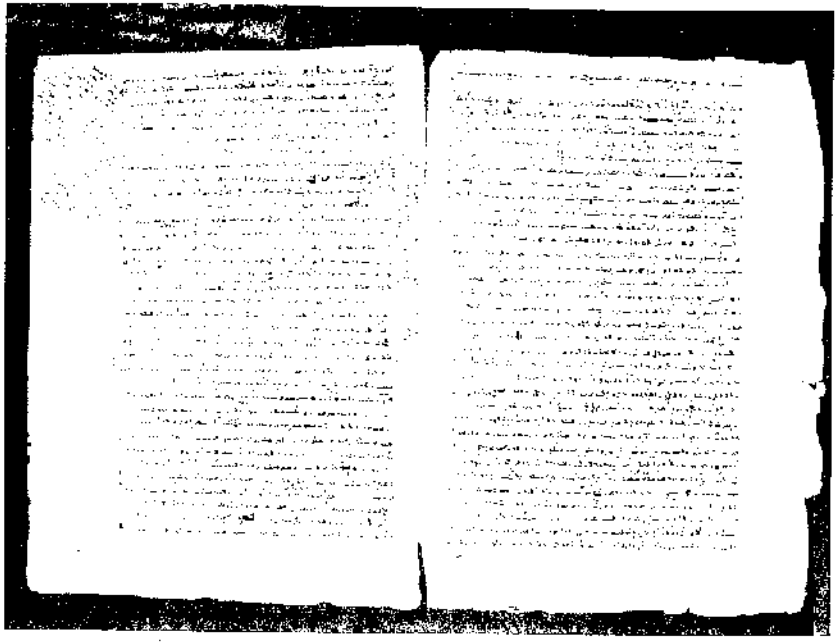

حاشية على شرح المرادي

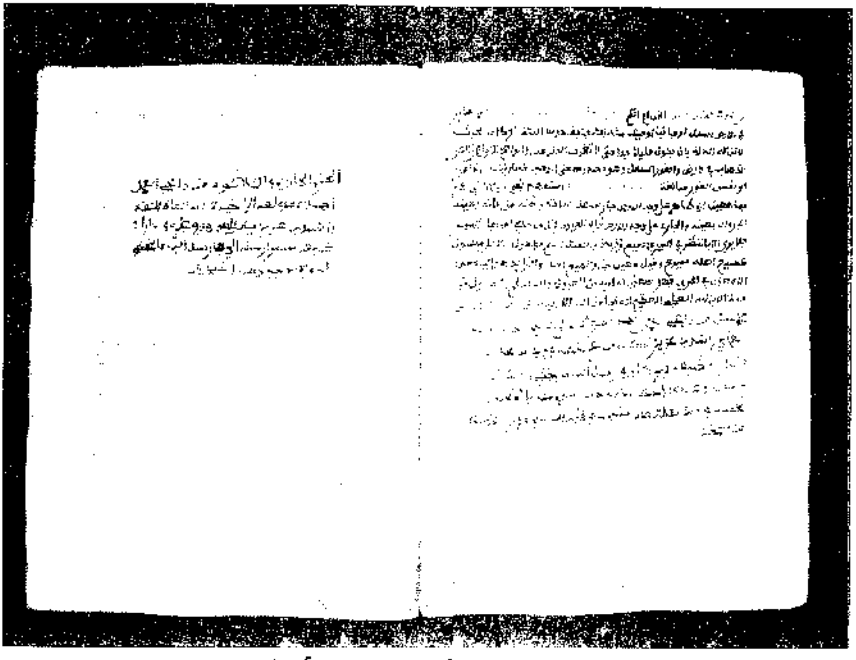

ملكي الحمل نيوم الأصل

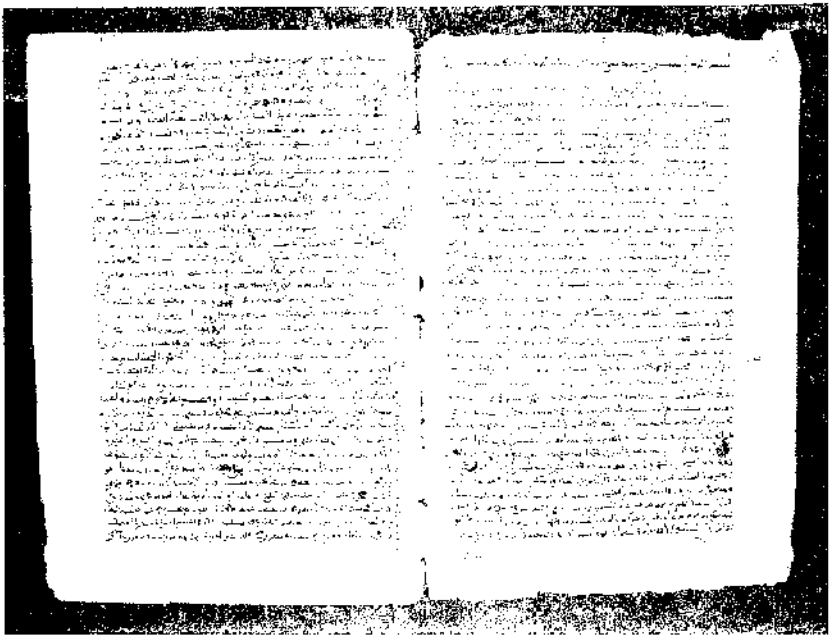

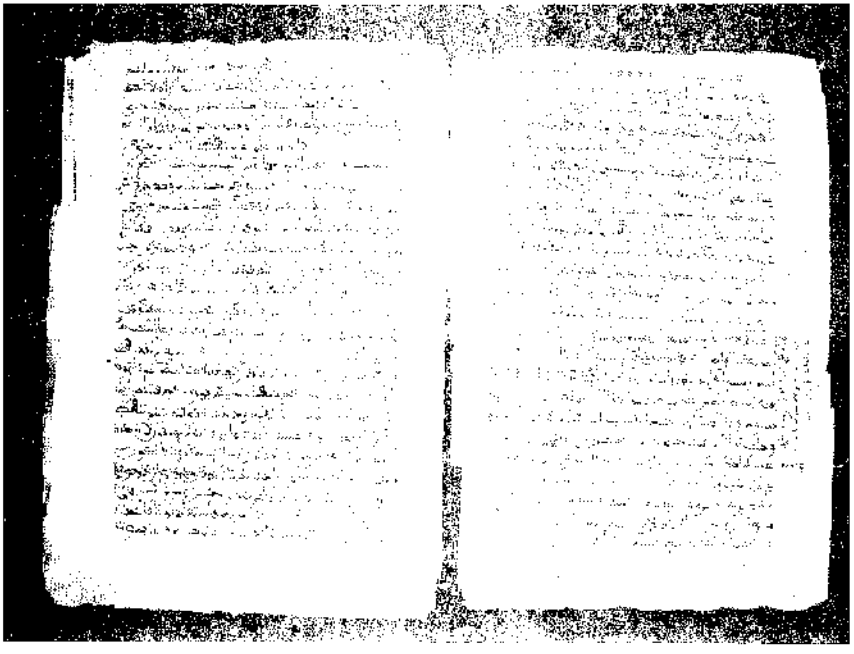

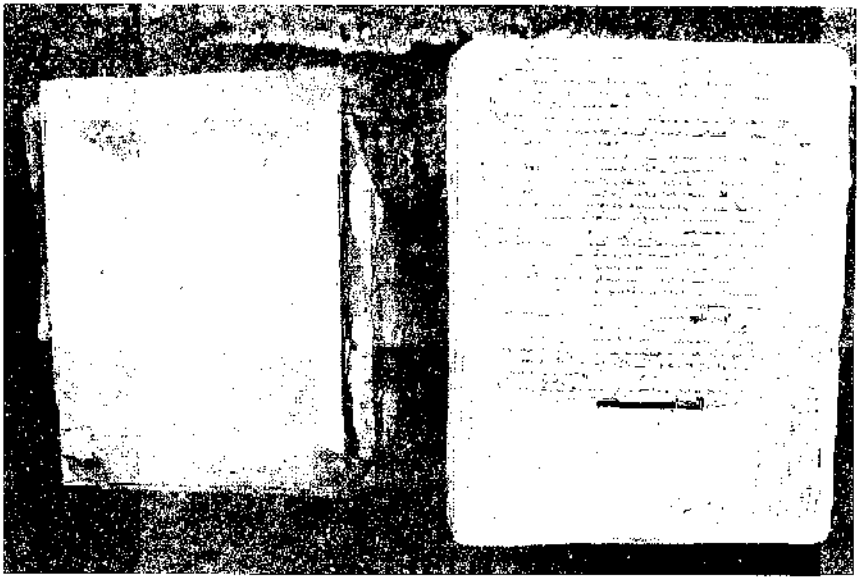

شرح الفيل

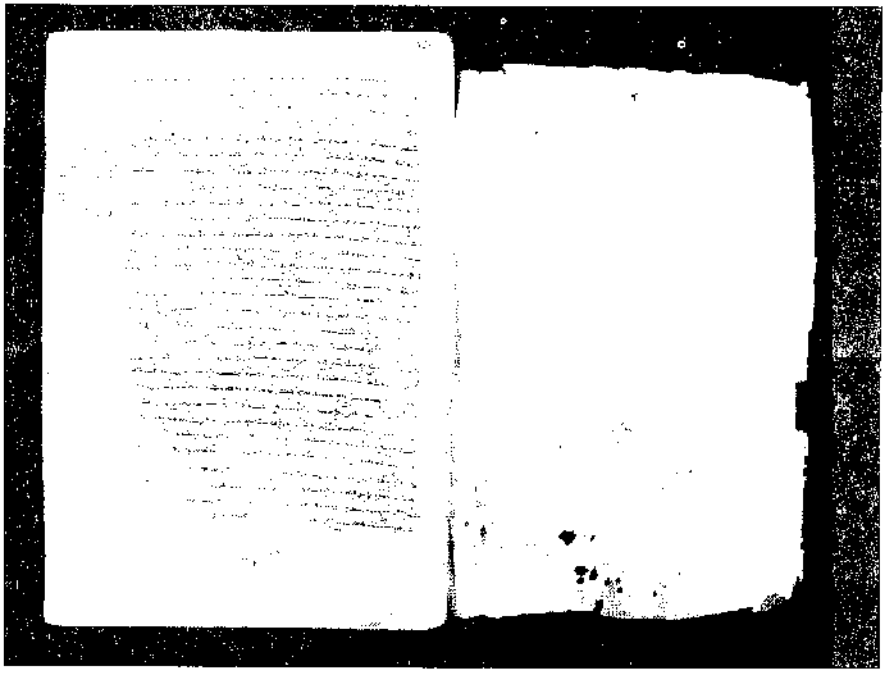

شرح شرح الاستعارات

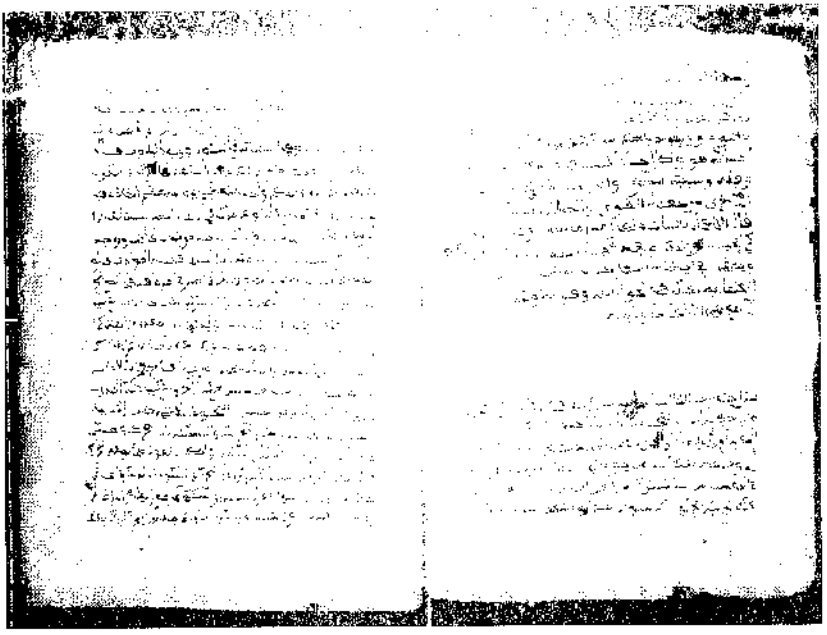

كتاب المعونة

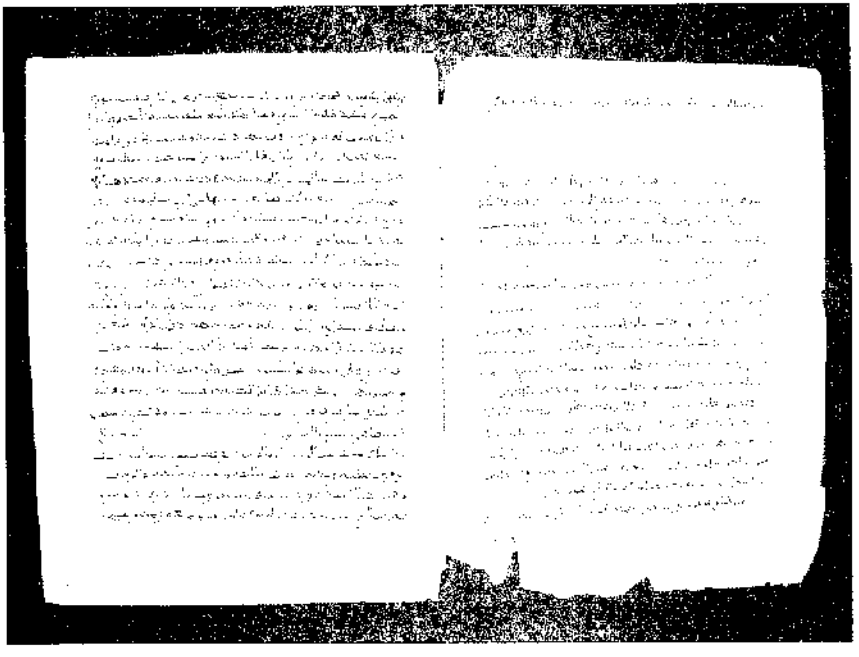

مختصر في علم الخط

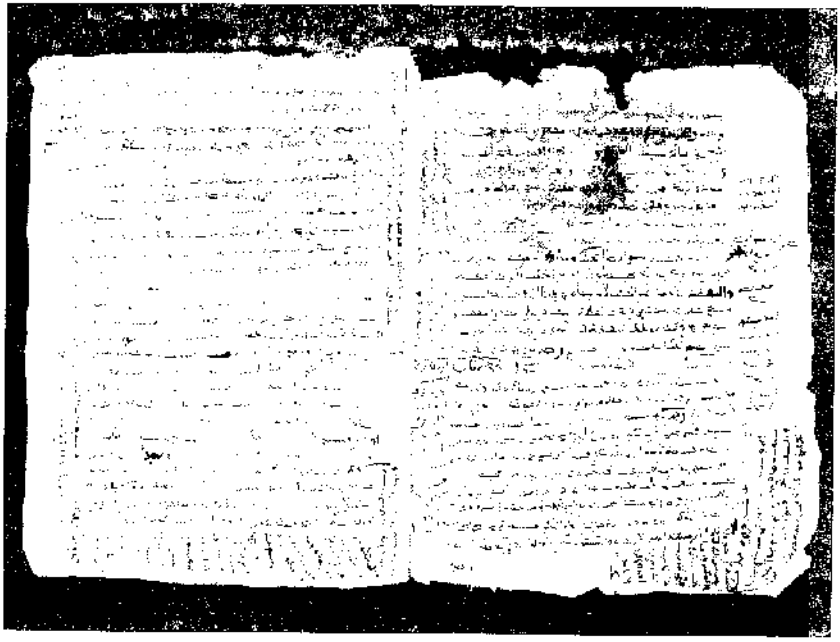

مسلط الفلج

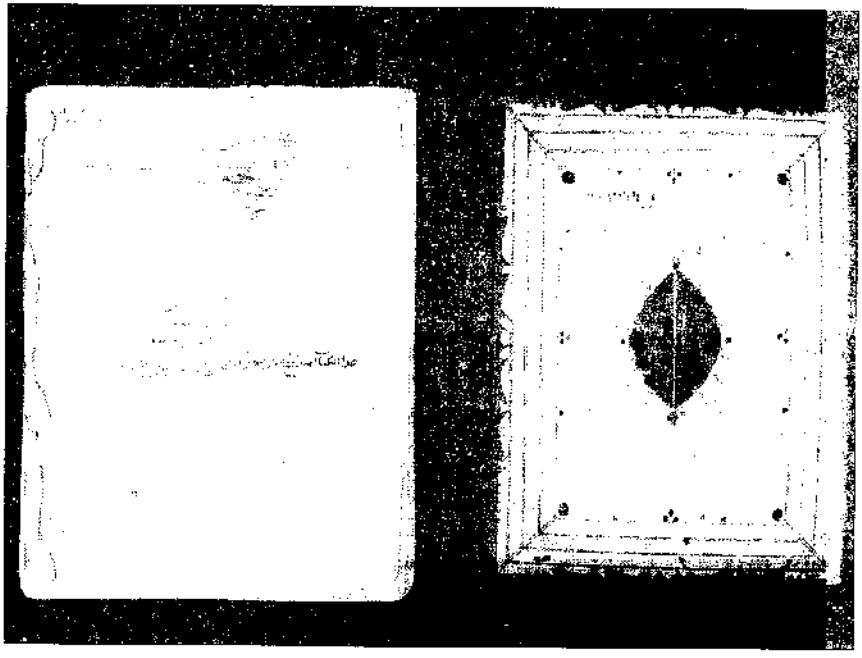

هيمان الزاد

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي لا إله سواه. ولا سيد إلا إياه. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه. وعلى شيخنا الحاج ابراهيم بن يوسف وحزبه [1]

وبعد فهذا كتاب يجمع القواعد والخاتمة مختصراً. أرجو به الموت على الإسلام والتسهيل يوم أكون مختصراً. سميته بـ الذهب الخالص. المنوه بالعلم القالص [2]. وفيه روائد كثيرة تكاد تكون ثلثاً لانكاد تجد مسئلة أمر المحشي بتحريرها الا حررتها وأثبتها ومهما رأيت من مخالفة فمن عمد أقيمها والبحث في الآيات احبته على عميان الزاد وغيره من تفاسيري وكثيراً ما أصحح غير ما صحح في الأثر والفضل لأبي سنة لانه الذي أسس وكفاني فتفرغت لبعض ما لم يذكره و (التاء) علامة على قلت و (الميم) على مالك و (الشين) على الشافعي و (الحاء) على أبي حنيفة وما لم أنسبه الى هؤلاء ولم أحكه بقيل فهو مذهبنا معتمد

(١) نص العلماء على جواز الصلاة على غير النبي تبعاً كما ورد وجرى عليه السلف من الصلاة على النبي وآله وصحبه. أما استقلالا فكرهه بعضهم تنزيها وهو الاشبه. وقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام انه صلى على آل أبي أوفى. وورد ان لعلي خصائصه صلى الله عليه وسلم الصلاة على من شاء استقلالا

وشيخه هو أحمد صاحب هذه الطرائق. كان من الاعلام الجامعين بين العلم والعمل وفروع الصادق والمتكلم الصحيح الناقب جد في طلب العلم وكثر تطوافه في البلاد حباً للسياحة في الأرض فدخل السودان وسافر الى تونس ومصر والحجاز وعاش على مذكور في تونس رضي الله عنه سنة ١٣٠٣ بعد أن كان رجل العلم والعمل وعن رأسهم المؤلف فطلب الاذن وجد في

(٢) نص على أنه وكذا واجنبه وخلا وعلى وعمد وأنصف وأنوى وذهب وخلص وقل وهو من الاضداد وشبه خلا وعدى

يحتمل أن يريد به اسم القالص المختبر المسماني وسموه أي توضيح البيان. ولا شك أن علم الشريعة من أرفع العلوم شأنا لما فيه يتقرب العبد الى الله تعالى. ويحتمل أن يريد بالقالص الناصع وهو اشارة الى أن علم شروع تقلص أهل ذهب وترك العمل به. أو الذي يذهب لانه ناصع خالص

الصفحة الأولى من كتاب الذهب الخالص

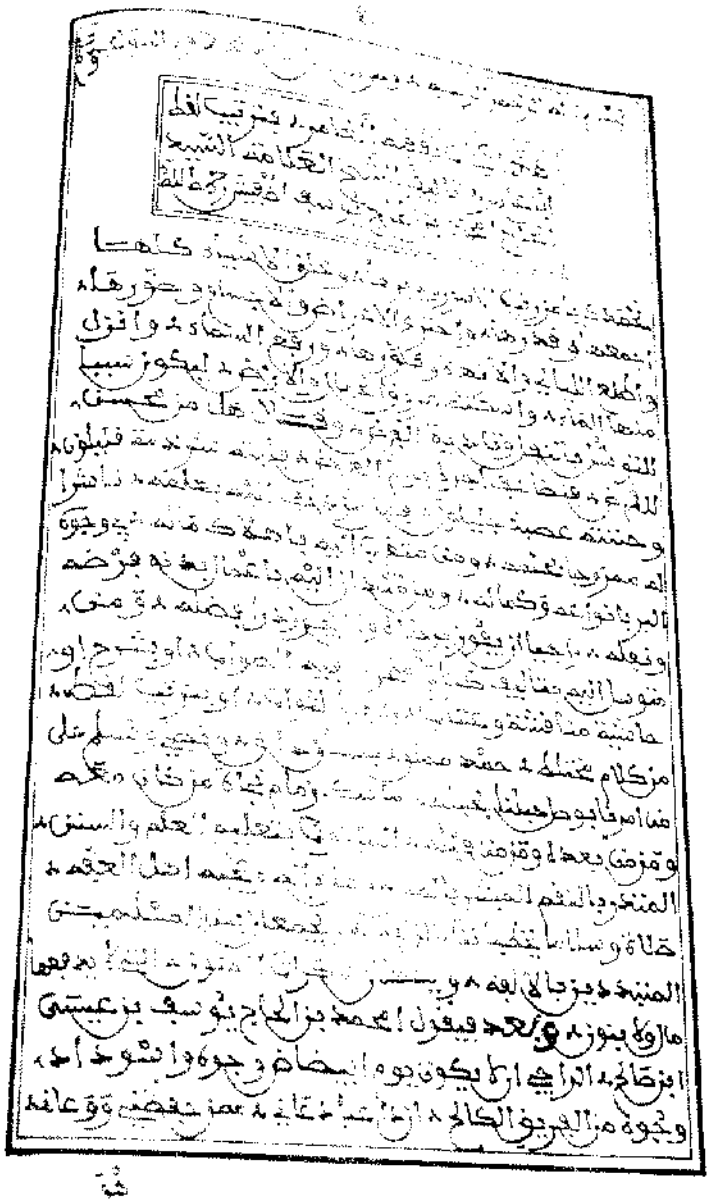

الصفحة الأولى من كتاب تفقيه الغامر
بترتيب لقط موسى بن عامر

الصفحة الأولى من كتاب جامع الوضع والحاشية

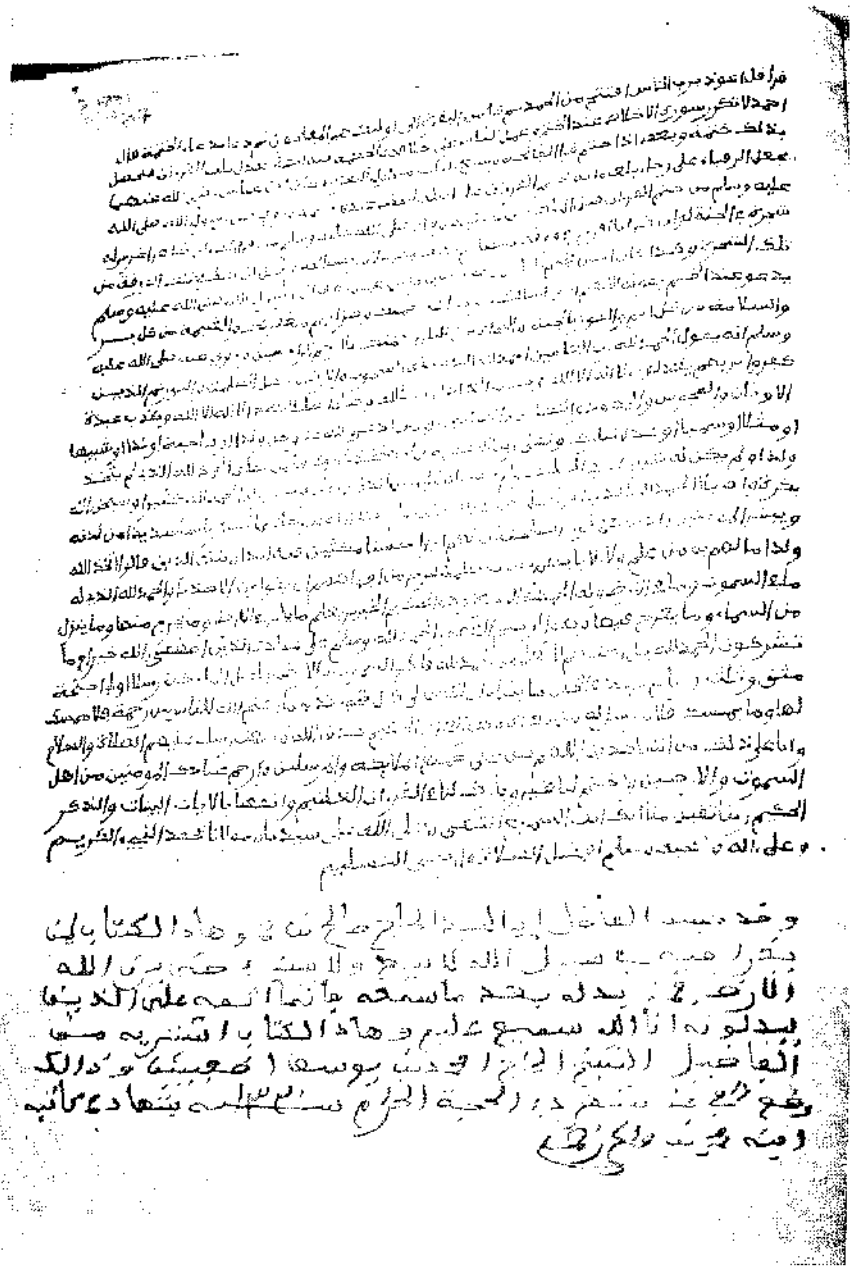

الورقة الأخيرة من كتاب 'تلقين التالي لآيات المتعالي'

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد : فسلام من كاتبه الحاج أحمد بن يوسف حامداً لمن جعله يؤلف على اخوانه حبا وديانة اولاهما الله نصرا وصيانة العالم الورع الشيخ عبد الله بن حميد والفهامة عيسى[2] بن صالح وسائر الطلبة للعلم والعبادة وصلني كتابكما وفرحت به لبقاء المحبة والاتصال في أمر الدين وشكوتما انقطاع الكتابة بيننا اعلما انها لم تنقطع ولكن كتبي لاتصلكما لا أدري مااسم بلدكم ؟ وان دريت ما اسمه لم يصلكما لوسع عمان فتارة ارسله اليكما على يد السلطان فيصل وتارة على يد السيد حمود[3] أناله الله مراده كله بلا معصية فلو جعلتما قماطر معنونة اليّ وترصدان في مسقط من يقبض ما ارسل اليكما من كتاب أو جواب علم أو غيره ذلك وبلغوا السلام من قرظ في شان هميان الزاد وغيره ممن مال اليّ ومن تصدى للتعلم أو للتعليم والعبادة وقد ارسلت اليكم كتابا في المعقول فأخبروني هل وصلكم ؟ وارسلت اليكم كتاب الشيخ هود تنسخونه وتردونه .

ومن كتبه : رضي الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

أما بعد : فسلام من كاتبه لتسع مضين من رمضان عام ١٣٢٥ أحمد بن الحاج يوسف وسائر تلاميذه واخوانه في الدين على العالم

(١) نور الدين السالمي .
(٢) عيسى بن صالح بن علي الحارثي العماني العالم .
(٣) حمود بن عوان بن قيس .

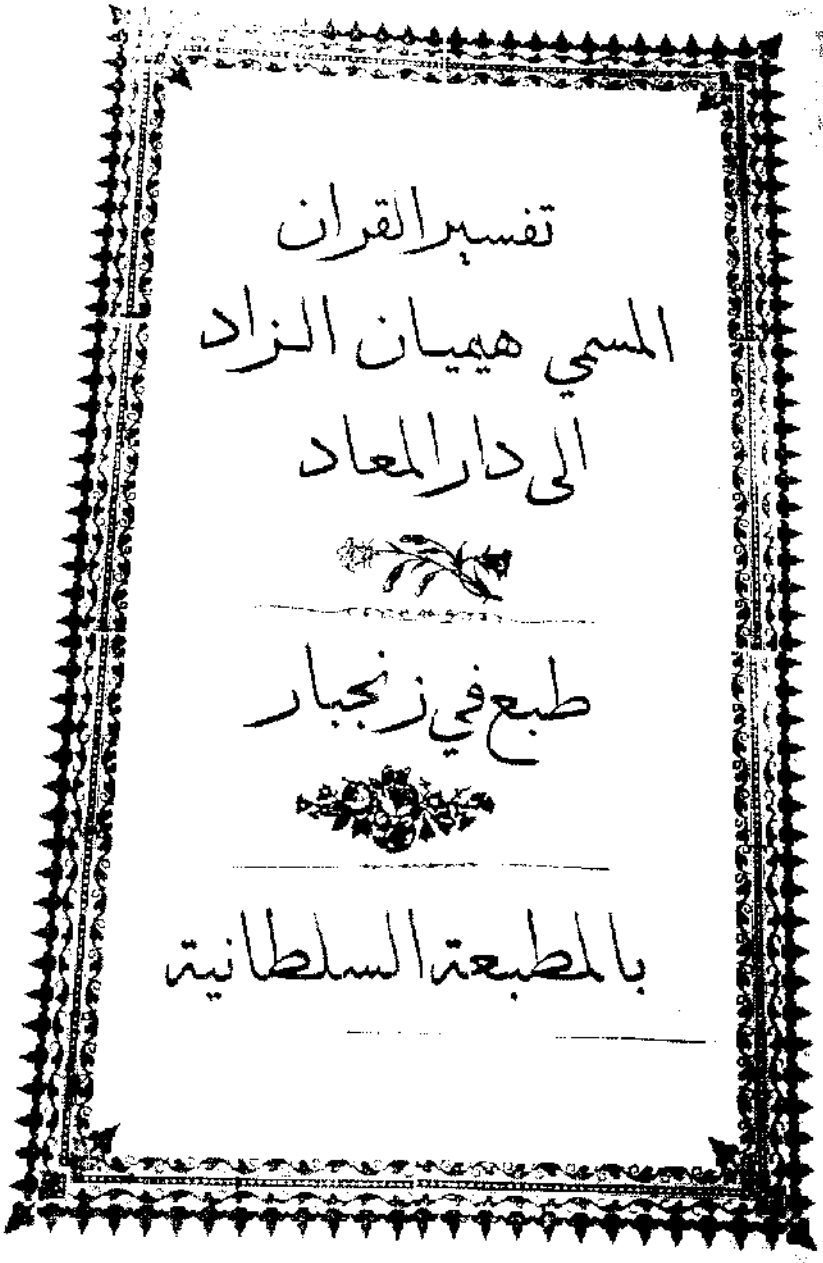
تفسير القران
المسمي هميان الزاد
الى دار المعاد
طبع في زنجبار
بالمطبعة السلطانية

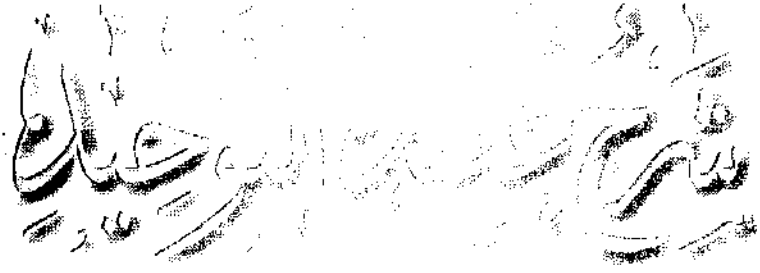

للشيخ العلامة

قطب الأئمة الشيخ أحمد بن يوسف أطفيش

١٢٣٦ - ١٣١٤هـ / ١٨٢١ - ١٨٩٦م

تحقيق الأستاذ

مصطفى بن الناصر وينتن

نشر جمعية التراث
القرارة - غرداية - الجزائر

شرح العقيدة

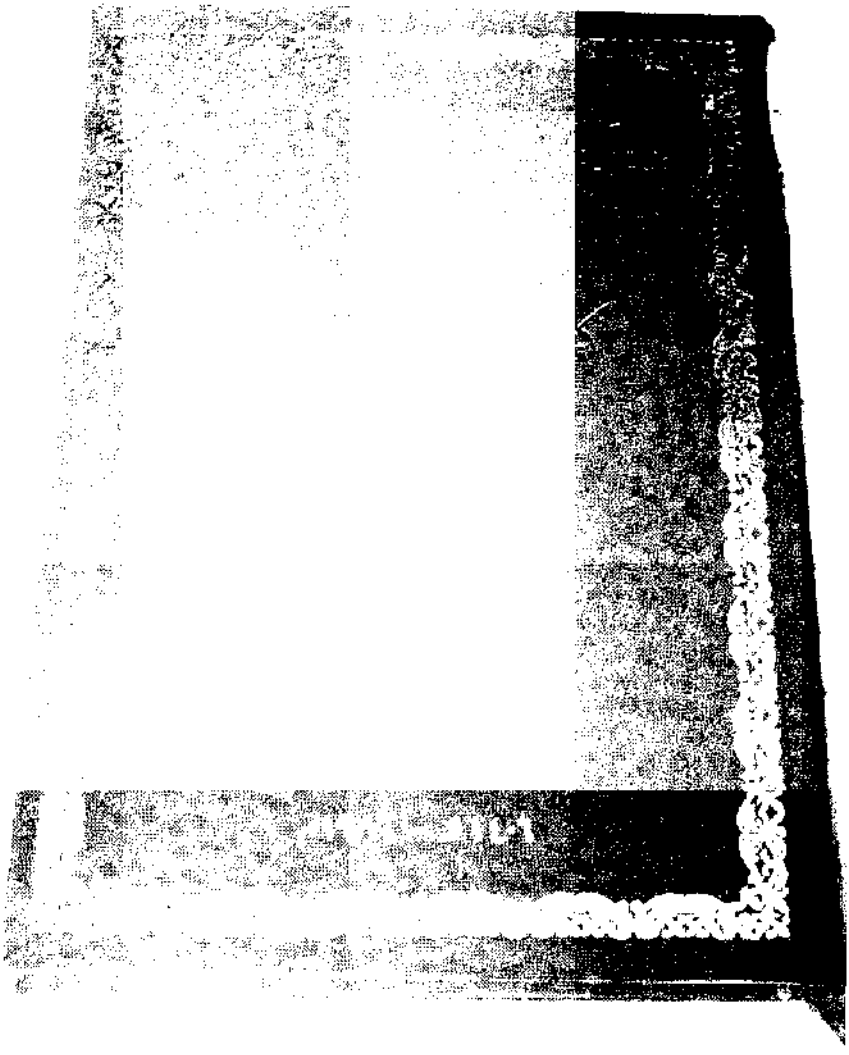

(كتاب الجامع الصغير (جامع الوضع والحاشية

الذهب الخالص

المنوه بالعلم القالص

تأليف

مجتهد الأمة قطب الأئمة

الشيخ محمد بن يوسف اطفيش

رحمه الله ورضي عنه ونفع المسلمين

بعلومه وتآليفه

قام بطبعه والتعليق عليه تلميذ المؤلف حفيد أخيه وشيخه

أبو إسحاق إبراهيم اطفيش

لطف الله به

حقوق إعادة الطبع محفوظة

١٣٤٣

كتاب الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص

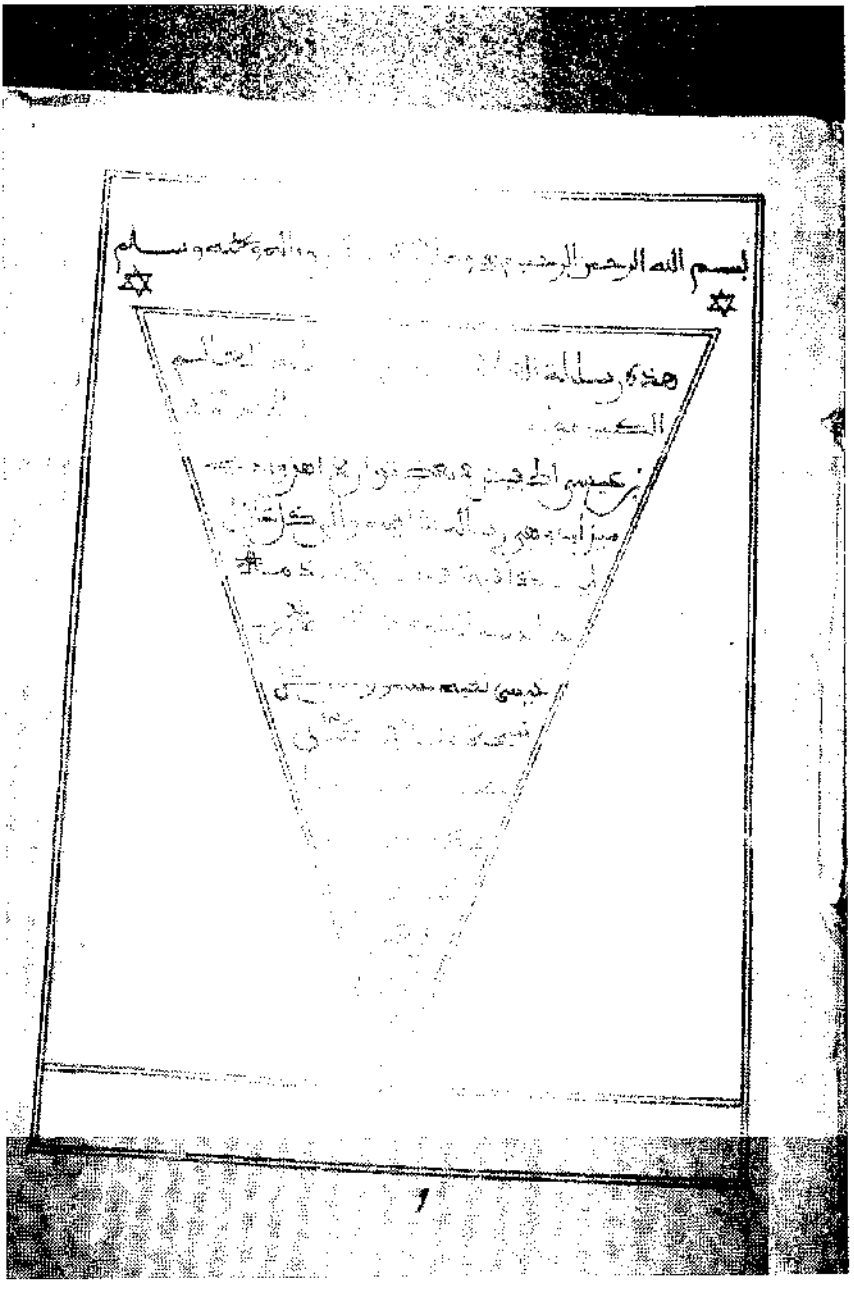

كتاب الرسالة الشافية في تواريخ أهل
واحي ميزاب

كتاب الرسم
في تعليم الخط

تأليف

شيخنا قطب الأئمة

محمد بن يوسف أطفيش

رحمه الله

يوجد في نسخة المؤلف بخطه ، ولمشايخ الحرم الشريف اعتناء بهذا التأليف
وعضوه من مؤلفه إذ ألفه فيه

التزم طبعه وقام بتصحيحه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش الميزابي الجزائري

﴿ حقوق الطبع محفوظة .. القاهرة : ١٣٤٩ ﴾

المطبعة السلفية . بمصر

كتاب الرسم في تعليم الخط1

السيرة الجامعة

من المعجزات اللامعة

تأليف

مجدد لامة وقطب الأئمة

الشيخ محمد بن يوسف اطفيش

رحمه الله ونفع المسلمين بعلومه

﴿الطبعة الثانية﴾

بنفقة وعناية الفاضل الجليل

﴿ الشيخ سالم بن سلطان بن قاسم الريامي بزنجبار ﴾

القاهرة

١٣٤٤

المطبعة السلفية - بمصر

كتاب السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة

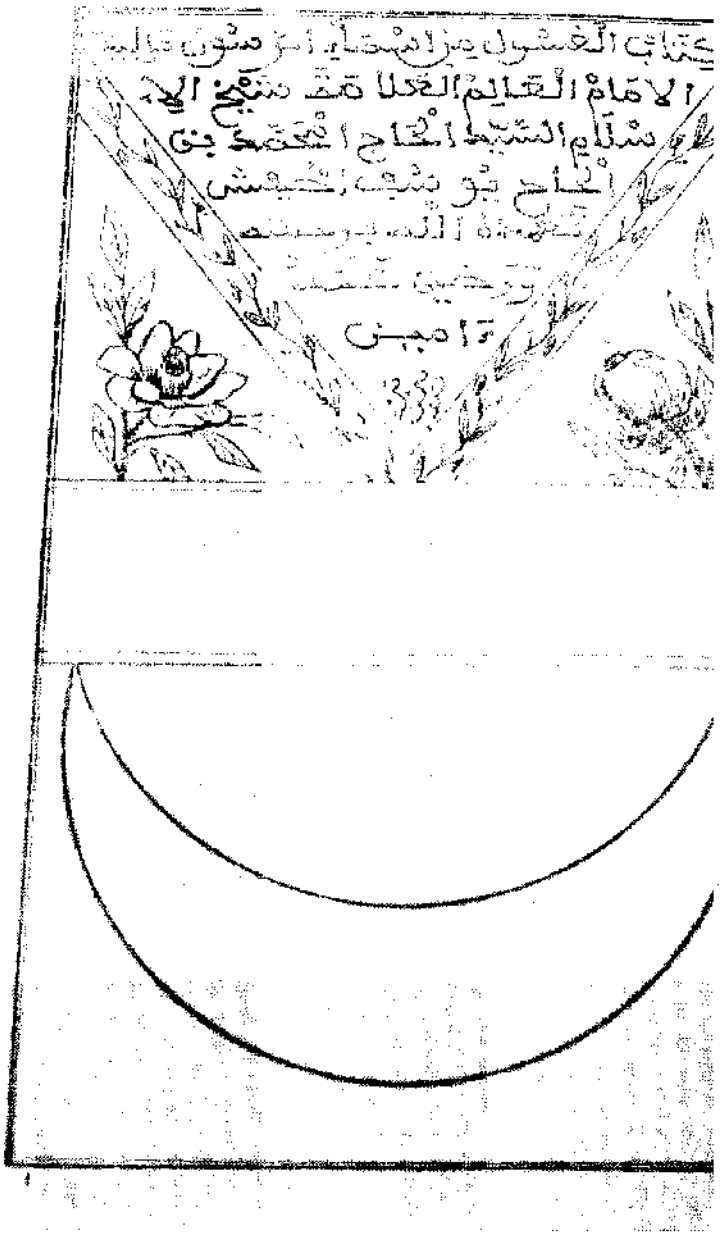

كتاب الغسول من أسماء الرسول 3

هذا كتاب المعلقات لاصحابنا
ترتيب الامام العالم العلامة
الشيخ امحمد بن الحاج
يوسف الطفيش
الميزابي
٤

كتاب ترتيب المعلقات

كتاب ترتيب لقط موسى بن عامر 2

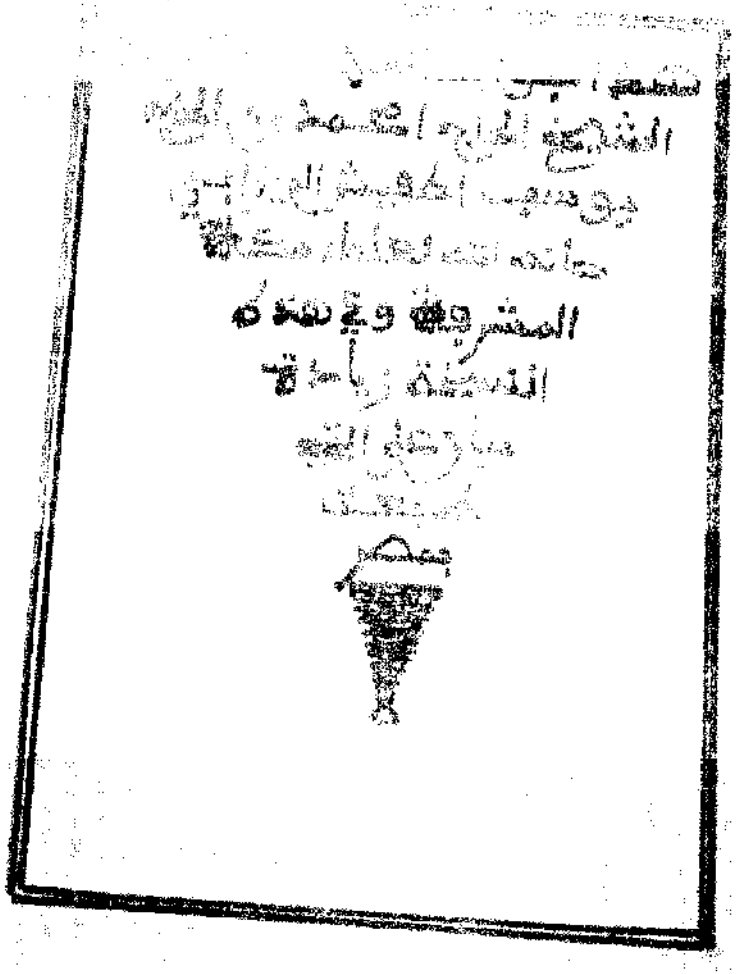

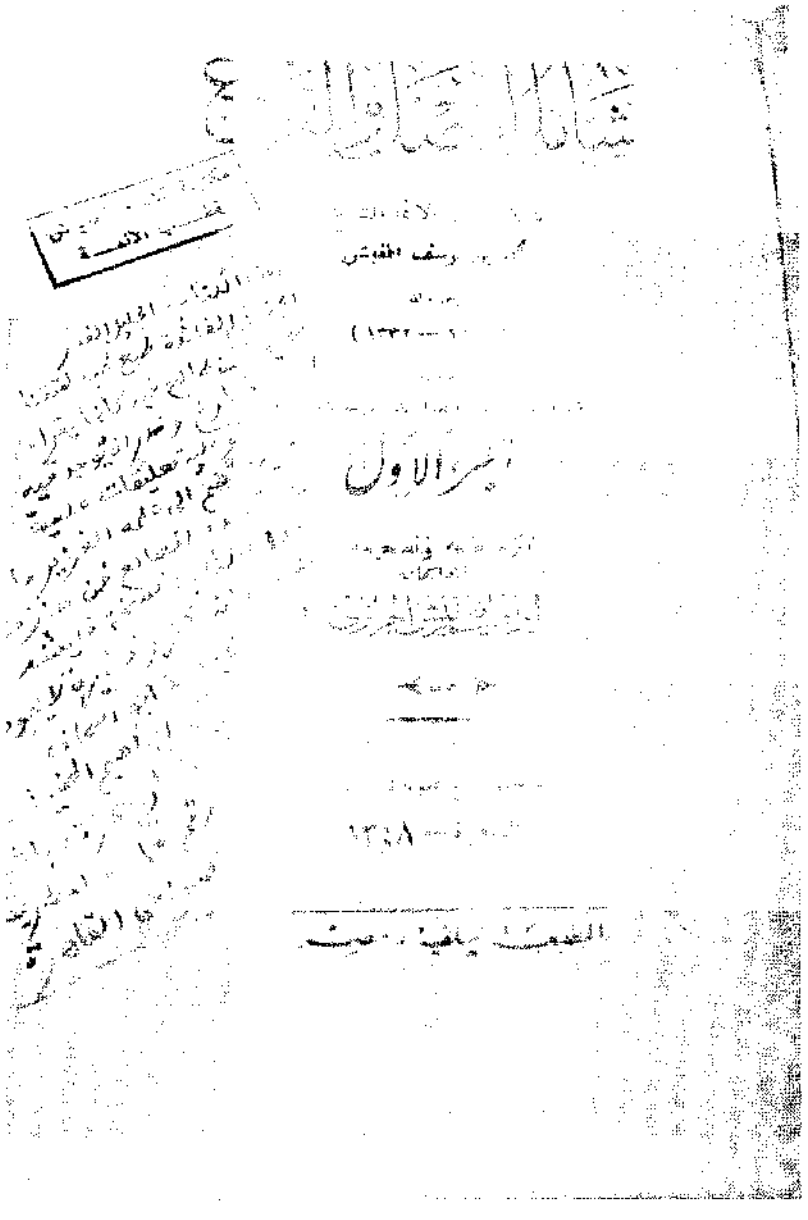

كتاب شامل الأصل والفرع 3

هذا

الجزء الاول من شرح

شيخنا العلامة وأستاذنا البحر الفهامة

السيد الحاج محمد بن الحاج يوسف اطفيش

حفظه الله ونصره وجعل الجنة مأواه ومسكنه

آمين يارب العالمين

على بعض منظومات ابن النظر العماني المسمات

بالدعائم

وقع الشروع في طبعه اواخر جمادى الاولى

سنة ١٣٢٥

بجريدة [illegible]

[illegible]

[illegible]

كتاب شرح الدعايم

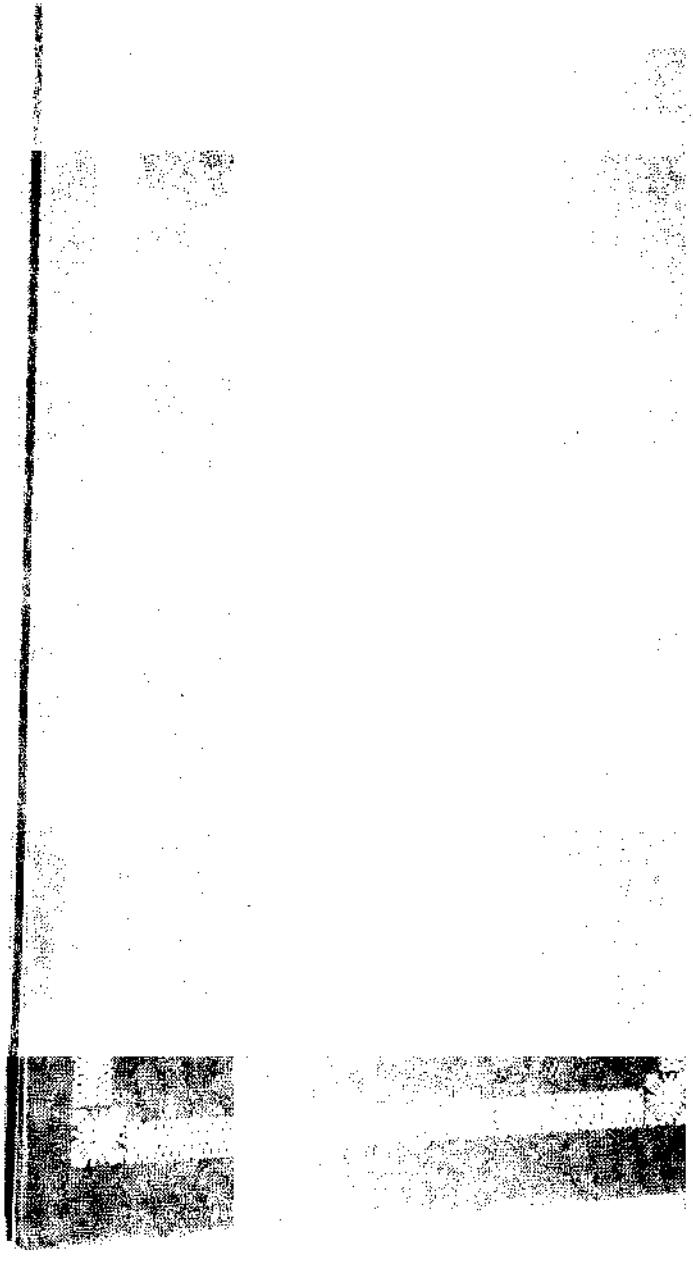

[illegible]
[illegible]

وفاء الضمانة بأداء الأمانة
في فن الحديث

تأليف
محمد بن يوسف الطفيش

الجزء الأول

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

التحفة والتوأم

في علم الفرائض

تأليف

الإمام الأفخم والمحقق الأعظم الأستاذ

محمد بن يوسف [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مطبعة [illegible]

كتابا التحفة والتوأم في علم الفرائض

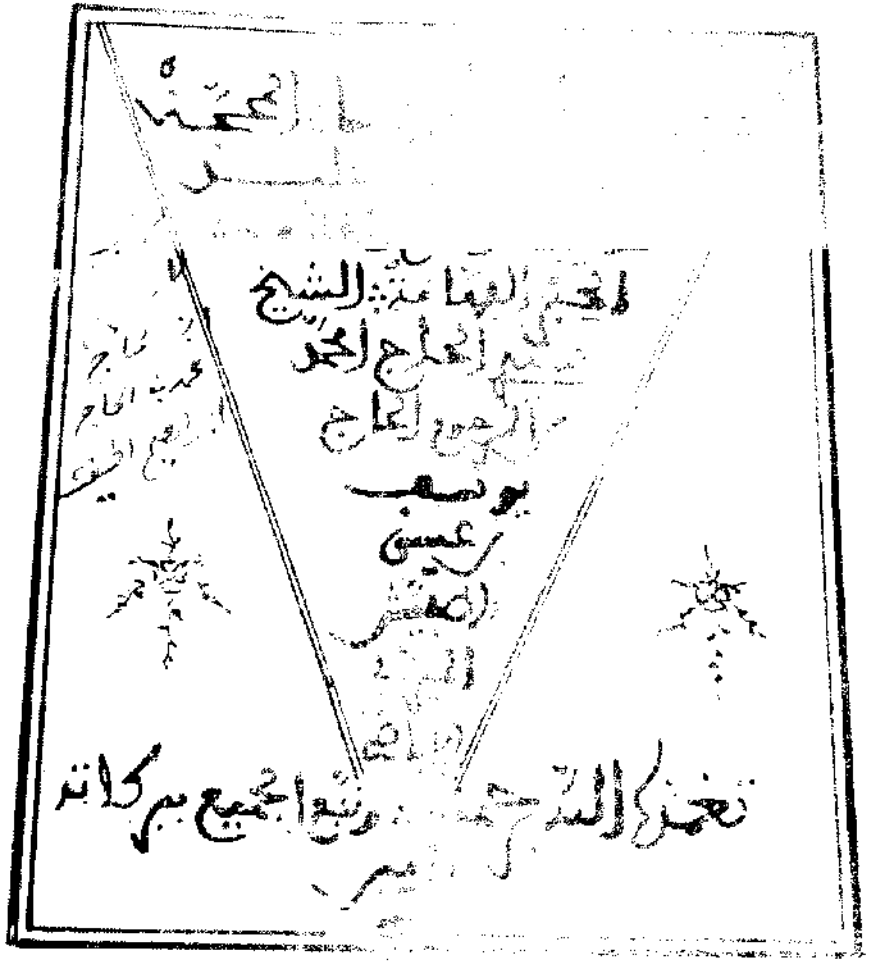

المحجة في التوحيد بلا

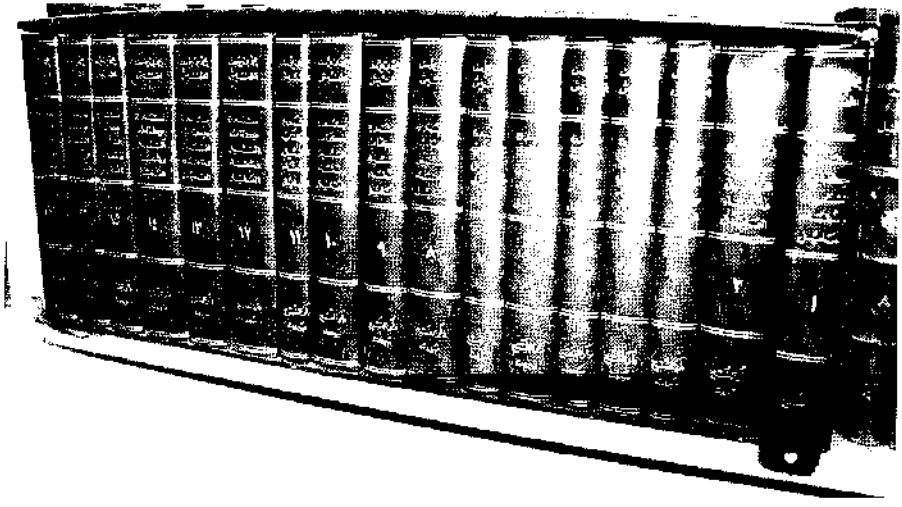

مجموعة كتاب شرح الفيل وشفاء العليل 4

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible] وحمد لله على كل

[illegible] ثم [illegible]

[illegible]

[illegible] وعلى تيسيره في ما صعب على كثير

[illegible] وعلى جميع [illegible] والدنيوية التي انعم بها على

[illegible] بعد فهذا تفسير رجل يعني

[illegible] ما ظهر لفكره بعد فراغ

[illegible] حديثا او قصة و [illegible]

[illegible] واما [illegible] تفاسير الآية والرد على بعض المفسرين والجواب عنه

لاما [illegible] ولكن [illegible] في الآية اولا ثم تارة يوافق نظر جار

الله [illegible] وتارة [illegible] ويوافق وجها احسن

[illegible] عنه وسماه هميان الزاد الى دار

[illegible] فيه قوله وبخصوص

[illegible] وايضاح مذهب الاباضية

[illegible] علـيه .

سورة الفاتحة

[illegible] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible] القرآن هي فاتحة الكتاب هي

السبع المثاني رواه ابو هريرة وسميت [illegible] لانه [illegible] في المصاحف وبه

تعلم وفي القراءة في الصلاة ولانها [illegible] السور ولام يشتمل

مقدمة تفسير هميان الزاد

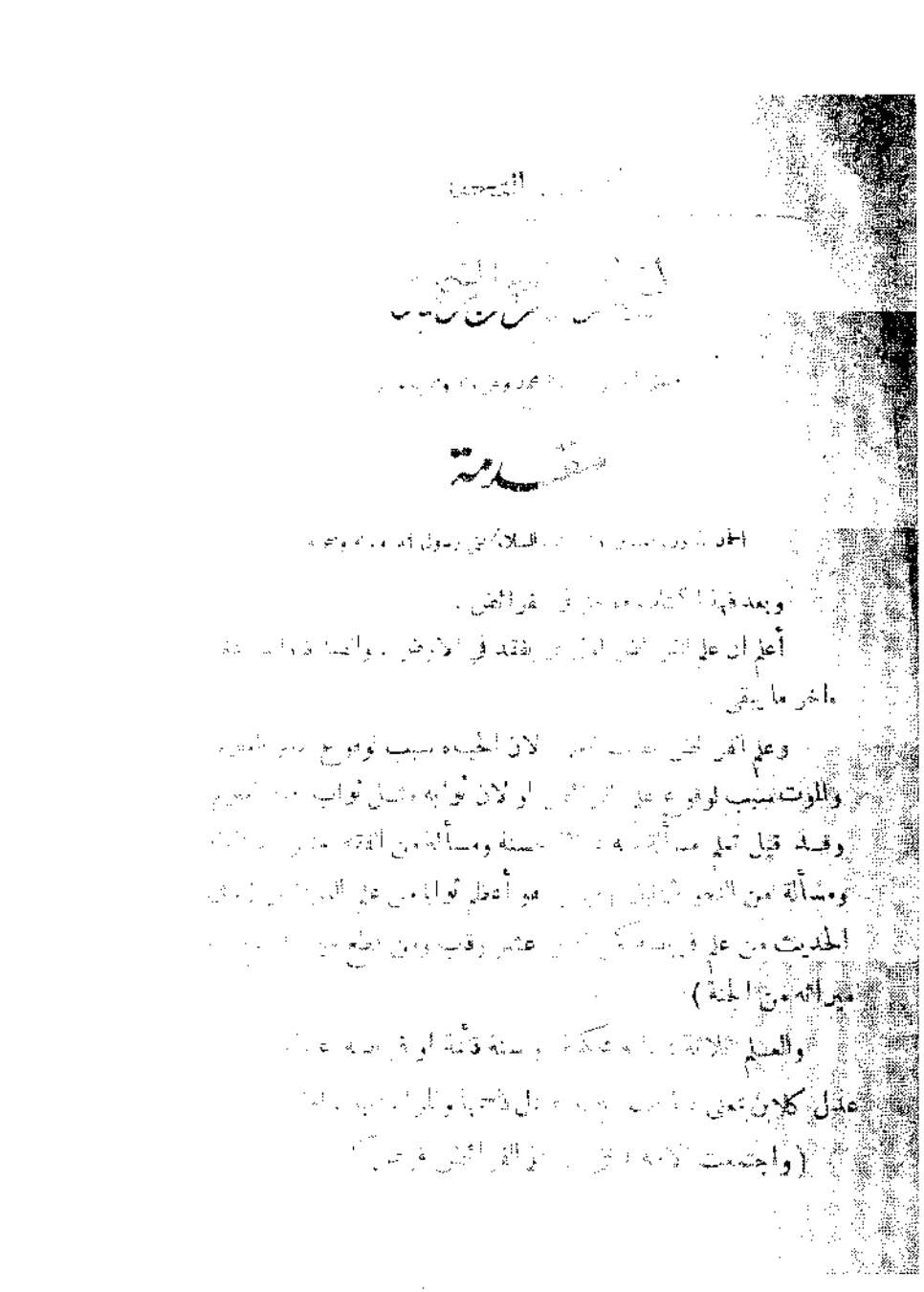

كتاب التوأم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

مقدمة

الحمد لله الذي أوجب الموت على جميع الموجودات، وانفرد بالديمومة والبقاء على سائر المخلوقات، فسبحانه من إله منزه عن القسمة والتجزئة وتعداد العادين ويرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

والصلاة والسلام على من أسس أصول الإسلام، وصحح بصحيح عزمه قواعد الأحكام، وأنزل عليه سورة النساء المبينة لذوي الفروض والسهام، سيدنا محمد أفضل ولد عدنان، القائل تعلموا الفرائض وعلموها الناس فإنها نصف العلم، وآله وصحبه الذين تعصبوا على اقتناء فنون العلم من منبعها، ولم يفلتوا شيئاً من أصول الشريعة ولا من فروعها، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين، إلى يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. ﴿أما بعد﴾ فقد كتب المصنف رحمه الله تعالى في أول هذا الكتاب مرة بين فيها سبب تأليفه هذا الكتاب الثاني ونصها:

«إني لما رجعت من [illegible] صفا الوقت عن الاشتغال فظهر لي أن أصنف في

مقدمة كتاب التوأم

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

﴿ أما بعد [illegible] فهذا تأليف [illegible]
قطب الأئمة الحاج محمد [illegible] الحاج [illegible]
المسجد الحرام نفعنا الله [illegible] وأسكنه [illegible]
حمداً وشكراً [illegible] بالقلم [illegible]
تعليما لما لم يُعلم ، سيدنا محمد أفضل العرب والعجم [illegible]
وصحبه من هم أكمل وأتم وبعد فهذا رسم في [illegible]
كيف يكتب الحرف [illegible] أو مع آخر [illegible]
الله عز وجل

مقدمة كتاب الرسم في تعليم الخ[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

مقدمة

إن سيرة الرسل جعلها الله من أكبر وسائل الهداية ، واشدها تثبيتاً للايمان فهي جامعة في آن واحد براهين صدقهم وآيات الاقناع حيث لا يشاهد عاقل شيئاً من ذلك الا ويخضع للحق، لما يجد في نفسه من الاقتناع والتسليم والقبول ، ولقد دعى رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه ولم يتردد في قبول الدعوة [illegible] من فوره واناب الى الحق من حينه ما ذلك الا نتيجة الاقتناع وكمال العقل المجرد [illegible] هوى

أيد الله الرسل في كل امة بخوارق لا تدخل تحت الحس وانما تسلم بها العقول الراجحة تسليم معترف بانها لا تكون في شيء من اختراع البشر ولكنها [illegible] ولو بلغ ارقى درجة في العلم والابتداع ، وكم ادعى المكابرون جنون [illegible] حيث شاهدوا [illegible] المعجزات التي لا تعللها عقولهم ولا تصل الى [illegible] في آخر الامر [illegible] ضرورة الاعتراف [illegible] كاذبين

[illegible] الامامنذ القرن الثاني [illegible] الرسول ﷺ وهو عبارة عن [illegible] ومعجزاته [illegible] تاريخ ولادته ونسبه ، وذلك

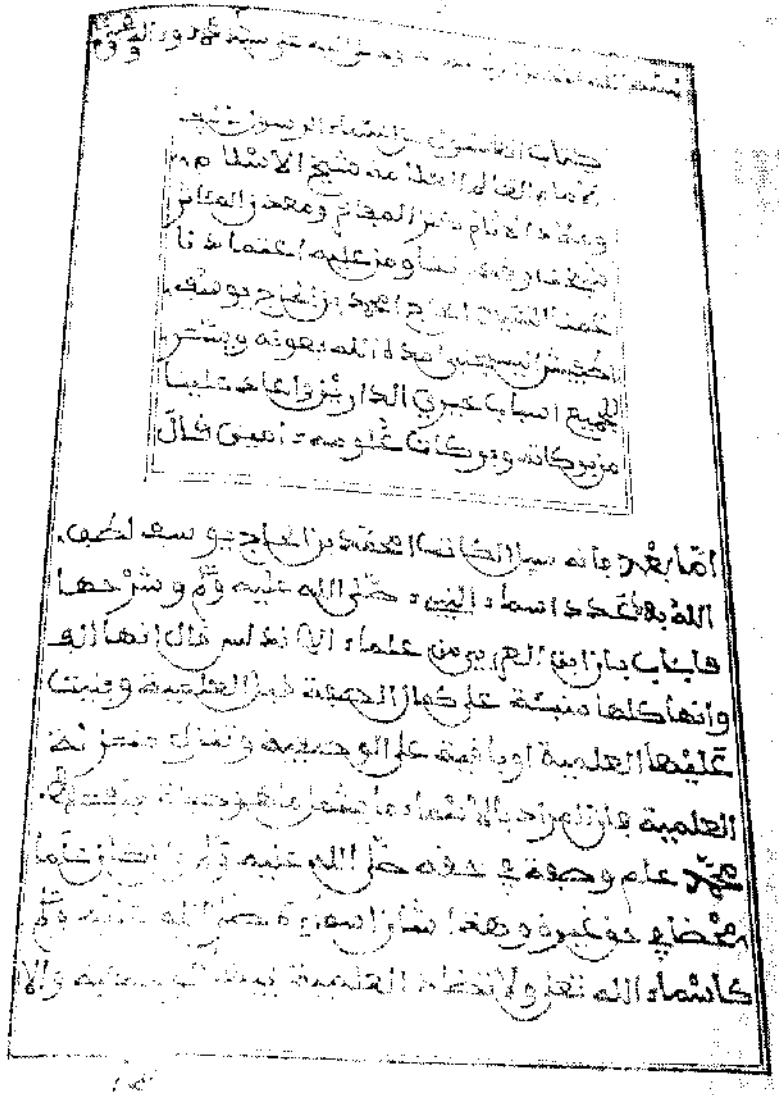

مقدمة كتاب الغسول من أسماء الرسول

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم • قال المصنف
حفظه الله • أما بعد فهذا ترتيب المدونة الكبرى بألفاظها
رجاء لثواب الله وبركة الأوائل •

باب التكليف ذكر جماعة من العلماء أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال اضربوهم على الصلاة إذا بلغوا سبع سنين •
وذكر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه أمرهم أن يعلموهم إذا بلغوا سبع سنين ويضربوهم إذا
بلغوا اثنتي عشرة سنة على الصلاة • وعن الشعبي يؤمر الصبي بالصلاة
إذا أثغر • وعن ابن سيرين كانوا يقولون إذا عرف يمينه من شماله
أمر بالصلاة • وقال الحسن لا يجب عليه شيء حتى يبلغ • قال الخطيب
أي لا يتأكد عليه شيء حتى يبلغ وهو مناف لما ورد موقوفا أو مرفوعا
اضربوهم عليها لكذا • ويجاب بأن المراد لا يؤكد عليه تأكيدا مكفرا
وعلى كل حال إذا بلغ تأكد تأكدا واجبا • انتهى ويؤدب على التعلم كما
يؤدب على القرآن ولا يعذر والده ولا وليه بترك ذلك • وذكروا عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا أطاق الصبي صوم ثلاثة أيام متواليات
أمر بصوم رمضان • وذكروا عن عروة أنه كان يأمرهم بالصوم إذا
أطاقوه وبالصلاة إذا عقلوها • وفيما يؤثر من الحديث عن النبي
صلى الله عليه وسلم علموا أولادكم الخير صغارا ينفعهم كبارا • وفيما يؤثر
عن ابن مسعود أنه قال لرجل ومعه ابنه أما إن الله سائلك كيف
أدبته وعلمته وسائله كيف برك وأطاعك • وذكروا عن عمر بن الخطاب

مقدمة كتاب ترتيب المدونة الكبرى

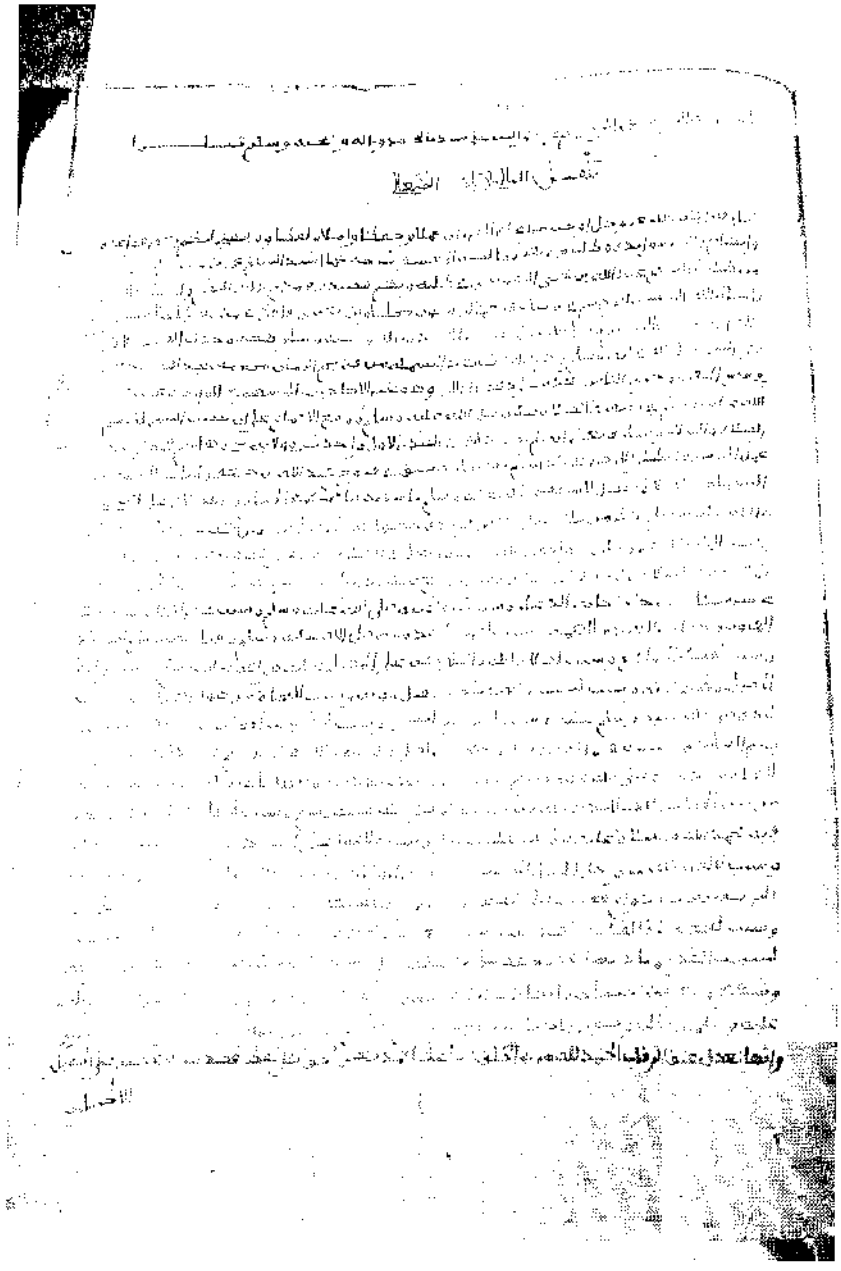

مقدمة كتاب تلقين التالي لآيات المتعالي

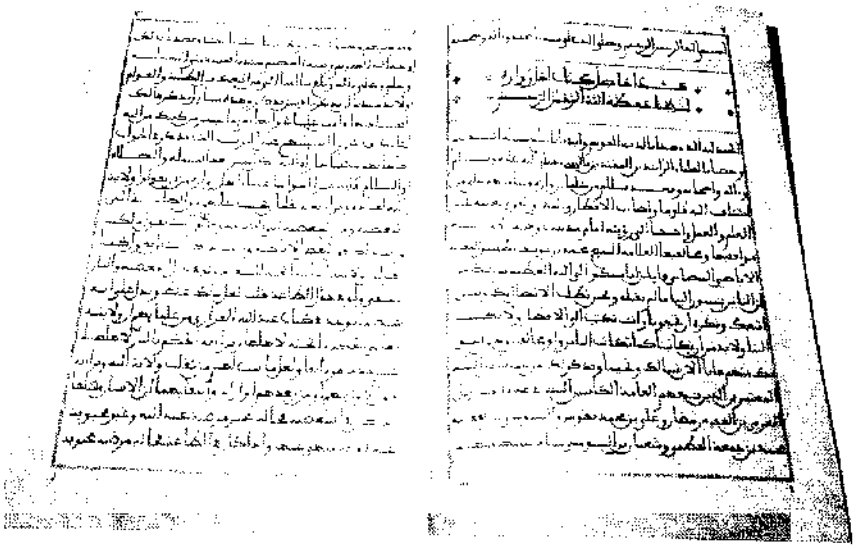

مقدمة كتاب جواب أهل زوارة 2

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الحمد لله حمداً يوافي النعم بفضله والصلاة والسلام على أفضل رسله ، وعلى آله خير آل أانف مرة كل ساعة على الكمال .

وبعد : فهذا كتاب في أحاديث تروبها الصحابة رضي الله عنهم مما له سند عند العلماء ، ووصلنا من لدنهم وسيته : (وفاء الضمانة بأداء الأمانة) ، يشتمل على مقدمة وأربعين حديثاً من كل فن ، وقد تم بالموقوف الذي كالمتصل المألوف ، والمقدمة على فصلين يكونان قنوناً للسنن .

مقدمة كتاب وفاء الضمانة وأداء الأمانة 2

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله حق حمده ، والصلاة والسلام على أكمل وأشرف خلقه ، المبعوث الى كافة الأمم بأكمل شرائعه وهدايته ، سيدنا محمد نبيه وعبده ، وعلى آله وصحبه ، والتابعين لهم باحسان الى يوم يجزى فيه المحسن باحسانه ويؤخذ المسيء باساءته

وبعد فان كتاب شامل الاصل والفرع ، الذي ألفه قطب الائمة شيخنا محمد بن يوسف اطفيش رحمه الله وجزاه عن العلم والدين أحسن جزاء - بعد أن بلغ درجة الاجتهاد ، وأودع فيه من تحقيقاته ما يبتهج به الباحث ويتطلبه العامل في مرحلة الحياة الدينية ، ويكشف عن مكنون مسائل قد تستعصي عن المحصلين والمستزيدين ، وقد يجد فيه المنتهي ضالته ويبلغ منه مُنيته ، ولقد نوه به مؤلفه في كثير من تآليفه وأحال عليه في كثير من المشكلات ، وكان المؤلف رحمه الله نوى أن يجمع فيه فنون الشريعة مع الاطناب فيما يتطلبه المقام وتحقيق الخلاف وبيان الأصل فيه ولكن القدر حال دون ذلك فانتهى في تأليفه الى كتاب الصلاة ولم يستكمل أبوابه وفصوله بل حتوى على أكثرها ، ولو تم هذا المؤلف لكان في بضعة مجلدات ، وفي مقدمة الكتب تحقيقا وتدقيقا ، ولما كان علم الشريعة من أهم أركان الثقافة الاسلامية ، وكان التفقه به على كل العلوم بعد أصول الدين - كان احياء تآليف الفقه من أجل الوسائل الى حفظ الشريعة وأهلها في أحيائها وابقاء الثقافة الاسلامية وازاحة الظلال عظيمة الشرور ، ومن الواجب أن يقبل المسلمون على نشر الكتب الدينية ، والمؤلفات الفقهية العلمية حتى لا تصير

مقدمة كتاب شامل الأصل والفرع

الكتاب الاول في الطهارات

الحمـــدُ لله . . . . . .

الكتاب الأول في الطهارات

وبعد ، فيقول الفقير إلى مولاه ، الحامد له على ما أولاه من النعم وأشار والحاج محمد بن الحاج : هذا ثاني تفسير على النيل ، يغسل عنه ما أبهم كالسيل بخلاف الأول فإنه طويل الذيل ، ولم يتم ، وكلاهما في صغر السن مخلص لو الجليل ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا أبيح لأحد أن يختصره أو ينتحل حاشية على النيل ، أو يشرح النيل به أو يدخل فيه بقوله : ومن غير وقوله : «رجع» ومن فعل ذلك لم يربح ، وأخاف عليه تعجيل العقاب ، و ألّفته لينتفع به الناس ويشتغلوا به في العبادة .

(الحمد لله) الحمد : الثناء على الجميل ، سواء تعلّق بالفضائل أم بالفوائد وبسطته في شرح اللامية وغيره كحاشيتي على أبي مسألة ، فإني قد ذكرت

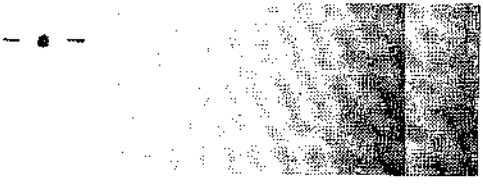

— • —

مقدمة كتاب شرح النيل وشفاء العليل 1

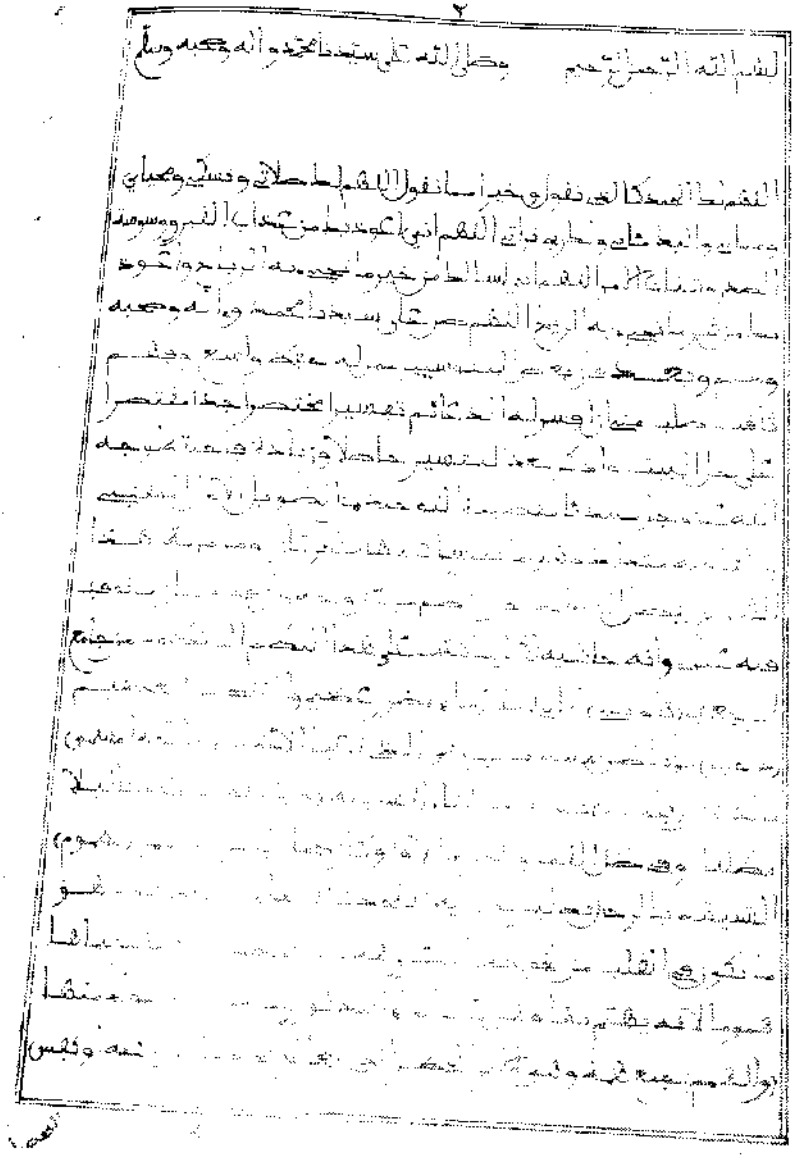

مقدمة كتاب شرح الدكايم1

الفهرس

كلمة مدير الجامعة أ.د. عبد الله بوخلخال 07
تقديم نائب مدير الجامعة أ.د إسماعيل سامعي 11
كلمة حفيد القطب: محمد محمد المحمد اطفيش 15
كلمة أحد أعلام غرداية : أ.د. ابراهيم بحاز 19
تحية القطب : قصيدة أ.د. مصطفى باجو 23

حياته

التعريف بالشيخ المحمد بن يوسف اطفيش
د. مصطفى وينتن 27
قطب الأئمة محمد بن يوسف اطفيش رحمه الله (1821-1914م)
لخضر لزرق 63
الشيخ المحمد بن يوسف اطفيّش في قلب المعركة
حاج المحمد حاج إبراهيم 99

دراسات في مؤلفاته

منهج قطب الأئمة الشيخ المحمد اطفيش في التأليف الأصولي
زهير باباواسماعيل 119
الداعية المصلح القطب الشيخ اطفيش وكتابه القيم: شامل الأصل والفرع
د. أحمد عيساوي..... 139
شرح كتاب النيل وشفاء العليل للإمام اطفيش
أ. د. سعاد سطحي 181
منهج الشيخ اطفيش في بناء الفروع على الأصول
أ. مصطفى رشوم .....

عرض وتحليل لكتاب "جامع الشمل في أحاديث خاتم الرسل" للعلامة اطفيش
د. سعاد بيطاط 221

قضايا الإصلاح والتجديد

فلسفة الأخلاق عند الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش
بابا واعمر خضير..... 235
الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش فقيها
أ. د. مصطفى باجو..... 255
المسألةُ الفنكيَّةُ عند قطبِ الأيِّمةِ
محمد بن قاسم حدبون..... 281

أدب الرحلة والمراسلات

مخاطبات ورسائل قطب الأئمة إلى سلاطين زنجبار في شرق إفريقيا
د. عبد الحق ميحي..... 303
التبادل الثقافي بين القطب والعُمَانيين من خلال مراسلاته
أ. مصطفى شريفي..... 317
أدب الرحلة عند القطب أطفيَّش – قراءة في رحلته الحجازية أنموذجًا –
أ. يحي بن بمون حاج امحمد..... 351
مقتطفات 391
ملحق المخطوطات والصور 399
الفهرس 446

تم الطبع بمطبعة دار الفجر للطباعة والنشر

ص.ب.89 الطريق الوطني رقم :05 عين اسمارة - قسنطينة 25010

الهاتف: 031.97.37.85 الفاكس 031.97.42.78

البريد الإلكتروني: E-mail. impdarelfadjr@yahoo.fr